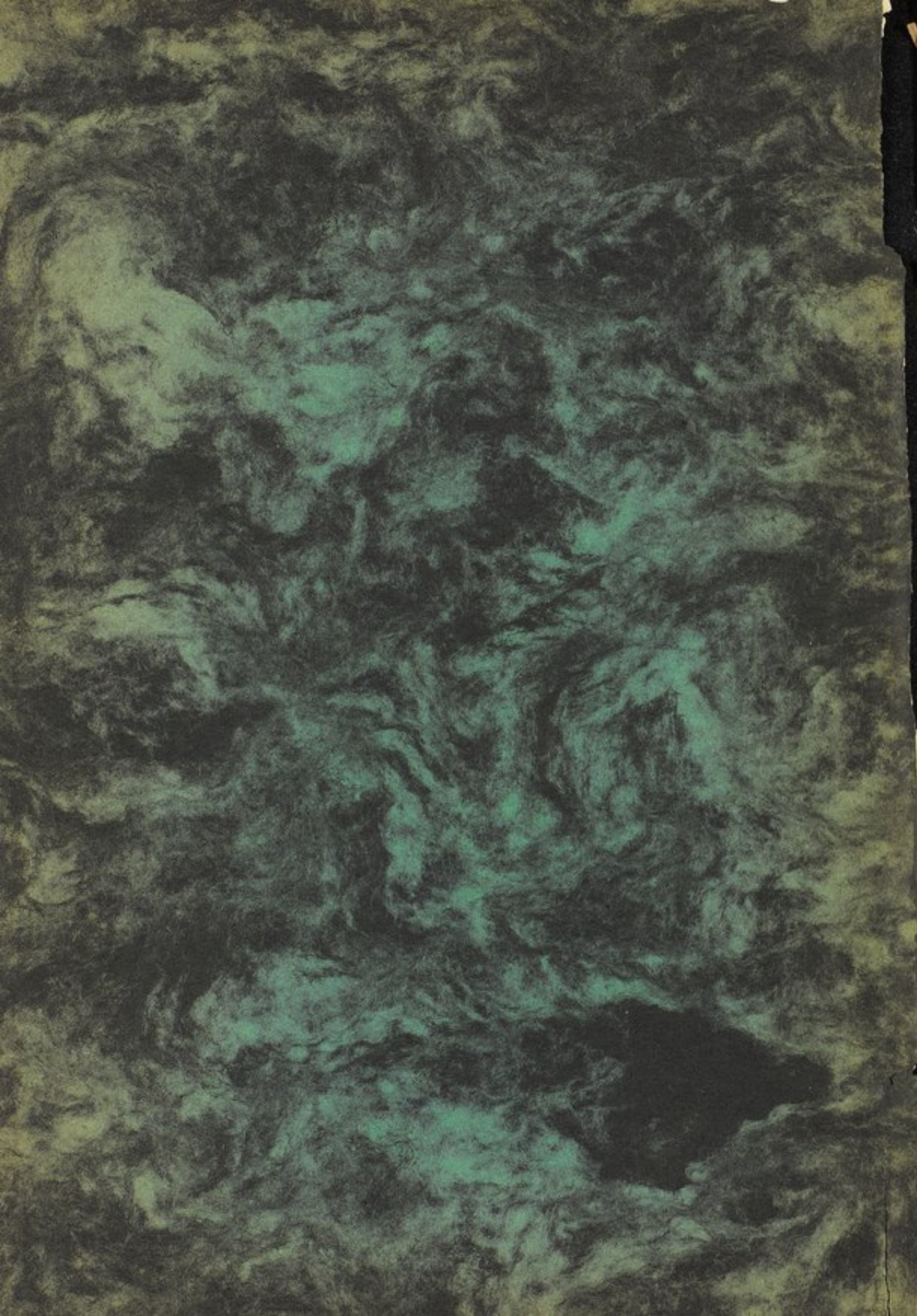




Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







دراسات تاريخية سودانية

معالم تاريخ السودان وادي النيل
(من القرن العاشر الى القرن التاسع عشر الميلادي)

بمقدم
الشايط بصيلى عبد الجليل

أمين مكتبة معهد الدراسات السودانية
كلية الآداب - جامعة القاهرة
(سابقاً بمهمة إدارة السودان)

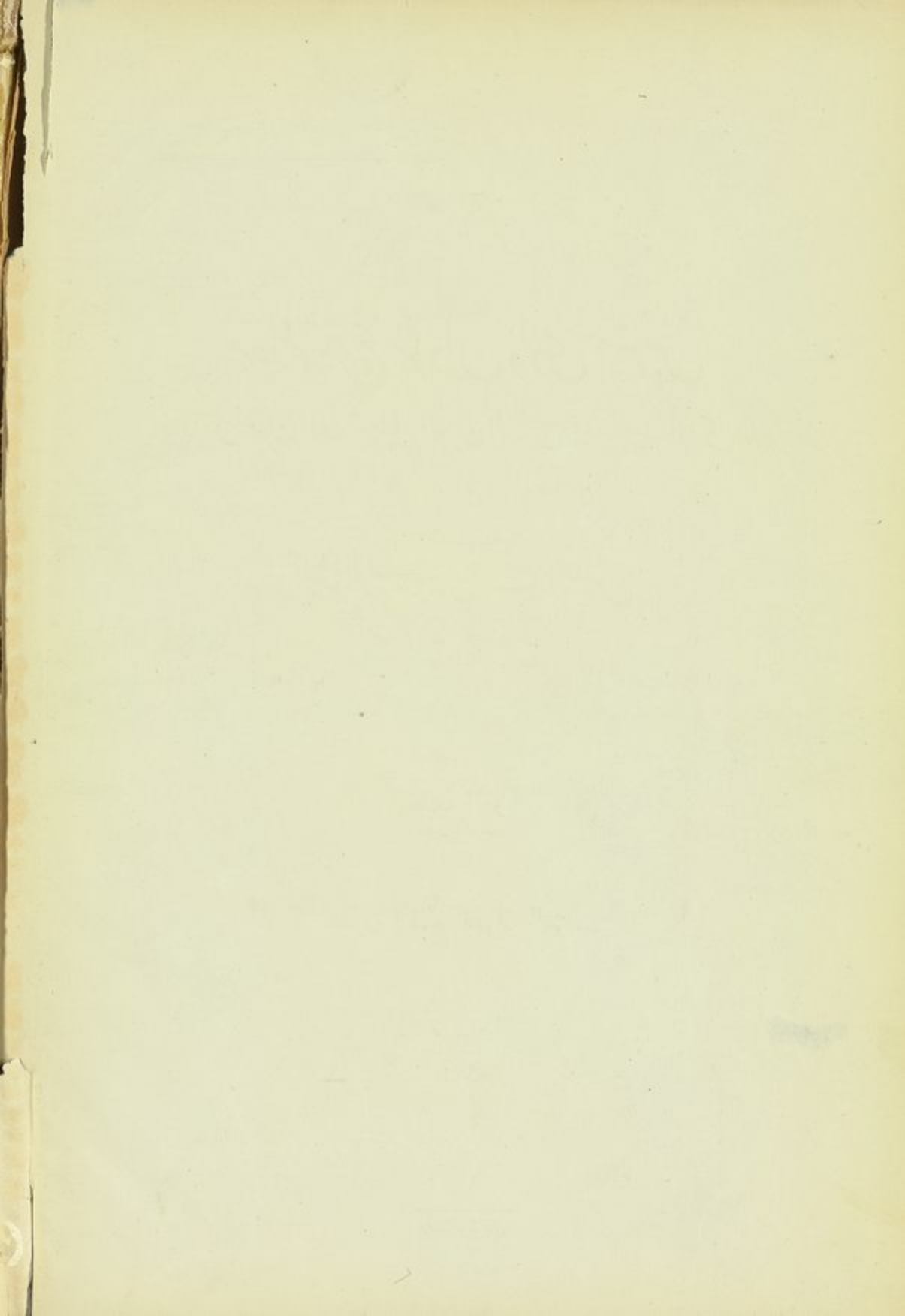
الطبعة الأولى

مفوق الطبع محفوظ للمؤلف

القاهرة

١٩٥٥

طبعة أبو فاضل



خريطة رقم ١
سودان وادي النيل

البحر الابيض المتوسط

القاهرة

القطر المصري

قناة

أسوان

وادي حلفا

أبو حمد

بو بره
عطبرة

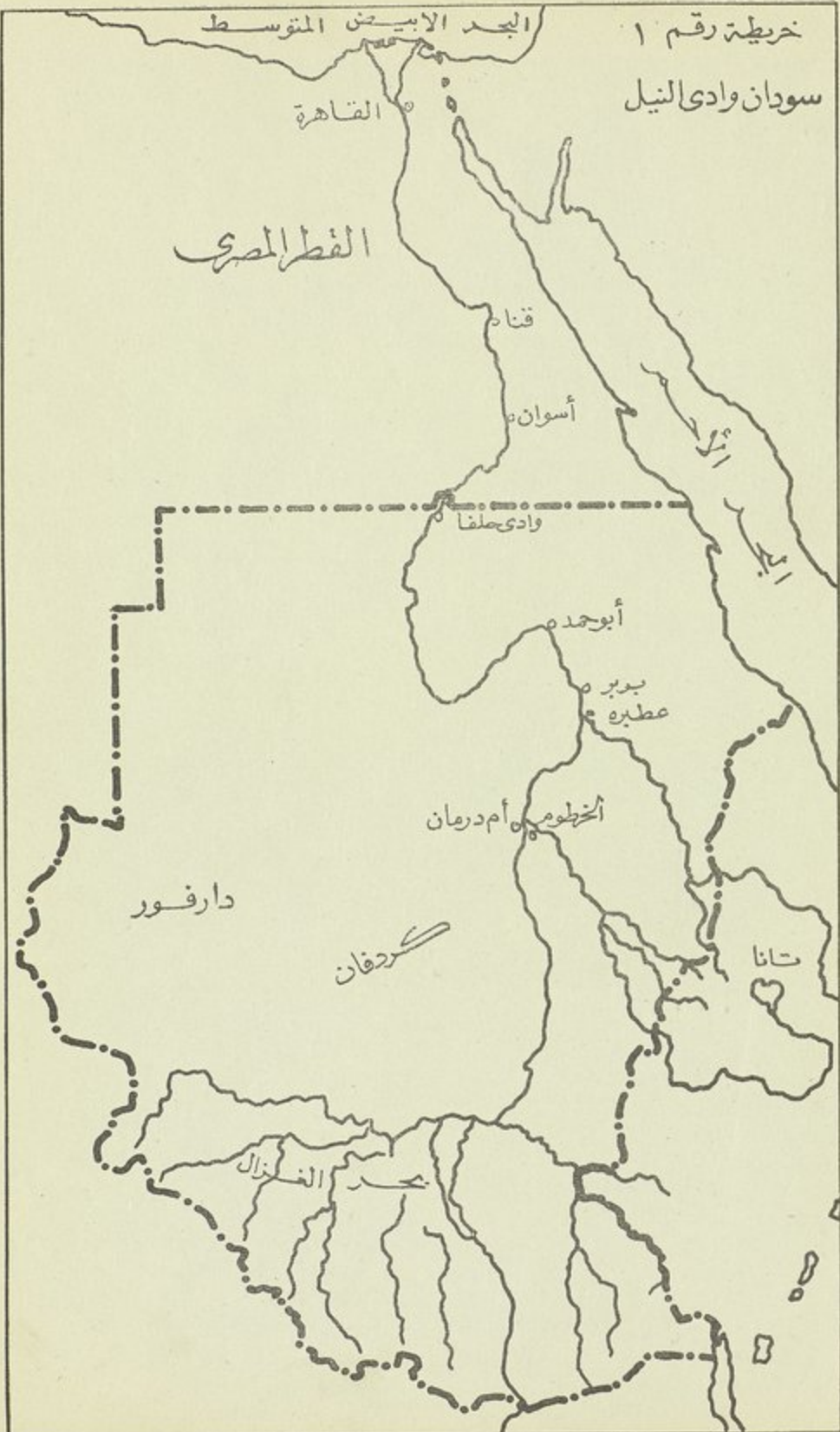
الخطومي أم درمان

دارفور

كردفان

شانا

بحر النزال



962.4

B96

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

للمعيد الاستاذ الكبير محمد شفيق غربال

هذه الكلمة ليست على سبيل التقديم . فلصاحب الكتاب - الاستاذ الشاطر بصيلي - من المسكنة في عالم البحوث التاريخية السودانية ما يغنيه عن أى تقديم . ولكننى أحببت أن أظهر ما تركته قراءة هذا الكتاب قبل طبعه في نفسى من أثر . فخرصت على أن أضع في أوله هذه الكلمة .

وقد اتجه الاستاذ بصيلي قبل قدومه لمصر بسنين الى العمل المخلص الصادق في تحقيق الكثير من مسائل التاريخ السودانى في مختلف العصور . ونعم ما فعل . فالبحوث السودانية في موقفها الراهن أكثر حاجة للتحقيق العلمى ونشر الوثائق التاريخية منها لآى نوع آخر من العمل العلمى . وأكثر عصور التاريخ السودانى حاجة للجهد هو بالضبط العصر ما بين القرون الخامس عشر والتاسع عشر أو ما يصح أن يسمى عصر الامارات والرياسات العربية الافريقية .

ولقد ظفرت العصور السابقة لتلك الفترة والعصور اللاحقة بها بعناية العلماء من أثريين وجغرافيين واثنوغرافيين فكشفت تلك العناية عن حياة الجماعات كشفاً كان من شأنه أن يلقى عليها ضوءاً وأن يقدم من متفرق احداثها رواية تاريخية متصلة الحقائق . ولكن الحال تختلف إذا انتقلنا للعصر الذى أشرنا اليه . ومن ثم فقد أسدى الاستاذ الشاطر بصيلي بكتابه هذا للدارسين يدا تذكر فتشكر .

وطريقة الاستاذ الشاطر بصيلي تقوم على أن يورد في المسألة شتى الآراء . ثم يعطى لكل رأى ماله وما عليه ويخلص من هذا الى الرأى الذى يرى . فهو اذن لا يورد شيئاً بلا دليل . وهو اذن لا يفرض على القارى شيئاً بعينه . بل هو يتيح له الا يقبل شيئاً إلا بعد اقتناع . على أن المؤلف

كان حريصاً في نفس الوقت على أن يكمل التحقيق بالرواية المتصلة فجاء الكتاب كتاباً بالمعنى الحقيقي .

وان كان لي أن أرجو لنفسي ولغيري من الدارسين تكملة يتولاها الأستاذ الشاطر بصيلى فهى أن يعالج على النحو الذى نحا دراسة الامارات العربية الافريقية في غير سودان وادى النيل . وهذا لانى أعتقد أن الدراسة المقارنة لتلك الامارات تعين كثيراً على فهم تكوينها وأنظمتها وثقافتها . على أن تكمل الدراسة المقارنة ببيان اتصال تلك الامارات بالعالم حولها وخصوصاً بمنابعا الغربية والافريقية . وأدعو الله فى الختام أن يمكن الأستاذ الشاطر بصيلى من المضى فيما هو فيه من خدمة العلم وأن يلقى من قومه فى شطرى الوادى ما هو خليق به من التشجيع والعون .

محمد سفيح غربال

معهد الدراسات السودانية

يوليه سنة ١٩٥٥

تعريف

لقد أتاحت لي السنوات الثلاث والثلاثون التي أمضيتها في سلك الادارة المدنية في السودان فرصة الانتقال بين ربوعه المختلفة ، والتعرف على مظاهر الحياة في صورتها الواقعية ، وكان من نصيبي أيضاً أن عاصرت مراحل تطور المجتمع في الفترة من نهاية الحرب الكبرى الأولى الى ما بعد نهاية الحرب العالمية الأخيرة ، وقد وجهت اهتمامي منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها البلاد الى دراسة تاريخه كما جاء في مختلف المراجع المطبوعة وتابعت قراءة ما جاء في الدوريات والنشرات وفي الصحف ، وقارنت بين ما ورد في هذه المطبوعات وبين ما تجمع لدى من روايات ووثائق خطية يحتفظ بها أهل البلد فوجدت ان الحاجة قوية ، وبخاصة بعد اضطراد التقدم في مظاهر الحياة اليومية الى تحقيق ما كتب عن تاريخ البلد ، وتفسير ما جاء في الكتب على ضوء حياة المجتمع ، ولهذا أتجه تفكيري منذ سنوات خلت الى محاولة سد هذه الثغرة ، وقد بدأت هذه المحاولة بكتابة جذاذات بما جاء في المطبوعات المختلفة ، ويوميات ومذكرات بما في المخطوطات المحلية ، وتصوير البعض ، وتفصيلات الاحاديث التي دارت مع الأهلين بصدد تاريخهم ، وقد وجدت من جميع من تحدثت إليهم أصدق المعونة والوفاء وبين هؤلاء الكثير من العلماء والفقهاء وأهل المعرفة ، وقد تجمعت لدى من العناصر ما ساعد على كتابة دراسة عن السلطة السنارية وأصول أسرتها ، التي شكلت موضوع جدل أكاديمي بين الباحثين من الأجانب ، وقد تم اعداد هذه الدراسة فعلا قبيل الحرب الأخيرة الا ان ظروفها القاسية قد حالت دون نشرها بعد أن وصلت الى المطبعة فعلا .

وحاولت بعد عودتي من السودان في عام ١٩٥١ م اعداد البحث لنشره في صورته التي تم عليها من قبل ، وعندما بدأت في اتخاذ الخطوات اللازمة لذلك ، وجدت أن تطور الاحداث في السودان تتطلب بادية ذي بدء دراسة تاريخية تحليلية لمتختلف مراحل تطور المجتمع في جنوب الوادي ، وما تركته تلك التطورات من انطباعات وانعكاسات ، لتعاون على تفسير مظاهر الحياة وتقريبها الى الأذهان في صورة أقرب الى الواقع ، وأن يتبع ذلك القيام بدراسات تفصيلية في مختلف نواحي النشاط ، لذا استقر الرأي على المطلب الاول لشدة الحاجة اليه في بناء السودان الجديد ، وقد توفرت على كتابته في العامين الماضيين ، خلال فترات الفراغ المحدودة

وانى لا أدعى أن الموضوع قد استكمل بحثه بل حاولت مخلصاً أن أبرز الصورة التي تجمعت لدى عناصرها عن الفترة من تاريخ السودان في القرن التاسع الى القرن التاسع عشر الميلادى، وقد تكون هذه الحقبة من الزمن طويلة وليس من اليسير معالجة معالمها في كتاب محدود الحجم، لكننا اذا أخذنا بعين الاعتبار الفارق النسبي بين حياة الفرد العادى التي لا تتجاوز عملياً الاربعين عاماً وبين حياة الأمم التي قد تتجاوز في مرحلتها الحضارية ما يقرب من الثمانية قرون نجد ان الفترة التي ضمها الكتاب - عشرة قرون تقريباً - ليست بالكبيرة نسبياً، وان ضرورة استكمال البحث تقتضى الرجوع الى مصادر مظاهر الحياة في الماضى البعيد والقريب ! فالحياة بالنسبة للمجتمع في حيويتهما تتفاعل ظواهرها المتتابعة الحلقات، وليس من السهل الوصول الى نتائج إيجابية دون ربطها بعضها ببعض وتحليلها والتعرف على سلوكها وما تركته من أثر في تكوين حالة حضارية تمثل السكم من هذه الظواهر، وقد تستنفذ كل ظاهرة منها عدداً من السنين يتفاوت في عدده بين العشرة والعشرين عاماً متمشية في ذلك مع تطور العلاقات مع الدول المعاصرة . فالاحداث الكبرى في جنوب الوادى (السودان) كمنشأة السلطنة السنارية وانهارها، وامتداد الادارة المصرية، والثورة المهديية لم تكن كل منها الانتاج تفاعل في ظواهر اجتماعية ترجع في مصادرهما الى أقدم العصور .

وكما أوضحنا من قبل فاننا قد بذلنا جهد المجتهد المتواضع لاخراج هذه الدراسة على الصورة التي تمكن من مواصلة البحث والتحقيق لسد ما قد يكون فاتنا ونرجو أن يتقبلها القارئ بالروح التي أملتها، وبالمساهمة في متابعة الدراسات ولا يسعنى إذ أتحمّل مسؤولية ما فى الكتاب إلا أن أتقدم بوافر الشكر والثناء عرفانا بالجميل الذى أسداه السادة الاساتذة واخوانى الكثيرين من تشجيع وعون كان له أثره فى إتمام البحث ونشره، وبما لا شك فيه ان هذا التشجيع وهذا العون موجه فى الحقيقة وواقع الامر الى السودان، كما يصور مدى الاهتمام بدراساته وتقدم المعرفة الخاصة به لسكى يتسنى تشييد أسسه ومقوماته على قواعد سليمة، وأخص بالذكر السادة الاستاذ الكبير محمد شفيق غربال الذى تفضل بتقديم البحث، ودكتور محمد عوض محمد، دكتور سليم حسن، دكتور سليمان حزين، دكتور محمد متولى، محمد احمد حسونه، و ا. ج. آركل، ودكتور محمد محمود الصياد، والاستاذ صالح خليل وريتشارد هل، ودكتور جورجى صبحى، والاستاذ عبد الفتاح حسن والاستاذ عبد الفتاح ابراهيم والاستاذ احمد عبد السلام كفانى، ودكتور محمد أحمد أنيس

دكتور عبد المجيد عابدين والسيد ابراهيم رياض المحامى والسادة عبد العزيز اسماعيل
واحمد عيسى وبدر الديب ، لاهتمامهم بالبحث وتشجيعهم على اتمامه ودكتور محمد
فؤاد شكرى لتوجيهاته ونصائحه التى كان لها اطيب الاثر فى اعداد البحث ودكتور
حسن عثمان للتشجيع والعون وكذا فضيلة الشيخ يوسف بقوى ، والسادة محمد كامل
ودكتور فردريك سايزاك ، محمد المعتصم سيد ، ومحمد عبد الرحيم ، وسيد مدنى
يحيى ، وحاج الشيخ عمر دفع الله ، واحمد محمد صالح الزاهد ، عبد الغنى سعودى ،
صلاح الدين الشامى وعمر محمد علي ومحمد احمد الجابرى ، والآنسة ماريون لا بورده ،
واحمد محمد سلامه ، وعبد الرحمن الفيصل الشاطر ، ويوسف الامين أحيمر ،
والمهندس المرحوم طه صالح والمرحوم الاستاذ محمد صلاح الدين الباقر ،
والى جميع من تفضلوا باسداء المعونة .

كما أقدم جزيل الشكر على المعونة الصادقة التى قدمها السيد أنيس أبو فاضل
صاحب مطبعة أبو فاضل ، وللسادة أعضاء أسرة مطبعته .

وأعتذر للقارئ الكريم عما قد يكون فى الكتاب من أخطاء مطبعية لم أنتبه اليها
عند مراجعتى الأصول .

الشاطر بصبلى عمير الجليل

مقدمة

يحتاز السودان اليوم مرحلة دقيقة فاصلة من مراحل حياته ويضطرب حاضره بوراثات عميقة غائرة في تاريخه قرونا طويلة ، وهي نتاج دورات متتابعة من الاستقرار حيناً والقلق والمكائد والفتن حيناً آخر . ومن الأصول العريضة التي تبني عليها النهضة السودانية الحديثة ، معرفة تاريخ السودان ، ودراسته دراسة موضوعية تطويرية في شتى نواحي النشاط الانساني ، وهذه الدراسة تساعدنا كثيراً على تفسير الحاضر ، فاذا ما اجتمعت بين أيدينا ، معرفة ماضينا وحاضرنا ، سهل علينا أن نضع الخطوط الرئيسية لإرساء قواعد سليمة لمستقبل السودان ، دون أن تتعجل الأحداث أو ننحرف عن القصد أو نياس من العلاج ، الذي قد يقتضى جهود أجيال متتابعة يعمل كل منها على إتمام عمل سابقه . ولا بد إذن من جهود علمية مضنية ، يقوم بأعبائها نفر من أبناء الوادي ، يهبون أنفسهم للحق ، فيتبعون مظاهر المرض ثم ينفذون إلى أسبابه .

وللسودان مركز خطير في أرض العروبة والاسلام ، فهو موطن لعدد كبير من القبائل ، التي ترجع بأصولها إلى مهد الدعوة الاسلامية ، وهو معبر للهجرات الدينية والتجارية ، بين أقصى أركان القارة الأفريقية ، وبلاد الشرق بعامة وأرض الحجاز بخاصة . وقد اختلطت القبائل التي هبطت أرض السودان واندجت بدرجات متفاوتة ولا تتم دراسة تاريخه إلا إذا رجعنا إلى تطورات الأحداث في الأقطار المجاورة التي كان لها أثر فعال في السودان .

وللسودان أيضاً منزله في الاقتصاد الأفريقي ، بحكم مركزه كمعبر قلب القارة الأفريقية ، التي يحاول الاستعمار الأوربي أن يقيم فيها امبراطوريته الثالثة ، ويود الاستعمار أن يجعل من السودان دويلات تتربص لبعضها الدوائر . ولاشك في أن مستقبل أفريقيا وثيق الاتصال بمستقبل السودان ، وقدرته على الافادة من امكانيته الضخمة ، وتحريره لاقتصاده القومي ، من التيارات التي انحرفت به إلى أهداف جانبية ، ولا يتم لنا ذلك إلا إذا استطعنا توجيه المشاعر القومية ، في عمل دائم نحو هدف يعمل الجميع للوصول إلى تحقيقه . ففي طريق تحقيق هذا الهدف تذوب الفوارق ،

وتحل محلها روابط تزداد تماسكا وقوة من يوم إلى يوم ، ومن جيل إلى جيل في ظل حياة ، متكاملة الأركان واضحة المعاني سليمة الوسائل .

والكتاب الذى نقدم له ، يعطينا صورة للعالم الرئيسية لتاريخ السودان الشمالى من بدء ظهور الدعوة الاسلامية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، وما كان للمجتمع من أثر فى الهجرات ونشأة الدويلات العربية الاسلامية ، وتطور نظمها من إقطاعية مطلقة إلى إقطاعيات قبلية ، ثم قيام الحلف السنارى ، فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ، الذى قام على أساس « الجمهورية التجارية » ثم أخذت تتسرب إلى ذلك النظام تقاليد وعقائد موروثه ، لم يكن من السهل على المجتمع التخلي عنها ، لآكثر من سبب . كما اهتم الكتاب ببيان أثر الدعوة الاسلامية ، فى السودان وصراع المجتمع الحفى ، وهو الصراع الذى نشب بين الحضارتين المحلية والتي جاءت بها الدعوة الاسلامية .

وبينا نجد أن الذى كتب عن السودان ، فى مختلف نواحي نشاطه ، كثير وكثير جداً لا يحصره العد ، فإن المصادر الأولية لتاريخ السودان الاسلامى بالذات قليلة جداً ، وما وجد منها تضارب رواياته ، ولهذا اختلط الأمر على بعض الكتاب ، فوقع منهم من وقع فى خطأ مقصود أو غير مقصود ، بسبب غموض العبارات الواردة فى تلك الروايات ، الأمر الذى جعل أولئك الكتاب ، يحاولون تفسيرها فى الصور التى بنيت عليها دارساتهم ، وبرزت فى كتابتهم . وبالإضافة الى ذلك حاول هؤلاء الكتاب اعتبار التطورات المحلية كوحدة قائمة بذاتها والحقيقة كما أوضحناها فى البحث أن الأحداث المحلية كانت نتاج تفاعل مشتركة عناصره منها ما هو محلى وما هو من الأقطار المجاورة بخاصة مصر وأثيوبيا . ولذلك فقد جعلنا المنهج الذى التزمناه فى معالجة موضوع هذا الكتاب ، يقوم أساساً على تصوير المجتمع وتحليله من الناحيتين الموضوعية والتصورية ، لأن هذين العنصرين مرتبطان ارتباطاً يساعد على تفسير صحيح للأحداث الواقعية . واعتمدنا فى هذه الدراسة كثيراً على روايات ووثائق محلية ، نشرها لأول مرة وقد أمدتنا بمعلومات تلقى ضوءاً على الكثير من التطورات والتنظيمات الخاصة بجهاز الحكم . كما أن هذه الوثائق قد ساعدت على تحقيق أصل البيت السنارى وهو الأمر الذى اختلفت فيه الآراء ، وبقي مشكلة معلقة كما ذكر كروفورد فى كتابه « مملكة الفونج السنارية^(١) » . بل اقترح كروفورد فى كتابه ،

اجراء بحوث اركبولوجية في منطقة الفونج ، للوصول الى حل لهذه المشكلة ، ولكننا استطعنا بفضل ما وصل اليها من روايات من شرق السودان ووثائق خطية مبهورة بحتم أحد السلاطين ، أن تقيم الحجة على أن هذه الأسرة قد انتقلت من جنوب غرب ارتيريا ، وهي المنطقة التي يبدو أنها قد مارست الحكم فيها الفترة من الزمن وقد ساعدنا على التحقق من الفترة السابقة لانتقالهم الى حوض النيل الأزرق ، ما كتبه الرحالة داود روييني ، وما كشف عنه روسيني من آثار « مقابر الفونج ، والكثيرة المنتشرة في منطقة حوض بركة والمناطق المجاورة .

وكشفت الروايات والوثائق ، التي اعتمدنا عليها عن وجود بعض سلاطين ، تولوا الحكم في سنار ، ولم ترد اسمائهم في المخطوطات المتداولة .

وكثيراً ما اعتمدنا على التقاليد والعادات المتبعة في اختيار السلاطين وتنصيبهم ولاية الملك . وما يتبع في ولاية المشايخ للشيوخه والمناجلية ، وبمقارنة ذلك بتقاليد الاقطار المجاورة يتبين في وضوح التيارات ، التي اثرت في تقاليد السلطنة ، والتي هي نتاج الطابع الديني ، المتغلغل في بناء المجتمع السوداني الذي احتفظ بذلك الطابع ، في صور تكيفت بالظروف القائمة من وثنية ومسيحية واسلامية ، وما زالت بعض اثارها ملبوسة حتى اليوم .

وينتهى موضوع البحث بالكتاب الثالث الخاص بامتداد الادارة المصرية الى السودان ، وظروف ذلك الامتداد ، وما أدخله من تعديلات على نظم الحكم ، وما كان لذلك من أثر في حياة المجتمع المحلي ، ولم يكن من السهل على المجتمع أن يتخلى عن تقاليده وعاداته الموروثة ، الأمر الذي جعل الادارة المصرية تصطدم بتلك التقاليد ، وتدخل معها في صراع خفي ، وكانت هذه أولى تجاربها القاسية ، وقد حاولت مصر ارساء قواعد الحكم ، بما يتمشى مع حالة البلاد الواقعية ، وذلك بالمراسيم التي أصدرها سعيد باشا خلال زيارته للسودان في ١٨٥٧م ، وكانت هذه المراسيم نتاج ما اكتسبته مصر خلال ما يقرب من الأربعين عاما الأولى ، من امتداد الادارة المصرية ، غير أن الوقت الذي صدرت فيه تلك المراسيم قد جاء متأخراً ، حيث اشتد الضغط الأوربي على مصر في مسألة ابطال الرقيق ، وكان من نتيجته الاستعانة بالأوروبيين الذين اسندت اليهم مناصب ذات مسئولية من الدرجة الأولى في إدارة البلاد ، وقد عمل هؤلاء على تقويض الجهاز الادارى وافساده بادخال عناصر ضعيفة . واخذت بعد ذلك الاحداث في مصر تتطور في

سرعة فائقة ، واشتد التنكيل في السودان على يد الأوروبيين لتنفيذ أبطال الرقيق ،
بوسائل عنيفة وصارمة ، أحدثت فجوة عميقة الغور في المجتمع السوداني ، تعطلت
معها أسس الاقتصاد القومي ، التي أسهم فيها الرقيق بنصيب وافر .

وقامت في مصر ثورة عرابي التي استغلها دهاقنة تمرسوا بتمزيق الشعوب
وتحطيم قيمها واتلاف نفوسها وعقائدها ، فجاءت الجيوش البريطانية الى مصر ،
لفشل الحركة الوطنية ومساندة الخديو ، وهي في الحقيقة وواقع الأمر تستخدم الطرفين
المتخاصمين لمصلحتها للسيطرة على وادي النيل .

وفي السودان أخذت الدعوة المهدية ، مظهرها السافر وحاول عبد القادر باشا
حلي معالجة الموقف ، بالطريقة التي تناسب مع الوضع المحلي ، ولم تمهله السيطرة
البريطانية من اتمام خطته ، فكان استدعاؤه وتعيين هكس تنفيذياً للنصيحة البريطانية ،
كما كشفت عن ذلك الوثائق ، وسيطر هكس بدوره على الموقف في السودان ووجهه
لخدمة مصلحة بلاده ، لتهيئة الفرص المناسبة للانفراد بالسودان ، وابعاد الإدارة
المصرية ، وبدأ الصراع بين الدول الاستعمارية ، وقد تعرضنا في هذا البحث لمختلف
المراحل والوسائل التي تدرعت بها تلك الدول للتدخل في حوض النيل ، والتي برزت
في صورة معاهدات واتفاقات ، وهدفنا من هذا العرض المتتابع ، ربط الحلقات
بعضها ببعض للوصول الى نتائج ، واضحة المعالم تبين لنا الاهداف ، التي رسمتها
الدول الاستعمارية .

ومما لاشك فيه أن صاحب الرسالة المهدية ، كان يهدف ، أولاً وقبل كل شيء ،
الى الدعوة الى اصلاح ماقد كان في نظره مغايراً للطريق القويم ، إلا أن سرعة تطور
الاحداث ، في الداخل وملاساتها في الخارج ، قد انتقلت بالدعوة التي بدأت كظاهرة
اجتماعية تجاوبت مع الشعب ، فتشكلت بالمظهر الديني العنيف ، مخالفة في ذلك
ماعدناه ، في مثيلاتها في الفترة التي سبقت امتداد الإدارة المصرية الى جنوب الوادي ،
وهذه الظاهرة بعيدة العمق متأثرة بحالة المجتمع ، وتتطلب هذه الظاهرة دراسة
أكثر توسعاً وعمقاً وذلك بمقارنتها مع الحركات الدينية المماثلة التي قامت في شمال
أفريقيا وفي الجزيرة العربية وغيرها ، وذلك في القرن التاسع عشر الميلادي ، وقد
تميزت الدعوة المهدية السودانية بطابعها المحلي الخاص . وسوف يكون لهذه الدراسة
خطرها في توضيح مواضع الضعف ، التي أفاد منها المستعمرون ، في صورة او اخرى
لوصول الى اهدافهم .

وتتمهى دراسة هذا الكتاب ، بعرض تطور الصراع الاستعماري بين الدول الكبرى ، وانتقال ميدانه الى حوض النيل الاعلى وأثيوبيا ، وذلك في السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي .

ولا يفوتنا أن نذكر أننا لم نتعرض في صورة تفصيلية ، لهجرات القبائل وترحالها من دار الى أخرى ، بل اكتفينا بدراسة عامة تتناسب مع موضوع الكتاب ، وأملنا كبير في أن يتوفر نفر من أبناء الوادي ، للاهتمام بهذه المسألة اهتماما اقليميا لغويا وتتصل جهودهم ، حتى يتضح الماضي الذي به نستطيع فهم الحاضر وبناء المستقبل . ونرجو أن يعنى الباحثون بدراسة المرأة السودانية ، وان تحظى بالناية اللائقة بالدور الذي لعبته في حياة المجتمع ، فقد اسهمت بنصيب وافر في النشاط اليومي الخاص والعام ، وكانت مصدر قوة محرركة خطيرة لها نفوذها وسيطرتها ، الامر الذي تميزت به عن اخواتها في الكثير من دار الاسلام .

ولاشك في أن أبناء الوادي اقدر على فهم مشاكه على وجهها الصحيح ، والله الموفق الى طريق السداد .

منشية البكري

١٠ ب٠ ع

القاهرة في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٥٤

فصول البحث

١ - تقديم السيد الأستاذ الكبير محمد شفيق غربال

٢ - تعريف

٣ - مقدمة البحث

الكتاب الأول : السلطنة السنارية في موطنها الأول

تمهيد : الوضع الاقليمي ، تعريف اقليمي ، السكان ، الاسلام ووادى النيل الأوسط ، تطور العلاقات بين البيت السليمانى والمسلمين ، تطور الصراع وأثره في السودان ، الوطن الأول للأسرة السنارية ، هجرة السلطنة إلى موطنها الجديد . توزيع السكان في حوض النيل الأوسط السكان المشتغلون بالزراعة والتجارة في السودان ، مناطق الرعى والزراعة البدائية . تطور المجتمع السياسى ، المجتمع ، بنيته ، حياته ، مظاهر نشاطه الاجتماعى نظام الحكم والاقطاع ، التنظيمات الاقتصادية .

ص ١ - ٦٧

الكتاب الثانى : السلطنة في حوض النيل الأزرق

عرض - الحلف السنارى ، زعامة سنار ، تنظيمات الحكم - الجمهورية التجارية . ازدهارها ، حروبها ، تدهورها ، انتقال السلطة لوزارة الحمق ، الترتيب الزمنى لولاية الحكم ، التنظيمات الادارية والاجتماعية وتقاليد ولاية الحكم ، طقوس وتقاليد انتقال ولاية الحكم ، مراسيم تقليد المشيخة ، مراسيم الاستقبال عند السلاطين ، مراسيم تقليد الخلافة الدينية ، مراسيم الاستقبال عند الزعيم المحلى ، تقاليد الاستقبال عند الفقهاء .

ص ٧٠ - ١٢٣

الكتاب الثالث : من امتداد الادارة المصرية إلى السودان إلى نهاية القرن

التاسع عشر . السلطنة في سنواتها الأخيرة . الملك نمر والغدر باسما عيل بن محمد على . تنظيمات الادارة الجديدة . التنظيمات الضريبية ، الاعفاءات الضريبية ، التنظيمات الادارية اداة الحكم ومشكلاتها ، مشكلة الرقيق ، أصول النخاسة في العصر الحديث ، تطور مسألة الرقيق ، الرقيق في دار الاسلام الرقيق وسيلة للضغط

السياسى ، الرقيق فى الدعاية المغرضة ، دخول مسألة الرقيق فى المعاهدات ، معاهدات الرقيق . لكسب حقوق النشاط البريطانى وحملة هكس . التمهيد لسياسة الاخلاء ، تنفيذ سياسة الاخلاء ، فشل سياسة الاخلاء اخفاق حملة انقاذ غوردون . فوضى تنفيذ معاهدة الرقيق . مقاليد الادارة فى يد الاوروبيين .

المهدية : الدعوة المهدية وظروفها . الامام المهدي ترجمة حياته مركز السودان فى الصراع الدولى فى حوض وادى النيل . تمهيد ، تطور الصراع بين الدول ، القواعد التى بدأ منها زحف الاستعمار ، المنطقة الشمالية حوض النيل الادنى والاوسط ، المنطقة الشرقية ، اتيوبيا والقرن الافريقى — كينيا ، أوغندا ، شرق أفريقيا . المنطقة الغربية غرب أفريقيا الفرنسية ، الكونغو الحرة — البلجيكية فيما بعده تجمع الزوبعة فى فاشودة ، خروج الفرنسيين — الاتفاق الودى بين الدولتين سنة ١٩٠٤ م . ص ١٢٥ — ٢٤٨

الملاحق :

٢٥١ — ٢٥٣	ص	الملحق الاول — مخطوطة الشيخ أبو دلق
٢٥٤ — ٢٥٥		الملحق الثانى — وثيقة عن حفريات روسينى
٢٥٦ — ٢٦٠		الملحق الثالث — تاريخ مدينة أريجى
٢٦١ — ٢٦٢		الملحق الرابع — خطاب السلطان عدلان بن محمد
٢٦٣ — ٢٦٦		الملحق الخامس — التقسيمات الزراعية والمعاملات
٢٦٧ — ٢٦٨	{	الملحق السادس — خطاب الوزير محمد ابن الوزير الشيخ عدلان إلى الشيخ الفرضى
٢٦٩ — ٢٧١		الملحق السابع — خطاب السلطان محمد بادي عجيب
٢٧٢ — ٢٨٢		الملحق الثامن — وثائق احمد ممتاز باشا
٢٨٣ — ٢٨٥		الملحق التاسع — خطاب هنرى ستانلى

فهرست الخرائط :

رقم	صفحة
١	خريطة لسودان وادى النيل
٢	المناطق الاقليمية كما يعرفها أهل البلاد
٣	السلطنات الاسلامية فى اثيوبيا فى القرن الثالث عشر الميلادى
٤	الدويلات الاسلامية فى اثيوبيا فى القرن السابع عشر الميلادى
٥	خريطة الديار القبلىة التى تكون منها الحلف السنارى
٦	خريطة موقعة الزكيات (التمكنة)
٧	الصراع الدولى فى حوض النيل الأعلى فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى .

فهرست الصور :

١٢٣	الطاقية أم قرين
١٢٨	الملك نصر الدين ابو حجل
١٢٨	الامير أبو مدين
١٣١	الملك نمر

فهرست الوثائق المصورة :

٢٦١	كتاب السلطان عدلان بن محمد
٢٦١	كتاب سلطان الفور محمد الفضل
٢٦٧	كتاب الوزير محمد ابن الوزير الشيخ عدلان
٢٦٩	كتاب السلطان محمد بادى عجيب
٢٨٣	كتاب هنرى استافلى
٢٩٥ - ٣٠٨	مصادر البحث
١٧-X	مقدمة بالانجليزية

« تصويب »

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
١٥	٤	تطور	تطور
١٦	٢٥	قوات	قوات
١٨	٢٧	نيقارلس	نيكولس
٢٤	١٠	درافور	دارفور
٢٥	٢	هذف	هذا
	١١	اريجي	اريجي
	١٤	الوادي	الرأى
	٢٦		يضاف الى هامش ٦٢ (انظر للملحق الثالث)
٢٩	١٩		تضاف « ٧٩ » في آخر السطر
٤٠	٢٦	خريطة نمرة ٥	خريطة نمرة ١
٤٦	٨	شمعون	شمعون
	١١	تاريخ العرب	تاريخ العرب
٤٧	٢٥	كرئيس	كرئيس
٥٦	١٠	حزكه	حزكه
٨٥		هامش « ٣٣ » ملحقين نمرة ٧ و ٨	ملحقين ٤ و ٧
٨٧	٢١	الذهبية	المذهبية
١١١	٢	الوعي	الرعي
١١٢	١٩	سجاته	سجاده
١١٦	٥	الرب	الغرب
	١٧	تقلب	تلقب
١٧٢	١٤	جورج سنيترز	ادوارد سنيترز
٢٢٣	١٤	ارتباط	ارتباط

الكتاب الأول

السلطنة السنارية

في

مواطنها الأول

تمهيد

١ - الوضع الإقليمي :

بلاد السودان (١) ، أو «سودان وادي النيل» على وجه التحقيق والتحديد ، يحتل في حدوده الادارية ما يقرب من ألف ألف من الاميال المربعة ، وهو في ذلك يعادل مجموع مساحة ثمان دول أوربية هي : السويد ، النرويج ، الدانمرك ، الجزر البريطانية ، إيطاليا ، اسبانيا ، فرنسا والبرتغال . وتبلغ المسافة بين أبعد نقطتين بين حدوده ما يقرب من الاربعمائة والالف من الاميال طولاً ، وما يقرب من المائتين والالف من الاميال عرضاً . وتبدأ حدوده الجنوبية من شمال خط الاستواء ، وتنتهي في الشمال عند منطقة وادي حلفا . وتقع على حدوده الجنوبية ، أوغندا والسكنغو البلجيكي ، وشرقاً أتوبيا والارتيريا ، والبحر الاحمر . وغرباً أفريقيا الاستوائية الفرنسية وليبيا . وشمالاً القطر المصري ، الذي يسكون الشطر الشمالى لوادي النيل . ويجرى النهر مخترقاً مناطق متباينة . وكان من نتيجة هذا التباين تكوين مجموعات من السكان ، خضعت كل منها وتكيفت حياتها بما تتطلبه البيئة الخاصة بكل منها . ويقسم السودان بين أهله إلى قطاعات ، لكل منها مميزاتها الخاصة وهذه القطاعات هي : -

(١) « دار صباح » (مشرق الشمس) وتشمل البحر الاحمر ومنطقة البطانة وتنتهى جنوباً عند حوض نهر الوهد والدندر .

(٢) « الصعيد » وتشمل المنطقة الواقعة جنوب شرق الخرطوم (حوض النيل الازرق) والجزء الشرقى من النيل الابيض شمالى كوستى .

(٣) « الجنوب » ويشمل البلاد الواقعة جنوبى بلدة كوستى على النيل الابيض ويكون القسم الاول من هذه المنطقة ، وهو « كوستى حتى الملكال » على طول النيل الابيض - الممر أو المدخل إلى الجنوب الرئيسى ، الذى يشمل حوض بحر الغزال والروافد التى تصب في مجرى النيل في تلك المنطقة .

(٤) « دار غرب » (مغرب الشمس) وتشمل ثلاث مناطق ، أولاها

(١) هذا الاسم يشمل أصلاً البلاد من ساحل البحر الأحمر وأتوبيا شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً . وعرف به القسم المسكون لجنوب وادي النيل في الفترة الحديثة كما عرف السودان الغربى بالسودان الفرنسى . وكلمة السودان التى يقصد بها بلاد السودان كلمة غير واضحة الحدود .

« كردفان ، وثانيتها دارفور ، وثالثتها جبال تقلى والداير وغيرها من مجموعة جبال النوبا ، وتعرف محلياً بالجبال .

(٥) « السافل ، وتشمل جميع المناطق الممتدة على جانبي النيل شمال الخرطوم إلى وادى حلفا .

وتسكن هذه المناطق بمجموعات من القبائل والبطون عرفت مواطنها باسم القبيلة الكبرى صاحبة النفوذ والنفوق مثل دار الشايقية ، دار المحس ، دار الميرفاب ، دار جعل (٢) ، البشا (البجه) الشكرية ، وغير ذلك مما سنتعرض له تفصيلاً في موضعه من هذه الدراسة .

وإذا رجعنا إلى خريطة عامة عليها أفريقيا ، شمال خط الاستواء ومعها ذلك الجزء من آسيا غربي صحراء غوبي والخليج الفارسي وحوض الدجلة والفرات كندا حوض البحر الأبيض المتوسط ، فانه يتبين لنا حوض النيل في شطريه الشمالي والجنوبي (مصر والسودان) ويربض عن يمينه حوض البحر الأحمر . الأمر الذي ازدادت معه أهمية حوض وادى النيل من الناحية الاستراتيجية العامة . فوادى النيل حلقة متصلة بموارد المياه ومواطن الخصب في القارة الافريقية . ويربط البحر الأحمر بين المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط ، الذي يخرج إلى المحيط الأطلسي ، وبعبارة أخرى فأن حوض النيل يحتل مركزاً يلتقي عنده الشرق والغرب ، في تجارته كما انه مفتاح القارة الافريقية . وكان طبيعياً أن تربط بين شطري الوادى مصلحة مشتركة لذات حوض النيل ، وهما الحارسان على هذا المدخل الطبيعي ، وإذا رجعنا إلى هجرات المجموعات البشرية ، في داخلية المنطقة بين صحراء غوبي والمحيط الأطلسي شمالى خط الاستواء ومنها من دخل أفريقيا ، أو خرج منها سواء كان ذلك عن طريق القرن الأفريقي (بوغاز باب المندب وما حواليه) ، أو عبر البحر الأحمر ، أو عن طريق برزخ السويس ، فاننا نجد الكثير من المجموعات ، التي تكونت منها الهجرات ، قد حطت رحالها في حوض وادى النيل ، وفيه بقيت لفترات من الزمن تفاوت أجلها بالقدر الذي كانت تمليه الظروف المحلية ، ولا نريد ونحن في هذا المقام أن نتعرض

(٢) الجعليون - الذين تقول نسبتهم انهم ينتمون إلى ابراهيم الجعل - فقد تكون هنالك جماعات تنسب إلى هذا العباسي وهذا لا يغير من الحقيقة الواقعة شيئاً ومن ان هذه المنطقة تسكنها جماعات تنتمي إلى أكثر من مجموعة ليس بينها رباط مع « ابراهيم الجعل - المقصود من نسبتهم شجرة الأنساب التي تحتفظ بها القبيلة .

إلى تفصيلات تلك الحجرات ، وما إلى ذلك من امتداد الحضارة والمدنية ، وفتح أسواق جديدة . وهذه المسألة الخاصة ، تتطلب بحثاً يقوم به اخصائى وحتى بعد تقدم المواصلات فى إفريقيا ، وفتح شواطئها المختلفة للتجارة الأوروبية ، فإن وادى النيل ما زالت له أهميته وخطورته الاستراتيجية فى أفريقيا ، فهو اليوم ملتقى المواصلات المختلفة والمستودع الذى تدخل عن طريقه المؤن والعتاد ، فى حالة الحرب التى تشمل منطقة البحر الأبيض المتوسط .

٢ - تعريف أقليمي :

١ - الأقليم :

عرفت بلاد السودان قديماً بأرض كوش ، وقد ورد هذا الاسم فى قراءات متعددة فى ألواح تل العمارنة ، (التى كتبت فى القرن السابع عشر قبل الميلاد) فقد ورد هذا الاسم فى تلك الألواح كاشو (Kasho) كاشا (Kasha) كاشا (Kashsha) كاسى (Kasi) كاشى (Kashshi) ، (٣) وقد وردت فى لوحة الملك عيزانه « نجاشى اتيوبيا ، كسو (Kasu) وفى اللغة المروية « فى س » أو « ق ص » ، وهذه أقرب فى نطقها إلى قصى وقد كتبت هذه الكلمة فى صور أخرى منها ، كرسا (Kersa) ، كرسى (Kersi) ، كرئينا الخ الخ (٤) . وقد حاول الكتاب القدامى ربط هذه الكلمة ب « كوش » من أحفاد نوح عليه السلام . وليست هذه إلا محاولة خاطئة ، لأنها تقوم على توزيع سكان الأرض بالنسبة إلى أبناء وأحفاد سيدنا نوح ، ولا يستند هذا التوزيع إلى أساس علمى . وإذا رجعنا إلى التوراة (٥) ، نجد ان كوش التى وردت فيه ، قد اقترنت مع « صور » فى موضع ، ودلت فى مواضع أخرى على مناطق بعيدة كل البعد عن المنطقة جنوبى الشلال الأول ، فهناك منطقة كيش (٦) فى العراق وعرفت بهذا الاسم فى صورة أو أخرى ، متأثرة باللهجات المحلية جماعات سكنت بابل

(٣) بدج ٣ ، جزء أول ، س - ٣ هومل س ٥٧٠

(٤) بورخارد س ٥٠١ ، ابن حوقل ، ٥٧

(٥) كوش الابن الأول لوالده حام - التكوين ، الاصحاح العاشر آية ٦ ، أشعيا اصحاح

عشرون ، آية ٤ وما بعدها . مزامير ، المزموور السابع والثمانون آية ٤

(٦) جواد على ، أول ، س ٣٠٦ وما بعدها - قام فيلد بدراسة هذه المنطقة وكتب عنها

أيضاً كبرس .

كما عرفت بها جماعات في اليمن قيس ، ومن الصعوبة يمكن تحديد العلاقات والصلات ، التي تربط بين هذه المجموعات ، التي قامت في أجزاء متباعدة في آسيا وأفريقيا ، وتحقيق هذه المسألة يتطلب دراسة منظمة .

وقد كان الكتاب من العرب ، أكثر تدقيقاً من الأغريق في تحديد المنطقة جنوبي الشلال الأول ، وتعريف مناطقها بأسمائها القريبة من الصحة ، ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام ان كوش أو « كاسو » الخ التي عرفت بها البلاد جنوبي الشلال الأول لم يكن إلا اسم القبيلة الأكثر قوة وعدداً والمعروف ان هذه القبيلة قد سكنت حوض النيل الأزرق و قبيلة « ديجون » (٧) في حوض نهر العظيرة - و قبيلة المقررة (الماكورة) قد سكنت منطقة دنقله ، و قبيلة نوب (النوبه) ، في المنطقة بين الشلالين الأول والثاني ، وقد شاركت هذه القبائل في مواطنها بعض الجماعات الصغيرة التي بلغ بعضها مرتبة من القوة والكثرة العددية ، الأمر الذي جعل تفوقه وانزاع النسمية للدار التي يقطنونها ، كما ان بعض هذه المجموعات الصغيرة ، قد اختفى بامتصاصه في البيئة المحلية الغالبة ، أو بالهجرة تحت ضغط الظروف المحلية .

٢ - السطارة :

وقد استطاعت هذه القبائل ، بعد هجرتها من شمال الوادي دفع السكان القدامى (٨) تدريجياً نحو الجنوب ، حتى شملت منطقة نفوذهم رقعة من الأرض من الشلال الأول ، حتى حوض النيل الأزرق ، ومن هنالك أخذت في الانتشار ، في شكل مروحة شرقاً وغرباً وجنوباً وشمال شرقى نحو اثيوبيا والبحر الأحمر . وحملت معها أسس الحضارة المصرية ، وتأثرت هذه القبائل بعض الشيء بالبيئة المحلية ، وذلك بدخول عادات وتقاليد محلية - انطبعت بالطابع الفرعوني .

وقامت في البلاد أكثر من زعامة ، في حدود المناطق الإقليمية التي يتكون منها الجزء الأوسط من حوض وادي النيل (السودان) ، وسيطرت على هذه الزعامات أسره اتخذت مدينة « نوب تا » عاصمة لها . وفي عهد هذه الأسرة هاجرت إلى

(٧) مكبكل تاريخ للعرب في السودان ص ١٧١ جزء أول .

(٨) أركل نبذة عن تاريخ السودان .

الجنوب جنود إسماتيك^(٩). البالغ عددهم حوالي الربع مليون ، وقد أقطعوا منطقة النيل الأزرق . وانتقل الحكم من نوب تا ، الى « مرو » في القرن الرابع قبل الميلاد ، بسبب امتداد النفوذ الروماني إلى مصر ومنها إلى شاطئ البحر الأحمر جنوبي سواكن للسيطرة على طرق القوافل والتجارة مع الشرق . واستمر الحكم في « مرو » حتى هجوم عيزانا ملك أثيوبيا ، على حوض نهر العظيرة وتخريب مملكة « مرو » في منتصف القرن الرابع الميلادي ، وقامت بعد ذلك بمملكة علوة^(١٠) ، وقوامها من المصريين أحفاد جنود إسماتيك .

وانتقلت البلاد من الوثنية المسيحية ، في صورة ما ، واحتفظت زعامتها بالطابع التجاري ، الذي تميزت به طوال الأحقاب الماضية ، واستمرت هذه الزعامة تمتثل من جيل إلى جيل ، حتى الحكم السناري ، ولا يفوتنا أن نذكر ان هذه الزعامة التجارية ، قد قامت في مختلف أطوارها في زاوية معينة . وهي نقل التجارة عن طريق الحصول على عمولة الوسيط ، أو الحصول على رسوم حماية التجارة في طرق القوافل الخ . ولم تكن هذه الزعامات ، في وقت من الأوقات بقيام صناعات محلية ، أو غلات للتصدير على صورة كبيرة - وبقيت المسيحية يتجاذبها المذاهب الملكاني واليعقوبي حتى ظهور رسالة الإسلام في وادي النيل ، وعند ذلك أخذت الأحوال في التطور التدريجي كما سنبينه فيما بعد .

٣ - الإسلام وادي النيل الأوسط :

جاء الإسلام إلى الجزء الأوسط ، من حوض وادي النيل (السودان) ، عن طريق مدخلين هامين أولهما وفق الترتيب التاريخي ، أثيوبيا ، وثانيهما شمال الوادي (مصر) . وجاءت عن طريق أثيوبيا جماعات قليلة العدد ، بينما عبرت مصر إلى السودان بمجموعات متلاحقة في أعداد وفيرة ، كما سنتعرض له فيما بعد . جاء الإسلام في السنوات القليلة التي تلت وصول الهجرات الإسلامية إلى أثيوبيا في عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام ، وما تبع ذلك من هجرات أخرى بسبب حروب الردة ، وغير ذلك من الدوافع . كما أن العرب قد دفعهم هجوم القراصنة في البحر الأحمر على تجارتهم وعلى الموانئ العربية ، إلى احتلال بعض المناطق الاستراتيجية على الجانب

(٩) الشاطر بصلي « النفوذ اليوناني في حوض النيل الأزرق ... الخ

(١٠) المصدر آف الذكر

الغربي للبحر الأحمر ، لحماية المصالح التجارية ، من عدوان سكان الجانب الأفريقي (١١) ومن هذه المحطات وغيرها ، التي امتدت على طول الشاطئ الأفريقي ، حتى بحر الزنج (١٢) ، أخذت الجماعات الإسلامية في التغلغل داخل البلاد ، في الهضبة الأثيوبية وحوض وادي النيل الأوسط ، كما تمكنوا (٣) من إنشاء ولايات إسلامية في نطاق الوطن الأثيوبي (١٤) .

وفي الوقت الذي أخذت فيه الجماعات الإسلامية ، في الانتشار على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر ، الذي عرفه العرب منذ أقدم العصور كان المسلمون قد دخلوا شمال الوادي (مصر) ، وأخذوا في العمل على امتداد نفوذهم نحو البلاد ، جنوبي الشلال الأول ، ومن الملاحظ أن تلك البلاد ، لم تكن في اعتبار المسلمين أرض جهاد ، بوصفها من بلاد الحبشة ، التي وجدت فيها أولى الهجرات الإسلامية ، خير رعاية من النجاشي (١٥) وبهذا السبب تأثر مسلك المسلمين في تلك المنطقة الشرقية من السودان ، وكان لذلك المسلك طابعه السلي المترامي الاتجاهات ، والذي انتهى إلى

(١١) قام القراصنة من أهل الجانب الأفريقي للبحر الأحمر بهجوم على ميناء جدة وخرّبوها . وكان ذلك في عام ٧٠٢ م وخشى المسلمون أن تمتد يد القراصنة إلى الداخل فتصل إلى الأماكن المقدسة . لذلك عمدوا إلى احتلال مجموعة جزائر دهلوك (تتكون هذه المجموعة من جزائر كثيرة وأهم المسكون منها دهل ، حرات ، كباري ، دركة ، ديقاربخ ، نوره ، نقره ، ويطلق اسم دهلوك على جميع الجزر .

(١٢) أنشأ العرب محطاتهم على الساحل الغربي للبحر الأحمر في سواكن ، باضع ، أوناسي ، دهلوك ، زيام ، بربره ، مقديشو ، مرخه ، براوه ، ممبا - عزانيا (زنزبار) وقد تبادلت عيذاب مع سواكن المركز التجاري .

(١٣) عثر بعض الأنسكلز في عام ١٩٠٥ م على قبر لعربي في « رودسيا » وعليه مادل على على اسم صاحبه « سلام للمتوفى في عام ٩٥ هجرية (٧٠٤ م) كما وجدت آثار عربية في مختلف البقاع الأفريقية (الرواد لفؤاد صروف ص ٨٧) .

(١٤) إنشاء المسلمون سبعة ولايات إسلامية في أثيوبيا وهي أوفات - دوادو - اريبي - أو عربيي أصلها أريين - حديه - سرخه - أو سركي - بلي - دارا (أنظر الخريطة نمرة ٣) .

(١٥) أحمد النجاشي كما جاء في الرواية العربية بينما نجد أن الروايات الأثيوبية وغيرها قد التزمت الصمت عن هذه الواقعة . وقبر هذا النجاشي موجود بن قريبي حوزين واطبي . وقد زاره الامام احمد القرن في النصف الأول من القرن السادس عشر للميلادى . وقد قام مؤخراً بتجديد بناء الضريح الحاج (ازماج محمد عبده من أهالي عدوه كما ورد في كتاب أثيوبيا - عمر محمد على ص ١٤٢ - طبع القاهرة ١٩٥٤

قيام الولايات الاسلامية في أتوبيا . وتمكن المسلمون من السيطرة على مرافق التجارة ، بين داخلية البلاد الأتوبية وحوض وادي النيل الأوسط وما وراء ذلك من البلدان الأفريقية من جهة ، وبين الشرق الأقصى من جهة أخرى .

ويجمل بنا أن نتعرض بعض الشيء إلى مجريات الحوادث في البلاد الأتوبية ، خلال الفترة التي سبقت قيام البيت السنارى في حوض النيل الأزرق ، وذلك لنتمكن من تتبع التطورات وأثرها ، في حوض النيل الأوسط . وبما لاشك فيه أن «أتوبيا» عنصر له خطره ، في دراسة المنطقة الشمالية الشرقية لأفريقيا بسبب موقعها على القرن الأفريقي ، وساحل البحر الأحمر ، ومنها يخرج النيل الأزرق وروافد النيل الأخرى ومن شاطئها المطل على البحر الأحمر والزنج ، أخذ النشاط العربي الاسلامى فى الازدياد ، حتى تم للمسلمين عزل أتوبيا عزلا تاما عن العالم الخارجى بخاصة بعد استيلائهم على ميناء زولا^(١٦) نجر أكسوم ، ومخرج أتوبيا الوحيد إلى البحر الأحمر فانقطعت علاقات أتوبيا مع البلدان الاجنبية ، حتى قال جبن « لقد رقدت أتوبيا في سبات عميق زهاء الألف عام ، نسوا فيها العالم الذى نساهم^(١٧) . وقد سببت هذه العزلة تدهور حالة البلاد الداخلية ، وقامت ولايات متطاحنة فيما بينها ، لتولى الزعامة كما ضعفت العلاقات الدينية مع الكنيسة المصرية . وقد مكثت هذه الحالة المتدهورة من قيام جماعة من الفلاشة^(١٨) بثورة في أواخر القرن العاشر الميلادى ، انتقل معها زمام الحكم إلى أميرة يهودية ، اسمها استر أو اسات ، وقد حاربت هذه المملكة الديانة المسيحية ، وخربت الكنائس . وقد استنجد النجاشى بملك النوبة جرجس ، دون جدوى . ونقل مؤرخ عربى ماجاء فى كتاب النجاشى لملك النوبة حيث يقول « هو امراه مملكة على بنى الهموية تارت عليه ، وعلى ثورته ، وسببت منها خلق كثير ، وأحرقت مدن كثيرة ، وأخربت البيع ، وطرده من مكان إلى مكان ، بنى الهوية دين الهوية الهموية ، مملكة على دين اليهودية ، أزال أمر الأمراء ، التى قامت عليهم (هوان) . وكان اسم الملك فى ذلك الزمان ، لالماسه ابن شنو^(١٩) ، وهو تفسيرها أسد واسم امرته مسقل كبرى الذى تفسيره عظيم هو الصليب^(٢٠) ..

(١٦) تقع « زولا » أو « أدولس » فى منتصف الجانب الغربى من خليج « أرفلى » وهو القسم الجنوبى من خليج « أنسلى » الذى تقع عليه مصوع وفيه مجموعة جزائر دهاك .

(١٧) جبون . الفصل السابع عشر .

(١٨) الفلاشة يطلق على اليهود . القاطنين فى أتوبيا وهم من التين .

(١٩) شنو صحتها شنو معناها أسد .

(٢٠) جويدى فى المجلة الأسيوية الايطالية ص ١٦٤/١٨١ ، بـ ٣ ، جزء أول ص ٢١٤

وحكمت أسرة هذه المملكة حتى عام ١١٢٧ م حيث انتقل الحكم إلى البيت الذي عرف بالزغوى . وقد ارتد الكثيرون عن مسيحياتهم إلى اليهودية والوثنية وذلك لأن المسيحية لم تكن قد رسخت كعقيدة يؤمنون بها . وبينما كان البيت الأول (أسرة المملكة أستر) . على دين الموسوية - يضطهد المسيحيين ويتعقبهم فان البيت الزغوى قد أحسن معاملة المسيحيين . وقد استطاع المسلمون في الفترة التي قضاها هذان البيتان في الحكم ، من التوسع في بسط نفوذهم الاقتصادي ، وامتداد رسالتهم إلى جزيرة « مرو » (٢١) ، ويعتقد أن البيت الزغوى قد دان بالمسيحية ، وهذا أمر مشكوك فيه ، لأن بطارقة الكنيسة الأرثوذكسية لم يتعاونوا مع هذا البيت ، عند اعتلائه الحكم وأظهروا معارضتهم (٢٢) ، الأمر الذي جعل بعض ملوك هذه الأسرة يحاولون بدعاياتهم صرف الأهلالي عن الكنيسة التي يرأسها المطران القبطي ، والاتجاه إلى الكنائس التي بنوها تحت رعايتهم . وذلك لتخفيف مقاومة المطران ، غير أن هذا الاتجاه في الواقع قد ساعد على توسيع شقة الخلاف ، التي أضعفت من نفوذ البيت الزغوى ، لأن السكان وهم من البدائيين المغرقين في البداوة ، يصعب جداً أن لم يكن من المستحيل صرفهم عن معتقدتهم على هذه الصورة . وتبع ذلك أن سلطة الملوك لم يكن معترفاً بها إلا في مناطق محدودة ، واشتد التوتر والتذمر ، لفصل الكنيسة عن الدولة مما مهد لانتقال الحكم إلى البيت السليمانى .

٤ - تطور العلاقات بين البيت السليمانى والمسلمين :

لقد كان من أثر استعادة هذا البيت للحكم ، في أعقاب الأسرة الزغوية ، تبدل في العلاقات ، الأمر الذي أخذ مظاهر وألوان متباينة ، من الاضطهاد والعدوان ، والنجاشى كان في خشية من قيام المسلمين بتدبير ، لإقصاء أسرته عن الحكم وإرجاع البيت الزغوى ، الذى حكم البلاد زهاء أربعة قرون . وقد وجد النجاشى أن المسلمين يسيطرون سيطرة كاملة على التجارة ، بين موانئ البحر الأحمر وداخلية البلاد الافريقية بعامة ، وحوض النيل وأثيوبيا بخاصة . وكانت الموانئ واقعة في أيدي المسلمين . الأمر الذى جعل موارد أثيوبيا وعلاقتها مع خارج البلاد ، في قبضة

وما بعدها - روسيني ، جزء أول ص ٢٨٥/٢٨٦ - بدج ٢ ، جزء أول ص ٢٣٣/٢٣٤

(٢١) بدج ٣ ، ماجزه أول ، ص ٢٨٤

(٢٢) يحتمل أن تكون معارضة الكنيسة الأرثوذكسية لخلافات مذهبية كما يحتمل أن يكون هذا البيت قد حاول أن يحيى تقاليد الموروثية في ظل الكنيسة المسيحية .

المسلمين وكانت من نتائج ذلك ، اختفاء المدن الاثيوبية التي كانت مزدهرة بالتجارة في الماضي ، ومنها مدينة « اكسوم » التي فقدت أهميتها بامتداد النشاط العربي على ساحل البحر الاحمر . وأصيبت البلاد بأزمات اقتصادية ، بسبب ما حدث من جذب وقحط تولدت عنه المجاعات . وخلق هذه المشاكل المتاعب للبيت السليمانى الذى رأى العمل على الحد من نشاط المسلمين ، ومن سيطرتهم على مرافق التجارة ، وطرق القوافل ، وأول خطوة قام بها النجاشى ، كانت محاولته عقد اتفاقات مع الولايات الاسلامية ، فى الوطن الاثيوبى ، يعترف فيها المسلمون بالسيادة المطلقة للنجاشى ، مقابل ضم بعض المناطق إلى هذه الولايات . وقد كان من نتائج هذا العرض أن أضعف من حدة الحركة ، التي أراد القيام بها رجل من رجال الدين يدعى « محمد أبو عبد الله » الذى ترمى له أنه مبعوث العناية الالهية المكلف بفتح بلاد اثيوبيا . وقد جمع حوله الكثير من الرجال من قبائل الجاله والصومال ، وأعدهم للجهاد . وكانت هذه الجماعات من الجاله والصومال ، من المجموعات البدائية المغرقة في البداوة ، التي جعلت إفادتهم من تعاليم الدين وتنظيماته للمجتمع غير ذات أثر . فقد كان الأمر بالعكس ، فانهم استطاعوا أن يكييفوا التعاليم الدينية ، بما يتماشى مع عاداتهم وتقاليدهم القبلية ، وكان من الهين إثارة أمثال هؤلاء وحشدهم ، فى عراك يجدون فيه إشباعاً لروحهم القبلية ، وكسباً مادياً مما سينالهم من الغنائم ، واستطاعت هذه المجموعات أن تخلق من الزعامة الدينية قوى منافسة للسلطين الذين كان هدفهم من الحكم ، هو المصلحة التجارية فقط ، ولم تكن هنالك روابط تجمع بين سلطين الولايات الاسلامية التي قامت فى الوطن الاثيوبى . وتسبب عن ذلك تغلب النجاشى على الولايات الواحدة تلو الاخرى وإخضاعها لسلطانه .

استمرت الحروب الداخلية ، بين المسلمين والاثيوبيين ، حتى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وقد بدأها أول ملك من البيت السليمانى « يكون أملاك » (١٢٧٠ - ١٢٨٥ م) وخلفه يقبه صهيون (١٢٨٥ - ١٢٩٤) ، الذى شن حرباً عدوانية سافرة ضد المسلمين . وقد حاول النجاشى إخفاء أهدافه السياسية وذلك باستغلال الأزمات ، التي كانت تحدث بينه ومصر بسبب المطران المصرى فى كرسى اثيوبيا (٢٣) ، أو بسبب ما كان يبلغه من اضطهاد سلطان مصر الأقباط . وقد يتبادر

(٢٣) حاول النجاشى « يكون أملاك » أول ملك فى البيت السليمانى بعد الأسرة = X

إلى الذهن أن أسباباً دينية ، هي التي دفعت إلى هذا العدوان من جانب النجاشي على الولايات الإسلامية ، وهذا غير صحيح على الأقل في مراحل الصراع الأولى ، التي استمرت أكثر من قرنين ، والتي دفع إليها التنافس الاقتصادي ، الذي كان في قبضة العرب ، الأمر الذي جعل أتيويا تعاني الضيق .

انتهز النجاشي عامه صهيون (١٣١٤ - ١٣٤٤ م) (٢٤) اضطهاد السلطان الناصر محمد قلاوون للقطب ، بأن أرسل بعثة إلى مصر لوقف الاضطهاد ، مهدداً باتخاذ إجراءات مماثلة مع مسلمي أتيويا ، وتحويل مجرى مياه النيل ، لاهلاك سكان وادى النيل ، ودفعت هذه التطورات حق الدين سلطان أوفات إلى الاستعداد للاغارة على النجاشي ، وقد انتهت هذه الحركة بانتصار الأتويبين وجعل ولايتي أوفات و فاتجار سلطنة واحدة ، تدين بالسيادة الأتويبية وتولى أمرها السلطان خير الدين أخ « حق الدين » الذي وقع في الأسر - وطلب سلطان أوفات من سلطان مصر الناصر محمد ليتدخل لإصلاح ذات البين ولتسوية مشاكلهم مع النجاشي .

وبدنا كانت الحرب تستعر تارة وتخمد تارة أخرى بين المسلمين والمسيحيين في أتيويا ، كان خان المغول أرغون بن أيغا ، الذي كان ينزع إلى النصرانية ، قد أرسل الوفود إلى البابا ، مستهضاً الهمم للاشتراك في حملة صليبية ، لإخراج المسلمين واحتلال القطر المصري ، وكان ذلك بعد فشل الحملة الصليبية السادسة على مصر وإخراج الصليبيين من الشام . غير أن البابا لم يستجب لرغبة الخان ، لانهماكه في مشاكله الأوروبية ، وعند ذلك وجه أرغون رساله إلى الملك فيليب الجميل ملك فرنسا ، للقيام بالدعوة لتنفيذ هذه الخطة ، والتي كان ضمن مشروعاتها مهاجمة مصر عن طريق بحر القلزم ، وذلك بارسال أسطوله من الخليج الفارسي ، وأن تدبر حملة ثانية لغزو مصر أيضاً عن طريق البر ، وكان لزاماً أن تتحد أتيويا مع الفرنجة ، لتكون أرضها قاعدة لتلك التجهيزات ، وقد حدث فعلاً أن أرسل النجاشي « ودام أرعد »

— الزغوية (عام ١٢٧٥ م) اقناع السلطان ركن الدين بيبرس عن طريق وساطة سلطان اليمن لعمير مطران للكنيسة الأتويبية في الكرسي الذي بقى شاغراً منذ سنة ١٢٥٠ م (مفضل س ٢١٩/٢١٣) وقد عمل هذا النجاشي على الأخذ بسياسة التذرع بخلق المبررات للعدوان على المسلمين ومن ذلك قيامه بتعزيز حدوده مع أوفات (أنظر مقال روسيني عن البيت الزغوي من مجلة R.R.A.L. عدده مجلد ٤ س ٤١٤) وكان أن رفض السلطان بيبرس أن يستمع لطلب هذا النجاشي بشأن المطران .

(٢٤) أرسل مسلمو « أوفات » بعثه إلى سلطان مصر الناصر محمد وذلك في الفترة بين سنة ١٢٣٢ و سنة ١٢٣٨ وكان على رأس هذه البعثة عبد الله الزيلعي (أنظر العمري ص ٢-٢)

(١٢٩٩ - ١٣١٤ م) رسله إلى البابا كلمنت الخامس . وحاول المبشر جوردان كاتالامبشر بمباي ، أحياء الفكرة في عام ١٣٢٤م، إلا أن الشقاق بين ملوك أوروبا والباباوات جعل التفكير في هذا الموضوع أمراً مستحيلاً . غير أن الفكرة لم تمت ، وبقيت معلقة تتأثر بمجريات الظروف^(٢٥) ، في الوطن الاتيوني كنتيجة للصراع بين المسلمين والنجاشي ، وقد وصل ذلك العراك نقطة التحول عندما انهزمت جيوش النجاشي ، التي أرسلها الغزو عدال في ١٤٧٣ / ١٤٧٤ م . وحاول السلطان محمد ابن أظهر الدين ، الذي حكم ولاية عدال في الفترة ١٤٨٨ / ١٥١٨ م ، أن ينجح إلى السلم مع الولايات المسيحية غير ان جهوده قد ذهبت أدراج الرياح بسبب الغزوات التي قام بها أمير هرر^(٢٦) . وكانت العادة ان لكل أمير السلطة التي تخوله شن الحرب والصلح وان الجنود في الإمارات التي تضمها الولاية تابعون للأمير وليس للسلطان من الأمر شيئاً غير الحصول على حصته من الضرائب^(٢٧) ، وهذا هو نفس النظام اتبعته السلطنة السنارية .

وحاولت المملكة هيلانة ، التي تولت وصاية ابنها الملك « لينا دنقل » (١٥٠٨ - ١٥٤٠) ، ان توطن العلاقات مع « عدال » لفتح طرق التجارة، وأرسلت لذلك البعوث إلى البلدان التي يههما الأمر ، ومنها مصر غير أن هذه المساعي من جانب المملكة هيلانة^(٢٨) قد فشلت ، ولهذا اتجهت نحو الدول المسيحية بارسال مبعوثها متى الأرمني إلى ملك البرتغال^(٢٩) ، للتعاون على طرد المسلمين والأتراك الذين بدأ خطرهم في الزيادة وبخاصة بعد فتح القسطنطينية ، والتوسع بضم غربي آسيا ومصر

(٢٥) ذكر ابن نفري لبردي في كتابه النجوم الزاهرة « عن الحملة المصرية » على جزيرة قبرص (في ١٤٢٥/١٤٢٦ م) وفي سياق حديثه أشار إلى « الحاج نور الدين علي » الذي كان رسول النجاشي إلى الفرنجة .

(٢٦) الفارز في كتابه ص ٣٠٥ - ٣١٠

(٢٧) فنوح الحبشة ص ١٢

(٢٨) أمباطورة أنيوبيا وإحدى الزوجات الأربع للنجاشي - مريم وهي ابنة الجراد أبون - سلطان مقاطعة دوارو الاسلامية وقد تنصرت وتزوجها النجاشي المذكور ، وقد فرض هذه العادة النجاشي زراً يعقوب (الذق حكم من ١٤٣٤ إلى ١٤٦٨ م) عندما تغلب على ولاية حدية الاسلامية

(٢٩) المقرزي « الامام بأخبار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام » (مطبعة التأليف القاهرة ١٨٩٥ م) حيث يقول في ص ٥ (. . . ثم كتب إلى ملوك الأفرنج بحثهم على ملاقاته لازالة المسلمين . . .) .

والسيطرة على شرق البحر الابيض المتوسط وشمال البحر الاحمر ، وطلبت أتيوبيا تقسيم مناطق النفوذ في البحر الاحمر للعمل المشترك ضد المسلمين والأتراك كما يأتي:-

ملك فرنسا = يحتفظ بقوة عسكرية في سواكن .

ملك أسبانيا = يحتل زيلع .

ملك البرتغال = يتخذ مع مصوع قاعدة لقواته .

وأن تعمل هذه الجيوش ومعها قوات أتوبيا . على غزو جزيرة العرب مهد الاسلام ، وطرده الأتراك والمسلمين من مصر وغيرها .

وأخذت العلاقات بين المسلمين والنجاشي في الفترة التالية في التطور السريع نحو مرحلة فاصلة ، وبخاصة بعد دخول عناصر أجنبية لنصرة أتيوبيا في صراعها مع المسلمين ، الأمر الذي صبغ الحرب ، بالصبغة الدينية ، وما كان لها أن تتخذ هذه الصبغة ، لولا تدخل الدول المسيحية الأوروبية ، وعجز سلاطين الولايات الإسلامية عن تسوية مشاكلهم مع النجاشي ، ويرجع ذلك العجز إلى فقدانهم السيطرة الكاملة على ولايتهم لضعف جهاز الحكم ، الذي استأثر بجانب كبير منه رجال الدين ، وصارت مقاليد الأمور الفعلية تنتقل من هذا الجانب إلى ذاك وهكذا دواليك ، حتى يطغى الأقوى ويجرف الجانب الثاني ، وكان طبعياً أن يكون الأقوى هو جانب رجل الدين لما له من سلطان روحي ، في بيئة حديثة عهد بالاسلام ، ومفرقة في البداوة كما سبق أن أوضحنا ، وهذه هي الحالة وما وصلت اليه في المناطق الإسلامية ، وهذا أيضاً هو ما دفع الملكة هيلانة المسلمة أصلاً - أن تفقد الأمل في قيام حسن جوار ومودة بين المسلمين والمسيحيين في أتوبيا ولذلك لجأت إلى طلب المعاونة مع الفرنج .

وأخذت الأمور في التطور السريع ، في القرن السادس عشر ، وكان لتدخل البرتغال نصيبه ، في تبدل الموقف ورجحان كفة المسيحية في أتوبيا ، واستشهاد الامام احمد القرن (٣٠) ، وانتقل الصراع من الوطن الأتيوبي ، إلى حوض البحر الاحمر بامتداد السيطرة العثمانية ، وبخاصة بعد نزول قطع بحرية عثمانية في مياه ذلك البحر في عام ١٥٣٨ م . كما أثار مطامع البرتغال في الوطن الأتيوبي ، مشاعر أهله (٣١) فطردوهم

(٣٠) الامام احمد بن ابراهيم الغازي وكنيته « القرن » أي الأشول بدأ حياته في عراق مع السلطان أبو بكر واستولى على الملك وقاد حملة الجهاد في أتوبيا حتى استشهد في عام ١٥٤٣ م أنظر تفصيلات حروبه . في كتاب عرب فقيه « فتوح الحبشة » نشرة ريديه باسيه في جزئين .

(٣١) لودلفس - ص ٣٦٦ / ٣٥٠

من البلاد ، بعد أن تعقبوهم بالتعذيب والتقتيل، وطلب النجاشي من باشوات سواكن ومصوغ المساعدة ، في منع هؤلاء الفرنجة من دخول الاراضى الاثيوبية .

٥ - تطور الصراع وأثره في السودان

أوضحنا مراحل العلاقات ، بين المسلمين والمسيحيين ، في الوطن الاثيوبي ، وتطور تلك العلاقات ، في الفترة التي سبقت المرحلة الفاصلة ، التي انتهت بهزيمة المسلمين بعد مقتل الامام احمد القرين ، في السنوات العشر الأخيرة في النصف الأول من القرن السادس عشر . ونجده لزاما علينا أن نذكر في شيء من الأسهاب بعض التفصيلات ليتمكن القارىء ، من تكوين فكرة عن التيارات ، التي مهدت لما حدث في السودان ، من تطور في نظام الحكم .

فقد كان للصراع الذي وقع بين الفريقين المتحاربين في أثيوبيا، أثره في المجموعات العربية ، التي نزلت في حوض وادى النيل الاوسط (السودان) . فقد اتخذت كل مجموعة منهما رقعة من الارض ، للتوطن بها وذلك بعد أن قام هؤلاء بكشف البلاد (٣٢) ، للتعرف على مدى صلاحيتها لقبول النازحين ، الذين حافظ بعضهم على حياته البدوية ، ونزل البعض الآخر على ضفاف النيل ، وهناك اختلط بالسكان المحليين ، وكونت كل قبيلة دارها الخاصة بها ، وخضعت للبيئة الإقليمية ، التي دفعت مظاهرها الطبيعية، إلى قيام وحدات إقليمية وحدت بينهما مصالح اقتصادية مشتركة، ولو أنه لم يكن لتلك المصالح المشتركة من أثر في توجيه حياة المجتمع ، فانها لم تحد من الصراع الخفي بين النازحين والسكان الأصليين ، وهكذا بقيت الحياة غير مستقرة ، حتى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن الذي تلاه . ففي تلك الفترة أخذ الصراع في أثيوبيا ، بنصيبه في إدخال نظم جديدة على حياة المجتمع في مختلف المشيخات في السودان . وقد كان لمجريات الاحوال في شمال أثيوبيا في أوائل القرن السادس عشر الميلادي ، أثرها المباشر في قيام سلطان في سنار ، والجمع بين المشيخات في وحدة ، تزعمها البيت السنارى ، في سيادة رمزية حددتها المصلحة التجارية - ولم يربط بين تلك المشيخات وبين السكان ولاء ، على الطراز الذي كان في الاقطاع الغربي .

(٣٢) مخطوطة الشيخ أبو دلق - الملحق الأول .

أما الامام احمد بن ابراهيم الغازي ، (المسكنى بالقرين أمى الأشول) ، فقد بدأ حياته الأولى ، في المنطقة الواقعة بين قلديسى وهرر ، وتزوج من ابنة الامام محفوظ أمير زيلع ، وكانت العداوة قائمة بين القرين والسلطان أبو بكر ، بسبب قبل الاخير للجراد أبون في زيلع . لذلك نجد ان القرين ، قد أمضى سنواته الأولى في محاربة السلطان أبو بكر ، حتى تغلب عليه وقتله ، وأقام عمر دين سلطانا بدلا من أخيه أبو بكر ، الذي قتل ، وبعد هذا النصر ، وجد ان في قدرته أن يمتنع عن دفع الجزية للنجاشي ، الذي أرسل حملة بقيادة حاكم بالي في ١٥٢٧ م ، لاختضاع القرين الذي انتصر على هذه الحملة ، بعدها أن كبدها هزيمة منكرة . وأسرع القرين إلى إعلان « الجهاد » ، وبخاصة وان الأحوال في حوض البحر الأحمر ، قد أخذت في التطور بسبب المنافسة بين الأتراك والبرتغاليين ، على السيادة على طرق التجارة البحرية بين البحر الأحمر والخليج الفارسي - والنف الاتباع من الصومال وغيرهم ، حول القرين الذي اكتسح الجيوش الاتيوية ، الواحدة تلو الآخر وصار النجاشي « لبنا دنقل » طريداً ، يتنقل من جبل إلى جبل . وأخذت الرقعة التي يحكمها المسلمون ، في الازدياد شمالا حتى عام ١٥٤١ م ، عندما وصلت المساعدة البرتغالية التي طلبتها الملكة هيلانة وكان وصول هذه الامدادات مفاجأة للمسلمين ، لم يستعدوا لها ، كما أن أخبار هذه الحملة ، قد أوقدت حماس الاتيويين ، الذين اشتدت عزيمتهم . وكانت الموقعة الأولى بين الامام وأعدائه ، في المنطقة الواقعة بين أميا آلاجي وبحيرة الشانجي ، وذلك في عام ١٥٤٢ م ، وقد جرح في هذه الموقعة القرين ونجا من الأسر . وأرسل القرين إلى الباشا التركي ، في زبيد طالباً منه نجدة من الجنود والأسلحة ، وقد أرسل اليه الباشا تسعمائة من حملة البنادق وعشر مدافع ، وقد مكنت هذه النجدة من أحراز انتصار على البرتغاليين ، ومقتل زعيمهم خريستوفو دي جاما ، وتشريد رجاله ، الأمر الذي حمل القرين على الاعتقاد ، بأن الحال قد استتب له ، فأعاد النجدة التركية بعد أن وصلت قواته حتى شمال بحيرة تانا ، حيث أقام معسكر قيادته . واشتبك بعد ذلك مع النجاشي قلاودويوس وحلفائه من البرتغال ، وانتصر عليهم في نهاية عام ١٥٤٢ م ، وتفرقت قوات القرين في أوائل عام ١٥٤٣ م ، ويسدو ان من أسباب تفرق الجنود ، وغالبيتهم من أهل صحارى الصومال والديناقل ، أزدیاد المقاومة السلبية من الاهالي ، في المنطقة شمالي بحيرة تانا .

وقد جاء في الجزء الأول ، من كتاب تحفة الزمان (٣٣) الذي دون فيه مؤلفه التفصيلات عن حروب المسلمين في أتيوبيا قبل استشهاد الامام ، ما يدل على اتساع رقعة الصراع ، ان الامام أحمد القرين قد خرج من بقى مدر (٣٤) إلى مزجه (٣٥) ، في رمضان سنة واحدة وأربعين وتسعمائة هجرية (١٥٣٥ ميلادية) ، ومنها إلى أرض سمين ، (٣٦) ومن ثم إلى وقره (٣٧) ، ثم إلى بلاد الدنيا (٣٨) ، التي يقول عنها انها ، بندر الذهب ، عليها بلدان كثيرة بلاد النوبة ، التي يخرج منها الذهب ، فرتب فيها ، واتخذها مسكناً ، وأصلحها جميعاً ... وأعطى ثغر تاكه ، (٣٩) وهو بلاد الهمج (٤٠)

(٣٣) تحفة الزمان لمؤلفه شهاب الدين ابن الشيخ احمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان من جيزات . المعروف بعرب فقيه وقد نشر الجزء الأول من هذا الكتاب وعلق عليه في ترجمة فرنسية رينيه باسيه . ومما يؤسف له أن الجزء الثاني من هذا الكتاب مازال مفقوداً وبظن أن نسخة منه موجودة في مكتبة أمم البين .

أنظر أيضاً كتاب الاسلام في الحبشة لترمنجها م ومقال شيرولى ص ١٠١/٣٩

(٣٤) بقى مدر Begameder - Midra أنظر الخريطة ٤ .

(٣٥) مزجه Mazaga وتطلق الجيم كالجيم التي ينطق بها أهل القاهرة .

(٣٦) سمين Samen بلاد عسيرة ذات حصون مائنة وجبال شائخة لم يكن للخل فيها من

سبيل ولم يكن في بلاد أتيوبيا أعسر منها (فتوح الحبشة ص ٣٤١) راجع الخريطة نمرة ٤ .

(٣٧) وقره Wagora أنظر الخريطة نمرة ٤ .

(٣٨) بلاد الدنيا . المنطقة المحاذرة لبحيرة تانا التي تعرف أيضاً باسم تانا أودمبعه .

(٣٩) ثغر تاكه هي كسلا ، المقصود من ثغرها البلد التي تقع مباشرة قبل ولاية أخرى أى عند

مدخلها .

(٤٠) ورد ذكر « الهمج » في أكثر من موضع في كتاب « فتوح الحبشة » ، عن اشتراكهم

في الحروب في جانب المشركين ، ونجد هنا تحديداً واضحاً عن دار « الهمج » ، التي أعطى ثغرها

للوزير عباس ، ونجد أن جماعة عرفت باسم « الهمج » قد لعبت دورها الهام في تاريخ السلطنة

السنارية ، عندما تمكن الشيخ محمد أبو السكيك ، وهو من الهمج ، من انتزاع الحكم من سلاطين

سنار « في حوالى عام ١٧٦٢ ميلادية ، وانفرد هذا الشيخ وخلفاؤه من أقربائه ، من بعده

بمنصب الوزارة ، وبتصرف شئون السلطنة ، حتى السنوات القليلة التي سبقت امتداد الحكم المصرى

وكانت كلمتهم هي العليا يعزلون السلاطين ويولونهم دون عقب ، وهناك أيضاً فلول تعرف « بالهمج »

في « دار فنج » (للمنطقة جنوبى سنار على النيل الأزرق) (أنظر سلجيمان ص ٤١٥ و ٤١٦

و ٤٢٠) وهذه الفلول أخذت طريقها نحو الاختفاء كوحدة اجتماعية بسبب غلبة المؤثرات المحلية

وتوجد في المنطقة شمالى وجنوبى مدينة « بربر » بيوت من « الهماق » فما هي إذن العلاقات التي

تربط أولاً « همج » ثغر التاكه الذين شملت دارهم مواطني الجمران بالقرب من كسلا (التاكه

القديم) وثانياً همج الوزارة السنارية والفلول التي نزلت جنوباً نحو دارفتح حيث اختلطت بالأهلين

المحليين وثالثاً « هماق » منطقتهم بربر . لقد كانت هذه المشكلة موضع دراسته خاصة لسنوات عديدة

خرجت منها بأن « همج » الوزارة السنارية هم « همج » كتاب فتوح الحبشة وهم بطن من قبيلة =

للوزير عباس (٤١) واستراحت المسلمين (٤٢). ومن هذا يتضح لنا أن مسرح القتال قد شمل الجزء الشمالي لبلاد اتيوبيا ، جنوبي الرقعة التي قامت فيها ولايات إسلامية ،

الجران (بفتح الحاء والميم) وينطق البعض هذه الكلمة بضم الحاء وسكون الميم وقد تميز أفرادها بالشجاعة وركوب المخاطر وسعة الخيلة وهذه الصفات هي التي مكنت الشيخ محمد أبو الاسكيلك من الوزارة بعد انتصاره في كردفان في السنوات الأولى من منتصف القرن الثامن عشر الميلادي وهي التي مكنت « رابع فضل الله » وهو من الهامق من إنشاء مملكته في السودان الغربي بعد تركه سليمان الزبير الذي لم يستمع لنصحه وقد حارب رابع الفرنسيين حتى خر صريعاً مستشهداً في حرب الاستعمار الأوروبية . نرحت هذه الجماعة من الهامق في أعقاب انتقال السلطان السناري إلى حوض النيل الأزرق ويحتفل أن تكون الدوافع التي عملت على انتقال البيت السناري هي التي أثرت بدورها في هجرة « الهمج » حيث أن موطنهما الأول واحد ولا يعلم على وجه التحقيق الطريق الذي سلكته هذه الجماعة في أفواجها المتلاحقة ، سكن بعضهم في سنار واشترك في معترك الحياة ومكنتهم صفاتهم الخاصة من الوصول إلى الوزارة ، ذهب البعض نحو « دارفنج » لسبب أو آخر واختلطوا بالسكان المحليين وكانوا بلاشك قلة تمثل طبقه حاكمة فقدت طابعها الخاص بمرور الزمن وكان للأمم المحلية أثرها القوي في هذا التحول بعد زوال الحكم ، أما تلك البيوت التي نجدها اليوم في منطقته بربر (وخاصة في بلدة العبيدية) فقد انصرفوا عن حياتهم الأولى وانخرطوا في حياة المجتمع الجديد إلى حد كبير - واحتفظوا بقدر من صفاتهم المميزة التي ورثوها عن أجدادهم الأوائل بسبب الأم التي نجدها في هذه المنطفة من القبيلة نفسها .

ومسألة أخرى لا تقل أهميتها عن موضوع العلاقات التي ربطت بين « الهمج » الذين نزلوا في مختلف الأماكن - وهذه هي كلمة « همج » التي عرفت بها مجموعات التاكة وسنار ودارفنج ومنطقته بربر وينطق الاسم في المنطفة الأخيرة « هامق » وقد تبين أن الاسم كما ينطق به في منطقته بربر هو الصحيح ونجد أن الاختلاف بين الكلمتين قد حصل في الحرف الأخير حيث كتب الجيم بدل القاف الصعيدية وإذا رجعنا إلى الكلمات التي جاءت في (عرب فقيه) وحرف الجيم جزء منها نجد أن المؤايف قد استعمل هذا الحرف فعلا لتصوير صوت القاف التي ينطق أهلها القاف الصعيدية في صورة « جيم » أهل القاهرة وقد عمل هذا الرسم الخاطيء على خلق كثير من المحاولات لارجاعها إلى مصدر يتفق مع كلمة « همج » ومن ذلك ان القوئج قد استعبدوا « الهمج » وهكذا لعب الخطأ في التصوير الصوتي دوره الهام .

وذكر « نيفارلس » في كتابه الشايقة ص ٧ ان مجموعة من البشارين تسكن في الصحراء شرق أرقو وتعرف باسم (Hamok) ومما قدمنا نجدان هذه الصلة بين الهامق وبين البشارين ترجع إلى أنهم من شرق الوادي .

(٤١) حاول الوزير عباس بعد استشهاده الامام احمد القرين أن يوحد بين الولايات الاسلامية دارو وفاتجار ويلي محاربة النجاشي الذي انتصر عليه في عام ١٥٤٥ ميلادية (أنظر كوترمان ص ٢٣ - ٢٥ من المقدمة) -

(٤٢) فتوح الحبشة ص ٢٤٤

سيطرت على طرق القوافل بين الساحل وداخلية البلاد الاثيوبية وسودان وادى النيل وكان لزاماً أن يفكر جماعة من أصحاب المصالح الاقتصادية ، سواء كانوا أسرة حاكمة ، أو من كبار المشتغلين بالقوافل ، في الهجرة من مواطن القتال إلى ملجأ يجدون فيه أمناً ، ورعاية لمصالحهم ، لذلك لم يكن بد من الانتقال إلى حوض النيل ، بعد أن اشتد القتال بين الاثيوبيين من المسلمين والمسيحيين ، كما اشتد التطاحن بين القبائل في الشمال من أثيوبيا . ولم يتعرض الامام للولايات الاسلامية ، التي قامت في أقصى الشمال والشمال الغربي من أثيوبيا ، بل تركها وشأنها واهتم بتوسيع فتوحاته ، التي وصلت حتى منطقة بحيرة تانا . وكانت في أقصى الشمال مملكة البلي أو البلو ، وقد هبطت عليها مجموعة من الحباب ، واجتاحت المنطقة بين خور أنسبا والبحر الأحمر ، واشتبكوا مع البلي ، وحدوا من سيطرتهم ، وكان ذلك في أوائل القرن السادس عشر الميلادي . وحدث في نهاية العشرين عاما الأولى من ذلك القرن ، ان امتد نفوذ الأتراك إلى سواكن ، بعد احتلالهم لمصر في عام ١٥١٧ م . ودخول الكشاف من قبل العثمانيين إلى منطقة النوبة السفلى والمحس . أما ما كان من أمر المنطقة الشمالية الغربية لأثيوبيا ، فتذكر الروايات المتواترة بين سكان شرق السودان أن قتالا قد حدث بين الفونج ، وبين قوة مشتركة من البلي والارتيقة ، وذلك في السنوات العشر الأولى من القرن السادس عشر الميلادي (٤٣) . وقد انتهت هذه الحرب بهزيمة البلي ، والارتيقة ، ويشير التقرير الذي نشره روسيني ، عن حفرياته في خور بركة ، ان حربا قد حصلت في تلك المنطقة ، بين الفونج والقبائل ، وأصيب الفونج فيها بهزيمة منكرة فروا بسببها ، إلى حوض النيل الأزرق . ويبدو أن هذه الحرب قد وقعت بعد زيارة داود رويني ، الذي زار المنطقة في أوائل عام ١٥٢٢ ميلادية ، فقد وصل هذا الرحالة ميناء سواكن في ديسمبر سنة ١٥٢١ ميلادية ، وغادرها بعد شهرين من إقامته فيها ، وسافر مع قافلة تجارية كبيرة إلى أرض كوش . وقد سلكت هذه القافلة الطريق الساحلي ، حتى منطقة مصوع ، ومنها نحو الغرب إلى منطقة الملم ، ، مخترقة حوض التكازي ويذكر رويني أنه قد قابل السلطان عميرة ، في عاصمته في تلك المنطقة والتي تقع بالقرب من منبع نهر النيل (رافد التكازي) ، ويقول أن سيطرة عميرة قد شملت البلدان ، الواقعة على نيل مصر (٤٤) ، وهذا يعني أن سلطان عميره قد امتد

(٤٣) بول ص ٧٦ / ٧٧

(٤٤) رحلة رويني في : - (١) أدلر (٢) جرايتز (٣) بيرفلت (٤) نيوباور (٥) هلاس - مدونات الحجج السادس عشر .

على البلاد النوبية ، التي شملت حوض النيل الأوسط ، حتى حدود المحس شمالاً ، وهذه المنطقة لم يتدخل في أمرها الإمام أحمد القرن ، وجاء في كتاب «فتوح الحبشة» . . . ودخل أشراف إلى عند الامام من عند الدينبا ، أربعون فارساً ، كلهم أشراف مع شيخهم شرف الدين بن علي ، والشريف عبد الرحمن ، وتقبلهم الامام وأعطاهم أرض أطراف بلدان إلى طرف بلاد النوبة ، واصطلحت جميع الدينبا إلى بلاد النوبة (٤٥) ، وقد أعطى الامام ، كما سبق أن أشرنا ، نغر تاكة - نغر الهمج (الهمق) إلى الوزير عباس ، ولا يعلم على وجه التحقيق ، موقع هذا النغر ، الذي أعطاه الامام للوزير عباس ، ويبدو أنه على الحدود الاثيوبية الشمالية الغربية ، على المدخل إلى منطقة التاكة (كسلا) ، كما لا تعلم العلاقة بين هؤلاء الأشراف ، الذين وفدوا على الامام في الدينبا ، وبما لاشك فيه أن دار هؤلاء الأشراف كانت قائمة في الرقة الواقعة بعد حدود الدينبا مباشرة - من ناحية التاكة أو الارتيا ، التي لم تكن خاضعة للسلطان السنارى . كما أننا لانعلم على وجه التحديد العلاقة بين هؤلاء الأشراف والسلطان السنارى الذي كان في كرسى الحكم في سنار ، وهو السلطان عبد القادر ابن السلطان عميرة (٤٦) .

٦ - الوطن الاول للأسرة السنارية :

ونجده لزاماً علينا ، أن نحاول التعرف على التطورات ، التي حدثت في القسم الشمالى والشمال الغربى لاثيوبيا ، وما كان لها من أثر في السودان ، ومدى ارتباط ذلك بالسلطنة ، التي قامت في سنار ، في القرن السادس عشر الميلادى . ونجد من الضرورى أن نرجع إلى ما قبل ذلك التاريخ . فقد تعرضت هذه المناطق لموجات ، من الهجرات القبيلية المتباينة ، وكان من نتيجة الاضطراع القبلى ، دخول تعديلات كثيرة ، على الأوضاع الاقليمية ، فمدن اختفت وأخرى نشأت . وقامت مدن على أنقاض غيرها ، بأسماء جديدة أو مصحفة عن القديم ، لذلك نجده من العسير أن نصل في يسر ، إلى تحديد مواقع المدن ، التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية ، والروايات

(٤٥) فتوح الحبشة س ٢٤٦ / ٢٤٧

(٤٦) اتفقت الروايات على انه قد حكم عشرة أعوام بعد وفاة والده السلطان عميرة ، عبدابروس الذى قال أنه حكم ثمان سنوات ، وهنالك رواية تقول ان أخيه نابل قد تولى الحكم بعد وفاة والده وهذه ضعيقة .

عن الفترات المتعاقبة . ومما يضاعف الصعوبات ، أن ماجاء في المصادر وغيرها ، قد نقل عن أفواه رجال القوافل ، من غير أهل البلاد ولهو لاهجاتهم الخاصة ، وأثرها ظاهر بصفة خاصة ، في حرفي الجيم والقاف ، ومثال ذلك كلمة «الهمق» ، وقافها تنطق كالجيم القاهرية أو القاف الصعيدية ، فالكتاب نقلها في أقرب حرف ، وهو الجيم في لهجته المحلية (٤٧) .

وقد كانت الجزء الشمالى ، من أتيوبيا موضع اهتمام المسلمين ، نسبة لموقعه الاستراتيجى ، على طرق القوافل ، بين البحر الأحمر ، وداخلية البلاد الاثيوبية ، وحوض النيل . فقد ذكر اليعقوبى ، فى كتابه عن هذه المنطقة ، التى عرفها باسم مملكة البجة (٤٨) ، وهم بين النيل والبحر ، ولهم عدة ممالك ، فى كل بلد ملك منفرد ، فأول مملكة البجة من حد أسوان ، وهى آخر عمل المسلمين ، من التيمن بين الشرق والغرب إلى حد بركات (٤٩) ، وهم الجنس الذى يقال لهم نقيس ، ومدينة المملكة يقال لها هجر (٥٠) ، ولهم قبائل وبطون ، كما تكون للعرب ، فمنهم الحدرات وحجاب (٥١) والعمائر (٥٢) ، وكرفر (٥٣) ، ومناسه (٥٤) ، ورسفه (٥٥) ، وغريريه (٥٦) ، والزنافج . وفى بلادهم المعادن ، من التبر الجواهر ، والزمرد ، وهم مسلمون ، والمسلمون يعملون فى بلادهم فى المعادن .

والمملكة الثانية من البجة ، مملكة يقال لها «بقلين» ، كثيرة المدن واسعة ، يضارعون فى دينهم الجوس الثنوية : يسمون الله عز وجل الزبحر الأعلى ، ويسمون الشيطان «صحح حراقة» (٥٧) ، وهم الذين ينتفون لحاهم ، ويقلعون ثناياهم ، ويختنون وبلادهم بلاد مطر .

ثم المملكة الثالثة ، يقال لها بازين ، وهم يتاخون علوة من النوبة ، ويتاخون

(٤٧) أنظر هامش ٤٠

(٤٨) تاريخ اليعقوبى (احمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (٨٧٢ م تقريباً) ص

٢١٧ - ٢١٨ .

(٤٩) خور بركة .

(٥٠) أنظر الخريطة نمرة ٣ .

(٥١) الحدارب والحجاب .

(٥٢) الأم مرأر (٥٣) غير معروفة (٥٤) منسه . ما زالت موجودة (٥٥) و (٥٦) غير معروفة . (٥٧) يقول روسبى فى كتابه تاريخ أتيوبيا ص ٢٧٢ وما بعدها ما يفيد بأن هذه الكلمة تجريه .

بقلين من البجه ، ويحاربون هؤلاء ، وزرعهم الذى يأكلونه (دخن) ، وهو طعامهم واللبن .

والمملكة الرابعة يقال لها جارين ، ولهم ملك خطير ، ومملكة ما بين بلد يقال له باضع ، وهو على ساحل البحر الأعظم ، إلى حد بركات ، من مملكة بقلين إلى موضع يقال له الدجاج ، وهم قوم يقلعون ثنائهم .

المملكة الخامسة — قطعة من باضع إلى فيكون :

المملكة السادسة — مملكة النجاشى .

وجاء فى موضع آخر من كتاب اليعقوبى ، ان « هجر » عاصمة البجه الحدارب ، وتقع على مسيرة خمسة وعشرين يوماً من بلدة العلاقى ، (على النيل جنوبى الشلال الأول) ، ويضيف اليعقوبى أنها كانت محطة ، يتخلف إليها التجار من المسلمين .

وقد ورد اسم مدينة « هجر » فى « عقد الأمان » ، الذى أعطاه عبد الله ابن الجهم إلى كنون بن عبد العزيز عظيم البجه فى عام ٥٢١٦ (٨٣١ م) ، والذى احتفظ فيه بشروط ، منها « وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها ، من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك وباضع ، ملكاً لبأمون عبد الله بن هرون أمير المؤمنين أعزه الله (٥٨) . . . » ومن هذه الشروط — فيما عدا ما يختص بمعاملة المسلمين والذميين وحق الإقامة — ما جاء بخصوص المساجد ، حيث قال « وعلى أن لا تهدموا شيئاً من المساجد ، التى ابتناها المسلمين بصنجه (٥٩) ، وهجر ، وبسائر بلادكم طولا وعرضاً ، فان فعلتم شيئاً من ذلك ، فلا عهد لكم ولا ذمة . »

(٥٨) المقرئى — س ٢٧٣ وما بعدها .

(٥٩) يقول موريت دى فيلارد س ١٠٢ ان صنجه هذه هى سنكات « التى تقع حالياً على خط السكة الحديد بين بورتسودان والعطبرة وكانت فيما مضى محطة لها أهميتها على مفترق طرق القوافل من مختلف المناطق وتقع فى قلب القطاع الذى شرط الأمير ملكيته للخليفة بمضى عقد الأمان . ريمحتمل أن يكون لاختلاف اللهجات أثره فى التصحيف الذى أصاب الصاد والجيم الذين تحولوا إلى سين وكاف . ويحتمل كثيراً أن الاسم « صنجه » قد قصد به المكان الحرب « صنجه ديب » الموجود شمال شرقى كسلا . وهذه الكلمة تتكون من « صنجه » أو « صنجه » التى هى اسم لاحدى بطون قبيلة الدجون التى كانت تسكن حوض العطبرة و « ديب » محرفة عن الكلمة النوبية القديمة « دف » أى « المهجور » أو « الحرب » ولا نعلم بالضبط أى المكانين قد سبق الآخر ويتوقف تحقيق ذلك على القيام بدراسة اركيولوجية =

وبما جاء في كتاب اليعقوبي ، عن مالك الخنيس ، والذي كتبه بعد ٧٨٢ ميلادية ، أى بعد حوالي أكثر من أربعين عاما من الامان آنف الذكر . يبدو أن مملكة نقديس في حدودها ، التى أوغمها اليعقوبي ، هى التى قامت فى القطاع ، الذى اشترط الأمير ملكيته . وتدخل فيه مناجم المعادن كما تشقه الطارق التجارية مع ساحل البحر الاراتيرى عند باضع ، وفى هذا تمهيد لسيطرة العرب على التجارة ، إلى داخلية حوض وادى النيل ، وبالتالي امتداد نفوذهم غربا ، إلى حوض النيل الأعلى ، وجنوبا نحو بلاد أتيويا .

ذكر المقرئى أن « هجر » يسكنها رئيس ، يرجع إليه جميع رؤسائهم (البجه) إلى حكمه ، وهى أقصى جزيرة البجه (٦٠) ، وقد حاول روسيني (٦١) أن يربط هذا الاسم مع أبى نجران ، ريقول متسنجر أنها على خط عرض ١٦٣٧ ، وتعرف باسم « هجر » وبها كنيسة قديمة مخربة ، تعرف باسم آخر نجران . (Agre Nejran) ، وأنها واقعة على طريق الحجاج ، من أتيويا ، إلى بيت المقدس . وإذا رجعنا إلى ما ذكره اليعقوبي ، إن هذه البلدة تقع على مسيرة خمسة وعشرين يوما من العلاقى ، وأن النجار من المسلمين يتخلفون إليها ، وإلى قول المقرئى أن « بلدة هجر تقع فى أقصى جزيرة البجه » ، فلا يسعنا والحالة هذه ، إلا أن نرفض التفسيرين ، اللذين تقدم بهما روسيني ومتسنجر وغيرهما .

أولا — لأن أقصى جزيرة البجة لا يكون إلا فى موضع نجر الغرب ، من جزيرة دهلك (مصوع) .

ثانياً — أن مسيرة الخمسة والعشرين يوما من العلاقى ، توصلنا إلى وادى التكاوى - سقيت ، وفى هذا تأييد لما كتبه روينى فى رحلته .

ثالثاً — لم تكن للتجار من المسلمين من مصلحة ، إلا أن يذهبوا إلى بلد له قيمته الاقتصادية . وكل هذه مجتمعة تحدد اقليم (ملم) ، وتشير إلى بلدة أم حججار (« أوم هجر » فى اللهجة المحلية) ، وقد عرفت هذه البلدة قبل وبعد زيارة روينى ، وذلك لمركزها التجارى وسيطراته ، على طرق القوافل ، بين داخلية البلاد الاثيوبية وحوض النيل ، وبين موانى البحر الاراتيرى . وهذا الموقع على الرافد تكاوى - سقيت ، قد أكسب البلدة موقعا فى أقصى الجزيرة البجة ، ومركزاً تجارياً للقوافل .

(٦٠) المقرئى ص ٢٦٨

(٦١) روسيني - مقال ص ٦٢٥

وتتميز هذا الموقع الاقليمي بقيامه على المدخل بين حوض النيل وأتيوبيا ، الامر الذي جعل القوافل تتخذة منفذاً لها ، بين تلك البلاد وساحل البحر الارتيوى ، فى مختلف موانيه من مصوع وباضع وسواكن ... الخ . كما اتخذته الهجرات المختلفة ، معبراً لها نحو مهاجرها .

* * *

٧ — ويهمننا بعد أن أوضحنا ما كانت عليه المنطقة الشمالية الغربية لآتيوبيا من أهمية إقليمية ، أن ننتقل إلى عرض الآراء المختلفة ، عن أصل السلطنة السنارية ، فان هذه الآراء تقول أن هذه الاسرة ترجع إلى : —

(١) انهم من قبيلة الشلك ، التى كانت تسكن على شاطئ النيل الابيض جنوبي اللبس (بالقرب من السكوه) .

(٢) إنهم من الغرب - من درافور فى رأى ومن برنو فى رأى آخر .

(٣) انهم قد جاؤا من الحبشة .

وقبل أن نناقش هذه الآراء ، يجمل بنا أن نوضح بقدر ما لدينا من معلومات عن الفونج ، وهل هم البيت ، أم الشعب الذى حكته هذه الاسرة .

اختلفت الآراء حول مصدر كلمة (فنج) أو (فونج) التى أطلقت على سلطنة سنار ، فالبعض يقول أنها ترجع إلى كلمة بون (Bwon) ، فى لغة الشاك ، والبعض الآخر يقول أنها من كلمة فون (Fon) ، فى لغة النوير ورأى ثالث يرددها إلى كلمة بونج (Bunj) ، وهذه قريبة من كلمة فونجى (Foni) ، وجميع هذه الكلمات معناها الغريب ، أما مسألة تناسخ الحروف الباء والفاء وغيرها ، ليحل أحدها محل الآخر ، فأمرله وجوده فى جميع اللغات والأخص الباء والفاء فى لغتى النوبة والشلك ، عرف البيت السنارى بالسلطنة الفنجية ، أو بمعنى آخر آل « فنج » ومترادفاتهما ،

استعملت للتعريف بطبقة البيت الحاكم ، وتوسع البعض فى استعمال هذه الكلمة حتى شملت ضمناً الشعب ، الذى حكمه البيت السنارى حكماً مباشراً ، والواقع أن القول بأن هذا التعريف يشمل الشعب ، مسألة لا تتفق مع حقيقة الامر . فان سليم الاسوانى الذى زار مملكة علوة فى أواخر القرن العاشر الميلادى ، فى بعثة جواهر الصقلى لامراء السودان ، يقول أن أرض الجزيرة السنارية سكنتها قبيلة عرفت باسم كرتينا ، أو كرسة أو كرما ، أو كاسو ، كما أن اسم القبيلة ، ورد ذكرها مع قبيلة العنج ، بوصف أن

هاتين القبيلتين جزيرة سنار . وذلك في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، عندما زار البلاد رسول السلطان قلاون ، ومن هذه يبدو أن اسم الفنج (Fung) وصل إلى الجزيرة بعد القرن الثالث عشر الميلادي ، وهناك احتمال بأن هذا الاسم قد جاء مع جماعات من البيت الزغوي ، بعد سقوط سلطانهم في الحبشة عام ١٢٨٦ ميلادية وقيام ملوك الحبشة بمطاردتهم واضطهادهم ، وقد تكون هؤلاء الفنج صلة بالداجو الموجودين في بلاد الفور ، والذين يقول عنهم بارت (Barth) ، بأنهم حكموا دارفور في القرن العاشر الهجري ، ويعتقد بأنهم يختلفون عن الزغوي ، كما أنه يتوول باحتمال أن موطنهم كان في جبال فازوغلي ، جنوب سنار ، ويقول الداجو عن أنفسهم أنهم فننجا (Fininga) ، فإذا سحت هذه الدعاوى ، فيكون هؤلاء هم الشلك الذين ذكرهم بروس خطأ ، بأنهم حاربوا العرب وانتصروا عليهم في موقعة بالقرب من أريجي (٦٢) غير أن هذه الرواية أصابها بعض التصحيف كما سنبينه فيما بعد . وبقي اسم الفونج مشتركاً بعد ذهاب أهله ، ونجد اسم « فونج » في صورة أو أخرى منتشراً ، في أكثر من منطقة من بحيرة فكتوريا والكنغو .

الوادي الأول :

ان هذه الأسرة من قبيلة الشلك .

ترجع الشلك في أصلها ، إلى قبيلة لو (Luo) التي يعتقد أنها كانت تسكن في منطقة بحيرة « فكتوريا نيانزا » ، وذلك قبل هجرتها إلى السودان ، ومن الدراسات التي قام القس هفمير النمسوي ، نجد ان قبيلة « لو » القليلة العدد في الوقت الجاضر ، والتي تسكن في منطقة بحر الغزال ، كانت في الماضي القبيلة الكبرى التي تفرعت منها الشلك وذلك حين قادها ملكها الأول نياكنج (Nyakang) إلى مواطن جديدة ، امتدت في العصر الحديث إلى شمالي الكوه (على النيل الأبيض) ، وبيننا نجد ان القبائل الوثنية الأخرى ، تحتفظ ببعض العادات والتقاليد التي تتفق اتفاقاً كلياً مع مثيلاتها في العهد الفرعوني ، فان أثر ذلك في قبيلة الشلك ، يدل على ان هجرتها إلى جنوب السودان (٦٣) ، حدثت في عهد ليس بالبعيد .

يقول الرحالة جيمس بروس (٦٤) الذي زار سنار حوالي عام ١٧٧٢ ميلادية ،

(٦٢) بروس جزء رابع ص ٥٤٨ وما بعدها .

(٦٣) يقول وستمان أنهم قد وصلوا إلى موطنهم الحالي في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي

(٦٤) سلجان ص ٤٢٤ .

ان مملكة سنار قامت لجأة ، باستيلاء مؤسس ذلك البيت ، على حوض النيل الأزرق بعد غزوة خاطفة ، وتفصيل ذلك على حد روايته ، ان قبيلة من السود غير معروفة ، كانت تسكن على الجانب الغربى للنيل الأبيض (خط عرض ١٣ شمالاً) وانها قامت فى جموع عديدة ، مستخدمة عدداً من القوارب فى هجومها على المدن العربية ، وان ذلك الجيش من الزنج يعرف فى وطنه باسم الشلك . وعند تأييد ذلك الحكم ، كان الشلك عبدة أو ثمان ، وسرعان ما اعتنقوا الدين الإسلامى . لغرض التجارة مع القاهرة واتخذوا « الفوننج » اسما لهم ، وكانت هنالك ثلاث حكومات رئيسية ، فى مملكة سنار ، أولاها « الليس » (٦٥) عاصمة الأقليم ، الذى جاءت منه الشلك ، وتعلبت على ود عجيب شيخ العرب ، فى معركة فاصلة ، بالقرب من أربجي ، مما جعل العرب يخضعون لأولئك الغزاة ، ويتصلحون على نصف الماشية ، يعطى للشلك ، ويقبلون تقديم جعل سنوى ، من نصف نتاج ماشيتهم خلال العام . وتعهد ود عجيب ، بالقياس بتأديب القبائل العربية الأخرى البعيدة ، التى تسول نفسها ، بالعصيان والتوقف عن دفع المال للشلك ، وقد دافع عن هذا الرأى كثيرون ، منهم الأستاذ ا . ه . كين (A. H. Keane) الذى اعتبر أن الشلك هم اصل الفوننج ملوك سنار ، وانهم اختلطوا بالعرب اختلاطاً وثيقاً . ويعارض هذا الرأى ، رومبلى جسى باشا ، فى كتابه سبع سنوات فى السودان ، (٦٦) ناعياً على صاحبه وأشياعه بعبارات التقريع والسخرية متسانلاً ، كيف تدهور أولئك الشلك من ذلك الملك الشاىخ العريض ، الذى استمر عدة قرون ناشراً لواءه على أكثر الرقعة التى نعرفها اليوم بالسودان . الشلك فى يومنا هذا ينكرون صلتهم بذلك البيت السنارى . ويقول الشلك انهم قاموا بمحاربة تلك المملكة الإسلامية كلما سنحت لهم الفرص بذلك . ويقول الأستاذ إيفانز برتشارد بأن كلمة فوننج أو فوننجى لا تخرج عن كونها تعريف لطبقة حاكمة معينة ، حكمت فى دار الفوننج ومركزها سنار . كما أبدى شكوكه فى أن أحداً ، من علماء الأجناس ، قد كتب رأياً صريحاً يرجع البيت السنارى إلى الشلك (٦٧) ويقول بأن وسترمان له رأى أورده فى كتابه (٦٨) ولكنه لم يقل صراحة بأن الفوننج من الشلك فى زمن مضى أو

(٦٥) الليس شمال الكوه على النيل الأبيض .

(٦٦) جسى ص ١٥٢/١٥١

(٦٧) إيفانز برتشارد مقال ص ١٥٧

(٦٨) وسترمان

حاضر، ولكنه يعتقد بأنه هنالك أدلة على وجود الشلك في دار الفوننج، في عدد يجعل من السهل إشتراكهم بنصيب في تكوين الطبقة الحاكمة (٦٩).

ذكر وسترمان في كتابه عن الشلك، بعض المفردات المتقاربة في لغة الشلك عن كلمة فوننج ويحاول رد اسم «عمارة» (٧٠) السلطان الأول للأسرة في سنار إلى «عمارو» أو «عماكرا» المستعملة في لغة الشلك، كما ذكر أن قول السلاطين بانهم من الفوننج يجعل المرء يظن أن اختيارهم لبني أمية يرجع إلى تقارب هذا النسب مع جد الشلك «أمري» Nyakang (Omoi) جد الشلك المباشر (٧١)

وقد أثار موضوع أصل الفوننج وصلتهم بالشلك جدلاً كبيراً على صفحات مجلة السودان في رسائل ومدونات، وقف فيها شتاوى ونولدر (٧٢) في جانب الرأى القائل بأن الفوننج لا يمتون بصلة إلى الشلك، كما دافع آركل (٧٣) عن رأى بروس.

يبدو مما أوضحناه أن جيمس بروس كان ضحية قبوله نظرية «الألوان» في تمييز الاجناس ومقدار رقيها وأخطاها حيث يقول «ان ملك سنار يدعى بأنه من القبيلة العربية الشريفة، وهى بنى أمية، لكن فصيلة شعره وتقاطيعه المنبسطة السوداء تدلان على أنه من الشن جالا (Shangale) التى اسمها (الشلك)» (٧٤)، وان هذه النظرية هى الآن في طويق الزوال لاعتمادها على أسس غير مقنعة.

الرأى الثانى :

ان هذه الاسرة جاءت من الغرب .

١ — من دارفور .

٢ — من برنو .

حاول آركل (٧٥) تقديم رأى جديد وحشد لدعمه المعلومات ، التى جمعها خلال المدة التى قضاها في دارفور والتي جمعها بالمر والتي جاء فيها ما جعل آركل يستخلص أن

(٦٩) يظهر أن نصيبهم كان عن طريق الرقيق

(٧٠) صحته عميره كما جاء في الوثائق

(٧١) شتاوى ونولدر .. مقال ص ٢٤٧ - ٢٥٨ - ٦١ - ٦٦ - ١١١ - ١١٧ ،

(٧٢) في مدونات الأجزاء الثالث عشر والرابع عشر والسابع عشر على التوالى

(٧٣) آركل مقال المدونات الجزء الخامس عشر ص ٢٥٠/٢٠١

(٧٤) مرى ص ٤١٧/٤١٨ - بروس الجزء السابع ص ٩١/٩٠

(٧٥) آركل . مقال ص ٢٥٠/٢٠١ في الجزء الخامس عشر من المدونات كذا ص ٩٧/٨٧

من الجزء السابع والعشرين من المدونات

البيت السنارى ، أسسه الملك عثمان الذى طرد من برنوعام ١٤٨٦ م ويبدو مما كتبه آركل في مقاله الذى نشر في كتاب الزراعة في السودان انه يتمسك بهذا الرأى باهماله الاشارة إلى الرأى القائل بأن الاسرة السنارية ترجع إلى بيت من قبيلة الشلك كما أهمل الرأى القديم الذى يرد البيت السنارى إلى الفور .

الرأى الثالث:

إنها جاءت من الحبشة وينقسم ثلاث آراء فرعية .

١ - السلطنة من أصل عربى .

٢ - السلطنة من بنى أمية .

٣ - السلطنة من هلاله .

ينفرد هذا الرأى بمصادر أساسية وأخرى ثانوية نجدها مبعثرة هنا وهناك ، وفيها تتوفر الوثائق التى تلقى الضوء مؤيدة هجرة السلطان الاول من شمال غرب الحبشة وقيام ملكه في حوض النيل الازرق ، كما أن هذه الوثائق توضح العلاقات التى كانت قائمة بين الحبشة وحوض النيل الازرق . فضلا عن توضيحها دعاوى الاحباش بتملك السهول الواسعة الواقعة بين حوض الدندر والهد والقاش وجزء من نهر العظيرة بما ذلك سهول القلابات . وتبدو هذه الدعاوى في شكل مطالب محددة في حالات قيام حكومات ضعيفة في الجانب السودانى - وأهم المراجع .

١ - رحلة داود روبينى الذى زار السلطان عميرة في عاصمته « لملم » وذلك قبيل انتقاله إلى سنار مباشرة .

٢ - ما جاء في كتاب « تاريخ لاتيويييا » لمؤلفه لودلفس (طبع عام ١٦٨٤ م طبعة ثانية) .

٣ - خطاب من السلطان عجيب .

٤ - الروايات المحلية السودانية المتداولة .

٥ - مذكرات الضابط الايطالى تلمتى التى حققها ونشرها روسيني العالم الايطالى .

٦ - رحلة أوليا شلي .

(٧٦) .

رحلة داود روبينى

أوضحنا فيما سبق ان هذا الرحالة قد هبط ميناء سواكن في ديسمبر سنة ١٥٢١

ميلادية ، وغادرها في قافلة كبيرة تزعمها « أبو كامل » وقد اخترقت هذه القافلة الطريق الساحلي إلى منطقة مصوع ومنها إلى المنطقة التي أسماها « الملم » والتي قابل فيها السلطان عميرة ، الذي امتد سلطانه على البلاد الواقعة على حوض النيل الأوسط . ويصف هذا الأقليم بأنه بلادها مروج وغابات وجبال وصحراوات ويقول انه بعد تركه عاصمة السلطان عميرة في طريقه إلى سنار، انه قد عبر انهاراً كثيرة وان أرضها رخوة لدرجة أن الخيل التي كان يستخدمها قد غاصت فيها حتى البطن . وقد جاء ما يؤيده هذه الرواية في كتاب فتوح الحبشة (٧٧)

وبعد مسيرة ثمانية أيام وصل إلى سنار، حيث قابل أمين بيت المال المدعو « العبيد » ولا شك في ان هذه الرحلة قد حدثت في أكتوبر - نوفمبر أو حواليه من عام ١٥٢٢ ميلادية أي بعد انتهاء فصل الأمطار في الهضبة الحبشية مباشرة .

ب - لودافس في كتابه تاريخ حديث لاتيوييا :

يقول هذا المؤلف « وفي الجنوب مملكة سنار أو الفند (يقصد الفنج) ويحكمها سلطان شديد اليأس وقد كان فيما مضى يدين بالولاء للحبشة . أما اليوم فهو مستقل يسيطر على ذلك الجزء من النوبة القديمة (٧٨) .

ج - كتاب السلطان محمد بادى عجيب :

جاء في هذا الكتاب الذي أرسله السلطان إلى بنوامية (كذا في نصه) الساكنين دار ضنقله (دنقله) استبدلت الدال بالضاد وتنطق القاف كالفننج الصعيدية أو كالجيم القاهرية) وقد بين في هذه الرسالة نسب الأسرة السنارية وصلتها بالأمويين وقد كان هذا السلطان كما ورد في رسالته السلطان العاشر من البيت السنارى .

د - الروايات المحلية المتداولة :

١ - تقول مخطوطة تاريخ سنار ابتداء أمر الفنج كانوا بمحل يعرف بلول بتفخيم اللامين فصل في ذكر نسب الفنج قيل أنهم البنى أميه لما انتزع منهم الملك وهربتهم البنى العباسى جاء منهم رجلان إلى هذا المحل (يشير إلى لول) استولدوا النسا وأن الفنج من سلالتهم وقيل أنهم بلى هلاله (٨٠) .

(٧٧) فتوح الحبشة ص ٣٠١ - وكروفورد صفحة « ٢٣٩ »

(٧٨) لودافس ص ٨٧

(٧٩) راجع الملحق الرابع

(٨٠) مخطوطة تاريخ سنار ص ٤/٣ المخطوطة بالمكتبة الأهلية بفينا

٢ - تقول الروايات المتداولة في شرق السودان ، ان الفونج قد أرسلوا قواتهم لقتال البلي والارتيقة وقد حصلت الموقعة الفاصلة عند أبواب ميناء سواكن في السنة السادسة من القرن السادس عشر الميلادي وأسفر القتال عن هزيمة البلي والارتيقة . ويبدو أن التطاحن لم يمتد ناره ويشير روسيني أن قتالا قد نشب بين هذه المجموعات وانتهى بهزيمة الفونج وهربهم من شرق السودان (٨١) .

ه - مذكرات الضابط الايطالي لويجي تلمنتي :

قام كونتي روسيني بدراسة المذكرات التي كتبها الضابط لويجي تلمنتي والتي شملت ملاحظاته عن المقابر التي وجدها في طريقه في خور بركة في شهر يولييه سنة ١٩٠٢ ميلادية وقد نشر روسيني مقاله الذي جاء فيه :-

هـ مقابر الفنج (٨٢) - يجدر المرء بمقابر عديدة على طول وادي الرافد انقريب وخور بركة وبعض هذه المقابر في مجموعات متراسة أو متباعدة - وهذه هي مقابر الفنج الذين أسسوا مملكة في سنار في القرن الخامس عشر الميلادي . وينهى مقاله بان مقابر عديدة موجودة في دورة طه Daura Taha ويذكر أنه قد علم أن الفنج قد هزموا هزيمة منكرة على حد قول الرواة الذين يقولون أن القدين Al Gheden الموجودين الآن في أرتيريا يمتون بصلته القربى إلى الفنج وأنهم هربوا إلى موطنهم الحالي (سنار) بعد الهزيمة المنكرة (٨٣) .

و - رحلة أوليا شلي (٨٤) :

زار هذا الرحالة العثماني السودان في ١٦٧٢ ميلادية وقد سجل في رحلته أغنية شعبية (دوبيت) سمعها عند السلطان في سنار وهي في لغة سكان الجزء الغربي من الأرتيريا . وقد ذكر ترجمة تركية مع النص المحلي .. وتحتوى هذه الأغنية على غزل وحب وهذه الأغنية جديرة بالتحقيق والدراسة المقارنة فالادب الشعبي السوداني قد تأثر كثيراً في مناطقه الشرقية بالادب الشعبي لقبائل أتويييا وغيرها عن طريق الهجرات من جنوبي غرب الجزيرة العربية .

(٨١) بول ص ٧٦/٧٧

(٨٢) مقال روسيني في الملحق الثاني

(٨٣) ذكر روسيني في رسالة خاصة للمؤلف انه قد استقى هذه المعلومات من الأهالي .

(٨٤) أنظر رحلة أوليا شلي (بالتركية) الجزء العاشر ص ٨٩٦ وقد أعدت ترجمة عربية

للقسم الخامس برحلة السودان والحبشة .

ز - ذكر روسيني في مقاله له (٨٥) « ان هنالك قصة متواترة تقول انه قد كانت للفينج محلة في ربالاف بالقرب من ريبا الواقعة على وادى أقره (Agra) .

وذكر متسنجر « انه قد ورد في سلسلة من انساب قبيلة « منسه » ان الاسم الثالث لأحد بطونها التي تسكن جنوبي الحباب هو فنجاي (Fungiai) وهنالك بلدة تعرف باسم عد فنجاي التي تقع على ثلاثين ميلا من خور أفوردا.

لقد استعرضنا فيما سبق مختلف الآراء عن أصل الأسرة السنارية وما يستند اليه كل رأى من تلك الآراء. ولا شك ان الرأى القائل (٨٦) بأن الموطن الأول للسلطنة قبل انتقالها إلى السودان كان في منطقة لملم في جنوب غربي ارتيريا ونستطيع ان نحدد ان العاصمة قد كانت في « أوم هجر » المعروفة الآن بام حجار وسواء كانت تلك الأسرة من بنى أمية أو من البلي فهي عريسة الأصل على أى حال . أما الآراء الأخرى فلم تستطع أن تنقف مع الرأى الأول .

٨ - هجرة السلطنة الى موطنها الجدير

أوضحنا تطورات الأحوال في المناطق التي قامت فيها الولايات الاسلامية في شمال أتيوبيا، والمدى الذى وصلت إليه العلاقات بين المسلمين والأتوبيين من جهة وبين القبائل الاسلامية وبعضها، فكل هذا قد دفع بالسلطان عميرة إلى الانتقال إلى حوض النيل الأزرق، متخذاً فيه عاصمته الجديدة بعد « لملم » وإقامة علاقات اتحادية مع المشيخات التي كانت قائمه في حوض وادى النيل الأوسط، محتفظاً لنفسه ببعض مظاهر السلطان الرمزية .

ويرجع اختيار مدينة « سنار » (٨٧) كمقر للحكم، لأكثر من سبب في مقدمتها

(٨٥) مقال روسيني في مجلة الجمعية الاسيوية الايطالية مجلد ٢٢ عام ١٩٠٢ ص ٧٢
(٨٦) محاضرة المؤلف بعنوان « على أطلال مدينة سنار » التي ألقيت بنسأدى الموظفين بواد مدني - طبع القاهرة سنة ١٩٣٥ .

(٨٧) مدينة « سنار » على النيل الأزرق (في شرق الجنوب الشرقى للخرطوم) - وهى مدينة عريقة في القدم ويقول البعض ان هذا الاسم يرجع إلى ساحرة اسمها سن النار كانت تسكن في هذه البقعة وان ثوراً من ماشية عميرة كان يتدلى برعى في تلك الغابة ليلا ويأفى في ليلته فتبعوه في بعض الأيام فرأوا دارها ونهرها فنزلوا من مويه وقطع أشجارها الملك عميرة دونقس (أنظر مخطوطة تاريخ سنار دار الكتب المصرية رقم ١٨ م) وهذا نسج من الخيال المحصب لتعليل مصدر الاسم. عرفت هذه المدينة قديماً باسم (جزيرة الماء أو الأخت) (بصيلى . مقال) .

موقعها الأقليمي الاستراتيجي في قلب القطاع ، الذي يكون المجال الحيوى الطبيعي لا امتداد سيطرة البيت الحاكم قبل تركه لملم بسبب الظروف المتغيرة . وبسيطر موقع هذه المدينة على الطرق النيلية والقوافل الأمر الذى أضفى عليها أهمية كبرى كركز تلتقى فيه مختلف الطرق التجارية ، حيث يحدث تبادل السلع الواردة من البقاع الأفريقية المختلفة ومن مصر ومن الشرق الأقصى عبر سواكن ومصوع واتيوبيا .

ويجمل بنا قبل أن ننتقل مع السلطنة إلى مركزها الجديد في حوض النيل الأزرق ، أن نحدد التاريخ الذى هجرت فيه عاصمتها في منطقة «لملم» وأن نستعرض العوامل التى خلقت الاتحاد بين المشيخات القائمة حينذاك في بلاد السودان وبين السلطان .

فقيام السلطان في عاصمته «سنار» لم يكن حادثاً فجائياً كما جاء في الروايات المحلية (٨٨) بل سبقته عوامل داخلية تولدت من مظاهر حياة المجتمع ، الأمر الذى سوف نناقشه فيما بعد . وقد كانت هنالك عوامل خارجية في مقدمتها امتداد النفوذ العثماني إلى حوض البحر الأحمر وما تبع ذلك من وصول قطع من الأسطول العثماني إلى مياه ذلك البحر لتعزيز سلطانها والمحافظة على سلامة موانئ جانبي البحر الأحمر (الاسيوى والأفريقى) التى بسط عليها العثمانيون بسيطرتهم ومطاردة البرتغاليين الذين أخذ نشاطهم في الازدياد لبسط نفوذهم على اتيوبيا ، وقد مكن النفوذ العثماني في حوض البحر الأحمر من سيطرة المسلمين سكان الساحل الأفريقى للبحر الأحمر على مرافق التجارة بين الساحل والمناطق الأفريقية الداخلية بما في ذلك اتيوبيا (٨٩) .

تقول المصادر السودانية التى جمعت من الروايات الشفوية وغيرها وكتبت في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى وفي مقدمتها كتاب الطبقات لود ضف الله وتاريخ مدينة سنار للكاتب الشونة (٩٠) ان السلطان السنارى قد أنشأ

وهناك استحالة مادية في امكانيات منطقة جبل مريا على إيواء جوع من الجنود وغيرهم بسبب قلة الماء وهذا عامل مهم وثانياً أن المنطقة لا تخرج عن كونها جبلية وأرضها الصالحة للزراعة لا تزرع إلا فصل الخريف (بالمطار) ومما يلفت النظر ان ما جاء بالمخطوطة آفة الذكر يدل على ان الجنود تجمعت حول الملك عميرة في منطقة جرداء دون أن تفطن إلى وجود مجرى النهر حتى دها عليه الثور !! .

(٨٨) تاريخ مدينة سنار مخطوطة في دار الكتب المصرية ص ١٠

(٨٩) أنظر لود نفس ص ٧٣ / ٧٤

(٩٠) نشر كتاب الطبقات لأول مرة في عام ١٩٣٠ ميلادية في طبعتين إحداهما عاق عليها عليها الشيخ ابراهيم صديق والثانية طبعها داود منديل اما كتاب تاريخ سنار فما زال مخطوطاً ومنه نسخة في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

عاصمته في السنة العاشرة من القرن العاشر الهجري (السنة الرابعة بعد الخمسمائة و آلاف ميلادية)، وهذا لا يتفق مع ما كتبه الرحالة داود روبيني، الذي زار السلطان في عاصمته في منطقة ملم في عام ١٥٢٢ ميلادية، حيث أمضى هذا الرحالة نحو العشرة شهور، رافق فيها السلطان في رحلاته الدورية التي كان من عادته أن يقوم بها مرة في كل شهر لناحية من نواحي مملكته . وقد سقطت تفاصيل تلك الرحلات من مدونة داود روبيني غير أن الرحالة قد أوضح بما لا يقبل الشك أن زيارات السلطان المشار إليها قد شملت القطاع الممتد من منطقة ملم حتى حوض النيل (٩١) ونجد سنداً لما ذكره دارد روبيني في الروايات التي جمعها روسيني (٩٢) وفيما كتبه لودلفس (٩٣) عن علاقه السلطنة مع النجاشي وكذلك ما كتبه فرنسيسكو المارز (٩٤)، الذي زار الحبشة في حوالي ١٥٢٠ ميلادية ونقل في كتابه ما سمعه عن حنا السرياني عن أحوال بلاد علوة ولم يذكر شيئاً عن وجود سلطان في سنار في ذلك الوقت .

ويبدو أن تدهور العلاقات بين النوبة السفلى ومصر للعداوة التقليدية بين العرب زعماء المشيخات في النوبة وبين الماليك في مصر ، وقيام الكشاف أو الغز ، الذين أرسلهم السلطان سليم بزعامه حسن قوسي (٩٥) لحكم البلاد بين الشلالين الأول والثالث قد جعلت البلاد جنوبي الشلال الثالث في عزلة اقتصادية ، الأمر الذي دفع المشيخات إلى الاتجاه نحو ساحل البحر الأحمر ، والاتصال بالسلطان عمبرة الذي كان مسيطراً على تجارة ذلك القطاع الذي شمل المنطقة المؤدية إلى حوض النيل الأرق ومراكز تجمع التجارة فيه . وهكذا دفعت الظروف إلى قيام الاتحاد .

(٩١) كتاب الرحالة اليهود لناشره السكان فانان ادلر طبع لسنن ١٩٣٠ ص ٢٥٧ حيث يقول ان مملكة الجعل (الجملين) يحكمها الملك أبو عقارب وهو خاضع للسلطان عميرة . ويرجع سبب إهمال بعض التفاصيل ان الرحالة لم يكتب يومياته كاملة بل أملاها من ذاكرته

(٩٢) الملحق الثاني

(٩٣) أنظر هاش ٧٠

(٩٤) الفارز ص ٣٥٢

(٩٥) استنجدت قبيلة الغريبة التي سكنت أرض المحس بالسلطان سليم بعد الفتح العثماني لمصر ليعينها على رد عدوان قبيلة الجوابرة التي كانت منتشرة في النوبة وقد استجاب السلطان لهذا النداء برسالة حملة بقيادة حسن قوسي الذي تمكن من طرد الجوابرة إلى منطقة دنقلا وحدث ان ابن جنبلان الذي خلف حسن قوسي بعد وفاته قد اشتبك مع القبائل التي تسكن شمالي منطقة دنقلا في موقعة فاصلة عند « حنك » حيث أقيمت قبة ضمت القتلى واعتبرت هذه المنطقة الحد الفاصل بين حكم الكشاف . والبلاد الجنوبية .

وقد اتصل السلطان عميرة ومركزه في منطقة ملم بالسلطان العثماني سليم (الذي حكم من ١٥١١ - ١٥٢٠م وذلك بأن أرسل إليه كتابا أعده الشيخ السمرقندي، موضحاً به أنساب العرب أهالي السودان، وطلب منه أن لا يغزو البلاد وسكانه من المسلمين، الذين لا يجوز شرعاً فتح بلادهم بالسيف. وهو الخطاب الذي ذكر نعوم شقير (٩٦) خطأ أنه أرسل إلى السلطان سليم. ووجه الخطأ أن السلطان سليم لم يصل إلى سواكن ولم يحتلها بشخصه، وإنما احتلها الباشا العثماني في أعقاب الفتح العثماني لمصر في سنة ١٥١٧ ميلادية، وأتينا نخالف هذا الرأي القائل بأن السلطان قد جاء إلى سواكن لغزو السودان، فالأصح أن يكون السلطان عميرة قد أرسل ذلك الكتاب (حوالي عام ١٥١٧م أي بعد ضم مصر إلى تركيا)، وكان عميرة يهدف من ذلك أن يعمل السلطان العثماني على وقف التعدى الذي وقع على الحدود الشمالية من السودان، بين قبيلتي الغربية والجواربة وهما من البربر الذين نزحوا إلى مصر فالتوبة السفلى. وقد دفع وصول الكشاف إلى بلاد المحس إلى توثيق عرى الاتحاد بين المشيخات في السودان والسلطان عميرة وعاصمته في ملم. ونرجح أن هجرة السلطان إلى حوض النيل الأزرق قد سبقتها محاولات استطلاعية مهدت لسيطرته على ذلك القطاع. والمعروف أن مملكة علوه قد زالت في السنوات القليلة من أول القرن السادس عشر الميلادي، ويستخلص مما جاء في رحلة روبيني أن السلطان عميرة لم ينتقل من عاصمته أسرته في منطقة ملم إلا بعد الربع الأول من القرن السادس عشر الميلادي أو قبيل ذلك بعام أو عامين على أكثر تقدير، أعنى في سنة ١٥٢٣ أو ١٥٢٥ ميلادية. ويؤيد هذا الرأي ما جاء في الروايات المحلية في شرق السودان عن القتال الذي حدث بين الفوننج من جهة والارتيقة والبلي من جهة أخرى، كما أشرنا إليه من قبل. ونرى أن هذا الصراع قد دفع بالسلطان إلى الانتقال إلى موطنه الجديد في حوض النيل الأزرق. ولا يفوتنا أن نذكر أن تلك الحقبة كانت مليئة بالأحداث والتطورات. فبناء سواكن صارت عثمانية في سنة ١٥٢٠م وكانت المراكب البرتغالية تجوب مياه البحر الأحمر لمنازلة الأتراك وأن هذه المراكب قد بقيت فترة من الزمن في خليج مصوع، التي صارت عثمانية في سنة ١٥٢٧ ميلادية. وأغارت السفن البرتغالية على ميناء السويس في ١٥٤٠م غير أنها قد فشلت.

* * *

(٩٦) أنظر نعوم شقير الجزء الثاني ص ٧٢/٧٤.

وننتقل الآن إلى بيان المجموعات الاقليمية التي كانت قائمة عند قيام الاتحاد بين المشيخات والسلطان . ومن ثم إلى المجتمع في بنيته ومظاهر نشاطه ونظم الحكم والاقتصاد . وإننا بذلك نحاول أن نصور أثر ذلك في تطور نظم الحكم في مختلف المراحل .

توزيع السكان في حوض النيل الأوسط

ينقسم السودان سبع مناطق تأثرت كل منها بالحياة الاقليمية الخاصة وهي :-

١ - السطحة المستنقعات والزراعة والتجارة في السودان :

١ - المجموعة الاقليمية الاولى :

تقع هذه المنطقتان بعد شلالات حنك شمالاً وجنوب الشلال الرابع جنوباً ، وهي الرقعة من الارض التي عرفت بمملكة المقررة ، التي سقطت في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي ، بعد حياة ناهزت العشرين قرناً ، شاركت في خلالها مصر في المدنية والثقافة كما شاركت مصر في منحها بسبب دخول الفرس والروم الخ . . . وقد حافظ أهلها على لغتهم وأسس مجتمعاتهم ، ومن أقسامها :-

١ - دار الجوابرة وحدودها من شلالات حنك شمالاً حتى حلة تبتى ، جنوباً وبها مشيخات أرقو وجزيرة مقاصر والحناق .

وتسكن هذه المنطقة الجوابرة والنوبة وهما الغالبية وقليل من المهاجرين المصريين وبعض العرب الذين يرجعون في أصلهم إلى البشا (البجه) وتصدر زعامة هذه المشيخات ملك ارقو الذي بسط نفوذه على المشايخ الآخرين ويسكن هذه المنطقة جماعة من الهامق وهم في الصحراذ شرقي جزيرة ارقو (٩٧) .

٢ - دار البديرية وتبدأ من حلة تبتى حتى جبل دافر (حد دار الشايقية) وبها مشيخات الحندق ودنقلا العجوز وجزيرة تنقس وباكروالدفار ويتزعم هذه المشيخات ملك دنقلا العجوز .

وأسكن البديرية والنوبة في هذه الرقعة عدا قطاعي كورتى وامبقول حيث تسكن
بمجموعة الطريفية التي تنتمى إلى البديرية .

٣ - دار الشايقية وتقع بين جبل داقر حتى الشلال الرابع وبها مشيخات حنك
وقوشاني ومروى والعمرى .

وسكانها من الشايقية الذين يكونون الغالبية العظمى وجماعات قليلة من النوبة
الذين يعيشون في درجة الموالي للشايقية .

وتميزت دار الشايقية بأنها وهي منقسمة أربع مشيخات كما أوضحنا، إلا أنها
كانت تستجمع كلمتها وتوحد قواتها في جهة واحدة لمقاومة العدو الذي يتعدى على
إحداها ، بينما نجد أن سكان دار الجوابره ودار البديرية متفرقو الكلمة لا يفتأون
عن مناوأة بعضهم البعض .

وتحتل دار الشايقية مركزاً استراتيجياً على طرق القوافل ، بين ذلك الجزء من
وادي النيل والغرب (درافور وفزان والمغرب الأقصى) وبين وادي النيل، وساحل
البحر الأحمر ومصر عبر صحراء العظمور ، وكانت العلاقات مع الغرب زاهرة
وخاصة بعد قيام سلطنة الفور . وكان لهذه العلاقات أثرها في قيام الشايقية بالانفصال
عن الاتحاد السنارى كما سنبينه في موضعه فيما بعد .

ب - المجموعة الاقليمية الثانية :

تحتل هذه المجموعة رقعة من الأرض تبدأ من الشلال الرابع حتى رأس الوادي
(عند مصب العطبرة بالنيل)، وسكان هذه المجموعة أقل عدداً من المجموعة الاقليمية
الاولى ويرجع ذلك إلى طبيعة بلادهم الصخرية القاحلة ، وبخاصة في القسم غربى بلدة
« أبو حمد » ، وتنقسم هذه المجموعة إلى : -

(١) دار المناصير - من الشلال الرابع حتى غرب أبو حمد - تميزت هذه المنطقة
بأن أراضيها الصالحة للزراعة تنحصر على شاطئ النيل الصخرى بسبب طغيان الرمال
على الاراضى الخصبة، وقد دفعت هذه الحالة من الجذب إلى فقر السكان واحترافهم
السطو على القوافل، وقد عرفت هذه المنطقة في الزمن القديم باسم « شنقير » ومعناها
« نقود » أو « مال » ، وكانت هذه البلاد معروفة بهذا الاسم قديماً لوقوعها على الطريق
إلى مناجم المعادن في صحراء العظمور .

(٢) دار الرباط - تبدأ من حلة الشماخية (غرب أوحد بنحو خمسين كيلومترا) حتى الشلال الخامس (شمالى بلدة العبيدية)، وهذه منطقة أكثر يسراً من دار المناصير وتتألف القبيلة التي تسكن هذه البلاد من شعب كثيرة منها الكبير في مجموعته ومنها القليل وكانت لهم زعامتان إحداهما في الشمال والثانية في الجنوب .

(٣) دار الميرقاب - تبدأ من الشلال الخامس حتى رأس الوادى وفيها زعامة هذه المجموعة الاقليمية، ومركزها مدينة بربر الشهيرة بمركزها التجارى حيث تلتقى فيها الطرق التجارية بين مختلف البلاد، عن طريق النيل جنوباً إلى الخرطوم وما بعدها وتتصل عن طريق القوافل بموانئ البحر الاحمر .

وطغيان الرمال على الاراضى الخصيبة في هذه المنطقة واضح الاثر .

والعلاقات بين المجموعتين الاولى والثانية وثيقة العرى في مختلف نواحي النشاط. وما زالت هذه المنطقة مجهولة تماماً من الناحية الاثرية (الاركيولوجية) وقد ورد ذكر بعض بلدان من جنوب هذه المجموعة في لوحة ملك أكسوم عيزانا الذى غزا بلاد مرو (بين نهر العطبرة والنيلين الأزرق والرئيسى) .

اللغة السائدة هي العربية العامية متأثرة باللهاجات الخاصة بالبطون كل في منطقتها وما زالت اللغة محتفظة بالكثير من الكلمات النوبية القديمة كما احتفظت بعض الاماكن بأسمائها القديمة مع بعض التصحيف .

ج - المجموعة الاقليمية الثالثة :

تبدأ من الجانب الايسر لنهر العطبرة حتى شمالى « أربجي » ، وأرضها أكثر خصباً وإنتاجاً من سابقتها وشملت : -

١ - الدامر - وقامت فيها زعامة بيت المجاذيب الدينية .

٢ - دار الجعليين - ومركزها شندى حيث يقيم الملك وضمت بعض المشيخات الصغيرة وحدث فيما بعد قيام أكثر من زعامة للجعليين خضعت لسلطان العبد ألاب المباشر .

٣ - دار العبد اللاب - من جنوب شندى حتى شمالى بلدة « أربجي » وضمت هذه بعض الشيوخ المنفرقة على حوض النيل وفي شمال الجزيرة ومركزها في بلدة « قري » حيث أقام عبدالله جماع ، الذى مارس سلطاته المباشرة على هذه المجموعة وقد امتدت

سلطانه على هذه المجموعات الأخرى بأسم السلطان السنارى . واحتفظت دار العبد اللاب فى حدودها على ما كانت عليه « علوه » .

د — المجموعة الاقليمية الرابعة :

احتلت هذه المجموعة قطاع الحكم السنارى، الذى شمل أرض الجزيرة من مدينة « أربجى » شمالا حتى دار فنج جنوبا وفيها مشيخات خشم البحر. فازوغلى . كنجارا، ومن ناحية الشمال فقد امتد القطاع عبر البطانة متخذاً طريقاً شمالياً شرقياً، للمحافظة على طرق القوافل بين داخلية البلاد وموانى البحر الارتيبرى وشمل هذا القسم من القطاع مشيخة رأس الفيل والجزء الجنوبي من ولقايت وتعرضت أطراف هذا القطاع لمنازعات بين ملوك أتوييا وسلاطين سنار .

* * *

٢ — مناطق الرعى والزراعة البرائية :

المجموعة الاقليمية الخامسة :

قامت هذه المجموعة فى أرض البطانة التى تحده جنوبا بالنيل الأزرق ورافد الرهد شرقا، وتتعدى حدودها الشمالية حوض العظيرة وتفصل بين هذه المنطقة والنيل الرئيسى (بين العظيرة والخرطوم) المدن والأراضى الزراعية القائمة على النيل . وقد قامت فى هذه المنطقة أكثر من ولاية، عصفت بها الحروب الداخلية وغزو الاتيويين مما ساعد على طغيان الرمال بطبقات كثيفة بفعل الرياح الموسمية التى تعرف بالهبوب . ففقدت بذلك الأرض خصائصها وهجرها أهلها وتحول من بقى منهم الى حياة الرعى ،

المجموعة الاقليمية السادسة :

تحتل هذه المجموعة المنطقة رقعة الصحراء الشرقية التى تبدأ من جنوبى أسوان حتى دهلك (مصوع)، وتكاد أن تكون هذه المنطقة صورة لما كانت عليه مملكة نقيس التى ذكرها اليعقوبى والتى تسكمننا عنها فيما سبق .

ولم تكن هذه المنطقة واقعة تحت سيطرة السلطنة السنارية المباشرة، وبخاصة الجزء الجنوبي منها، الذي تعرض فيه سلطان الفنجج للامتداد والانكماش، متأثراً بالعلاقات مع البشا والاتيويين، بخاصة بعد القتال المرير الذي حدث في القرن السادس عشر الميلادي^(٩٨)، كإحداث منازعات وقتال بين سنار وأتيويا بسبب الحدود.

المجموعة الاقليمية السابعة:

احتلت هذه المجموعة الصحراء غرب النيل من دنقلا شمالا حتى تقلى جنوبا، وتعرضت هذه الرقعة لاعتداء سلاطين السودان الغربي والفور. وكانت القوافل التجارية بين مختلف البلدان الافريقية وحوض النيل تخترق هذه المنطقة، في نقل السلع المتبادلة بين حوض النيل وواناء البحر الارتييري من ناحية وداخلية أفريقيا من ناحية أخرى. وإلى هذا يرجع اهتمام سلاطين السودان الغربي والفور بالعمل على امتداد نفوذهم إلى هذه المنطقة.

ولم تكن ولاية تقلى من القوة بمكان عند قيام السلطان السناري في حوض النيل الأزرق، وبقيت على هذا الحال حتى اشتداد المنافسة بين سنار والفور. في القرن السابع عشر الميلادي.

• تطورات الوضع السياسي :

يجمل بنا قبل أن نتعرض لحياة المجتمع في مختلف مظاهر نشاطها، أن نتعرف على الوضع السياسي وتطوراته، كما نتعرف على العلاقات والروابط التي كانت قائمة بين شطري الوادي (مصر والسودان)، بخاصة والعلاقات مع دارالاسلام بعامة، وذلك في الفترة التي سبقت انتقال السلطنة الزرقاء^(٩٩) إلى حوض النيل الأزرق. ولا شك في أن التعرف على العلاقات والروابط، التي أشرنا إليها سوف يفسر لنا تطور حياة المجتمع، كما تصور لنا سلوك الأفراد في هذا المجال الذي تأثر بالآراء التي نقلت إليه، وما ترتب على ذلك من تقدم.

(٩٨) أنظر الملحق الثاني لمذكرات الضابط الايطالي تالامونت .

(٩٩) عرفت السلطنة السنارية بالزرقاء وسلطنة الفور بالحضراء ومصر بالسلطنة الحمراء .

فقد قامت في البلاد دويلات ومشيخات إسلامية على أنقاض ما كان قائماً من دويلات مسيحية أو شبه مسيحية ووثنية ، وكان لزاماً بعد أن استتمت تلك الدويلات والمشيخات الإسلامية مراحل تطورها، أن تنتقل إلى سلطة مركزية تجمع في صورة إما ، بين تلك الدويلات والمشيخات (١٠٠) استجابة لدوافع النمو الطبيعي .

كانت البلاد أصلاً محكومة بملوك مؤهلين ، وكان كل شيء ملكاً لهؤلاء المؤهلين ، وكان طبيعياً أن تتغير تلك النظم بدخول المسلمين إلى البلاد ، في هجرات جماعية متلاحقة ، وكان شأن تلك الهجرات العربية في صدر الإسلام مختلفاً كل الاختلاف عما عرفته البلاد في علاقاتها وصلاتها من العرب قبيل الرسالة المحمدية ، فقد كانت تلك العلاقات والصلات محصورة في نطاق التبادل التجاري ، وما إلى ذلك من معاملات . أما في العهد الإسلامي فقد خرج العرب من بلدهم في أخطر تجربة وأقساها هدفها بناء (أمة) إسلامية لها قوميتها الموحدة، تضم المواطن التي امتدت إليها رسالة الدين الجديد . وكان طبيعياً أن تظهر مشاكل كثيرة بعد التوسع الإسلامي ، الذي شمل مناطق متباينة من النواحي الاجتماعية . وقد احتلت هذه المشاكل اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، الذي أخذ بمعاونة مستشاريه في وضع دستور للدولة الإسلامية الكبرى ، إلا أن المنية قد عاجلته ولعبت بعد ذلك الفتن والقلاقل دورها ، والتي كان من أبرز نتائجها تعطيل الحركة التهذيبية التي جاءت مع رسالة الإسلام ، وتغلب الخصائص والمميزات الشخصية لمختلف الشعوب ، التي امتد إليها سلطان المسلمين . دفع الوضع الإقليمي للسودان إلى الدخول في روابط اقتصادية مع البلدان الإسلامية ، الواقعة خلف حدوده ، كما اتصل مع الشرق الأقصى عن طريق البحر الأحمر ، أما عن العلاقات بين شطري الوادي (مصر والسودان) فإنها قد كانت أعمق أسساً مما كانت عليه مع البلدان الأخرى من دار الإسلام وغيرها ، ومرجع ذلك إلى أن شطري الوادي يطلان على منفذين إلى المحيطات ، وهما البحر الأبيض المتوسط ، والبحر الأحمر ، كما أنهما يحتلان المدخل الأول إلى قلب القارة الأفريقية (١٠١) ، الأمر الذي

(١٠٠) أنظر نهاية الفصل السابق حيث أوضحنا الدويلات والمشيخات التي كانت قائمة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي (العاشر الهجري) والتي دخلت في حلف مع السلطات السنارية .

(١٠١) راجع خريطة نمرة ٥

وجهود موحدة ، للإفادة من هذا الوضع الاستراتيجي ، بما فيه مصلحة البلدين ، ولا نريد أن نذهب بعيداً في توضيح الصلات البعيدة العمق ، وبهنا أن نحدد العلاقات في فجر الاسلام وفي السنوات التي تلت ذلك (١٠٢) .

* * *

ورد ذكر النوبة لأول مرة في وثيقة إسلامية هي عهد الأمان الذي أعطاه عمرو ابن العاص لأهل مصر ، ونصه كالآتي كما ذكره الطبري (١٠٣) .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عمرو ابن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم (مفردتها صليب) وبرهم وبحرهم . لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص ولا يساكنهم النوب . وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف ، وعليهم ما جنى لصونهم ، فان أبي أحد منهم أن يجيب ، رفع عنهم من الجزاء بقدرهم ، وذمتنا من أبي بريثة وأن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى ، رفع عنهم بقدر ذلك . ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن أبي واختار الذهاب ، فهو آمن حتى يبلغ مأمنه ، وأخرج من سلطاننا عليهم ما عليهم ، أثلاثاً في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم . على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته ورسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمهم المؤمنين وعلى النوبة الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً وكذا وكذا فرساً على أن لا يغزوا ولا يمتنعوا من تجارة صادرة ولا واردة . شهد الزبير وعبد الله ومحمد أبناء وكتب وردان وحضر . . وذكر النوبة في هذه الوثيقة إن دل على شيء فهو يدل على ما كان عليه النوبة من نفوذ اقتصادي بالنسبة للتجارة الواردة والصادرة عبر بلادهم . ثم أن الأمور لم تسكد تستقر في مصر بعض

(١٠٢) راجع المجلد العاشر من موسوعة « مصر القديمة » للدكتور سليم حسن

(١٠٣) الطبري طبعة غوي . القسم الأول صفحة ٢٥٨٨ / ٢٥٨٩ - نشرها استاذنا ابن بول في أعمال الأكاديمية الايرلندية الملكية مجلد ٢٤ ص ٢٢٧ / ٢٣١ .

الشيء ، حتى أرسل عمرو ابن العاص حملتين إلى الحدود الجنوبية لوقف التعدي من القبائل القاطنة في جنوبي أسوان ولتأمين الحدود ولفتحها التجارة ، وكانت حملة تحت أمرة عقبة ابن نافع ابن عبد القيس الفهرى (أخ عمر ولامه) وأخرى بقيادة عبدالله ابن سعد بن أبي سرح ولا يعلم بالضبط أى الحملتين قد سبقت الأخرى ، وقد ذكر البلاذرى (١٠٤) أن حملة عقبة بن نافع الفهرى قد أرسلها عمرو ابن العاص بعد فتحه لمصر ، وأن هذه الحملة قد انصرفت بجراحات كثيرة ، والمؤكد على أى حال أن حملة عبدالله بن سعد بن أبي سرح قد أرسلت في سنة عشرين أو في إحدى وعشرين من الهجرة ، وأنها اشتبكت مع النوبة في قتال انتهت إلى « مصالحة هدنة » ، تقرر فيها تبادل بعض المعونة والهدايا فكان على النوبة أن يقدموا إلى المسلمين ثلاثمائة وستين رأساً الخ الخ ، ومن الجدير بالذكر أن هذه المصالحة قد جاء فيها « وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم (يشير إلى النوبة) ولا منعه عنكم من حد أرض علوة إلى أرض أسوان » وقد عرفت مصالحة الهدنة هذه بالبقط (١٠٥) . وقد أصدر عبدالله بن سرح عهده هذا عقب حملته الثانية، التي دخلت بلاد النوبة حتى مدينة دنقلة، وذلك في العام الحادى

(١٠٤) البلاذرى ف ٢٣٨ وما بعدها .

(١٠٥) البقط ما كان يؤخذ من النوبة في كل عام في قرية الفصر التي تقع جنوبي مدينة أسوان بما يقرب من الخمسة أميال ويرجم هذا الاصطلاح إلى الأصل الرومى، حيث يعرف هذا النوع من الاتفاقات بـ (bactum) ومنها (Pact) وتدل هذه المصالحة لحسم خلاف بين دول لا غالب ولا مغلوب بل إن الطرفين أو أكثر متعاقدين على قدم المساواة وهي أقرب شيء في تفسيرها إلى أنها عربون صداقة متبادلة أما البقط الذي اصطلح عليه العرب عقب غزوة عبدالله بن سعد بن أبي سرح عام عشرين أو واحد وعشرين هجرية هو ثلثمائة وخمس وستين رأساً من الرقيق لبيت مال المسلمين وللأمير بمصر غير ما ذكر أربعون رأساً وثلثيته المقيم بأسوان وهو المتولى لقبض البقط عشرون رأساً وللحاكم المقيم بأسوان الذى يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤوس ولأثنى عشر شاهداً عدولاً من أهالى أسوان يحضرون مع الحاكم قبض البقط اثني عشر رأساً من الرقيق وكانت النوبة قد دفعت إلى عمرو ابن العاص أربعين رأساً من الرقيق فلم يقبلها وردھا إلى كبير البقط الذى اشترى بثمنها جهازاً وخرماً وأرسله للملك النوبة وبعث عبدالله بن أبي سرح ما وعد النوبة به من الحبوب قمحاً وشعيراً وعدساً وثياباً وخيلاً ثم تناول الرسم على ذلك فصار رسماً يأخذونه عند دفع البقط في كل سنة وصارت الأربعون رأساً التي أهديت أصلاً إلى عمرو ابن العاص يأخذها إلى مصر (أنظر المقرئى المواعظ والاعتبار ص ٢٨٩ / ٢٩٩ الجزء الثالث - نشر في مطبعة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية - القاهرة سنة ١٩٢٢) .

والثلاثين من الهجرة عند ما نكشت النوبة العهد السابق ، وذلك بعد وفاة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ظناً منهم ، كما هي عادتهم التي تميزوا بها في مختلف العصور انهم في في نكستهم للعهد الذي قطعوه على أنفسهم في ولاية خليفة سابق، قد يصل بهم إلى تخفيف ما اصطلاح عليه أصلاً . وهذه الظاهرة ما زالت قائمة في المجتمع، وبعد استسلام ملك النوبة فيلدروت تقرر الصلح على ثلثمائة وستين رأساً من الرقيق في كل سنة ، ووعده عبدالله بن سعد بنهدية سنوية من حبوب وملايس الخ وكتب عبد الله بن سعد أماناً، اشترط لقيامه ان يؤدي النوبة في نهاية كل عام عدداً من الرقيق تحدت أوصافه . كما اشترط عدم التعرض للمسلمين من إقامة شعائرهم الدينية وحفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون في دنقله وغير ذلك، ولم يش الجانب العربي إلى ما وعد به عبد الله بن سعد من حبوب وملايس الخ (١٠٦) . وقد وفي الجانبان العربي والنوبي بالتزامتهما حفظاً للعلاقات الوثيقة، الأمر الذي استمر نافذاً أكثر من ستة قرون، حتى حدثت تطورات في العلاقات السياسية بين شطرى الوادى في القرن السابع الهجرى كان من نتيجتها قيام حلف جديد ربط بين شطرى الوادى وسوف نتعرض لهذه التطورات فيما بعد .

هذا ما كان من العلاقة مع البلاد النوبية التي على حوض النيل الأوسط . أما العلاقات مع البشا (البجة) فقد تحدت في عقد الأمان الذي أعطاه عبد الله بن الجهم إلى كنون بن عبد العزيز عظيم البشا في عام ٢١٦ هجرية (٨٣١ ميلادية) وقد سبق أن أوضحنا ما جاء في ذلك العقد (١٠٧) من امتيازات منها أيلولة ملكية القطاع من جنوب أسوان حتى جنوب دهلك (مصوع) للخليفة .

وحدث في عهد المماليك البحرية تدهور في العلاقات بين الممالك ، الذين ألت إليهم مقاليد الحكم وبين العرب والعربان المسلمين في القطر المصري . وكان ذلك مدعاة لقيام العربان بأثارة الفتن والقلاقل ، وكانت البلاد مهياة لتلك الاحداث لسبب ما تغلغل

(١٠٦) أنظر المقرئى ص ٢٩٦ جزء ثالث .

(١٠٧) راجع عقد الأمان في صفحة ٢٢ وهامش ٥٨

حدث أن تقض البشا عهدهم بزو صعيد مر الأعلى حتى بلدة اسنا وذلك في عام ٢٤١ هجرية (٨٥٥ ميلادية) في عهد الخليفة جعفر المتوكل وأرسلت حملة لتأديبهم واضطر كبير البشا إلى التسليم فأحسن العرب معاملته وأرسل مكرماً ليطأ بساط أمير المؤمنين في بغداد . وكانت هذه الجملة تحت أمره محمد بن عبد الله القمى .

في المجتمع المصري من آراء وأساليب جديدة من العهود السابقة ، وقد قتل في هذه القلاقل ألوف من العربان فقدوا ماشيتهم وممتلكاتهم ، وذهب الكثيرون منهم صوب شطر الوادى الجنوبي هرباً من انتقام المماليك ، وتوالت حملات المماليك نحو الجنوب ، حيث كثرت المشاحنات والحروب الداخلية ، التي عطلت الحياة وهددت البلدان الواقعة شمال الشلال الأول . وانتهت الحملات التي أرسلها المماليك على النوبة بأن أجلس شكنده (١٠٨) على كرسي الملك في دنقله في عام خمس وسبعين وستائة هجرية (١٢٧٦ م) ، ولما نصبوه حلفوه بأن يكون نائباً للسلطان وجرى قسبه كالآتي ، والله والله والله والله وحق الثالوث المقدس والإنجيل الطاهر والسيدة الطاهرة العذراء أم النور والمعمودية ، والأنبياء والرسل الحواريين والتقيديسين والشهداء والأبرار ، وإلا أجدد المسيح كما جدد ديوس وأقول في ما تقوله اليهود ، وأعتقد ما يعتقدونه ، وإلا أكون ديوس ، وأطعن المسيح بالحربة ، كما طعنوه اليهود ، انى أخلصت نبتى وطوبى من وقتى هذا وساعتى هذه لمولانا السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدنيا والدين بيبرس خلد الله ملكه وانى أبذل جهدى وطاقتى فى تحصيل مرضاته ، وانى ما دمت نائبه لا أقطع ما قرر على فى كل سنة تمضى ، وهو ما يصل من مشاطرة بلادى على ما كان يتحصل لمن تقدم من الملوك بالنوبة ، وأن يكون النصف من المتحصل لمولانا السلطان مخلص فى كل فن (حق) ، والنصف الآخر مرصداً لعارة البلاد وحفظها (حفظها) من عدو يطرقها ، وأن يكون على فى كل سنة من الأقبلة الثلاثة ومن الزرافات ثلاثة ومن الفهود خمسة ومن الصهب الجياد مائة ومن الإبقار الجيدة أربع مائة رأس ، وانى أقرر على كل نفر من الرعيمة الذى تحت يدى فى البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عيناً ، وانه مهما كان لداوود ملك النوبة ولأخوه (أخيه) شنكوا ولأمه ولأقاربه ومن عهد من عسكره بسيوف العسكر المنصور ، أحمله إلى الأبواب العالية ، وانى لا أترك شيئاً منه قل ولا جل ولا أخفيه ، ولا أمكن أحداً من اخفائه ، ومتى خرجت عن شىء مما قرر على أعلاه كنت بريئاً من المسيح ومن السيدة الطاهرة ، وأخسر دين النصرانية ، وأصلى لغير الشرق وأكفر بالصليب ، وأعتقد ما يعتقدونه اليهود ، ثم أنى لا أترك أحداً من العربان ببلاد النوبة صغيراً ولا كبيراً ، ومن وجدته احتطت عليه ، وأرسلته إلى الأبواب العالية ، وانى مهما سمعته من الأخبار الضارة والنافعة طالعت مولانا السلطان فى وقته وانى لا أنفرد بشىء من الأشياء

وانتى عبد مولانا السلطان عز نصره وغرس صنائعه وسيفه المنصور ، وأنا ولي من
والاه ، وعدو من عاداه ، والله على ما أقول وكيل وشهيد .

وأقسم شكندة يميناً ثانية : اننى متى ورد على مرسوم السلطان فى ليل أو نهار
يطلبه إلى الأبواب الشريفة يحضر لوقته وساعته ، ولا يتأخر بوجه من الوجوه ، إلا
بمقدار ما يدبر ما يحتاج إليه من أمور السفر (١٠٩) . ومن هذا يتضح لنا أن شطر
الوادى الجنوبى قد صار وفق ما جاء فى هذه المواثيق التعهدية «دار الصلح» . ولم يمض
طويل وقت حتى كانت الهجرات العربية الجماعية قد تغلغلت فى بلاد النوبة والبشما ،
وكونت عنصراً خطيراً وخاصة بعد مصاهرة المهاجرين للأسرات الحاكمة ، الأمر
الذى مكن أبناء العرب من مقاليد الحكم بفضل التقاليد المحلية التى تمنح ابن الأخت
وابن البنت حق الوراثة دون ولد الصلب ويقولون ابن ولادة ابن الأخت وابن
البنت أصح ، وأن يكون من زوجها أو من غيره فهو ولدها على كل حال (١١٠) .

وكان من أثر هذا العهد الذى قطعه شكندة ، امتداد سيطرة سلطان شمال الوادى
المباشرة على المنطقة السفلى للنوبة المعروفة بالمريس ، وهى الواقعة بين الشلال الأول
وبلدة كرسكو ، التى تبعد عن شمالى وادى حلفا بحوالى الستين ميلاً ، وصارت المقررات
المعتادة من الضرائب على البامح والقطن وغير ذلك من المحصولات تدفع للسلطان ،
كما كانت تجبى الجزية من المواطنين الذين يحتفظون بغير الاسلام ديناً وذلك بواقع
دينار واحد عن كل ذكر بالغ . وبعد وفاة السلطان ببيرس تولى الحكم قلاوون
وفى عهده قتل شكندة واستولى على كرسى الملك (Berek) الذى لاقى حتفه على يد
بعض المماليك ، وقام شمعون باعباء الحكم ، ولم تكن علاقات هذا الملك طيبة مع أمير
(الأبواب) الواقعة على حوض النيل جنوبى مصب نهر العظيرة ، وقد أرسل هذا
الأمير بعثة إلى السلطان شاكيا (شمعون) لتعرضه للطريق التجارى بين الأبواب

(١٠٩) مفضل ج ٢ ص ٢٣٩ وتاريخ هذا القسم ٢٤ مايو سنة ١٢٧٧ م وجاء فى المقرزى
(ص ٢٩٨ جزء ثالث) عن تقسيم بلاد النوبة « أن تكون بلاد النوبة نصفين نصفها لسلطان ونصفها
لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد الجبال فانها كلها للسلطان ونصفها لعمارة البلاد وحفظها ما خلا بلاد
الجبال فانها كلها للسلطان لقرىها من بلاد أسوان وتسكون نحو الربع من بلاد النوبة وأن يحمل ما بها
من التمر والقطن والحقوق الجارية بها العادة من قديم الزمان وأن يقوموا بالجزية ما بقوا على النصرانية
ويدفع كل بالغ منهم فى السنة ديناراً عيناً . . والنزم (شكندة) أن يحمل جميع ما لداود وكل
من قتل وأسر من مال ودواب إلى السلطان مع البقط القديم » .

(١١٠) المقرزى ص ٢٦٧ و٢٦٨

وشمال الوادي . وحاول شمعون أن يضعف من أمر هذه الشكوى ، بإرساله وفدا إلى السلطان ليكسب ثقته، غير أن السلطان قد أرسل بعض الأمراء إلى الإمارات الواقعة جنوبي مملكة دنقله (١١١) ، كما أرسل مندوبا إلى شمعون ، وقد استطاع أمراء الأبواب والبصرة (والأخيرة واقعة بين النيل وكسلا جنوب شرقي شندى) من تدعيم شكايتهم من ملك النوبة ، ولهذا أرسل قلاوون حملة عسكرية لتأديب ملكها، وانتهت هذه الحملة بهرب شمعون وتولية ابن اخته ملكا ، وبعد عودة الحملة عاد شمعون، واستولى على الحكم ، فأرسلت قوة كبيرة في عام ١٢٨٩ م وقد صحبها اثنان من الأمراء النوبيين، واستطاع شمعون أن يهرب ثانية ، ونصب ابن أخت الملك داود ملكا على دنقله . وتكررت المأساة بعد عودة الحملة بظهور شمعون ، وذلك في ١٢٩٠ م واغتصابه الحكم بعد أن قتل الملك وبعض حكام الأقاليم الشمالية لمعاونتهم للسلطان ، وكتب شمعون إلى قلاوون معلنا ولاءه، واستعداده لدفع الجزية المقررة، وبقى على عهده الذي قطعه فترة من الزمن ، دون أن يقوم بتعكير العلاقات ، وحدثت ثورة قام بها الأمير آنى من حكام الجنوب، وتولى الملك بوديما (Boudima) الذى كان فى مصر الحكم فى دنقله بدلا من شمعون . وفى عهد السلطان الناصر محمد قلاوون أرسل عز الدين الأفرم على رأس حملة إلى الأبواب ، التى كان ملكها فى مطاردة الأمير الناثر آنى .

وأخذت الأحوال فى الجنوب تسير فى خطى سريعة نحو النهاية فى عام ١٢٩٩ أصيب المماليك بهزيمة فى حمص الشام فى حربهم مع المغول . وقد كانت هذه الهزيمة فرصة استغلها العربان فى مصر فى عام ١٣٠٢ ميلادية ، باحداث قلاقل دفعوا ثمنها غالبا فى الرجال والمال ، وشرد من بقى منهم على قيد الحياة فالتجأ الكثيرون منهم إلى بلاد النوبة، هربا من الاضطهاد وتعقب المماليك لهم، وأرسل السلطان حملتين فى عامى ١٣١٣ و ١٣١٦ ميلادية إلى بلاد النوبة ، التى كان يحكمها الملك كرنبس . وقد صحب الحملة الثانية الأمير النوبى عبد الله برشنبو (١١٢)

(١١١) جاء فى مخطوط تاريخ قلاوون ٩ إلى صاحب باره وإلى صاحب التاكة وإلى صاحب كدروا وإلى صاحب ديفوا وإلى صاحب أرى وإلى صاحب صفال وإلى صاحب سانج وإلى صاحب كوسه (١١٢) تربي هذا الأمير فى القاهرة تربية إسلامية وقد احتلط اسم هذا الأمير على « ماك ميكل » الذى ذكر فى كتابه تاريخ العرب فى السودان ان اسمه عبد بن « سنبو » وقال انه زنجى بسبب اسم والده « سنبو » والحقيقة ان الاسم « برشنبو » معناه « ابن الأسد » وكان النوبة يميلون إلى استخدام أسماء الحيوانات حربا على عادة شمال الوادي (أنظر كتيب التوفد البوتانى فى حوض النيل الأزرق) للدؤلن .

ابن أخت الملك داود . وقد أسندت إلى هذا الأمير مقاليد الحكم في دنقله بعد أسر ملكها كرنيس (١١٣) وقرية ابراهام اللذين نقلوا إلى القاهرة وانتهت بعزله كرنيس الدولة النوبية المسيحية الشمالية . وسادت البلاد قلاقل ومطاحنات ، بين الجالس على كرسى الحكم والنفر من المغامرين الذين تطلعوا لانتزاع السلطة . فقد حدث بعد عودة الحملة أن قتل كنز الدولة الملك عبدالله واستولى على الحكم ، فأرسل السلطان حملة صحبها ابراهام الذي وعده السلطان بولاية الملك إذا تغلب على كنز الدولة وقد تم له ذلك ، غير أنه لم يعش طويلا فتوفي عام ١٣٢٣ . وظهر كنز الدولة ونادى بنفسه ملكا على كرسى دنقله . وأرسل السلطان حملة صحبها كرنيس للتخلص من كنز الدولة وأعدت الحلقة المفرغة دورتها بعد عودة الحملة بظهور كنز الدولة واغتصابه مقاليد الحكم . واشتدت الاضطرابات الداخلية ، التي تخللتها جهود الجماعات العربية التي دخلت البلاد لتكوين ديارها التي أوضحناها فيما سبق ، واستمرت هذه الحالة أكثر من قرن كان فيها كل من شمال الوادي وجنوبه في عزلة ، بسبب هذه الاضطرابات الداخلية في كل منهما . وانتهت هذه الحال بدخول الزعامات القبلية للمجموعات الاقليمية في اتحاد تزعمه السلطان السنارى الذى انتقل إلى عاصمته الجديدة في قطاعة الاقليمي الذى شمل حوض النيل الازرق جنوبي مدينة « أربجي » واستمر السلطان السنارى في ممارسة سلطانه من عاصمته « سنار » التي أعاد بناءها .

وكان قيام هذا الحلف بين المشيخات المحلية والسلطان السنارى أمراً قرره الاستجابة لعراك حياة مجتمع في صورة جديدة تمخض عنه ذلك الصراع الحثي بين المجموعات العربية التي دخلت البلاد في طرف وبين السكان من أهالى البلاد في طرف آخر ، وقد صهر هذا الزواج المجتمع الجديد في قالب تغلبت فيه مميزات البيئته المحلية التي اتخذت من أنساب تربطها بالعرب مدارج ارتقت بها إلى القول بانحدارها من بيوت الأشراف من العباسيين الذين دخلوا البلاد في أعقاب مختلف الهجرات العربية . وهنالك مجموعات من الوطنيين المستضعفين بقيت محتفظة بمركزها الاجتماعي المتواضع

(١١٣) ورد اسم كرنيس في وثيقة « دير سمعان » التي جاء فيها - كما حققه مارجليوت على نسخة بودليان - ان كرنيس تولى الحكم في عام ١٣١٢ م (٧١١ هجرية) بعد مقتل أخيه الذي لم يعرف اسمه وكان ذلك في العام الثاني من ولاية السلطان الناصر الذي أرسل حملة في عام ١٣١٥ م إلى دنقلا انتهت بتنصيب عبد الله برشنبو ابن أخت الملك داود (أنظر مقال جريفت « وثائق مسيحية من النوبة الذى نشر في محاضر الأكاديمية البريطانية الجزء الرابع عشر عام ١٩٢٨) .

وتغير علاقاتها مع أصحاب الاقطاعات سواء كانت قبلية أو فردية عما كانت عليه في سابق العهود، بل بقيت هذه العلاقات على سابق عهدها المتوارث وبخاصة في مناطق المجموعات الاقليمية الاولى والثالثة والسادسة، وليس معنى هذا أنه لم تكن هناك فئات مستضعفة في المناطق الأخرى، بل كانت هنالك جماعات من السكان الأصليين تحكم فيهم القائمون على الأمر، كما هو الحال في المجموعات الاقليمية الاولى والثالثة والسادسة. وأن هذه الجماعات على استضعافها لم تكن موضع تعسف أو اضطهاد، بل كانوا يعاملون كطبقة خاصة، ترتفع في مستواها الاجتماعي على الرقيق، فهم يملكون حرية ممارسة العمل كما يرغبون، ولا يدخلون في المعاملة بالبيع والشراء وكل ما في الأمر إمكانية نقلهم من سيد إلى سيد، ولا تربطهم بالسيد إلا بعض التقاليد مثل اصطناعهم للحرب وتقديم بعض الهدايا في المناسبات (كالزواج - الولادة، الطهور الخ)، وقد أخذت هذه التقاليد في الاختفاء السريع.

وهكذا سارت الحياة على أطراف متناقضة استغل بعضها الرؤساء الروحيين، الذين سلكوا بها منهجاً خاصاً أملت عليهم نظرياتهم الخاصة. وسار في الجانب الآخر أصحاب السلطان ولم يكن بين هذه الجماعات ما يربط بينها نحو أهداف معينة. فكل من المعسكرين اتخذ طريقه نحو تحقيق مصلحته الذاتية. وكان طبيعياً والحالة هذه أن تعطل الحياة وأن تنتهي إلى ما وصلت إليه من تعطيل الشعور عند الأفراد بضرورة التطور الذي يتمشى مع طبيعة الأشياء. ويمكن فقدان التوازن بين المعسكرين الروحي والمدني من تمهيد الطريق وتعبئته للجماعات القوية لتستولى على الحكم كلها سنحت الفرص التي يضعف فيها رجال الصدارة من هذا الفريق أو ذاك.

٥ - المجموع :

١ (يديته - حياته - مظاهر نشاطه الاجتماعي :

جاء المهاجرون كما سبق أن أوضحنا في جموعهم التي بدأت في قلة بعد فتح مصر (١١٤) ثم أخذت هذه القلة تزايد تدريجياً حتى تحولت إلى موجات متلاحقة من الفارين من شمال الوادي وذلك في القرنين السابع والثامن من الهجرة (الثالث عشر والرابع

(١١٤) لقد حد العهد الذي أعطاه عبد الله بن سعد بن أبي سرح من الهجرة إلى البلاد جنوبي الشمال الأول واتخاذها موطناً غير أن هذا الحظر قد أهمل بعد أن استعاد سكان الوادي ما بينهم من قديم الصلات والروابط .

عشر الميلادى) ، ويرجع تطور الخروج من شمال الوادى فى موجات من الفارين إلى ما أصاب القوم من اضطهاد وعدوان من المماليك الذين تملكوا زمام الحكم فى مصر بعد انتزاعه من العرب أصحاب السلطان أصلاً والذين نظر إليهم المماليك ، وبخاصة المماليك البحرية ، كعنصر غير مرغوب فى بقاءه فى البلد الذى آلت إليهم مقاليد حكمه وذلك لخوف المماليك وقلقهم من قيام العرب والعربان باشاعة الفتن والثورات ، فى كفاح لاسترداد سلطانهم المعتصب . ولم يكن هناك من طريق غير هجرة العرب للخلاص مما حاق بهم بسبب ما حدث فى مصر من تغيرات ، بانتزاع أداة الحكم وانتقال السلطان من أيدي العباسيين إلى الطولونيين الاخشيديين ثم إلى الفاطميين فالأيوبيين والمماليك .

وجاءت إلى جنوب الوادى فى ركاب هذه الهجرات مختلف العقائد والمذاهب الفكرية وبخاصة مع اتباع الفاطميين من جند وغيرهم (١١٥) . وقد بلغ النزاع أشده فى أوائل القرن السابع الهجرى عندما أنزل المماليك بالعربان أفدح الخسائر (١١٦) ، الأمر الذى بلغت معه موجات الفرار ذروتها فى طريقها صوب جنوب الوادى حيث الملجأ الطبيعى .

جاءت هذه الجموع ولها من القوة الروحية ، المستمدة من الحماس للرسالة الدينية الجديدة ما جعلها تتغلغل فى سرعة فائقة فى المجتمع المحلى ، وتكتسح أسسه التى قامت فى ظل نوع من العبادات لم يكن راسخ الأركان بل كان طابعه الغالب تلك البقايا من المعتقدات القديمة التى ورثوها من عهود الوثنية السحيقة فى قدمها والمتعددة المعبودات وكان يسيراً على المهاجرين العرب تقويض جهاز الملكية التى مارسها رجال مؤهلون من رجال الكهنوت . وقد وجد المهاجرون عوناً على ذلك عن طريق المصاهرة ، كما تمكنوا من إنشاء مشيخات وملكيات ، يحكمها زعماء القبائل التى اختار كل فريق منها المنطقة التى تتناسب مع بيئته ، بالقدر الذى قدمته الظروف المحلية فى الوطن الجديد ، وأخذت الزعامات القبلية العربية فى تكوين ديارها التى أخذت فى التوسع بانضواء المجموعات القليلة العدد الضعيفة الجانب فى حمى هذه القبيلة أو تلك . وتمكنت الزعامات العربية من السيطرة الكاملة على مصير الوطن الجديد فى مختلف مناطقه

(١١٥) جاءت مع هؤلاء المذاهب الشيعية التى انتشرت فى صورة أخرى غير ان مدي انتشارها ضيق جداً وهذا الموضوع جدير بالدراسة واثارها ما زالت باقية إلى اليوم
(١١٦) المقرئى البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب

الاقليمية في البادية وفي الحضر وفي الريف . ولم يحاول المهاجرون انتزاع السلطان من الاسرات الحاكمة المحلية بقوة السيف بل تركوا الامر ليأخذ طريقه العادي ، وشغلوا أنفسهم بتوطيد أقدامهم في الأرض الجديدة موضعاً موضعاً ، فنتهم من اشتغل بالزراعة وبممارسة الحرف في المدن وفي مواطن الخصب ، واختلط بذلك مع السكان اختلاطاً كاملاً ، وشاركهم في حياتهم ومظاهر نشاطهم ، ومنهم من ضرب في مسالك الصحراء يخط بسجل حياته بين خطى بعيره ومضارب خيامه ، يردد أناشيده وأشعاره التقليدية ، عازفاً بزمارة منتقلا من واد إلى وادي ، طلباً المواطن المرعى في مختلف مواسمها . وكان اختلاط هؤلاء بأهل المدن في أضيق الحدود . ومن المهاجرين أيضاً من اشتغل بنقل التجارة على ظهور الإبل على الطرق الصحراوية بين النيل ومواقع البحر الأحمر وشمال الوادي والمناطق المجاورة ، كما اشتغلت جماعات في استخراج المعدن (١١٧) . وكان اختلاط هؤلاء بالقبائل التي سكنت ساحل البحر الأحمر .

واستطاع المهاجرون المحافظة على تقاليدهم العربية الموروثة بفضل تنابع الهجرات المتلاحقة ، والتي كانت تحمل دائماً في ركابها دماً عربياً جديداً ، الأمر الذي حال دون غلبة التقاليد واللغات المحلية غلبة كاملة كما كان متوقفاً أن يحدث بين جماعات اتخذت الزوجات والسراير من أهل الوطن الجديد ، الأمر الذي تحيا معه الحياة الشعبية المحلية بامتصاص الوافدين ، وتكثيفهم بعد صهرهم في قالب الحياة المحلية فتدخل لغة الوافدين وتقاليدهم في صراع مع منافساتها من المحليات . غير أن هذا الانتصار الذي كسبه العرب في الجولة الأولى من صراعهم السلمي ، لم تكتب له الغلبة النهائية بعد أن نضب معين الهجرات المتلاحقة ، وبعد مضي الزمن الكافي في الاضطراب الحفي بين العرب وأهل البلاد ، وكان أثر ذلك واضحاً في العرب الذين اشتغلوا بالزراعة ومارسوا الحرف ، ولا شك أن دراسة علمية منظمة في مختلف المهاجر سوف تكشف الكثير عن التطورات ، التي حدثت كما تبين ما كان من روابط بين المناطق وبعضها ودراسة اللهجات المحلية وما أصابها من تغيير وتبديل سواء كانت عربية خالصة أو محلية ، سوف يزيل الستار عن مراحل الصراع في البيئات الاقليمية المتباينة .

(١١٧) يقول المقرئزي ص ٢٧٧ « وقد علمهم مشيراً إلى البشا » أبو عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحميد العمري بعد محاربه النوبة في سنة خمسة وخمسين ومائتين ومعد ربيعه وجبهينه وغيرهم من العرب فكثرت بهم العمارة في البجة (الباشا) حتى صارت الرواحل التي تحمل الميرة إليهم من أسوان ستين ألف راحلة غير الجلاب التي تحمل من القلزم الى عيذاب .

أحدثت الهجرات في مراحلها المتعاقبة كما سبق أن أشرنا تطورات في نظم الحكم ، وفي حياة المجتمع ومظاهر نشاطه الاقتصادية والسياسية فقد زالت ما كان قائماً من فوارق بين الراعي والرعية ، وما بينهما من عبودية مطلقة واستردت الرعية حريتها الفردية ، بزوال جهاز الحكم المتوارث وقيام التقاليد القبلية العربية بعد أن كانت مقاليد الحكم تنقل إلى ابن الأخت أو ابن البنت ، وصارت الأرض ملكاً للجماعة القبلية متمثلة في شخص زعيمها ، بعد أن كانت ملكاً خاصاً لرئيس الدولة أو موقوفه على المعابد وكان الأهلون عبيداً لا يملكون الأرض ، بل يعملون عليها لمصلحة الحاكم ورئيس المعبد أو من ينوب عنها (١١٨) . ولم يكن ذلك النوع من التقاليد التي أقامها النظام القبلي من حيث زوال قدسية الحاكم واختفاء الفوارق بين الأهالي وصاحب السلطان ، وصارت الأرض توزع على الجماعة يقومون على استغلالها ، ودفع الجعل المعين لشيخ القبيلة أو زعيم الدار ، إلا مرحلة من مراحل التطور من النظام الإقطاعي المطلق إلى نظام يعطى للفرد نصيباً من جهوده ، بعد دفع الأتاوة المعينة للزعيم الذي يقوم بدفع جزء منها لحاكم الدار . ولم يكن نظام توزيع الأرض الزراعية ، بين أفراد القبيلة عادلاً مطلقاً ، يقتنع به الجميع حتى لا يكون نواة للتذمر الذي يبدأ أخيراً ثم يتخذ طريقه نحو الظهور في شكل أو آخر .

جاء المهاجرون من العرب تظاهروا القوة المعنوية المستمدة من أسس الدين الجديد ، الأمر الذي أكسب هؤلاء النوم مظهراً قوياً ، تضاءلت أمامه الروح المعنوية المحلية ، وكان من اليسير أن يستولى العرب على مشاعر سكان السودان الذين كانوا في حالة من الانحلال والفوضى ، التي أخذت في الازدياد منذ اللحظة الأولى لدخول المسيحية في البلاد . وقد كانت ربوع السودان بعد دخول المسيحية إليها بعيدة لحد ما عن متناول السلطان الأجنبي (البطلاني والرومي) الذي سيطر على مصر . وكان لزاماً والبلد تدين بالوثنية والعبادات القديمة ، أن يعمل رجال الكهنوت عند دخول

(١١٨) المقرزي ص ٢٨١ / ٢٨٢ جزء ثالث . وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم (النوبة) بوؤد وفدغم الى الفسطاط ذكروا عنه أناساً من أهل مملكته وعبيده بأعو ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان وأنها ضياعه والقوم عبيد لا أملاك لهم وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد المأمونين « وكان ان أنسكر النوبة الاقرار للملك بالعبودية وطالبوا بمعاملتهم كالمسلمين في علاقاتهم مع حكامهم . أنظر نفس المصدر ٢٦٣ / ٢٦٤ عن مملكة علوة حيث يقول تقياً عن ابن سليم الأسواني « وملسكم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا يذكر ذلك عليه بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع لهم وينادون الملك « يعيش فليكن أمره » .

المسيحية ، وقد كانت مقاليد الأمور الدنيوية والدينية في يدهم، أن يعملوا على تكييف رسالة الدين بالطابع المحلي الذي يخدم مصالحهم الخاصة أولاً. فكان هؤلاء الكهنوت أول من تقبل الدين الجديد، واعتنقه ليحتفظ بمركزه في المجتمع ليأرض تقاليده وعقائده الموروثة في ظل الدين الجديد، وحتى لانفلت من أيديهم مقاليد الحكم التي توارثوها عن آباءهم وأجدادهم، وقد ساعد التطاحن المذهبي بين اليعقوبية والملكانية على اضمحلال مركز البعثين التبشيريين، فقد أرسل الأمبراطور جوستنيان بعثته للتبشير بالمذهب الملكاني كما أرسلت في نفس الوقت الأمبراطورة تيودورا زوجته بعثة أخرى للتبشير بالمذهب اليعقوبي وكان ذلك في حوالي عام ٥٤٣ ميلادية .

وحاول رجال كل من البعثين ضم أكبر عدد ممكن من الأنصار، إلى هذا المعسكر أوذاك لتساعد الكثرة على التفوق على الفريق الضليل العدد، دون اعتبار إلى رسوخ العقيدة من عدمه، وهكذا تحولت الجهود التبشيرية لغير الغرض الذي جاءت من أجله، باستخدامها مختلف الوسائل والدعايات للقضاء على الفريق المضاد، وطبيعياً أن يكون ذلك على حساب الدين، الذي جاؤوا به مبشرين وقد أفاد هذا الوضع سكان البلاد وقادتهم لتثبيت أقدامهم في ظل الرسالة الجديدة وهكذا استطاعت البلاد المحافظة على الكثير من تقاليدها في ظل المعركة التي تبادل فيها كل فريق الغلبة إلى حين، حتى جاء الاسلام إلى مصر فكانت أن تمكنت اليعقوبية التي أزرها العرب، وهي دين الكنيسة المصرية من القضاء نهائياً على الملكانية مذهب الباباوات، الذي أيده الرومان وقد بقيت التقاليد الوثنية فالمسيحية المتوارثة في صورة أو أخرى حتى يومنا هذا . ومن تملك التقاليد الباقية « الطاقية أم قرين » التي يلبسها الملوك وسوار الذهب (١١٩)، ومراسيم تقاليد الحكم للشميخات الصوفية أو الادارية، ومنها أيضاً ما هو متبع في استقبال إمام المسجد في أيام الجمعة في بعض المناطق يستقبل الامام عند باب المسجد، ويسير أمامه حامل السيف الخشبي التقليدي أو « العكاز » حتى باب المنبر حيث يسلم إلى الامام قبل صعوده المنبر (١٢٠) ومنها صليب الكحل على جهة الطفل وعملية التغطيس في الماء (١٢١) .

(١١٩) أبو صالح الأرمي س ٢٦٠ ومقال كروفورد « الطاقية أم قرين » الذي نشر في مجلة السودان في مذكرات ومدونات س ٣٢٣ / ٣٤ من المجلد السادس والعشرين (عام ١٩٤٥) وما يجدر التنبيه اليه أن « القاف » في « أم قرين » تنطق كحرف الجيم عند أهل مدينة القاهرة أو كالفاء الصعيدية .

(١٢٠) حامل السيف الخشبي « أو المكاز » هذا يمثل صورة من الصور التي ترمز إلى الوظيفة التي يحتلها « الجندي » وستعرض لهذا في مراسيم تقاليد الحكم .

(١٢١) عملية التعميد .

ويرجع بقاء هذه التقاليد وممارستها في ظل الاسلام إلى تلك الجماعات من الأشراف واضرابهم من انتشروا في دار الاسلام ، بعد ولاية عثمان رضى الله عنه للخلافة بعد أن منعهم الخليفة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من الهجرة ، وكان لهؤلاء وما تميزوا به من حرص على المال وطمع في الاستكثار منه ، وهم في ذلك إلى العقائد والرغبات التي استقرت في أعماق نفوسهم من ممارستهم التجارة قرون عديدة كانت مقاليدها في يدهم وهم سدنة البيت الحرام وقد أكسبتهم خبرة في الأعمال الاقتصادية وولايتهم للقوافل ، الحنكة والدهاء ونفاذ البصيرة كما جعلتهم أن يزدروا بالقيم التي جاء بها الدين الاسلامي ، في سبيل مصلحتهم القريبة والبعيدة ، فاستطاعوا أن يكيفوا الوضع الديني الجديد بما يتناسب مع مغامراتهم بعد أن فقدوا طريقهم إلى الولاية والسلطان . وجاء في مخطوطة « تاريخ سنار » . « وأيضاً في مدة خلافة أمير المؤمنين هارون الرشيد قدم إليه جماعة من بر السودان وهو ببغداد وطلبوا منه أن يرسل معهم علماء يعلموهم أمور الديانة فأرسل معهم سبعة علماء من بني العباس ووصلوا إلى دنقلة وأقاموا بها وتناقلت منهم ذرية (١٢٢) كثيرة ، وإذا رجعنا إلى كتاب الطبقات نجد تصويراً لحالة البلاد الفكرية والروحية ، كما تناقلتها الاجيال حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، حيث دونها الشيخ ضيف الله في طبقاته (١٢٣) وليس من شك أن كثيراً من التعديل تغيير وتبديل قد أصاب الروايات التي أخذت سبيلها عن طريق النقل الشفوي من جيل إلى جيل وقد بعدت الشقة في بعض الأجزاء لاكثر من ثلاثة قرون وهذه الفترة الطويلة كفيلاً باحداث ما نجده من خوارق للعادات وكرامات أراد بها ناقلوها وهم اتباع هذا الشيخ أو ذاك أن يرفعوا من قدره بالنسبة لغيره . ويجدر بنا أن نذكر ما للبيئة المحلية والزوجات والسراير من أهالي البلاد

(١٢٢) بنصه من مخطوط تاريخ ملوك السودان وأقاليمه ص ٢ - دار الكتب المصرية (صورة شمسية نقلا عن المخطوط المحفوظ بالكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٥٠٦٩ يبدو ان هذا الطلب قد تقدم به بعض حاشية تيرقي ابن كبير التوبة زكريا بهنسى الذي قدم على المعتصم (٢٠٨ - ٢٢٧ هـ ٨٣٣ - ٨٤٢ م) لتدوية مشكلة البقط المتأخر كما يبدو أن تيرقي قد سحب نقر من مسلمي دنقلة لتسهيل مهمته في بغداد .

(١٢٣) قام بنشر كتاب الطبقات الأستاذ سليمان داود مندبل في عام ١٩٣٠ كما قام الأستاذ الشيخ ابراهيم صديق بنشر طبعة أخرى في عام ١٩٣٠ م بعد أن حقق ما جاء فيها وعاق عليه وهذا الكتاب جدير بالدراسة الخاصة في مختلف نواحي الموضوع وفي مقدمتها تحقيق ما جاء في الكتاب وتنقيته مما قد يكون مضافاً اليه لغرض ما .

من أثر في تكييف الحال التي كانت تختلف باختلاف مناطق نفوذ رجال الدين ، الذين لم تكن تربطهم سياسة دينية موحدة بل كانت هناك منافسات بين أولئك المشايخ مصدرها التلاميذ ومن تشجيع للعلماء من أنصار ومريدين .

ان هذه الظاهرة ظاهرة التشيع لأصحاب السجاجيد ، ورفعهم إلى مراتب الكشف عن الغيبات والايان بالمعجزات وخوارق العادات تصور لنا ما كان عليه المجتمع من تدهور في حياته المعيشية . الأمر الذي دفع أفراده إلى الالتجاء إلى هؤلاء الرؤساء الروحانيين طلباً للنجدة والغوث في قضاء الحاجات ، من دفع للأذى والضرر وجلب للنفعة والخير والثوبة عند الله تعالى وصرّف للعدو ولم تكن هذه الحالة من المعتقدات في الشعوذة والسحر وما إلى ذلك (١٢٤) وليدة الهجرات العربية بل هي عريقة في القدم توارثها القوم من آباءهم وأجدادهم عن أقدم العصور الوثنية عندما تمخضت عنها حياة مجتمع ارتبط بسلفه من الغابرين وغيرهم في صورة أو أخرى من التقديس والتبريك، وأخذت هذه المعتقدات تتطور مع انتقالها من عصر إلى عصر . وتمسك باحيائها في العهد الاسلامي بعض الرجال الذين استأثروا بالتعليم الديني وورث خلفاؤهم عنهم القيام بهذا النشاط وقد يكون رجل الدين الأول عارفا لرسالته قائما بها على وجهها الصحيح غير أن الأمر قد أصابه التعديل والتبديل جيلا بعد جيل وبخاصة أن دخول أمثال هؤلاء العلماء للبلاد لم يكن متصل الحلقات . وكان للمرأة الوطنية أثرها الخطير في تكييف الرسالة التعليمية في نطاق التقاليد والعادات الحامية التي توارثتها عن بيتها ، وقد ساعد ذلك على جعل الافادة من القرآن والعلوم النقلية محدودة وصرار طلاب العلم يحفظون عن ظهر قلب ما يرويه مشائخهم دون المعرفة والعمل على تبسيط المعارف ونشرها لتساهم في تقويم المجتمع . وآية ذلك ان مسألة الزواج والطلاق كانت تباشر دون استكمال العدة الشرعية في الوقت الذي كان فيه علماء الدين (الفقهاء) يمارسون نشاطهم .

وسرعان ما اختفت الشخصية العربية في المناطق المنعزلة التي اختلطوا فيها

(١٢٤) يتطلب موضوع « الشعوذة والسحر » دراسة دقيقة على أسس علمية في محاولة لكشف أسرارها . فهذه لا تخرج عن كونها أداة للسيطرة على عقول العامة وتسخيرهم كما كان يفعل رجال الكهنوت في الوثنية والكثير من الأعمال التي يظن لأول وهلة أنها من المعجزات وخوارق العادات ومنها صناعة المطر واستخراج الذهب من بعض الزواحف بعد حرقها وغير ذلك مما لا يسمح المجال بالتوسع في ذكره فهذا يرجع إلى « مهارة علمية » يستخدم في إنجازها بعض العناصر التي تساعد على عملها .

بالكثرة من السكان المحليين وكان من الطبيعي أن تتأثر المقومات التي جاء بها الاسلام وتختلط بالتقاليد والعادات الموروثة كما سنبينه فيما بعد ، وبهذا صار المجتمع تربة صالحة تنمو فيها الدعوات التي تبدأ مرحلتها الأولى بالتوجيه إلى الإصلاح ثم يتحكم فيها الانصار والاتباع فيفقد صاحبها سيطرته ويخضع للتيارات التي توجهه لتحقيق أهداف الجماعة أو الجماعات صاحبة المصلحة والتي كانت تتصيد الفرصة المواتية لتحقيق مطامعها بتشجيع الحركات الخفية ذات الطابع القومي وتقوم على رعايتها حتى تستكمل مظاهرها وتستهوى الاتباع وعند ذلك تعمل الجماعة أو الجماعات ذات المصلحة على توجيه الحركة نحو أهدافها الحقيقية ويمجد الزعيم نفسه ، وقد جرفته الحركة عاجزاً عن ملاحقتها في خطاها . ويرجع ضعف القائم على الدعوة وعجزه عن السير بها في طريقها الذي رسمه لها إلى أسباب نفسانية فهو قد اعتكف فترة من الزمن طويلة أو قصيرة في نوع من الاستذكار والعبادة في خلوات قد تستمر لأيام وشهور على غذاء من القلعة بمكان ويخرج بعد أن يشعر ببلوغه المرتبة التي تمكنه من إظهار دعوته . والفكرة أصلاً قد قامت في باطنياته ثم صهرتها فترة الاعتكاف وأعطتها الصورة المناسبة ، ولاشك ان هؤلاء بعد خروجهم من خلواتهم يكونون في حالة عصبية مرهقة ، بسبب الاجهاد الطويل والصوم وبذلك تكون الأعصاب قد تحطمت تحطيماً بالغاً فتفقد قدرتها على الاستمرار على تحمل الأعباء في نواحيها المختلفة - واني أعرف أكثر من حالة نادى فيها أصحابها بأن أحدهم « نبي الله عيسى ، وثان بأنه « قطب الزمن ، الخ الخ . . وقد استطاع أهلهم حجزهم لفترة من الزمن قاموا فيها على رعايتهم وبذلك هدأت أعصابهم وعادوا إلى صوابهم .

ولهذا نجد ان البلاد لا تخلو في سنة من سنى حياتها الطويلة من قيام أكثر من حركة اتخذت مظاهر مختلفة فبعضها يستشرى ويحدث أثراً بعيداً يكون في الغالب معطلاً لتقدم الحياة اليومية وهذا النوع يسلك مسلك العنف في دعواه ونشرها وتلتف حوله الجماعات من المتزمتمين التي تجد في مثل هذه الدعوات ما يفرج عنها كربتها . وهناك دعوات لا يلجأ زعمائها إلى العنف بل تأخذ طريق اللين والمسايرة بما يتمشى والحياة اليومية وتكتسب لهذا النوع الغلبة والبقاء .

وتتميز الدعوات التي تستشرى وتعطل تقدم الحياة بظهورها في المناطق المنعزلة التي يغلب فيها العنصر المحلي حيث تلقى مثل هذه الدعوات من الأنصار والمريدين

ما يساعد على امتداد السيطرة إلى مناطق أخرى لا تستطيع الوقوف أمام التيار أو انها تجرد في الدعوة الجديدة مخرجا لها من حالة قائمة لا ترضاها .

ونذكر عن سبيل المثال لا التحديد بعض الحوادث التي حصلت في أوائل القرن الحالي .

عام ١٩٠٣ قام محمد أمين الشريف البرناوى (نسبة إلى برنوى) بحركة دينية في « دار جمع » انتهت باشتباكه مع إدارة السودان والقبض عليه وشنقه في الأبيض .

عام ١٩٠٤ ادعى محمد ود آدم بأنه « نبي الله عيسى » وقد قتل في معركة مع الجنود في سنجه .

عام ١٩٠٤ ذهب حسن ود حسونة من « أبي دليق » بالبطانة إلى كردفان واثار حنكة دينية إنتهت بالقبض عليه وعند التحقيق ظهر ان هدفه كان لجمع المال كما ورد المصادر الرسمية ، وقد أفرج عنه بضمان « حسن السير والسلوك » .

عام ١٩٠٨ اشتبك « عبد القادر ود حبوبه » في الكنتية بالجزيرة مع إدارة السودان وتقول الدوائر الرسمية ان عصيان « ود حبوبه » يرجع إلى حكم أصدره مفتش المركز لصالح عمه الشيخ عبد الله مساعد العمدة وأخيه محمد ، وذلك في منازعة عن أرض طالب ود حبوبه بردها اليه . أما الاسباب التي تحتفي وراء هذه الحادثة هي ان رجال المساحة المصرية الذين عهد إليهم بالقيام بتخطيط أرض الجزيرة تمهيداً لمشروع زراعة القطن قد وضعوا أوتاداً حديدية لتحديد المناطق غير ان رجال ود حبوبه قد قاموا برفع هذه الأوتاد بسبب اعتقادهم بأن مثل هذه الأوتاد سوف يمنع المطر الموسمي الذي تقوم عليهم زراعتهم . فذهب المفتش مونكريف ومعه المأمور اليوزباشى محمد شريف إلى « ود حبوبه » في قرية وعندما قابله المفتش وجه اليه عبارات لوم قارصة إلى الحد الذي دفع بعض أنصاره أن يطعنوا المفتش طعنات أقضت إلى موته وقتل معه المأمور . وأخذت هذه الحادثة صورة خطيرة أفلقت إدارة السودان ومرجع ذلك إلى قرب عهدها بنهاية المهديّة وعلاقة « ود حبوبه » بذلك النوع من الحكم . فأرسلت القوات من الجيش المصرى إلى الجزيرة وقامت الدوريات النيلية في النيل الأبيض بين الخرطوم وكوستى ظناً بأنها حركة من المهديين واسعة النطاق وانتهت الحملة بهزيمة أنصار ود حبوبه الذى قبض عليه بعد ذلك وقتل مع بعض أتباعه شنقاً وسجن آخرون وقد أقامت هذه الإجراءات ضجة في الصحف المصرية وفي العام الاسلامى .

عام ١٩٠٩ و١٩١٧ . وهناك حوادث بين ١٩٠٩ و١٩١٧ منها حادثة في الرماش بجوار سنجه والثانية في كسلا .

عام ١٩٢١ قام الفقيه عبد الله السحيني بدعوته في مركز نيالا وانتهت بانحاده ثورته .

* * *

وقد يبدو غريبا أن تظهر هذه المحاولات الانقلابية أو الحوادث العنيفة في مثل هذا العدد في هذه الفترة القصيرة من الزمن في الوقت الذي تنعدم فيه كلية مثل هذه الحالات من الحوادث العنيفة في عهد السلطنة السنارية وفي الستين سنة الأولى من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان أي من عام ١٨٨٠ . ففي الثمانين من القرن الماضي (١٨٨٠ ميلادية تقريبا) بدأت الزوبعة تتجمع ولم يمض طويل وقت حتى تمخضت عن حركة مهدي السودان في مظهرها العنيف . كما سئدنه في الكتاب الثالث من هذه الدراسة . وبعد وفاة المهدي ببضعة أعوام قام أبو جميرة بدعوته في دارفور وناصره الكثيرون ومنهم الامير أبو الخيرات من بيت سلاطين الفور ومطالب بالعرش (١٢٥) وكان هدف أبو جميزة أن يغزو أم درمان ليقضى على حكومة الخليفة عبد الله التعايشي لولا أن عاجلته المنية وعجز خليفته عن القيام بتنفيذ خطة سلفه كما ان الحركة لم تأخذ مرحلتها الأولى الكافية لتمكين أبو الخيرات من السيطرة عليها توجيها لتخدم مطامعه .

وهناك حادثة أخرى حدثت في النصف الثامن من القرن السابع عشر الميلادي وذلك عندما ذهب الشيخ حمد النحلان ابن محمد البديري المشهور « بود الترابي » إلى الحجاز لتأدية فريضة الحج وهناك في مكة نادى بنفسه « المهدي المنتظر » فسك الحجاج بتلابيبه وأوسعوه ضربا وحبس من صحبه ثم أطلق سراحه . وقد أرسل هذا الشيخ تلميذه « ميرف » إلى سنار لإعلان دعوته بأنه « المهدي المنتظر » فأمر الملك بادي أبو دقن بقتله وهكذا قضى على هذه الدعوة . ولما عاد الشيخ محمد النحلان إلى السودان كان قد تخلى عن عودته وكرس حياته في العبادة (١٢٦) .

(١٢٥) ظهر أبو جميزة بدعوته الدينية في ١٨٨٨ م . وقد حدث أن استدعى الخليفة عبد الله التعايشي الأمير زقل من دارفور تاركا يوسف ابن السلطان ابراهيم على ادارتها ولما ظهرت اتجاهات يوسع الى الاستقلال أرسل الخليفة . عثمان جانو أمير كروفان لكبح جماحه . غير أن يوسف قد هرب الى جبل مرة حيث قتل في ١٨٨٨ م . ونادى أخوه أبو الخيرات بنفسه سلطانا وانضم الحركة التي تزعمها أبو جميزة ولكنه فشل بعد وفاة هذا الزعيم الديني . ولم يكن خليفته من الكفاءة بمكان .

(١٢٦) انظر كتاب الطبقات ص ٦٠

وقد يبدو هذا عجيبا حقا إلا أن هذا العجب سوف يتلاشى فيما أرى إذا رجعنا الى ما جاء في كتاب الطبقات والروايات المحلية . فالطبقات قد ذكرت تراجم حوالى خمسين ومائتين من الشخصيات الدينية التي كان لكثير منهم . كما أوضح الكتاب المذكور . مراتب صوفية وكرامات ظاهرة . فمنهم قطب الوجود ، (١٢٧) و « حامل لواء أهل الأعيان » ، و « الأربعين الذين وصلوا القطبانية » ، الخ (١٢٨) وهنالك عدد كبير من الشخصيات الدينية لم يذكرها صاحب الطبقات لسبب أو آخر . سواء لعدم وصول أخبارهم الى الشيخ ود ضيف الله أو أنهم عاشوا في زمن لاحق لكتابة الطبقات غير ان الفقهاء في مختلف المناطق في يومنا هذا يحتفظ كل منهم بسلسلة من أسماء الفقهاء من أهله وأهل منطقتهم ولكل من هؤلاء روايته عن مفاخر أولئك الفقهاء وما وصلوا اليه من مراتب عالية في التصوف . ومن هذا أجد أن الفترة التي تولى فيها السلطان السنارى والسنيين عاما من امتداد الإدارة المصرية الى السودان أى الفترة من حوالى ١٥٠٠ م الى ١٨٨٠ م لم تخل سنة من سنواتها من هذا النوع من الحركات الدينية مع اختلاف واضح في مظاهرها . فبينما نجد ان الحركات التي حدثت بعد ١٨٨٠ م حتى ١٩٢١ م . قد سلكت مسلك العنف الذى فرضه الفراغ المفاجيء الذى تسبب عن الاسراف في إلغاء الرقيق وهو دعامة اقتصادية أساسية في قسوة بالغة على يد أجانب أطلقت لهم الحرية في ادارة البلاد السودانية فأفسدوا الجهاز الإدارى وتعطلت الحياة الاقتصادية وكان من نتيجة ذلك قيام الثورة المهديّة التي سوف تتعرض لها في القسم الثالث الخاص بامتداد الادارة المصرية إلى السودان . أما الحركات التي ظهرت قبل ١٨٨٠ م فقد اتخذت صورة بعيدة عن العنف فقد كان التنافس قائما بين الفقهاء وأتباعهم كما أوضحنا من قبل وكانت العلاقات بين الزعماء الدينيين المحليين والحكام على خير ما يكون بل وصلت الأمور إلى أبعد من هذا فقد كانت لهؤلاء الفقهاء الكلمة العليا فالسلاطين يتقبلون وساطاتهم ويستجيبون لها . كما كان السلاطين والحكام يلجأون إلى الفقهاء طالبين منهم الدعاء لقضاء حاجاتهم وحل مشكلاتهم وشفاء مرضاهم الخ الخ (١٢٩) ولاشك أن الفقهاء في تلك الفترة التي سبقت عام ١٨٨٠ م قد شغلوا مرتبة الرئيس الدينى في المنطقة وبجوار هذا تضاءلت سلطة

(١٢٧) المصدر أنف الذكر ص ٨ ترجمة الشيخ الزين ابن الشيخ صغيرون .

(١٢٨) أنظر كتاب الطبقات ترجمة « عبد الرحمن بن جابر » ص ١١١ وتراجم تلاميذه الذين بلغوا درجة القطبانية .

(١٢٩) أنظر خطاب الشيخ محمد بن الوزير الشيخ عدلان وزير السلطان بادى آخر سلاطين

الفتح الى الشيخ احمد بن ابراهيم الفرضى . (الملحق السادس) .

الملك أو الزعيم المحلى . وقيام هذا النوع من الحكم الذى تتوزع فيه السلطات بين اثنين « رئيس دينى ، و « رئيس مدنى ، لم يكن غريباً على المجتمع لما ورثه عن أسلافه من عادات وتقاليد قديمة الأمر الذى سنتعرض له فى القسم التالى .

٥ - المجتمع :

(ب) نظام الحكم :

كانت مقاليد السلطان فى العهود التى سبقت سيطرة العرب القبلية قائمة على أسس دينية يتولى تصريفها رجال من طبقة الكهنوت يتبادلون السلطة على نحو ما كان يفعله اضراهم فى مصر التى ورث عنها هؤلاء فى الشطر الجنوبى الوادى (السودان) . فالملوك مؤهلون يعاونهم رجال الكهنوت ، وقد انطبعت هذه النظم بالطابع المحلى الذى تأثر إلى درجة بالغة بمجريات الأحوال فى الشمال وبما أصاب حياة المجتمع من دخول الجماعات الافريقية البدائية فى دائرة نفوذ حكومات جنوب الوادى . وقد بقيت هذه النظم فى صورها المختلفة حتى الفترة التى بدأت فيها الهجرات العربية تشق طريقها نحو الجنوب فى مجموعات متلاحقة اختلقت بالسكان المحليين وصاهر زعماء القبائل العربية بيونات الحكم فى المواطن التى استقرت فيها رحالهم وتمكنوا عن طريق هذه المصاهرة من ولاية السلطان تدريجياً وكان لزاماً أن تترك المرأة الوطنية صورة من تقاليدها ومعتقداتها التى ورثتها عن بيتها فى أبنائها ومن هؤلاء الأبناء من تدرج لولاية الحكم بحق وراثته أبناء الأخت أو أبناء البنات وكانت مقومات السلطان قائمة على عناصر متشابهة من الدين والتقاليد والمعتقدات ذات الجذور البعيدة العمق فى حياة المجتمع ولم يكن من اليسير أن تقتلع هذه العناصر بل قدر لها أن تصطرع فى عراق خفى مع عناصر الحكم ومقوماته التى جاء بها المهاجرون .

قامت زعامة العنصر الوطنى للحكم على علاقة وثيقة الارتباط بالدين وبممارسة أنواع من السحر والشعوذة التى ترتبط بدورها بحياة المجتمع ومظاهر نشاطه . قد تكون المراحل الأولى لانتقال الحكم لأبناء العرب أثرها فى اختفاء بعض المقومات التى قامت عليها الزعامة الوطنية وذلك بعد أن بسط العرب سيطرتهم وبمارستهم للحكم حسب التقاليد القبلية العربية - غير أن هذا الاختفاء كان مؤقتاً فبدلاً من أن يمارسه الزعيم العربى قد قام بجانبه الفقيه الدينى الذى اختص بأموال الدين والسحر والشعوذة فى شكل أو آخر كما أشرنا إليه فى الصفحات الأولى من هذا الباب ولم يحتفظ

الزعيم العربي إلا ببعض المظاهر التي تمت بصلة للدين والسحر منها خروجه في المواسم لبذر أولى البذور وغيره من الاحتفالات وفقاً للتقاليد المرعية التي يتولاها الزعيم بحكم صدارته . ولم يكن انتقال السلطان إلى العرب ومن قام بجانبهم من الفقهاء عاملاً على إحداث تغييرات ذات أثر في المجتمع في حياته اليومية التي استطاعت أن تكسب الغلبة وأن تبقى فالنظم العربية قد أعطت الوطنيين حقوقاً خرجت بهم من استعباد الحكام السابقين للعرب وجعلت للفرد كياناً تساوى فيه مع العرب غير أن ذلك لم يقطع صلة الوطنيين بماضى تنظيماً مجتمعهم . ليس من السهل أن تحل نظم جديدة مكان نظم قديمة مالم تكن هذه النظم الجديدة متمشية مع التطور الطبيعي للأشياء والاحداث رد فعل بعيد الأثر في تهيئة الأرض الصالحة للانتفاض على هذه النظم الجديدة وعندما تحين الفرصة لذلك . بصرف النظر عن صلاحية هذه النظم الجديدة وتفوقها على القديم الموروث فالمسألة يتحكم فيها الرأي الوطنى وفق تكوينه الاجتماعى الخاص به والذي يحدد عقله هو ما يتمشى مع طاقته وحاجياته اليومية .

توارث طبقة رجال الكهنوت الحكم في المدن الكبيرة وتولى أقاربهم وأقاربهم حكم المناطق الريفية وكان انتقال الحكم محصوراً في أبناء الأخت وأبناء البنت كما سبق أن أوضحنا . وكانت الأرض الزراعية ملكاً خاصاً لأؤلئك الحكام أو موقوفة على المعابد الدينية وهى في ذلك صورة لما كانت عليه في شمال الوادى مع اختلاف لا يعتد به لقيام معبودات محلية بجانب المعبودات المصرية . وقد ترك للمواطن العادى العمل على الأرض وفلاحتها وكان عليه أن يتقبل ما يوجد به عليه مالك لأرض لاستقامة حياته التي لم تكن بأحسن مستوى معيشة لريق الذى استخدم بكثرة في الزراعة ورعى الماشية والخدمة البيئية كما جند لخدمة الحاكم في حروبه وغاراته التي يشنها على أعدائه . وقد عملت حالة المناخ في المناطق المختلفة على الاستكثار من تملك الرقيق إلى الدرجة التي صارت معها جميع الأعمال اليدوية شاقة أو خفيفة موكولة إلى سواعد الرقيق . وقد توارث القوم هذه التنظيمات الاقطاعية التي قامت أساساً على الرقيق الذى صار حجر الزاوية في حياة المجتمع وسوف تتعرض فيما بعد إلى أثر هذا العنصر في مجريات وما حدث من ثورات وقلقل .

وبما يجدر ذكره ان الزراعة قد احتفظت بأسسها البدائية ولم يصعبها تطور من ناحية النوع أو الاكثار من المحصول لأغراض تجارية أو من ناحية الآلات التي

كانت تستخدم في فلاحسة الأرض . وبقيت الزراعة محصورة في الأذرة (١٣٠) بأنواعها الخاصة بمختلف المناطق ويعتمد في زراعة هذه الغلة على الأمطار الموسمية التي كانت كثرتها وقلتها من موسم لآخر تتحكم في المحصول الاتاجي وقامت بجانب هذا المحصول الغذائى الرئيسى بعض الزراعات المحدودة من خضر وفاكهة لسد الحاجيات المحلية ويتم التبادل التجارى عن طريق المضايقة وكان الرقيق والريش والعاج وبعض المصنوعات الجلدية والذهب والمذسوجات القطنية المعروفة بالدمور من السلع التي تستبدل بالتجارة الواردة مع القوافل .

كانت البلاد عند دخول الهجرات العربية الجماعية في حالة من الاخلال والتطاحن بعد ما أصاب مدينة البلاد من تدهور في أعقاب الهجوم الاتيوي الذي شنه النجاشى عيزانا على مروء في منتصف القرن الرابع الميلادى . فقد صارت البلاد منقسمة شيعاً متفرقة يحارب بعضها البعض الامر الذى جعل الروح المعنوية المحلية تتضاءل وتخبوا أمام الروح القومية التي حملها المهاجرون من العرب والمستمدة من الحماس الدينى الاسلامى وقد أخذ هؤلاء المهاجرون في العمل على بسط سيطرتهم التدريجية حتى آلت إليهم مقاليد الحكم وتمكنوا من إدخال التنظيمات العربية القبلية على المجتمع المحلى . وكان من تلك التنظيمات ما يتمشى مع التطور الطبيعى لتقاليد محلية وكان البعض الآخر تطوراً مفاجئاً للحالة القائمة وقد أصاب ذلك حياة المجتمع بتصدع عميق الاثر في حياة الامرة وعلاقتها مع الزعيم والأرض الامر الذى قام على روابط دينية . فقد أتولى شيخ القبيلة الحكم في مجموعته القبلية ومن سكن معهم -ا- في دارها من العشائر المتحالفة وصار الحكم وراثياً في بيت الشيخ . وتكونت من مجموعات القبائل بحكم الرقعة الاقليمية التي اتخذتها دياراً لها زعامات اقليمية تولاها « شيخ المشايخ » الذى يكون عادة شيخ أقوى قبيلة في المجموعة وقد عرف هذا

(١٣٠) ورد ذكر الأذرة في كتب الرحلات كغذاء رئيسى في البلاد كما زرع القمح في المناطق الشمالية (دقلا) ويبدو ان الأذرة الشامية قد دخلت البلاد مع العرب بعد قيام السلطنة السنارية وهذا النوع من الأذرة يعرف في البلاد باسم « عيش الريف » ويقصد بالريف « شمال الوادى » وتعرف أيضاً باسم « قنقر » (قاف صعيدية) وهذه نوية معناها أوراق القمح ويجدر القيام بدراسة يقصد منها التعرف على تحقيق دخول النباتات التي لم تكن معروفة قبلا سوف تكشف عن العلاقات الاقتصادية بين البلد ومصادر انتاج الأنواع المستوردة .

اللقب في عهد السلطنة السنارية باسم الملك (١٣١) أو المانجل (١٣٢) وتستعمل كلمة « أرباب » مع هذين اللقبين للتكريم الرفيع وتطلق أرباب على أفراد الأسرات المالكة .

وكان الشيخ يمارس مسؤولياته في مجلس الأجاويد وذلك في المسائل الخارجية عن سلطاته التقليدية التي يباشرها بشخصه وهذه تتلخص في توزيع الأراضي الزراعية على رؤساء البيوت وأن يحافظ على حقوق القبيلة في الأراضي التي تحتلها والآبار التي تستخدمها الطرق والمفازات ، (العقبات) الواقعة في حدودها الإقليمية وإذا كانت القبيلة ضاربة القبيلة في الصحراء فشيخها يتولى إصدار أمره بالرحيل والنزول والقيام في موطن المرعى الموسمية وتختص كل قبيلة بموطن مرعاها الخاص بها والذي يحدد عادة بأشجار مطلة على حدوده الأربعة ويفضل زراعة الأشجار عن وضع أحجار بسبب أن موجات زحف الرمال تنكسر عند الأشجار وتطغى على الأحجار وتخفي أثرها . وعلى الشيخ أن يكون عارفا بتقاليد القبيلة وتقاليد القبائل المجاورة لها في الدار وأن يكون حافظا للأنسب وأن يقوم باستضافة الغرباء الذين ينزلون دار القبيلة وفي بعض القبائل يأخذ الشيخ على عاتقه مسؤولية ما يحدث في حدود دار قبيلته من حوادث يدفع التعويض ودية الدم . بهذا حق له أن يحصل على جانب من المال أو الغلة ويحفظ به لمصلحته .

كما كان على الشيخ أن يتولى تنظيم إقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك من العادات القائمة فالشيخ بذلك رمز القبيلة يتولى إداره شؤونها الخاصة والعامه ويفض مشاكلها وينظم علاقاتها مع شيخ المشايخ . وهو الذي يقوم بجمع العشور عن الأرض الزراعية والتي تكون عادة هينا ويرسل جزءا منها إلى شيخ المشايخ وهذا بدوره يدفع جانبا الى خزينة السلطنة السنارية عند قيامها على رأس اتحاد المشيخات في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) .

(١٣١) يرجع ان أصل هذه الكلمة من الأثيوبية حيث معناها عظيم كما ذكره بدج في كتابه المصري جزء ٢ ص ٢١٢ .

(١٣٢) أطلق هذا اللقب على زعماء قرى (قاف صعيدية) خشم البحر الدندر - القصارف بيلا - دقلا - الكيلي - وامتد في زمن لاحق إلى زعماء القضايات (ينطق القاف أحيانا غينا) والبديرية من قبائل كردفان . وتعرف هذه المناطق باسم المانجليات مفردا مانجليه نسبة للمانجل - وهذا لقب لم يتحقق مرجعه بعد تحقيقا يخفى معه الشك ويعتبر هذا من أرفع ألقاب السلطنة السنارية أنظر هامش / ٥٢ :

فاذا قارنا بين تنظيمات المجتمع التي توارثها القوم وبين ما استحدثه العرب نجد أن الوطنية . استرد شخصيته وكيانه في المجمع كما استرد حرية في أرضه التي يستغلها بزوال الفوارق بينه وبين حكامه من الغابرين وصار عليه أن يدفع للزعيم القبلي المحلي المقرر من الضرائب وكان من نتيجة هذا التطور دخول تحسين على مستوى المعيشة للأفراد وتبعاً لذلك فتحت افاق جديدة غير أن طريق التطور والتقدم قد أصيب بنكسة (أولاً) بسبب من أصاب شمال الوادي من تدهور وانحلال وتطاحن تحت حكم المماليك وكان لهذا أثره في العلاقات بين شطري الوادي وبخاصة من الناحية الاقتصادية لتوقف التبادل التجاري (ثانياً) ان التغييرات التي استحدثتها العرب في الزعامة القبلية والعائلية والأرض اقتلع جذوراً بعيدة العمق في حياة المجتمع وتقاليده الدينية . ورغم ان هذا الاصلاح قد أدخل تحسينات لها قيمتها إلا أنه لم يأخذ طريقه الطبيعي للتطور في فترات كافية تسمح لقبول الاصلاح الجديد والدفاع عنه .

وتأثرت بلاد جنوب الوادي (السودان) بالحالة التي قامت في شمال الوادي (مصر) وتعطلت معها التجارة فاختل الأمن وكثر التعدي بسبب الصراع الذي دفعت اليه الاطماع القبلية وكان من نتيجة هذه المطاحنات اشتداد الضيق الاقتصادي والانحلال الاجتماعي . وكان أثر هذه الحالة واضحاً في الجزء الشمالي من جنوب الوادي (النوبة السفلى) لاتصاله الوثيق بشمال الوادي حيث أخذت الأحوال في التدهور كما أوضحنا وتأثرت المنطقة الوسطى من البلاد بالنشاط العربي على ساحل البحر الأرتيري وقد امتد هذا النشاط نحو حوض النيل الأزرق وشق طريقه نحو المشيخات المترامية فأدخل فيها روحاً جديدة من الانتعاش الاقتصادي الذي خلق العناصر المشتركة التي مهتت القيام حلف بين المشيخات مع السلطنة السنارية .

* * *

ج) التنظيمات الاقتصادية :

قامت الحياة اليومية للفرد والمجتمع على أسس وثيقة الارتباط بالعقيدة الدينية التي كفلت مطلق التصرف للزعيم المحلي الذي يختار عادة من رجال الدين كما سبق لنا شرحه . وكانت الأرض هي الركن الأساسي الذي نشأت عليه العلاقات بين الزعيم والعامل على الأرض . واختص الزعيم بملكية الأرض بوصفه صاحب السلطان

وهو الذى يجرى توزيعها على أصحاب البيوتات من رعيته بالقدر الذى يتناسب مع إمكانياتهم على العمل الزراعى . وكان التوزيع فى كثير من الأحوال مثار مشاكل ومصدر تدمر وقلق . فقد يعتبر الزعيم أن ما قام به توزيعاً عادلاً بينما يرى العاملون على الأرض غير ذلك . وبقيت ملكية الزعيم للأرض قاعدة سارت عليها المجموعات العربية فى صورة تناسب مع تقاليدهم وما ألفوه فى مواطنهم الأولى وفى معابر هجراتهم وصارت الملكية للأرض فى عهد العرب معترفاً بها وحددت العلاقات بين الملكية الجماعية للقبيلة صاحبة الدار كطرف أول وبين العامل على الأرض والمنتفع بها كطرف ثان هذا فيما يختص بالأراضى الزراعية وهى الواقعة عادة فى المناطق التى تجرى فيها المياه المستديمة الجريان أو الموسمية ، أما عرب البادية فكانت علاقاتهم بالأرض مختلفة كل الاختلاف عما هى عليه فى الحضر . وكان من أترحالات التدهور التى أصابت شمال الوادى وجنوبه فى القرن الخامس عشر الميلادى ما ساعد على ركود العلاقات التجارية وصار كل من شطرى الوادى فى عزلة . وتوقف دفع البقط بأيلولة مقاليد الحكم للعرب فى جنوب الوادى وكان طبيعياً أن تصاب العلاقات بتوقف تام لما بين العرب فى الجنوب والمماليك فى الشمال من تنازع وصراع .

وقد ورث العرب التنظيمات المحلية الخاصة بالأرض التى كانت متبعة فى المناطق التى اتخذوا فيها مهاجرهم وقد اختلفت هذه التنظيمات بعض الشيء بين منطقة وأخرى ومرجع ذلك إلى ظروف البيئة والمناخ التى تحمكت فى اعداد الأرض للدورات الموسمية وعلى هذا الأساس صار تقدير درجة تربة الأرض كما هو مبين بالملحق رقم (٥) .

واحتفظ الزعيم بمساحة من الأرض لاستغلالها لمصلحته الخاصة وعرفت هذه باسم « العارة » وكان الزعيم أو السلطان السنارى فيما بعد يتصرف فى جزء من أرض العارة من طريق الهبة خاصة للفقهاء الروحين . وصارت هذه الهبات نواة للملكيات التى سمح للفقهاء ووارثهم بالاحتفاظ بها واستغلالها لمصلحتهم .

وكان على العامل على الأرض (١٣٣) وعلى صاحب المال والتجارة والماشية أن يدفع كل فى حدوده ضرائب معينة كما هو مقرر فى جداول الملحق رقم ٥ وكانت

هذه الضرائب بما فيها الفطرة والزكاة تدفع في غالب الأحوال عينية، بخاصة في الريف والبادية البعيدة عن مراكز تجارة القوافل، ويقوم نظام التعامل بالدفع العيني على أساس المقايضة. وبالإضافة إلى هذه الجبايات، فقد كان من حق الشيخ المحلى للدار أو القبيلة الضاربة في بطن الوادى، أن يحصل ما يسد به المطالب التي يقوم بها بوصفه زعيماً، كالضيافة وإقامة الأعياد التقليدية وغير ذلك. وكان على الزعيم المحلى أو القبلى أن يدفع جزءاً مما يحصله لزعيم الدار الإقليمية، وكان على زعيم الدار هذا أن يدفع نصيباً إلى خزينة السلطان السنارى، التي كما يبدو من خطاب السلطان عدلان (ملحق رقم ٤) أنها كانت قائمة في العواصم الإقليمية - ولا يفوتنا أن نذكر أن الأهالى كانوا يدفعون ضرائب للرؤساء الروحيين المحليين في صورة النذور أو الهدايا، وقد كانت هذه مباشرة بين المواطن والشيخ، ولم تكن محددة بل تركت لقدرة المواطن. وهكذا استمرت الاسس التي قامت عليها الجبايات، وانتقلت من جيل إلى جيل ولم يكن للفرد ما يفيد منها، بل كان يدفع ما يخصه للشيخ المحلى وهذا بدوره يدفع عن قبيلته وأوداره إلى زعيم الدار الأكبر خزينة الذى يدفع المقررات إلى خزينة السلطان السنارى وقد كانت مقررات السلطان السنارى شكلية غير محجفة كما أن الزعماء كانوا يحصلون ضرائبهم بنسبة لقدرة الشخصية لاعلى أساس فرض رسم معين يتساوى فيها الجميع. كما كان الزعيم المحلى لا يحصل ضرائب من الفقراء ومتوسطى الحال.

ومما يسترعى الالتفات أن مراكز تجمع التجارة في السودان، التي اتخذتها القوافل محاطاً لرحالها، كانت قليلة الأثر في النهوض بالزراعة والصناعة والتعليم - النهوض الذى من شأنه أن يحدث تطوراً اجتماعياً اقتصادياً، ويرجع ذلك إلى أن القوافل كانت أساساً يتولى شؤونها زعيم يتسلم السلع من مكان إلى مكان، ويقوم بعملية التبادل ويعرف هذا الزعيم « بالخبير »، وهو القائم على الإبل ورجالها، وكانت طرق القوافل تسير بعيداً عن المدن، وتصور لنا هذه الحالة ما كان عليه الفرد والمجتمع من تأخر وركود ذهنى وجود تعليمي، ولم تكن حياة المدن في تلك الآونة بأحسن حالاً من الحياة في الريف.

وبالإضافة إلى ما تقدم فإن العلماء من رجال الدين وغيرهم الذين دخلوا البلاد من وقت لآخر لم يكن لهم كذلك الأثر المحسوس في بعث شعور الفرد وبقضته للسير نحو مستوى للحياة أفضل. وكان شأن أولئك العلماء شأن أمثالهم من رجال القرنين التاسع

والعاشر الهجرى الذين عرف عنهم التباغض والسعى لدى الحكام وأصحاب الجاه لفضاء
مصالح الناس طمعاً في عطايهم .

* * *

قدمنا فيما سبق صورة من العلاقات بين صاحب الأرض المعروف محلياً باسم
« سيد الأصل » سواء كان هو الزعيم القبلى أو الشيخ المحلى أو الملتزم القاسم على
الأرض وقد كانت هذه نظم « الاقطاع » فى الشطر الجنوبى من الوادى ، الأمر الذى
لا يختلف كثيراً عن نظم الاقطاع فى الاقطار الشرقية . وإذا قارنا هذه الأسس مع
مثيلاتها فى بلاد الفرنجة نجد أن الفارق شاسعاً بين الأهداف والغايات المرجوة من
قيام الاقطاع . قام الاقطاع فى بلاد الفرنجة على أساس استغلال الأرض والانتفاع
بها كمصدر من مصادر الاقتصاد الطبيعى لبناء دولة . فقد منح الزعيم سوا ، كان ملكاً
أو أميراً الأرض للاشراف والفرسان الذين كان من واجهم الأول الولاء لصاحب
الأرض ، وكان عليهم أن يحتفظوا بقوات مجهزة تجهيزاً كاملاً كما تقتضيه ظروف العصر ،
الذى عاشوا فيه وكانت هذه القوات مستعدة لتلبية نداء الزعيم بالاشتراك فى حربه
لأعدائه . وهكذا كان على الشريف أو الفارس أن يقوم نيابة عن زعيمه بتكوين جيش ،
يدفع له مرتباته وتكاليف تجهيزه ، ومن هذه التنظيمات نشأت فكرة قيام « الدولة »
بانتقال التزامات الاشراف والفرسان إلى « سلطة مركزية » وصار تمويلها عن طريق
الجبايات المختلفة - أما الاقطاع فى السودان كما فى غيره من البلاد الشرقية فقد قام
أصلاً على أساس دفع المال لصاحب الأرض وهو الأمير صاحب الزعامة التى تستند
على العلاقات الدينية والمعتقدات التقليدية من سحر وغيره . فكان الزعيم يقوم بافتتاح
الموسم الزراعى بصلواته ، كما كان يمارس طرد الأرواح الشريرة بالعزائم على الأرض
عند استصلاحها للزراعة لأول مرة - وكان على العامل على الأرض أن يدفع ضرائب
عينية شملت الرقيق الذى كان يستخدم فى العمل على الأرض وغير ذلك من الخدمات
البيئية ، وكان على الزعيم القبلى أن يبعث بجزء مما يحصله من قبيلته إلى زعيم الدار
وكان على الزعيم الأكبر أو السلطان السنارى أو مانجل العبد لاب فيما بعد أن يكون
جيشه ، ويحتفظ به فى عاصمته ويقوم رجال هذا الجيش بالعمل على أرض « العارة »
فى وقت السلم ، ويجمع أفراد هذا الجيش من الرقيق الذى تقوم الغزوات الموسمية ، التى
تعرف فى بعض المناطق بالنهاضة ، بصيده من مواطنه فى المناطق البدائية ، وكانت هذه
الغزوات مصدر كسب العيش للشهتغلين بهذا الغزو ، من رجال القبائل القائمة على

حدود مواطن السكان البدائيين ، ومن هذا يتبين لنا أن العاملين على الأرض والزعماء المحليين في المناطق الزراعية لم يرتبطوا مع الزعيم برباط الولاء . أما القبائل الضاربة في الصحراء فتكاد علاقاتها مع الزعيم الأول أن تكون غير قائمة ، وفي بعض الحالات التي تكون فيها دار القبيلة التي تسكن الصحراء قائمة على طريق تجارى فان أتاوة تدفع لزعيم هذه القبيلة لتأمين لتأمين الطريق للقوافل .

ونشأت عن هذه الظروف حالة من الركود والجمود ، الذى أدى بدوره إلى فوضى ذهنية تحكم فيها الفقهاء ، كما قام صراع خفى كانت من نتيجته خلق ضيق اقتصادى ، وتدهور معاشى ، وبخاصة أن البلاد قد تعرضت إلى وقوع مجاعات دورية فى كل سبع سنوات تقريباً ، وذلك لاعتماد الزراعة اعتماداً كلياً على الأمطار الموسمية التي تختلف من موسم إلى موسم . ولم تكن فى البلاد نظم للرى والصرف والافادة من مياه النيل وروافده .

وقد زادت الأمور تعقيداً باختلال سير القوافل بين السودان ومصر حيث كان حكم المماليك قد دخل فى مرحلته الاخيرة ، قبل الفتح العثمانى لمصر فى عام ١٥١٧ ميلادية ، ولم يحدث هذا الفتح تحسیناً كبيراً فى استقرار الاحوال بالنسبة للسودان .

هذا ما كانت عليه المشيخات الاسلامية فى حوض وادى النيل التي دخلت فى اتحاد مع السلطان السنارى وذلك حتى السنوات الاخيرة من القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) عندما انتقل ذلك السلطان إلى عاصمته الثانية فى « سنار » وسوف نتعرض لموضوع هذه السلطنة فى الكتاب الثانى من هذه الدراسة .

ولم نتعرض إلى بلاد كردفان (تقلى) ودار فور ، لأنها لم تدخل فى بادية الامر فى نطاق المشيخات ، التي تكوّن عنها الاتحاد السنارى - ولأن دخول تقلى ودار فور فى محيط العلاقات السنارية لم يحدث إلا بعد تغلب العنصر الاسلامى فى تلك البلاد بعد قيام السلطنة السنارية فى حوض النيل الأزرق بفترات متباعدة .

الكتاب الثاني

السلطنة السنارية

في

حوض النيل الازرق

السلطنة السنارية فى حوض النيل

لقد استعرضنا مجريات الحوادث وتطورها ، فى الحقبة التى سبقت هجرة السلطان عميرة وأسرتة من منطقة «لملم» إلى حوض النيل الأزرق فى السودان ، واتخاذة مدينة «سنار» ، التى أعاد عمارتها ، لتكون عاصمة للملكة فى تنظيماته الجديدة . كما أوضحنا حياة المجتمع فى السودان ، وأثر الهجرات العربية ، وما أدخلته على مظاهر الحياة ، وما كان من أثر الصراع الحثي ، الذى نشب بين المجموعات من المهاجرين من العرب والمجتمع الوطنى . وقد كان من أثر ذلك الاضطراع بدء حياة جديدة ، لها أسسها المستمدة من اختلاط المهاجرين والوطنيين وتزاوجهم .

وقد أوضحنا الظروف التى مهدت لقيام الحلف الاتحادى ، الذى ترعمه السلطان عميرة دونقس ، أول سلطان للبيت السنارى بعد انتقاله إلى حوض النيل الأزرق ، ولانعلم على وجه التحديد الاسس التى قام عليها ذلك الحلف ، بين مختلف المجموعات القبلية والزعامة المركزية فى سنار ، والثابت أن هذا الحلف قد تدرج فى مراحل متعددة ، لم تلبث أن أخذت صورتها النهائية ، فى السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر الميلادى ، بقيام حلف من المشيخات والشيخ عبد الله جماع شيخ العبد اللاب ، بوصفه أقوى الزعماء المحليين ، فى تلك الفترة من الزمن ، والذى دخل بدوره فى حلف مع السلطان عميرة ، وبهذا تم الحلف الاتحادى فى صورته الأخيرة . وقد كان الشيخ عبد الله جماع ومقره فى «قرى» ، الزعيم المباشر للمجموعات القبلية من قرى حتى «حنك» فى شمال دنقله ، أما السلطان عميرة دونقس ، وهو الذى تميز بحمل اللقب «السلطان — دونقس»^(١) ، فقد احتفظ بحق اختيار المرشح لتولى المناجلمية أو الشياخة^(٢) ، وقد جرت العادة بحكم الظروف القبلية المحلية ، أن يكون هذا المرشح من بين أفراد أسرة بيت الزعامة

(١) اتخذ السلطان الأول عميرة أو عمارة لقب «دونقس» وهذه كلمة اليومية معناها «دو» أصلها «DJAN» و «NEGUS» ومعناها عظيم «نقس» معناها أى نجاشى وبذلك يكون اللقب «النجاشى العظيم» .

(٢) المانجول «لقب يمنح لزعيم الدار وهو أرفع ألقاب السلطنة بعد السلطان وتأتى بعده مرتبة الشيخ أو الملك وهو زعيم فى جزء هذه الدار .

القائم، ثم أن السلطان لم يكن له ليتدخل في تصريف شؤون المشيخات الداخلية، وفي علاقاتها بعضها ببعض، بل اكتفى بزعامته الرمزية، وحصوله على نصيبه من الضرائب والزكاة وغيرها، التي كانت تدفع إلى خزينة السلطان المحلية^(٣)، التي أقامها السلطان في عاصمة كل دار أو إقليم، لكي تدفع إليها هذه التخصصات، ويصرف منها في الأوجه التي يأمر بها السلطان، ولم تكن هذه الخزينة المحلية إلا فرعاً من بيت المال أو الخزينة العامة لمال المسلمين، الذي صار السلاطين يتصرفون في موارده، وفق اتجاهاتهم الخاصة غير مقيدين بالتشريعات الإسلامية، الخاصة بإدارة بيت مال المسلمين، وكان على السلطان كما ذكرت روايات العبد اللاب أن يساعد قري في حالة الحرب.

وكانت موارد السلطنة، زعيمة الحلف، كذا موارد الزعماء في مختلف المناطق، ملكاً للزعيم المحلي، وبالإضافة إلى ما كان يجمعه السلطان من منطقتة، التي يسيطر عليها نفوذه المباشر، فإنه يتحصل على نصيب من العشور والضرائب، التي يجمعها المشايخ من مناطقهم، كذا على نصيب من الرقيق الذي تصطاده النهاضة في المواسم، وكان للسلطان نصيب من الرسوم، التي تحصل في محطات الجمارك، وأهمها في دنقله وقرى وتشلجه^(٤)، وكان للسلطان وكلاء في القاهرة وأسيوط وبعض المدن الأخرى مثل اسنا ودرارو واسوان، للقيام بالشئون التجارية الخاصة بالقوافل، والتي كان للسلطان نصيب وافر في أموالها.

وكانت للسلطنة صلات وثيقة بالبasha التركي، في موانئ البحر الأحمر (سواكن ومصوع)، كما كانت لها علاقات خارجية مع اليمن، التي كانت تستورد منها السيوف والدروع^(٥)، ومع الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى، كما كانت للسلطنة علاقات مع المغرب الأقصى^(٦)، عن طريق القوافل عبر كردفان ودارفور، وعن الطريق المباشر بعيداً عن دارفور فيما بعد، وذلك عندما اشتد التنافس بين الفور وسنار.

(٣) راجع الملحق الرابع.

(٤) نغم تشلجه (Chelga) شمالي بحيرة تانا - داخل الحدود الحبشية وهذه الحالة أقرب إلى النظام الذي انبثتته حكومة السودان في إنشاء نقطة تجارية في جيبلا داخل الحدود الحبشية على نهر بارو (السوبات) للتبادل التجاري. وكانت إيرادات تشلجه الجمركية تقسم مناصفة بين سلطان سنار ونجاشي الحبشة.

(٥) ملحق ٣ = قصة الشيخ احمد ابراهيم الذي سافر إلى مخا باليمن واستورد سيوفا ودروعا.

(٦) كتاب جيمس جراى جكسن ص ٢٨٢ وما بعدها.

ويتبين لنا من هذا أن اللامركزية المطلقة كانت طابع الحكم ، في الديار المختلفة تمارسه وفق عاداتها وتقاليدها المحلية ، وقد تميز الاتحاد بين المجموعات الإقليمية ، الذى تزعمه السلطان السنارى بتقاليد « الجمهورية التجارية » ، على النحو الذى كان متعارفا عليه فى الجزيرة العربية ، مع ما دخل عليه من تعديلات اقتبست من مواطن الهجرات ، قبيل انتقال البيت السلطانى إلى حوض النيل الأزرق .

وكانت التقاليد الخاصة بالجمهورية التجارية تربط بين الجماعات من أصحاب المصلحة الاقتصادية ، الذين يوجهون بالغ اهتمامهم نحو استثمار المال فى مناطق معينة ، وكان طبيعياً أن يمتد نفوذهم إلى المناطق ، التى تقوم على الطرق التجارية بين مراكز تجمع السلع ، ومراكز التسويق لتأمين المواصلات ، وتقديم ما تحتاج إليه القوافل أو السفن من مؤن ومعونة .

وقد قامت تنظيمات الإدارة فى المشيخات ، التى دخل زعمائها فى حلف مع سنار فى نطاق يكفل تأمين المصلحة التجارية فقط ، وترك كل شئ ، عدا ذلك يكيف نفسه وفق ظروفه الخاصة ، لهذا نجد أن السلطنة السنارية ، بوصفها زعيمة الجمهورية التجارية ، لم تحاول القيام بتنظيم جهاز للحكم ، على أركان ثابتة من شأنه أن يشمل جميع نواحي النشاط ، ومن شأنه أن يتطور لقيام دولة بمعنى هذه الكلمة السياسى ، ويمتد نفوذها الفعلى على مختلف المشيخات ، وتجمعها مع الزمن فى وحدة كاملة ، إلا أن الأسرة السنارية قد اكتفت بتطبيق تنظيمات الجمهورية التجارية ، وكانت تلك التنظيمات جامدة تعطل معها النشاط الفردى ، وبما يلفت النظر أن الأسرة السنارية لم تراعى فى تطبيقها تنظيماتها التجارية الاعتبارات المحلية ، التى تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه الأحوال فى الجزيرة العربية ، ففى حوض وادى النيل الأوسط ، المساحات الواسعة من الأراضى الزراعية ، وكانت فى البلد صناعات وحرف أخذت فى التدهور وأهملت السلطنة إيجاد هيئة مركزية ، لتنسيق جهود مختلف الجماعات فى المشيخات نحو هدف موحد ، بل ترك كل أمر لا يتصل بالمصلحة الاقتصادية على حالته فى نطاق التقاليد القديمة العهد ، التى خضع لها توزيع الأراضى ، التى تجعل الزعيم مالكا للأرض كما سبق أن أوضحنا ، ولم تكن العلاقة بين المنتفع والزعيم قائمة على الولاء ، وكان الزعيم أو السلطان يعتمد على جيشه المكون من الرقيق والمرزقة ، وكان للشيخ المحلى أن يعلن الحرب ، على من يجاوره من زعامات ، دون الرجوع إلى السلطان . وهكذا أخضعت إداة الحكم لنظامين متناقضين بالنسبة للمجتمع ، أولهما نظام الجمهورية

التجارية ، الذى يهدف إلى استغلال موارد الشعب لخدمة الزعماء ، وثانيتها نظام الاقطاع الشرقى ، الذى يوزع الأرض على السكان للعمل عليها ، ولزعم تصيب ، ولهذا لم يكن من السهل التوفيق بين هذين النظامين ، وبين قيام حكم صالح ، إلا إذا أعيد تنظيم الجمهورية التجارية والاقطاع الشرقى ، بما يكفل التطور الطبيعى لخلق قومية ومشاعر ، تلتقى عندها مختلف المجموعات القبلية ، أما وقد أهملت الزعامات تنظيم الحكم ، بما يتجاوز مع خلق حياة جديدة عامة ، فإن قوة الزعامات وضعفها وتدهورها وانحلالها كان مرهوناً بأثر العوامل الاقتصادية الخارجية ، من حيث قوة هذا العوامل أو ضعفها ، وكانت من أسباب الانحلال والتفكك ، الذى أصاب السلطة ، لتعطيله المجتمع كلية من ممارسة أقل حقوقه .

وكانت سلطة السلطان المباشرة ، محصورة فى حدود قطاعة فى حوض النيل الأزرق ، ومثلت البطانة ، وهو الطريق المؤدى إلى موانئ البحر الأحمر ، وكان لمنطقة حوض النيل الأزرق طابعها الخاص الموروث ، عن مملكة علوة القديمة وعاصمتها « سوبا » (٧) ، وقد قامت هذه المملكة بعد سقوط المملكة المروية ، فى منتصف القرن الرابع الميلادى وتخربت مدنها وتشرذ سكانها ، وتعرضت لمملكة علوة لدخول هجرات ، كانت فى الأكثر من مجموعات كبيرة من القبائل الافريقية ، ومن جماعات اتيوبية (حبشية) ، وبخاصة بعد عودة البيت السليمانى ، الذى استرد الحكم فى اتيوبيا (الحبشة) من البيت الزغوى ، فى قرابة نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (عام ١٢٧٥) وتعقب البيت السليمانى مناوئيه ومن تعاون معهم ، كما اضطهد المسلمين ، لما كان بينهم والبيت الزغوى من علاقات ، واضطروهم إلى الفرار فى جماعات كبيرة إلى حوض النيل الأزرق ، بوصفه المجال الطبيعى - وحدثت هذه الهجرات بخاصة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادى وقد اتخذت الجماعات الاتيوبية لنفسها بعد نزولها فى حوض النيل الأزرق لقب « فننج » أو « فوننج » ، وتصحف « فنننجا » (٨) ، ومعناها البيت الحاكم وقد ورث البيت السنارى هذا اللقب ، وذلك عندما انتقلت السلطنة ، وعلى رأسها عميرة « دونقس » ، إلى سنار .

وجاءت موجات أخرى من المجموعات الافريقية والعربية من الجنوب والشمال ، واشتد تدفقهم فى القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادى ، ودخلت هذه المجموعات فى صراع من الجماعات الاتيوبية ، وانتهى الأمر بخروجها من البلاد إلى الغرب - بلاد دارفور (٩) .

(٧) سوبا أو علوة = جنوبى شرق الخرطوم مباشرة على الشاطئ الأيمن للنيل الأزرق .

(٨) مكيمكل ص ٧٥ .

(٩) نفس المصدر السابق ص ٧٥ .

وقد اختلط أمر هذه الهجرات ، الاتيوبية والافريقية - العربية على بروس (١٠) فاعتقد أنها جماعة من الشلك الذين يسكنون الشاطئ الغربي للنيل الأبيض ، والذين قاموا بغزوة في عدد خضم من الزوارق ، على المنطقة العربية في الجزيرة ، ووقعت بينها معركة فاصلة بالقرب من مدينة أربجي ، انتصر فيها الغزاة ورفضوا إرادتهم على العرب ، ويضيف بروس أن هؤلاء كانوا من الوثنيين ، واعتنقوا الاسلام فيما بعد ، بسبب العلاقات التجارية مع القاهرة ، أى أن اعتناقهم للاسلام ، قد دفعت إليه رغبتهم في المحافظة على التجارة مع مصر . والحقيقة وواقع الأمر كما سبق ، أن أوضاعنا لم يكن أولئك الذين قال عنهم بروس أنهم من الشلك ، لإجماعات من البيت الزغوى الذين نزلوا في حوض النيل الأزرق .

وقد تميز القطاع السنارى ، في حوض النيل الأزرق بصفته المسيحية التي تأثرت كثيراً بالتقاليد والعقائد الدينية القديمة . وقال في ذلك الفارز (١١) ، الذى نقل عن حنا السريانى ، الذى زار بلاد النوبة في السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادى ، أنه قد رأى في بلاد علوه حوالى الخمسين والمائة من الكنائس ، مزدانة بصور العذراء مريم ، ومع ذلك فإن السكان في تلك البلاد (التي تشمل بصفة خاصة أرض الجزيرة) كانوا كما قال في حالة بعيدة عن اليهودية أو المسيحية أو الاسلام ، وأنهم في حاجة إلى التبشير بالدين المسيحى .

وقد ذكر جكسن حادثاً ، يدل على بقاء العادات الوثنية إلى وقت متأخر ، حيث اضطر السلطان عبد القادر ، الذى خلف والده السلطان عميرة حوالى ١٥٣٧ م ، إلى قتال السكان المحليين في جبال موياسقدي (١٢) ، لأنهم ظلوا يقدمون فتاة في كل عام قرباناً للآلهة ، كي لا تمنع عنهم الأمطار (١٣) ، وبقي الكثير من التقاليد والعادات الوثنية ، الموروثة عن المدينة المصرية القديمة . في صورة أو أخرى حتى اليوم ، وقد تركت هذه التقاليد ، أثرها في الجماعات الاسلامية التي دخلت البلاد السودانية ،

(١٠) بروس الجزء الرابع من ٤٥٨/٤٥٩

(١١) الفارز من ٢٥٢

(١٢) جكسن « سن النار » ص ٢١

ونجد هذه العادات عادة التقرب للاله في شكل أواخر منتشرة في المنطقة من هضبة اتيوبيا حتى دارفور والغرب فقد ذكر براون في كتابه « أسفار في أفريقيا » ص ٣٠٣ ان سكان الجبال يقدمون لآلهة الجبال قرابين ضحيتها ولد أو بنت تذبح في حفل رسمى تفرع فيه الطبول الكبيرة .

(١٣) مقال المؤلف « النفوذ اليونانى في حوض النيل الأزرق » الخ الخ

فأضعفت تمسكهم بالشريعة ، حتى قيل أن الرجل صار يطلق امرأته ، ويعقبه عليها غيره من يومه بدون وفاء عدة ١٤ . ورغم أن هناك تضارب في الروايات المحلية ، عن هذه النقطة ، إلا أن المؤكد أن التعاليم الدينية لم تستقر في القلوب ، وأنها تأثرت بالظروف المحلية . وكانت المحاولات لنشر الدين ، متروكة لنشاط العلماء المحليين الذين لم تكن تربطهم سلطة مركزية إدارية أو روحية ، وقد تمكيف وضع أولئك العلماء بحالة المجتمع ، التي سبق الكلام عنها . وكان للمجتمع أثره في بقاء الوثنية ، بعد دخول المسيحية والاسلام إلى البلاد ، وإذا نظرنا من وجهة اقليمية إلى وضع الجزيرة ، نجد أنها أكثر خصبا وأوسع رقعة ، وأن سكانها الأصليين لم يهجروا بلدهم هذا حتى في أسوأ الظروف ، التي أطاحت بالمملكة المروية في منتصف القرن الرابع الميلادي ، ولم يكن من السهل على بيثة كهذه ، كشفة السكان عريقة التقاليد الوثنية ، أن تتقبل الدين الجديد قبولا حسناً ، وبخاصة أن الظروف المحلية لم تمكن العلماء من خلق أجيال تخلفهم ، ونجد دليلاً على بقاء مظاهر المسيحية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي ، فيما كتبه الفارز الذي أشرنا إليه من قبل ، وفي بكاري (Beccari) ، الذي يقول أن اقتراحاً قد قدم إلى روما في عام ١٦٩٤ ميلادية ، لتأسيس ارسالية تبشيرية في سنار لخدمة المسيحيين الكاثوليك ، الذين قيل أنهم هربوا من أتوبيسا ، بسبب الاضطهاد المذهبي ، وأعيد تقديم الاقتراح في يناير سنة ١٦٩٧ م من الكاردينال سكرينتي (Secrapenti) الذي نجح في الحصول على موافقة البابا باعتماد مبلغ يقرب من العشرة آلاف من الجنيهات ، وفعلاً تأسست ارسالية في مدينة أخميم في صعيد مصر وذكر الرحالة العثماني أوليا شلي ، أن من بين الاسماء التي يستعملها أهالي حوض النيل الازرق « جرجس » ، وهذا اسم مسيحي .

وإذا رجعنا إلى التقاليد والعادات في أرض الجزيرة ، وبعض المناطق من السودان وادي النيل ، التي لم يتركها أهلها القدامى ، نجد فيها دليلاً على أن مجموعات السكان المحلية قد دخلت في رعوية المشيخات ، التي أقامها العرب والتي دخلت في اتحاد مع السلطنة السنارية ، التي امتدت سيطرتها المباشرة على قسم كبير من مملكة علوة ، التي اختفت في السنوات الأولى من القرن السادس عشر الميلادي ، ولاشك أن الذي دفع السكان القدامى إلى قبول الحكم الجديد ما كانت عليه الأرض من خصوبة ، نظمت

(١) أنظر تاريخ سنار مخطوطة وكتاب الطبقات .

بجمعهم وحياتهم ، وكانت لهؤلاء تقاليدهم الدينية ، ولهم لغتهم ومدنيتهم الموروثة ، وكان لزاماً أن تدخل هذه العوامل بجمعة في صراع مع ماحمله السكان الجدد .

وبما يؤسف له أن تاريخ السلطنة السنارية ، الذى وصل إلينا ، لم يدون إلا فى أوائل القرن التاسع عشر الميلادى (١٥) ، ولهذا نجد أن ما كتب عن السنوات الأولى ، يقتصر على ذكر اسم السلطان وتاريخ ولايته للحكم وتاريخ اعتزاله ، ولم توضح لنا الأسس التى قامت عليها السلطنة ، وعلاقتها الداخلية والخارجية ، ولهذا كان علينا أن نتلمس الخيوط ونتبعها هنا وهناك ، فى مختلف المصادر لكتابة تاريخ أقرب إلى الصحة - فالسلطنة فى سنواتها الأولى ، التى جاوزت القرنين من الزمان ، قد حكمها سلاطين من أبناء الصلب للسلطان عميرة ، مؤسس البيت السنارى فى عاصمته فى حوض النيل الأزرق ، وانتقل الحكم بعد ذلك إلى بيت عين الشمس ، الذى يمت للبيت السنارى بصلة الرحم ، انتزع الهمق (الهمج) ، الذين تولوا المشيخة ، الحكم من أولئك السلاطين ، وسنبن ذلك فى موضعه . ولما كانت السلطنة قد أهملت بادية ذى بدء أن تقيم جهازاً لسلطانها ، يتمشى مع حالة البلاد وتطورها ، فإن الزمام قد أخذ يقلت من يد السلاطين ، عندما تأثرت التجارة بعوامل خارجية .

(١٥) المخطوطات التى دونت فى أوائل القرن التاسع عشر (بعضها قد نشر) والى وصلت إليها كالتالى :-

(أ) طبقات « ودضيف الله » فى خصوص الأولياء والسالمين والعلماء والشعراء فى السودان نشرها السيد سليمان داود مندبل طبع الخرطوم ١٩٣٠ م - وطبعة أخرى أعدها وعلق عليها فضيلة الشيخ ابراهيم صديق - طبع القاهرة فى ١٩٣٠ م

(ب) تاريخ « مدينة سنار » - جمعه وكتبه احمد الحاج أبو على المعروف بكتاب الشونة . الذى كان موظفاً بالديوان فى الخرطوم وينتهى تاريخه حتى عام ١٨٣٥ م . ومنها نسخة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

(ج) تاريخ « مدينة سنار » ويشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهاية عهدها وهذه المخطوطة تكون القسم الأول من مخطوطة كاتب الشونة آففة الذكر - وقد نقلها عن الأصل أحد الفقهاء فى الخرطوم كطلب المبشر اجناز كنبولخر الذى أودعها فى مكتبة فينا الأهلية - وهناك بعض الاختلاف بين النسختين ب . وج وليس من اليسير تحقيق ذلك إذا لم تحصل على النسخة الأصلية لكاتب الشونة .

(د) تاريخ ملوك القوة والسودان وأقاليمه - كانه مجهول منقول عن النسخة ب مع تعديلات وإضافات وتنتهى فى عام ١٨١٣ م - ومنها نسخة بدارالكتب المصرية (منقولة عن نسخة المكتبة الأهلية بباريس) وهى تحت رقم ٢٥٤٧ .

(هـ) تاريخ مختص بأراضى النوبة ومن ملكها منذ ملوك الفنج - كانه مجهول - وهى أصلاً

ويجمل بها أن نستعرض تاريخ السلطنة، ممثلاً رجالاتها من سلاطين وغيرهم، وما وقع في فترات ولايتهم الحكم أو الزعامة، من أحداث وهذه تصور لنا من الناحية الواقعية، وتساعدنا من ناحية أخرى على تفسير تلك الحوادث، ومجريات أمورها وأثر ذلك في الحياة اليومية.

فالسُلطان عميرة بن عدلان (ورد في بعض الروايات «عمارة») هو السلطان الأول للبيت السنارى، عند قيامه في حوض النيل الأزرق ولم يحظ في الروايات المحلية، التي وصلت إلينا في أكثر من مخطوط، بأكثر من تاريخ ولايته وتاريخ وفاته، وتحالفه مع الشيخ جماع (شيخ قرى) على غزو حوض النيل الأزرق. وبقى تاريخ هذا البيت غامضاً عن الفترة التي سبقت انتقاله. وقد كان قائماً كما سبق أن أشرنا يمارس سلطانه في منطقة «لملم»، على الأقل في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلادي، واستناداً على قول روبينى نجد ان قيام السلطنة في سنار لم يكن إلا امتداداً لحكم سابق لجأ أصحابه إلى حوض النيل الأزرق، بعد أن تغيرت الظروف في الموطن السابق، وصار الاستمرار هنالك مستحيلاً لدرجة ما، ولم تذكر الروايات عن السلاطين الثلاث الأول، الذين تولوا بعد عميرة أكثر من تاريخ الولاية وتاريخ الوفاة. واختلفت الروايات في الترتيب الزمني لعبد القادر ونايل، الذين حكما بعد عميرة بالتوالى، أو سبق أحدهما الآخر، ويرجع هذا الاختلاف في الرواية، الى انها قد كتبت بعد انقضاء أكثر من ثلاثة قرون من ظهور السلطان عميرة في السودان، ومن عهد السلطان دكين ولد نايل، وهو الخامس بعد عميرة، نجد ان هذه المعلومات قد أخذت في الازدياد، فقد ذكرت الروايات عن هذا السلطان (١٦)، انه «ملك العادة» الذي رتب الدواوين،

مأخوذة عن كتاب كاتب الشونة مع تعديلات وإضافات - أهمها الطعن في إدارة احمد ممتاز باشا - وهنالك، يجعلنا نعتقد ان الذى أوعز بذلك - معنى بك الشامى - الذى كان وكيلاً لمديرية الخرطوم لما كان بينه وبين ممتاز باشا من من علاقات سيئة - وقد اعتمد تقوم بك شقير ومكميل على هذه النسخة - وقد نقل غوردون منها نسخة أودعها في المتحف البريطانى وهنالك نسخة أخرى أرسلت الى المعية السنية غير أنها قد فقدت. وتوجد في مكتبة جامعة الاسكندرية نسخة من هذه المخطوطة - وقد نشرها السيد الدكتور مكي شبكة (طبع الخرطوم ١٩٤٧م) ضمن مطبوعات كلية غوردون التذكارية بالخرطوم - تاريخ رقم (١).

(١٦) أشار النجاشي في كتابه الذى أرسله إلى سلطان سنار في ٢١ يناير سنة ١٧٠٦ م الى العلاقات الطيبة التى كانت قائمة بين الحبشة وسنار وسلطانها دكين وقد ورد اسم هذا السلطان

وأجرى قوانين مربوطة ، لا يتعدها أحد من جميع أهل مملكته ، وجعل لكل جهة من جهات مملكته رئيساً ، معلوما ورتب عليه ما رتبته ، وكان دخولهم وجلوهم عنده حسب الرتب الأعلى فالأعلى ، وهذه التنظيمات الديوانية ، تكشف لنا عن تغلغل الآراء والنظم العثمانية ، وأثرها على سنار ، ولا غرو فقد كانت لباشوات سواكن (١٧) ومصوع من العثمانيين ، وكلاء تجاريين في سنار واريجي ، (١٨) ويبدو أيضاً ان النفوذ الهندي لم يكن بأقل خطر من النفوذ العثماني ، فقد كانت للهنود جاليات من التجار « البنيان » ، في موانئ البحر الأحمر وفي داخلية البلاد . ونجد في الصورة التي تركها كايو ، عن السلطان بادي (آخر ملوك سنار) ، ملابسه وحذاءه صورة طبق الاصل مما كان يلبسه المهرجات في الهند في ذلك الزمن .

وقد سار خلفاء السلطان دكين على نهجه ، حتى ولاية السلطان عبد القادر (حكم من ١٦٠٢ - ١٦٠٦) ، ولم تذكر الروايات المحلية عنه شيئاً غير تاريخ ولايته ووفاته على حد قولها ، لكن المصادر الحبشية تلقى الضوء على حياة هذا السلطان ، الذي عزل عن الحكم بسبب لهوه وخلاعه ، وقد هرب إلى تشلج ، حيث التجأ إلى النجاشي ، الذي منحه اقامة ، تتناسب مع مركزه السابق ، وبما يؤخذ على هذا السلطان ، انه عقد اتفاقاً مع النجاشي ، اعترف فيه بتبعيته للحبشة ، وقبل « نقارة » محلاة بسلسلة ذهبية ، وتبادل الهدايا مع النجاشي ، على النحو الذي يوحى بخضوع سنار لسيطرة النجاشي وسيادته ، ويبدو ان وجود عبد القادر في بلد على الحدود الحبشية السنارية ، قد أساء إلى العلاقات بين البلدين ، فقد جاء في حوليات النجاشي « سوسنيوس » ، ان عبد القادر قد أجبر على مغادرة الحبشة ، بدعوى المحافظة على العلاقات الودية مع سنار .

وتولى الحكم بعد عبد القادر ، عدلان ولد آي ، الذي أدخل تعديلات على التقاليد والعادات المرعية ، الأمر الذي سبب قلقاً وتدمراً ، كان من نتيجته قيام

في المؤلفات الأجنبية وخاصة « بروس » محرفاً حيث كتبه (De Kim) دي كم وفسره بأنه ملك من ملوك القيروان . وكتاب النجاشي المشار اليه قد أرسل من النجاشي تقلا هيما نوت للسلطان بادي للسماح للبعثة الفرنسية وعلى رأسها « دي رول » بالسفر الى الحبشة .

(١٧) بنصه من مخطوطة تاريخ ملوك ملوك الفونج والسودان أقاليمه - دار الكتب المصرية
 نمرة ٢٥٤٧ .

(١٨) عرف باشا سواكن بباشا سنار .

حركة تمرد وعصيان ، أخذت مظهرها في محاولة الشيخ عجيب ود عبد الله زعيم العبداللاب ، الانفصال عن الاتحاد السنارى وقد اشتبك مع عدلان في معركة فاصلة في السكلكول (١٩) قتل فيها الشيخ عجيب ، وفر أهله إلى دنقله ، فأرسل السلطان الشيخ إدريس بن محمد الأرباب (٢٠) ، ومعه عفو السلطان وطلب من أهل عجيب، العودة إلى بلدهم « قري » حيث أسند إلى العجيل ، أكبر أبناء عجيب، منصب والده وتميز عهد هذا السلطان بهجرة كثير من العلماء ، من مصر والمغرب والجزيرة العربية وغيرها إلى السودان ، ومن هؤلاء العلماء من رجال الدين ، الشيخ حسن ودحسونه الأندلسى (٢١) ، والشيخ ابراهيم جابر البولادى المصرى (٢٢) ، والشيخ محمد المصرى (٢٣) وقد أدخل هؤلاء طريق الصوفية إلى البلاد .

واختلفت الروايات المحلية ، في مدة حكم هذا السلطان ، فالخطوط تقول انه حكم ثلاث سنوات ، انتقل بعدها إلى رحمة مولاه ، بينما تذكر الطبقات في ترجمة الشيخ صغيرون ، ان الملك عدلان بعد ما قتل الشيخ عجيب في كركوج ، سافر بجيوشه إلى دنقله ، فلما جاء في « حفير مشو » عزله الفونج عن الملك ، وولوا بدله بادى سيد القوم ، وهذه مسألة جديرة بالتحقيق ، وتعوزها الوثائق واننا نشك كثيراً في ان عدلان هذا كان ملكا على سنار ، ونرجح انه كان يشغل منصب « سيد القوم » ، وهو « الوزير الاول » ، والذي عليه قيادة الجيش (٢٤) ، ويحتمل انه كانت له شخصيته القوية ، التي حجبت السلطان ، وتولى الملك بعده السلطان بادى سيد القوم ابن السلطان عبد القادر ، الذى خلع وهرب إلى أتوبيا ، وقد أرسل النجاشى للسلطان بادى سواراً من الذهب وككرا الخ الخ ، ولما كانت مثل هذه الهدايا ، لا ترسل عادة إلا من سيد إلى مسود ، الامر الذى أغضب بادى ، فأرسل النجاشى اثنين من الخيل الهزيلة العرجاء العمياء ، ويهدف بذلك أن يشعر النجاشى بأن سنار لا تدين بالولاء

(١٩) السكلكول في رواية وكركوج في رواية أخرى وولد أبي عمارة في رواية ثالثة وهذه جميعها واقعة في منطقة على الشاطيء الشرقى للنيل الأزرق جنوب شرق الخرطوم .

(٢٠) طبقات ووضيف الله - ص ٧ - طبع القاهرة سنة ١٩٣٠ م

(٢١) المصدر نفسه ص ٦

(٢٢) المصدر نفسه ص ٤٧

(٢٣) المصدر نفسه ص ١٦٩ وهو الشيخ محمد بن على بن قرم السكيانى المصرى

(٢٤) الفصل الثانى « الترتيب الزمنى لسلطين سنار » .

للحبشة (٢٥) ، وتقدم في نفس الوقت بالشكوى ، من وجود والده عبد القادر في تشلجه ، يراول نشاطاً يتنافى مع علاقات حسن الجوار بين البلدين ، فقد تعاون مع النجاشي في حملته على المملكة صديقة ، التي كانت تحكم على المنطقة المجاورة لحدود الحبشة ، ويغلب انها كانت في حوض نهر العظيرة . ويبدو أن تطور العلاقات واحتجاج سنار ، قد أديا إلى إخراج عبد القادر من الحبشة ، غير ان ذلك لم يحسن العلاقات كما كان مرجوا ، فقد حدث أن هرب « غالب » ، حاكم مقاطعة مزقه ، ودخل إلى السلطنة السنارية ، وقد رفض السلطان تسليمه ، أو إعادة خيل النجاشي وشارات الحكم ، التي حملها غالب معه - وأوعز السلطان إلى نايل ود عجيب ليدشن غارات على منطقة بحيرة تانا . ولم يكن من المستطاع أن ينتقم النجاشي من السلطان لهديته المهينة وما تلاها من مشاكل وذلك بسبب مشاغله الداخلية غير أنه أخذ في العمل على استماله نايل ود عجيب إلى جانبه ، ليفيد منه عندما تحين الفرصة . وانتقل الحكم بعد بادي إلى ابنه رباط ، الذي حكم أكثر من خمسة وعشرين عاما ، وقد ترك له بادي تركة مثقلة بالمشاغل ، التي تصور لنا مظهراً ، من مظاهر بداءة التحول في تاريخ البيت السنارى ، ولم تذكر لنا المصادر المحلية شيئاً عن تلك التطورات ، بينما تلتقى المصادر الأخرى ضوءاً على مجريات الأمور في عهد السلطان رباط . فالنجاشي قد أخذ في الاستعداد ، لغزو أراضي السلطنة السنارية ، ولم يمض طويل وقت ، حتى استطاع إرسال ثلاث حملات ، واحدة منها لغزو التاكة (كسلا) ، والثانية على حوض العظيرة ، والثالثة اكتسحت الحدود بين التاكة والنيل الأزرق وكان ذلك في عام ١٦١٩ ، كما ذكر بايز في تاريخه . وقد استطاع سكان التاكة ، ومنطقة الحدود ، الهرب في الوقت المناسب ، قبل وصول جنود الأجباش ، أما الحملة التي أرسلت إلى حوض العظيرة ، فقد تمكن قائدها من أمر الملكة فاطمة ، التي كانت تحكم في شرق منطقة «الميرفاب» (بين مصب العظيرة

(٢٥) حكم السلطان بادي من سنة ١٦١١ ميلادية (تقريباً) وقد ورد ذكره في المخطوطات المحلية « بادي المعروف » بسيد القوم ولقب سيد القوم هذا من الألقاب التي كانت شائعة الاستعمال في أوائل عهد السلطنة السنارية فيما كان يعرف به الشيخ المتولى الوزارة فقد عرف به أيضاً القائم على شئون السلطان الخاصة - وقد أشار اليه بروس في كتابه (مجلد ٤ ص ٤٦٠) بأنه المتولى تنفيذ قتل السلطان عندما يصدر اليه الأمر بذلك واستعمل هذا اللقب أيضاً لأمناء المشايخ الدينين كما ورد في الطبقات - ترجمة الشيخ حسن ود حسونة - ص ٤٩ . . خمسمائة عبد كل واحد شايل سيفاً قبضته وازيمه ومجايره فضه ولهم سيد قوم وجندي وعكازير .

ونجد ان الأنجسنا يطلقون (Sen-i-Kung) وبالعربية « سيد القوم » على الشيخ المتولى شئون القرية وله صفة قيادة الحرب . والنظر في الشئون الخاصة بأهل القرية وما يعجز عن حله يرفعه إلى الملك الذي يتولى المسألة بالاشتراك مع سيد القوم والأجاويد . ووظيفة سيد القوم كما هي اليوم في الأنجسنا وراثيه

وبربر) ، وتعرف هذه المملكة باسم نجاشية الروم (٢٦) ويبدو كما جاء في المصادر
الاثيوبية ، ان هذه الغزوات كان القصد منها التأديب والحصول على الاسلاب .

وجاء في الروايات الخاصة بتاريخ مملكة تغلى ، ان الملك « قبلي أبو قرون (حكم
من ١٦٤٠ إلى ١٦٦٨ م تقريباً) ، قد تزوج من « عجايب » ابنة السلطان رباط ،
وقد أغفلت هذه الروايات ذكر الظروف التي عملت على التقرب بين السلطان
السنارى وملك تغلى بالمصاهرة ، أما تفسير ذلك من تاريخ تغلى ، خلال تلك الفترة
فهو ان السلطان السنارى قد لجأ الى كسب مودة تغلى للعمل سويا على الحد من نفوذ
الفور ، وبخاصة ان تغلى بحكم موقعها الجغرافى ، بين سلطنتى سنار ودارفور ، وهى
بحكم هذا الموقع ، تعتبر قلعة أمامية بالنسبة لتجارة القوافل ، من والى سنار ، ولكن
هذه المحاولة فشلت ، لأن نفوذ الفور قد أخذ فى الامتداد إلى حوض النيل ، فى دار
الشايقية ، حيث أراد الفور أن تسير قوافلهم التجارية متجهة إلى دار الشايقية ،
ومنها إلى موانئ البحر الاحمر ، بعيداً عن مناطق النفوذ السنارية . وبقيت العلاقات
قائمة بين الفور والشايقية ، حتى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر الميلادى ، كما
تبينه الوثيقة رقم ٣ ، وهى التى أرسلها سلطان الفور محمد الفضل ابن عبدالرحمن (حكم
من ١٨٠٠ إلى ١٨٣١ م) ، ومعها هدايا مختلفة ، ليستعين بها الفقيه محمد أبو جبة
(أبو دلق) على إقامة المسجد وعمارته ، اطعام المساكين فى دار الشايقية ، وبعده وفاة
السلطان رباط وانتقال العرش إلى ابنه بادى أبو دقن ، وقد استمر فى الحكم فترة
طويلة ، بلغت السلطنة السنارية فى خلالها عصرها الذهبى ، كما بدأت تنجم الزوبعة ،
التي نقلت الحكم من يد خلفه الثالث إلى بيت الأونساب .

وتميز عهد السلطان بادى أبو دقن ، بعلاقاته الطيبة مع علماء الأزهر لما كان
يرسل لهم من عطايا ، فنظموا القصائد فى مدحه ، ومنها قصيدة الشيخ عمر المغربى ،
الذى بعث بقصيدة للسلطان بادى ، مع خبره الشيخ احمد علوان ، استهلها بقوله : -

أيا راكبا يسرى على متن ضامر الى الغرب يهدى نحوه طيب الذكر
ويطوى إليه شقة البعد والنوى ويقتحم الأوعار فى المهمة القفر

(٢٦) لا يعلم على وجه التحقيق مصدر هذه الكلمة . فهل هى تشير إلى الروم أى الأغر يق
أو تصحيف لكلمة أروم (Urum) فى اللغة السكزنية ومعناها أسود على حد قول بورخاردت

وينهض من مصر وشاطيء نيلها وأزهرها المعمور بالعلم والذكر
لك الخير ان وافيت سنار قف بها وقوف محب وانتهز فرصة الدهر (٢٧)

وقد بنى هذا السلطان مسجد سنار ، وقصراً للحكومة ، وجعله من خمس طبقات فوق بعضها ، وأقام مخازن عديدة لحفظ مهمات الحكومة ، من أسلحة وغيرها ، وأقام أيضاً حائطاً كبيراً حول القصر ، وجعل في ذلك الحائط تسعة أبواب ، خصص كل باب منها لواحد من كبراء دولته ، وكانت كل هذه الأبواب تفتح في حائط مستقيم ، وأمام هذه الأبواب سقيفه بعمدان ، وفيها دكة عالية تعرف بـ « دكة (٢٨) من ناداك » ، تسمع فيها الشكاوى والقضايا ويصدر السلطان حكمه . وكان يجلس السلطان هنا ، يجتمع كالعادة صباحاً ومساءً خلال أيام الأسبوع عدا أيام السبت والأربعاء ، التي يخرج فيها السلطان وحاشيته إلى بيته الريفي في العيرة ، الواقعة على مسافة قصيرة من العاصمة .

وحدث في عهد هذا السلطان ، أن ذهب الفقيه حمد النحلان المعروف بـ « الترابي » ، إلى الحجاز وهناك نادى بنفسه انه « المهدي » المنتظر ، فضربه الحجاج وحبسوه ، وبعد ذلك أرسل أحد تلاميذه المدعو « ميرف » ، وقال امش في سنار وقل المهدي ظهر ، فأمر الملك بادي بقتله (٢٩) .

كما اشتد في عهد هذا السلطان ، التنافس التجاري بين سنار والفور ، الأمر الذي اتخذت معه تقلى موقفاً ، أكثر ميلاً إلى الفور منه إلى سنار ، ولم تكن للمصاهرة التي تمت في عهد السلطان رباط ، من أثر في تخفيف حدته ، ومرجع ذلك إلى طبيعة المجتمع في كل من تقلى ودارفور ، وأسس الحكم فيهما ، مما جعل ذلك التقرب بينهما سهلاً ، فالحاكم في البلدين يهدف إلى نشر الرسالة الإسلامية ، بين شعبه ، وحكام الأقاليم فيهما يدينون بالولاء الكامل للزعيم الأكبر ، وكان الأمر على عكس ذلك في الجمهورية التجارية السنارية .

وقد تأثرت تقلى ، بحكم موقعها الإقليمي بالمنافسة التجارية الشديدة بين سنار والفور ، ولما كان الفور أشد بأساً وأقوى نفوذاً من سنار ، فإن تقلى اتجهت نحو

(٢٧) أنظر مخطوطة تاريخ سنار (نسخة المكتبة الأهلية : باريس) ص ٧ وما بعدها .

(٢٨) المصدر السابق ص ١٠

(٢٩) أنظر كتاب الطبقات (نشر الشيخ ابراهيم صديق) ص ٦٢

تحسين علاقاتها مع الفور ، الأمر الذي أغضب مجموعة الحلف السنارى ، وعلى ذلك فقد انتهز السلطان بادی ، على نحو ما جاء فى الروايات المحلية ، حادث تعرض ملك تقلى لتجارة خاصة بصديق له ، فأرسل حملة للانتقام من تقلى ، واستمر القتال بضعة أيام وانتهى بصلح ، صارت تقلى بمقتضاه تدفع جزية سنوية لسنار ، ولم يهتم الفور بنجدة تقلى ، لأن اهتمامهم كان متجهاً نحو امتداد نفوذهم إلى دار الشايقية ، وفتح الطريق التجارى مع حوض النيل ، بعيداً عن المرور عبر منطقة تقلى .

ولقد كان لهذه العلاقات بين الشايقية والفور أثرها فى تقوية مركز الشايقية أنفسهم حيث أنهم شقوا عصا الطاعة على سنار ، ودخلوا فى حرب مع العبد الأب ، واسطة الحكم السنارى ، وزعيمة المشيخات الشمالية ، المتحالفة مع سنار . وكانت تلك الحرب فى السنوات الأخيرة من حكم السلطان بادی .

وقد اشتد فى عهد السلطان بادی ، أو فى السنوات القليلة التى سبقته ، نشاط البعثات الدينية من الفرنسيسكان ، ويسندهم بابا روما ، والجزويت ومن خلفهم لويس الرابع عشر ، وكل من هاتين الجماعتين تحاول بسط نفوذها فى أتيوبيا ، وبجانب ذلك يهدف لويس إلى فتح أسواق تجارية فى أتيوبيا وسنار وأخذ الفرنسيسكان (٣٠) فى التودد إلى السلطان السنارى ، لتسهيل سفر رجالهم عبر بلاده من مصر إلى أتيوبيا ، بدلا من السفر من القاهرة إلى أتيوبيا ، عن طريق عيذاب وسواكن ، بسبب العراقيل التى يقيمها باشا سواكن ، وتتابع بعد ذلك الرحلات عن طريق النيل ، كما فعل الرحالة العثمانى أوليا شلبى فى سنة ١٦٧٢ م ، أما البعثات فقد سارت عبر الصحراء من أسيوط إلى الواحات ، ومن ثم إلى بلده « مشو » (على النيل شمالى دنقله) ، وتخرج القوافل من منطقة دنقله ، مخترقة صحراء البيوضة ، إلى منطقة شندى ، ومنها إلى قرى وأربجى وسنار .

وذكر أوليا شلبى فى رحلته ، انه قد شهد حربا وقعت فى منطقة دنقله فى أكتوبر أو نوفمبر سنة ١٦٧٢ ميلادية ونرجح أن تكون هذه الحرب ، هى التى حدثت بين الشايقية والشيخ الأمين ود عجيب ، شيخ العبد لأب وزعيم المشيخات الشمالية المتحالفة مع سنار . وترجح أسباب هذا القتال إلى امتداد نفوذ الفور إلى دار الشايقية كما أشرنا من قبل . وقويت بذلك شوكة الشايقية ، وحاولوا الانفصال عن الحلف

السنارى ، الأمر الذى دفع الشيخ الأمين إلى انتهاز الفرصة المناسبة للاشتباك مع الشايقية ، للحد من نفوذ الفور وأضعاف الشايقية ، وجاءت المناسبة فى التجاء أحد الخارجين ، على هذا الزعيم إلى دار الشايقية ، فأرسل فى طلبه إلى الشيخ عثمان سيد دار الشايقية ، الذى رفض تسليمه أو قتله . ولم يتوان الشيخ الأمين ود عجيب من الزحف برجاله على دار الشايقية ، وعسكر على شاطئ النيل أمام دلقه (٣١) ، وأرسل إلى الشيخ عثمان بالتسليم ، فى مدة لا تزيد عن خمسة أيام ، ولما كانت القوة التى تحت أمره عثمان قليلة ، فانه قد لجأ إلى جمع الخيل ، التى أخذ فى تلوين جلودها بلون لكل مرة يرسلها فيها للشرب من النيل ، على مرأى من معسكر الأمين ، الذى ظن أن عثمان سوف يهاجمه بقوة كبيرة ، فأرسل فى اليوم السادس إلى عثمان ليوافق له للمفاوضة ، وجاء عثمان بمفرده لكشف الخبر ، والتحقق من نوايا الأمين ، وعندما دخل عثمان وجد الأمين يلعب «المنقلة» ، وأشار الأمين لبعض رفاقه بالحضور ، للقبض على عثمان غير أن أحد الشايقية ، من أصدقاء الأمين صرخ فى عثمان ، باللهجة الإقليمية للشايقية وقال « وحياة الرب شرك أم حبيبة فى رقيبك طب » ، ومعناها « انج بنفسك قبل أن يقبض على رقيبك شرك الطير ، فأسرع عثمان إلى ظهر جواده إلى جزيرته ، وكان الماء على عمق بسيط . وجمع رجاله وحزم أمره على القيام بهجوم خاطف ، على العبد اللاب ، وفى ظلام الليل أعد جميع ما لديه من ماشية ، حمير وغنم وما عز ، وربط على ظهر كل منها كمية من القش الجاف ، وعبر بها فى صمت وسكون ، وأخذ رجاله وعندما وصل إلى مكان قريب من معسكر العبد اللاب ، أشعل النار فى القش ، وطارده الحيوانات فى اتجاه المعسكر ، فأحدث ذلك هرجا ومرجا بين العبد اللاب ، وأخذ رجال عثمان فى قتل من يقع فى يدهم ، ووجد الأمين جالسا على فروة الصلاة فى انتظار الموت . ولما وصل اليه عثمان قال له وهو شاهر سيفه ، اننى أعفو ، على أن تضمن لى استقلال الشايقية ، ولم يسع الأمين إلا أن يؤمن عثمان على استقلال بلاده ، وقطع الموائيق له بذلك .

وقد لعبت المرأة الشايقية دورها التقليدى ، فى تقدم المقاتلين والمبادمة بالحرب واشعال الحماس فى الجند للاستتابة فى القتال (٣٢) .

(٣١) دلقه - جزيرة جنوبي بلدة مروى على مسافة تقرب من الستة والخمسين ميلا .

(٣٢) جاء فى كتاب الشايقية نكولس Nicholls بالانجليزية ص ١٠/١١ الدور الذى لعبته =

وكان تحديد التاريخ الذي حدثت فيه هذه المعركة بين الشايقية والعبد اللاب موضع جدل ، والغالب انها حدثت في وقت ما بين عامي ١٦٥٩ و ١٦٨٠ ميلادية ، ونرجح ان القتال الذي شهده أوليا شلبي ، وهو في طريقه إلى سنار وحدد تاريخه في شهر رجب ١٠٨٣ هـ (أكتوبر / نوفمبر سنة ١٦٧٢) هو القتال الذي انتهى كما سبق أن أوضحنا ، باستقلال الشايقية عن الحلف السنارى . وترك لنا أوليا شلبي وصفاً خيالياً عن المعركة ، ولم يذكر شيئاً عن تفصيلات القتال ، أكثر من انها كانت حرباً بين هارديقان عابد النار وبربر ستان ، وان القتال قد انتهى بهزيمة هارديقان — والمقصود بهارديقان الشايقية ، وبربر ستان العبد اللاب ، بينا حقيقة الواقعة على عكس ذلك ، فالشايقية (هارديقان) قد انتصر على العبد اللاب (بربر ستان) ، وإذا راعينا ظروف أوليا شلبي المختلفة ، نجد ان أخطاه وخلطه بين الأسماء والحوادث أمرأ غير مستبعد .

وقد نتج عن هذه الحرب تحول طرق التجارة بعيداً عن متناول الشايقية كما كانت القوافل تزود بحراسة قوية ، لحمايتها من تعدى الشايقية ، وأشار إلى هذه الحالة أوليا شلبي نفسه ، وبونسيه (Poncet) ، وكرمب (Krump) ، والفرانسسكان ، وغيرهم من الرحالة الذين زاروا منطقة دنقله في تلك الفترة .

وبعد وفاة السلطان بادى أبو دقن ، تولى السلطان أونسه بن ناصر بن رباط ، على حد قول الروايات المحلية ، ولكن هذه الروايات على ما يبدو لنا غير صحيحة ، بل المرجح أن يكون سلطان آخر قد حكم بعد السلطان بادى أبو دقن ، وهو السلطان عدلان بن محمد . أما السلطان أونسه فيرجح أنه قد حكم بعد عدلان بن محمد ، والدليل على ذلك ، أنه يوجد خطاب يحمل ختم السلطان عدلان بن محمد ، وجاء في ختام هذا الخطاب « يامن يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور ، أنه توصيت (توصية) من السلطان جمرة الاموى . سنة ألفاً وأربعة وثمانون ، (أى ١٦٧٣ / ١٦٧٤ م) (٣٣) ، وهذا التاريخ هو تاريخ

==عديله والدة الشيخ عثمان في الخروج أمام جند الشايقية وهذه تعيد إلى الذاكرة الدور الذى لعبته القتاة مهيبة بنت الشيخ عبود عند ملاقاته الشايقية للحملة المصرية بقيادة اسماعيل كامل بن محمد على وقد وقعت في الأسر فأحسن إليها وأعادها إلى معسكر والدها مكرمة معززة الأمر الذى أعجب والدها وكان ان طلب الصلح مع اسماعيل الذى حافظ على ابنته وأكرمها .

(٣٣) أنظر الملحقين عمرة ٧ و ٨

الخطاب وليس تاريخ توصية السلطان جمره الاموى ، والدليل على ذلك أن اسم السلطان جمره ، قد ورد في وثيقة أخرى ، أنه تولى الحكم في الفترة السابقة لعام ١٦٠٢ ميلادية ، ورب معترض يقول أن قائمة السلاطين ، التي أعطيت إلى الرحالة بروس^(٣٤) ، ذكرت أن السلطان بادي أبو دقن توفى في ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٧٠ م (٦ ذو الحجة سنة ١٠٩١ هـ) ، فهذه القائمة قد كتبت بعد حوالي مائة عام من حكم عدلان ، ولا مفر لنا من قبول الوثيقة الخطية الأصلية ، التي صدرت عن السلطان نفسه وحدثت في عهد « أونسه » زيادة النيل عن المنسوب العادى للفيضان ، وكان ذلك في عام ١٦٨٣ ميلادية ، وتسبب عن تلك الزيادة أضرار جسيمة ، وغلاء شديدا جداً أكل فيه الناس لحم الكلاب ، لذلك عرفت بسنة أم لحم ، وانتشر الجدري في صورة وباء تخربت بسببه الحلال (مفردا حللة - القرية) الكثيرة ، وصارت الحاجيات الغذائية ، وفي مقدمتها الأذرة وهي الغذاء الرئيسى ، تباع بأعلى الأثمان .

وبعد وفاة هذا السلطان ، تولى ابنه بادي الاحمر ، الذى لم يكن موفقاً في إدارته فخرج عن طاعته أهله من الفونج والشيخ أمين أرادب ، وولد عجيب ، وأقاموا ملكاً آخر اسمه « أوكل » ، ونادوا بعزله ، ولكن بادي الاحمر تمكن من إخماد حركتهم . وتميزت الفترة التي قضها السلطان بادي الاحمر في الحكم ، بدخول البعثات الأوروبية الدينية في طريقها إلى الحبشة ، وكانت « سنار » مركزاً للصراع والدسائس التي كان يحكمها كل فريق من هؤلاء المبشرين ، لتعطيل منافسه من مواصلة السفر إلى الحبشة ، ففي عهده جاء الرحالة الفرنسى بونسيه ، وهو من الجزويت^(٣٥) (١٦٩٨ / ١٧٠١ م) .

ودخل السودان في أعقاب بونسيه مباشرة ، رجال من الفرنسيسكان الذين أسسوا مركزهم التبشيري في بلدة أخميم في صعيد مصر ، للعمل في بلاد الفونج^(٣٦) وأتيوبيا ومن هؤلاء الفرنسيسكان الأب يوسف ، الذى كان في سنار سنة ١٦٩٩ م إلى ١٧٠٣ م ومن ١٧٠٥ إلى ١٧١٠ م ومعهم باسكال ، الذى اشتغل طبيباً للسلطان السنارى بادي الاحمر ، لمدة سنتين ، وسافر إلى أتيوبيا ، وخلفه في عمله كطبيب للسلطان كرمب البافارى^(٣٧) .

(٣٤) أنظر قائمة الترتيب الزمني لولاية الحكم س ٩٨ وما بعدها

(٣٥) وهو ثالث رحلة من الذين دخلوا السودان ولهم مذكرات عن أسفارهم . أولهم داود =

وفي الوقت الذي كانت فيه بعثة الفرنسيين دائبة النشاط والحركة ، بين غندار (شمالى بحيرة تانا فى الحبشة) وسنار والقاهرة ، كان القنصل الفرنسى فى القاهرة دى ماليت (De Mailliet) يعد التجهيرات لارسال بعثة إلى الحبشة ، عن طريق سنار وقد سافرت هذه البعثة من القاهرة فى ١٩ يوليه سنة ١٧٠٤م ، وعلى رأسها جاك لنوار - دى رول ، الذى كان قنصلا لفرنسا فى دمياط بالقطر المصرى ، ووصلت هذه البعثة إلى سنار فى حوالى العاشر من يوليه من العام التالى (١٧٠٥م) ، بعد أن حجرت لفترات طويلة فى بلدة مشو (شمال أرقو فى دنقله) ، وكان هدف هذه البعثة أولا إنشاء علاقات تجارية بين الحبشة وفرنسا ، لىكى تتمكن الأخيرة من فتح أسواق جديدة لتصريف منتجاتها الصناعية ، وثانياً التبشير الدينى ، وتركيزه فى يد الجزويت ، وثالثاً جمع المعلومات عن الامكانيات العسكرية ، فى الممالك التى تزورها البعثة ، وكانت فرنسا تخشى أن يفلت منها سوق الحبشة ، بدخول جماعات من الصناع الاجانب لتلك البلاد ، ويتعلم الاهالى منهم صناعاتهم ، ولم يكن للفرنسيين أن يتركوا الباب مفتوحا ، لامتداد نفوذ الجزويت ، ومن ورائهم التجارة الفرنسية ، دون إحباط هذه المساعي الفرنسية ، التى بدأت فعلا بالبعثة الاستطلاعية التى رأسها « بونسيه » .

وقد قام الفرنسيون بتنفيذ خططاً إيجابية ، فى صورة حملات من الدس لى نجاشى الحبشة وسنار ، عن بعثة « دى رول » فأشاعوا فى سنار أن هذه البعثة سوف تعمل على تحويل مجرى النيل الأزرق ، وتخرىض النجاشى على الهجوم على الأتراك واحتلال سواكن ومصوع ، ومن سوء طالع تلك البعثة أن الفيضان فى عام ١٧٠٥م وهو العام الذى وصلت فيه إلى سنار ، كان منخفضا ، مما أكدا الاشاعات ، التى راجت وكان ان ذهب دى رول ورجال بعثته ، ضحية لهذه الخلافات الذهبية بين البابا وملك فرنسا ، فقد قتل وصحبه فى سنار (فى حوالى الساعة الثالثة من ظهر يوم ٢٥ ديسمبر سنة ١٧٠٥

وأوغر مقتل بعثة دى رول صدر نجاشى الحبشة تقلا همانوت ، وبخاصة بعد أن أرسل رسولا خاصاً ، يحمل كتاباً لسلطان سنار بادى الأحمر ، للسماح لهذه البعثة بمتابعة سفرها إلى غندار (٣٨) ، وكان أن وصل هذا الرسول إلى سنار بعد مقتل رجال

== روبنى (١٥٢١/ ١٥٢٣ م) ثم أوليساشلبى (١٦٧٢/ ١٦٧٣ م) وبعد ذلك جاء بونسيه وزملائه .

(٣٦) انظر صفحة ٧٥ حيث أوضحنا ان اقتراحا قدم إلى البابا لتأسيس مراكز تبشيرية فى سنار لخدمة المسيحيين الكاثوليك الذين قيل انهم هربوا من الحبشة بسبب الاضطهاد المذهبى .

(٣٧) انظر كتاب كرمب وقد نشر ملخصا له كروفورد فى كتابهس ٣١٣ - ٢١٦

البعثة ، واعتبر النجاشي تقلاً هذا الحادث ماساً بكرامته ، وأعتقد أن القاهرة هي المسؤولة عنه ، لذلك أرسل كتاباً شديد اللهجة ، يهدد فيه بتحويل مياه النيل الأزرق عن مجراه .

ويبدو أن النجاشي ، لظروفه الداخلية ، لم يتمكن من الانتقام لكرامته من سنار ، واستمر العداء والصراع المذهبي ، من جراء المنافسة بين الفرنسيين والجزويت ، وكان اعتقاد الجزويت أن أتوبيا مجاهم التبشيري ، وكان الفرنسيون يرون أنهم دخلوا الحبشة من قبل ، ومن حقهم القيام بالتبشير منفردين . وأخذ القنصل الفرنسي في القاهرة دى ماليت يتخبط في اتهاماته لمقتل رجال البعثة ، فمرة يقول أن النجاشي هو الذى حرّض سلطان سنار ، على ارتكاب الجريمة ، ومرة أخرى يتهم سلطان سنار ويطلب من باشا سواكن « عمر » ، في كتاب له بتاريخ ٣٠ نوفمبر سنة ١٧٠٦ م ، أن يعترف بشيخ العبد اللاب في قرى كسلطان فعلى لدولة سنار ، وأن يرسل أحد الأوغوات إلى سنار ، لعزل السلطان بادى ، وأن يقطع العلاقات التجارية مع سنار ، وقد بنى ماليت اتهاماته على الأخبار المتناقضة ، التي نقلها إليه بعض الخدم الذين كانوا مع دى رول (٣٩) .

وأخذت حالة التوتر بين الحبشة وسنار ، في الظهور والاختفاء طوال فترات حكم الأباطرة من الأحباش ، الذين تولى الحكم ، بعد النجاشي تقلاً هيانوت واكتفى هؤلاء بإرسال غزوات على الحدود السنارية ، واستمر الحال على هذا المنوال حتى عهد للنجاشي اياسو الثانى (حكم من ١٧٣٠/١٧٥٥ م) ، وكان على سنار السلطان بادى أبو شلوخ (حكم من ١٧٢٥ إلى ١٧٦٢ م) ، فأعد ياسو جيشاً كبيراً لغزو سنار لكنّه فشل ، كما سنبينه فيما بعد .

ولاشك في أن هذه الفترة التي برز فيها الصراع ، بين الفرنسيين والجزويت ، في صورة واضحة المعالم ، تتطلب دراسة وافية سوف لا يجد فيها الباحث عنتاً ، لكثرة الوثائق المتصلة بتاريخها (٤٠) .

(٣٨) نص الخطاب الذى حمله المبعوث الحبشى الى سلطان سنار في كتاب لجران ص ٤٧٠/٤٧٢ أيضاً في كتاب بذج - جزء أول ص . .

(٣٩) وهذه الحادثة وما نقله الخدم عنها وتصرفات ماليت نجد منها صورة لما حدث في مقتل اسماعيل باشا كامل ابن محمد على حرقاً في شندى واتهم الملك نمر استناداً على قول أحد العساكر المحليين . .

(٤٠) بيلوتيكاً جزء أول وثنان ، أيضاً كروفورد ويحتوى على بيلوغرافيا وافية

وتولى بعد بادی الأحمر ، ابنه أونسه ، وكان صاحب لهُو وفساد ، فاتبع هواه كما ذكرت الروايات المحلية ، وقد استدعى ذلك عزله ، ولأسباب لم تعلم بعد ، اجتمعت كلمة أهل الرأى من الفوننج وزعماء الدولة ، على اختيار « نول » سلطانا ، بعد أن بقى العرش شاغراً ، من أبريل سنة ١٧١٩ إلى يونيه ١٧٢٠ م. وكان هذا الذى اختاروه ينتمى الى البيت السنارى عن طريق الرحم ، بعد أن كان ينحدر من الصلب سلاطين الاسرة السنارية ، التى حكمت حتى السلطان أونسه . وقد ذكرت الروايات المحلية عن « نول » ، أنه سيد قوم بيت الشمس « الاونساب (٤١) » ، وأنه لم يمكث فى الحكم طويلا ، وانتقل الحكم الى ابنه بادی أبو شلوخ ، وهو على حد قول الروايات ، آخر ملوك الصولة والشوكة وقد حكم أكثر من خمسة وثلاثين سنة ، عاونه فى نصفها الأول تقريباً ، وزيراً حكيماً اسمه « دوكة » ، وبعد وفاة هذا الوزير ، استقل السلطان بادی بادرة شؤون الدولة ، وأسرف فى الطغيان وارتمكأ الجرائم ، حتى عرف « بالجهمان » وأطلق يد أولاده وبطائه فارتفعت الشكاوى لىكنه تغاضى عن جرائمهم ومفاسدهم وأنزل العقاب بمن يطالب بحقه المعتصب - وفى عهد هذا السلطان ، وقعت الحرب الحبشية الثانية - حدثت الحرب الأولى فى عهد السلطان رباط كما أشرنا الى ذلك فى موقعه من قبل .

وترجع أسباب هذه الحرب الثانية الى أكثر من سبب ، ظاهرها الانتقام لمقتل دى رول وبعثته فى عام ١٧٠٥ م ، التى سبق أن فصلنا أمرها فيما سبق ، لكن الحقيقة التى دفعت الى هذه الحرب بعد تسعة وثلاثين عاما تقريباً ، هى أن الأحوال الداخلية فى الحبشة قد اضطربت بعد موت النجاشى تقلا هيانوت ، وتنازع العرش من بعده أقارب هذا النجاشى ، وانقسمت البلد معسكرين ، بعضهم يناصر ولى عهده والبعض نادى بملك آخر ، ويبدو أن الصراع المذهبى بين الفرنسيسكان والجزويت ، كان له أثره فى التطاحن الداخلى ، وبالإضافة الى ذلك فإن النجاشى أياسو الثانى قد اهتم ببناء القصور ، وأهمل أمر الرعية مما أثار الأهالى عليه ، وحتى يتخلص من استيلاء رعاياه وتدمرهم فإنه أعد عدته لغزو السلطنة السنارية .

جاءت الجيوش الحبشية عن طريق حوض نهر الدندر ، وأخذت فى شق طريقها حتى وصلت الى أبواب مدينة سنار ، ورأى السلطان بادی اخلاء المدينة قبل أن تعبر اليها جيوش الأحباش ، لكن الموقف قد تغير بموافقة السلطان على اقتراح تقدم به

(٤١) الأونساب هم بيت الشمس ، ويتحتم على السلطان السنارى أن يتخذ زوجته - السلطانة - من هذا البيت .

الأمير خميس ، وهو من الفور الذين لجأوا إلى سنار ، وكان مقترحه أن يقود أربعة آلاف من الفرسان ، على أن ينقض بهؤلاء على الجيش الحبشي الرئيسي ، من الخلف ورغمما عن أن هذه الخطة قد نقلها ، أحد زعماء القبائل من سكان شرق سنار ، إلى النجاشي الذي هرول لملاقاته ، إلا أن خميس قد استطاع الانتفاض على مؤخره الجيش الرئيسي ، الذي كان بقيادة الراسي ولد لول وأنزل به هزيمة منكرة ، تشتت بعدها الجيش الحبشي وهرب النجاشي إلى بلاده ، بعد أن غنم الجيش السناري الكثير من المهمات ومنها التاج وأدوات الحكم الأخرى - ومنها ما هو ديني بالغ الأهمية ، ودفع الأبحاش مبلغاً كبيراً من المال لاسترجاع هذه الأدوات ، واشترك في هذه الحرب في الجيش السناري الشيخ محمد أبو السكيلك ، الذي أخذ نجمه في الصعود واستطاع فيما بعد تولى منصب المشيخة - الوزارة ، واغتصاب السلطة الفعلية للسلطان

وكانت الموقعة الفاصلة بين سنار والحبشة ، في السابع من ابريل سنة ١٧٤٤ ميلادية في مكان يقال له « الزكيات » - على نهر الدندر وراجع الخريطة رقم ٦

وبعد هذه الحرب وهذا الانتصار ، أرسل السلطان بادى حملة إلى كردفان لقتال المسبعات ، الذين كانوا يسيطرون على الجانب الغربي من (٤٢)، وقد اختلفت الروايات في أسباب هذا الغزو ، كما اختلفت هذه الروايات في أمر القوات ، التي أرسلت ، فقد جاء في مخطوطه تاريخ سنار أن جيش الفونج خرج بقيادة الوزير ولد تومه (٤٣) ، وانضم إليه الشيخ عبد الله ولد عجيب (مك قرى) ومعه أخوه شمام ومعهم جنودهم ، وتولى القيادة العامة الشيخ عبد الله ، وكان مع الجيش السناري الشيخ محمد أبو السكيلك وتقابل الجيدشان - الجيش السناري ومعه جنود قرى - وجيش السلطان هاشم المسبعاوى وحدثت الموقعة الفاصلة في القحيف (٤٤) ، وانتهت بهزيمة منكرة للجيش السناري ومقتل الشيخ عبد الله والوزير ولد تومه ، فاستطاع الشيخ محمد أبو السكيلك أن يعيد تنظيم الجيش السناري ، وأن يذكي الروح المعنوية بينهم ، ونجح في ذلك وهجم على

(٤٢) المسبعات وسلطانها هاشم المسبعاوى كانت تسكن في أطراف كردفان الغربية القريبة من حدود الفور . وتربط بين السلطان هاشم وبين السلطان في دارفور صلة العمومة كما ذكر التونسي في كتابه ص ٧٨ وما بعدها . وحصلت معارك بين هاشم وسلطان الفور تيراب .

(٤٣) جاء في مخطوطه سنار ص ١١ ان ولد تومه هو من أهالي جند توت (بالقرب من شندي) وقد تولى الوزارة بعد الشيخ دوكة.

(٤٤) القحيف مكان في غرب كردفان .

المسبعات وهزمهم (٤٥)، ولما وصلت أخبار القتال إلى الملك بادی أصدر أمره إلى الشيخ محمد أبو اللكيلك، بولاية قيادة الجيش ومطاردة المسبعات وإبعاد خطرهم. وتقول رواية العبد اللاب (٤٦)، التي ترفع بطبيعة الحال من شأن الشيخ عبد الله وأبنائه، وتهبط بالسلطان السنارى إلى مرتبة أدنى، مما كان عليه العبد اللاب، تقول هذه الرواية أن الحرب نشأت أصلاً بين العبد اللاب والمسبعات، بسبب غزو المسبعات لكردغان وتوغلهم في أراضيها، التي لم تكن تحت سيطرتهم، فذهب الشيخ عبد الله ولد عجيب لطردهم، وقتل الشيخ عبد الله في الموقعة التي نشبت بينهما، كما قتل معه أخوه شمام ومحمد العجيل ابن شمام، وان سلطان سنار لما سمع بهذه الهزائم خشى أن يقوم الشيخ مسمار ابن الشيخ عبد الله ولد عجيب بحركة جنونية، للأخذ بثأر أهله من المسبعات، وبهذا يدخل السلطان السنارى طرفاً ثالثاً في القتال بجانب العبد اللاب، تنفيذاً للمعاهدة (٤٧) بين العبد اللاب والفونج - وحدث فعلاً توتر بين ملك العبد اللاب والسلطان السنارى، تدخل لانهاية الشيخ ادريس الأرباب (٤٨) وأعد سلطان سنار حملة مشتركة بقيادة الشيخ محمد أبو اللكيلك لقتال المسبعات. وذكر جكسن ان الأمير خميس، الذى كان يقود القوة التي انقضت على مؤخرة جيش الحبشة وسببت هزيمته - كان وراء الحملة إلى كردغان، بسبب تعطشه للانتقام من المسبعات والفور، لأنهم تعقبوه لقتله ونجا بالنجاة إلى سنار وخميس أصلاً من قواد الفور البارزين.

وفي الوقت الذى كانت فيه الحرب دائرة الرحي في كردغان، كان السلطان بادی غارقاً في مفاسده ولهوه، وأكثر من النساء، وعندما بلغ مسالك السلطان حداً غير لائق، قرر الزعماء إرسال الوفود إلى الشيخ محمد أبو اللكيلك في كردغان، لابلأغه

(٤٥) ذكر جكسن في كتابه سن النصار ص ٥١ ان الموقعة التي انتصر فيها الشيخ محمد أبو اللكيلك كانت في مكان له «شمسكانا» وهي أيضاً في غرب كردغان.

(٤٦) نشرها المستر ا. ا. بن في مجلة السودان في مدونات ومذكرات الجزء السابع عشر ص ٥٩ وما بعدها.

(٤٧) لم يصل إلينا ما يؤيد عقد معاهدة بين السلطان والعبد واللاب، ويحتمل أن يكون المقصود من المعاهدة - الاتفاق الذى تم بموجبه الحلف بين السلطان السنارى وعميرة والشيخ عبد الله جماع.

(٤٨) أنظر مقال المستر ا. ا. بن في مجلة السودان في مدونات ومذكرات الجزء السابع عشر ص ٥٩ وما بعدها.

بما وصل اليه الحال في سنار ، من فساد وظلم واخلال بالتقاليد القائمة ، حيث أسند السلطان الوظائف الهامة إلى جال من بطانته ، وترك لهم حرية التصرف دون معقب فاستخفوا بالقيم وبأهل البيوتات . طلب الزعماء من الشيخ محمد أبو اللكيلك العودة الى سنار لوضع حد لهذا الانحلال ، الذي شمل مختلف مظاهر الحياة ، وقد استجاب الشيخ محمد ، وعاد الى سنار وبعد مفاوضات عزل السلطان ، الذي خرج منفياً الى سواكن ، وفي هذا الصدد يقول الرحالة بروس ، ان هذا السلطان قد التجأ بعد عزله الى الحبشة ، حيث استقبله الراس « سهيل مخائيل » ، الذي وعده بأعادته الى عرشه ، اذا وافق النجاشي على غزو المملكة السنارية ، وانتقل بادي مع الراس ميخائيل الى معسكر النجاشي ، حيث قدم بادي فروض الطاعة والتبعية ، بتقبله الارض في حضرة النجاشي ، فرحب به وطلب اليه أن يتذرع بالصبر حتى تحين فرصة مناسبة لاعادته إلى عرشه ، وفي الوقت نفسه أقطعه النجاشي ولاية « رأس الفيل » ، ولكن بادي قد ذهب ضحية مؤامرة ، دبرها له بعض المهاجرين من سنار ، الذين زينوا له فرصة السفر إلى منطقة حوض نهر العظيرة ، لأعداد جيش من أهالي تلك المنطقة ، والهجوم على سنار لاسترداد عرشه . وقد وقع في الفخ الذي نصب له ، وذلك بعد دخوله السودان ، فان الشيخ ولد حسن حاكم تيوه (بين القصارف ورافد الرهد) قبض عليه وقتله غيلة ، وبخلع هذا السلطان ، ونفيه على هذه الصورة ، انتقلت السلطة الفعلية من يد زعماء السلطنة ، إلى الشيخ محمد الذي تولى الوزارة .

وبعد عزل السلطان ، أقام الشيخ محمد أبو اللكيلك ابن السلطان المخلوع ناصر سلطاناً على سنار ، واحتفظ الشيخ محمد لنفسه بجميع سلطات الملك ، الذي صار رمزاً لاحول له ولا قوة ، وتوقف بقاؤه في كرسي الحكم على رضاء الوزير ، وبهذا التغيير في الأوضاع أصيبت نظم الجمهورية التجارية بضريرة قاسمة ، تحولت معها إلى تنظيمات للحكم ، أقرب إلى الاقطاع في صورته الشرقية ، وكان ذلك التحول سبباً مباشراً في تدمير الزعماء في المناطق المتحالفة مع سنار ، وبخاصة بعد أن بدأ الشيخ محمد أبو اللكيلك بالعزل والتعيين وفقاً لرغباته ، وتثبيتاً لسياسته التي ترمى إلى الاحتفاظ بالوزارة في أسرته ، والشيخ محمد أبو اللكيلك هذا كما سبق أن أشرنا ، من جماعة الهمق (التي تحرفت إلى الهمج) ولا نعلم علم اليقين عن ماضيه أكثر من أنه كان مقدماً (قائد جماعة) على الخيالة في الجيش السناري ، الذي حارب النجاشي أياسو في سنة ١٧٤٤ م .

وقد أخذ الشيخ محمد بعد توليه المشيخة ، في العمل على توطيد مركزه ونشر سلطانه ، كما أخذ في تلمس الأسباب لمطاردة منافسيه والتخلص منهم ، بطريقة أو أخرى فكان أن قتل من كبار الأسرة السلطانية ، وصار يولى ويعزل كما شاءت له مصلحته الخاصة ، حتى السلطان ناصر نفسه قد امتد إليه العزل ، وتحديد إقامته في حلة البقرة (بضم الباء وسكون القاف وفتح الراء) ، وانتهى الأمر بقتله بعد اتهامه بالتآمر مع جماعة من الفونج على الفتك بالشيخ محمد (٤٩)

ونادى الشيخ محمد أبو الكيلك باسماعيل ابن السلطان بادى ، وأخ السلطان ناصر ملكا على سنار ، وأصيبت البلاد في سنوات مشيخة الشيخ محمد الأخيرة بغلاء شديد وزيادة في فيضان النيل ، تسبب عنها التلف وانتشار الامراض (٥٠) . وبعد وفاة الشيخ محمد ، تولى منصبه الشيخ بادى ولد رجب ابن أخ الشيخ محمد. وقد حاول الفونج التخلص منه ، إلا أن مؤامرتهم انكشفت ، فكانت النتيجة عزل اسماعيل ونفيه الى سواكن ، كما انتقم الشيخ من أعوانه ، وأخذت الفتنة تعمل في الخفاء ، فكان التطاحن الداخلى بين القبائل والزعامات وقتل في هذه الفتنة الشيخ بادى ولد رجب نفسه ، وتولى رجب بن محمد . وفي أثناء غيبته في كردفان ، اشتدت حركة المقاومة والتف المناوون لوزارة الهمق بالسلطان عدلان بن اسماعيل ، الذى خلف والده بعد نفيه ، وقد زين هؤلاء للسلطان أن يضرب ضربته ، في غيبة الشيخ رجب للخلاص من الهمق ، واستنجد السلطان ببعض القبائل المناصرة له لمساعدته في حركته ، ليقتضى على الهمق ومعاونيه ، ومن بينهم الشيخ ابراهيم أخ الشيخ رجب ، كما أراد قتل الاتقيب (٥١) النعيسان ، الذى هرب إلى كردفان عندما تأكد من تدبير السلطان لقتله وبوصوله إلى معسكر الشيخ رجب ، دخل عليه وبادره دون أن يحيه كما تقضى التقاليد بقوله :

« يؤاجركم القيوم ، في حكم اللى قتل الصقر اللى يحوم ، اللى هنا وهناك مين اللى قتل محمود ، فيكم مشى والا برايا أنا أفوم ، . »

(٤٩) مخطوطة سنار ص ١٣ ب .

(٥٠) مخطوط سنار ص ١٤ .

(٥١) الاتقيب هو اللقب المحلى الذى يعرف به الشاعر المحلى الذى يرافق أصحاب الجاه والسلطان يقرض لهم الشعر وينشدهم آيات المدح والتعريض على الحرب ويدخل السرور على نفس سيده بالفناء والقصص .

وحملت هذه العبارة نبأ مقتل الشيخ ابراهيم أخ الشيخ رجب ، وهو الذى يشير إليه « بالصقر الذى يحوم » ، أى الصقر الذى يرتاد ساحة الوغى ، وقوله « الذى هنا وهناك ، مين الذى قتل محوم » ، أى أنتم الذين هنا وهناك أن الصقر قد قتل غيلة ، وطلب الانتقام لقتله فى قوله « فىكم مشى والا برايا أنا أقوم » أى هل منكم من يثار له ، والا أنا أتولى الأخذ بالثأر ، وفى هذا القول استنهاض للهمم ، واستفزازها لسرعة العمل للأخذ بالدم .

ولم ينته النعيسان من نعيه ، حتى هب الشيخ رجب فزعا مردداً « أقتل أخى » ونادى إلى بطانته قائلا « دنجر » ، أى دقوا النحاس (طبول الحرب) لإعلاناً للخبر واستمر البكاء والحزن ثمانية أيام . وحزنت النسوة والجوارى أربعين يوماً ، لم ترفع فيها امرأة رأسها ، كما تقضى العادات والتقاليد المحلية ، فى مثل هذه الظروف ، ومنها النوم على الأرض ، وعاد الشيخ رجب بجيوشه إلى سنار ، وحصل قتال مع الجيش الذى أعده السلطان عدلان فى مكان يقال له انطرحنا ، فى الجزيرة ، وكان قتالا شديداً ، انتهى بهزيمة جيش السلطان ، الذى توفى مغموماً مهوراً ، لما لحق جيشه من خذلان . واندلعت نيران الفتنة ، واشتد أوارها فأكلت اليابس والأخضر ، وانقسمت البلد معسكرات تتطاحن فى عراق مستمر ، وصارت مقاليد الأمور تنتقل من يد إلى يد فى فترات متقاربة ، وأخذ الزعماء ينادى بعضهم بسطان ، بينما ينادى الفريق الثانى بسطان ثان ، وهكذا حتى بلغ عدد من تولى فى الفترة من ١٧٨٧ حتى حكم سنار فى منتصف ١٨٢١ م ، أى خلال ما يقرب من أربعة وثلاثين عاماً ، تسعة ملوك وهم أوكل الذى ولاه الشيخ ناصر ، ولم يمكث إلا قليلاً ، وخلفه طبل ثم بادی ثم رباط وقد قتل هؤلاء الثلاثة فى الحلفاية (شمال الخرطوم) . فى الحروب الداخلية بين الزعماء ، وجاء بعدهم حسب ربه ثم نوار وقد قتله الشيخ لحوفه من سطوته ، وتولى بعده بادی وكان صغير السن ، وبعد قليل نادى الشيخ كمتور بسطان آخر اسمه راننى ، واشتبك الفريقان المتعارضان ، وانتهى القتال بالصلح ، على أن يعزل بادی وأن يبقى راننى ، وبعد فترة استمرت عاماً واحداً ، كان فيه العرش شاغراً ، أعيد بادی إلى العرش ، وقد حكم بادی حوالى الثمانية والعشرين عاماً ، من مجموع الأربعة وثلاثين عاماً ، التى حكم فيها تسعة ملوك ، كما أشرنا فتكون بذلك المدة التى حكم فيها الثمانية ملوك الآخرين هى ست سنوات تقريباً ، وتنقص من هذه المدة عاماً كان فيه العرش شاغراً ، وبهذا تكون مدة حكم الثمانية ملوك الآخرين خمسة سنوات تقريباً ،

ومن هذا يتبين مدى ما أصاب البلاد من انحلال وتعطيل لمرافق الحياة ، وما ساد من قلق وفزع ، كثرت معه هجرات القبائل، وبخاصة في المنطقة الوسطى من السودان، وهي التي تشمل أرض الجزيرة والبطانة (٥٢). وكانت هذه الحالة المتدهورة ، فرصة سانحة لزيادة نفوذ رجال الدين من الفقهاء ، وسيطرتهم على العامة ، الذين لجأوا إليهم لسؤال الله تعالى ليرفع عنهم الغمة .

* * *

وبينما كانت الأمور تسير من سيء إلى أسوأ ، تغيرت الأحوال في مصر باختفاء الحكم المملوكي ، وهرب جماعة منهم إلى شمال السودان ، محاولين تثبيت أقدامهم وإقامة حكومة . يسيطرون بها على البلاد فزاد بذلك الظلم والتدهور ، مما دفع الزعماء من مختلف نواحي السودان إلى الهجرة إلى مصر ، ومنهم من سافر إلى الحجاز ، حيث التقوا بمحمد علي (خلاي حرب الوهابيين) وقد طلب هؤلاء منه المعونة لوضع حد للقلق والحروب المحلية ، بعد أن توقفت التجارة وتعطلت الحياة الاقتصادية ، وخيم على البلاد شبح الخراب والدمار .

وجاءت المعونة المصرية بعد الانتهاء من حرب الحجاز ، في صورة حملة قادها اسماعيل كامل ابن محمد علي كما سنبينه فيما بعد ، وطويت صفحة من تاريخ السودان ، بتنازل السلطان بادى آخر ملوك سنار ، عن ملكة يوم دخول الحملة الى عاصمة البلاد ، حيث وقع السلطان الوثيقة ، التي اعترف فيها بتبعيته للسلطان العثماني، وتسليمه إدارة البلاد إلى حكم مصر ، الذي امتد إلى السودان في عام ١٨٢٠ / ١٨٢١ ميلادية .

ويجمل بنا قبل أن ننقل إلى امتداد الحكم المصري إلى السودان ، أن نستعرض تطور الأحوال في السودان ، والعوامل التي قوضت أركان السلطنة السنارية ، وسببت انحلال المملكة .

فالسلطنة قد بدأت سنواتها الأولى ، التي امتدت أكثر من قرن في رعاية التجارة ، التي أقامت على أساسها جهاز الحكم ، ووطدت علاقاتها مع باشوات البحر الأحمر من العثمانيين ، وبقية الحال قائمة على جانب واحد ، لم تتجاوب معه مشاعر أهل البلاد ،

(٥٢) من هؤلاء المهاجرين من نزل في المنطقة شمالى مدينة أسوان مباشرة (أبو الريش قبلى وبحرى) وتقول الروايات المحلية ان جدهم ونس قد جاء إلى أسوان في طريقه للحجاز وفي أسوان وافاه القدر المحتوم وبقي ابنه الذى كان صغيراً حتى بلغ الرشده ثم عاد الى السودان .

وكانت موارد السلطنة والزعامات الإقليمية المتحالفة مع سنار على أساس تنظيمات «الجمهورية التجارية»، التي كان زعماءها يقومون باحتكار التجارة، في المنتجات المحلية وتصريفها في الأسواق الخارجية، واستيراد الحاجيات الأخرى من خارج البلاد، وبالإضافة إلى ذلك كان زعيم كل إقليم يجمع العشور والضرائب عن يد رجاله، وفق النظام الإقطاعي في الشرق، وكان يدفع جزءاً من ذلك المتحصل إلى زعيم الدار، وهذا بدوره يدفع نصيباً لخزانة السلطان، وكان طبيعياً أن تتسرب إلى هذا النظام مساوئ، تخرج به من حدوده المعقولة؛ إلى إضافة مبالغ للعامل القائمين على الجباية، في صورة أواخر منها «حق الضيافة»، كما كان على المواطن أن يدفع نصيباً من زكاته للفقير المحلي، وغير ذلك من الالتزامات الاجتماعية، مما زاد العبء على كاهل القبائل والعشائر، مما صار يعضى الزمن حقاً مكتسباً، بصرف النظر عن ما يصيب البلاد من كساد، وبخاصة بعد أن اشتدت المنافسة بين العثمانيين والفرنجة، وتحول التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح، ونزول الأوروبيين في غرب أفريقيا، وانشأهم مراكز تجارية، أخذوا منها في توسيع نفوذهم إلى داخل القارة الأفريقية، ولم تقو السلطنة على الاحتفاظ بمركزها، لأنه لم يقدر لها أن تتخذ من أساليب الحكم، ما يتمشى مع التطور الطبيعي للأشياء، ولم تعمل على أن تجمع بين مختلف المجموعات القبلية، لتوحد بينهم في مصلحة عامة، كما أنها تركت التقاليد المحلية، وبخاصة فيما يتعلق بعلاقة الأرض بالفرد والزعيم، فلم تربط بينهم إلا وشائح بالغة في الضعف، ومع ما في هذا النظام من فساد عطل التطور، وسبب الركود والجمود، فإن اغتصاب الهمم للسلطة، وجعلهم للسلطين رمزاً، لا قيمة لهم إدارة شؤون البلاد، قد انعكس بنظام «الجمهورية التجارية»، وأرجع البلاد إلى حكم إقطاعي في أحط درجاته، وبما زاد الأمور تعقيداً وجود الزعامات الدينية المحلية، التي كونت سلطة ثانية في البلاد لها نفوذها، وكان من المنتظر أن تعمل هذه الزعامات لتكوين قوة، لها شأنها في حفظ التوازن، مع سلطة الزعماء والسلطان، إلا أن هذه الزعامات الدينية قد انحرفت فيما بينها، وانعدمت العلاقات الطيبة بين الفقهاء، وعمل هؤلاء على إشاعة روح التعصب والتنافس، وتحول اهتمام الكثير من هؤلاء إلى كسب المال، عن هذا الطريق أو ذاك، وانقسمت القبائل إلى معسكرات، يتطاحن بعضها البعض، وعمل اليأس والقنوط الذي خيم على الحياة اليومية، على انهيار المجتمع وتكونت منه مجموعات مسعورة، تعمل على السلب والنهب، فتركت الأراضي

الزراعية وهجرها القائمون عليها قانعين بالقليل ، والتجأ الشعب الى أصحاب السجاجيد وخلفاتهم في قضاء الحاجات ، من دفع للأذى والضرر وجلب للنفعة ، والخير والمشوبة من الله تعالى ، ويكفي دليلا ما جاء في كتاب الطبقات ، الذى يعطى لنا صورة واضحة عن الانحلال الذى أصاب البلاد وأثر خوارق العادات التى نسبت الى الفقهاء .

وكان من نقيجة اشتداد حالة القلق ، بسبب العدوان بين مختلف المعسكرات ، ان حطت الفاقة والذلة على الشعب ، فانحلت بذلك الروح المعنوية ومركز السلطة ، لاكثر من سبب وفي مقدمة تلك الأسباب : —

أولا : نظام ولاية العرش والتنافس بين الزوجات من بنات عين الشمس (٥٣) ، وبين الزوجات اللاتى ارتفعن الى مصاف الزوجية الشرعية لسبب أواخر .

ثانياً : ضعف سياسة الحكم ، وعجزها عن خلق عناصر جديدة ، ومقومات تهدف إلى قيام وحدة قومية ، وحياة اقتصادية ، تغنى البلد عن اعتمادها الكلى على التجارة المرورية ، ولم تقم في البلد صناعات ألخ الخ .

ثالثاً : فشل الحكومة المتحدة (الجمهورية التجارية) التى مركزها سنار فى إنشاء حكومة مركزية قوية الجانب ، وبالتالى فشلت فى خلق رجال الصف الأول لتحمل المسئوليات .

رابعاً : قيام سلطات دينية متعددة ، وغير مرتبطة مع بعضها فى القيام بعمل مشترك هدفه الإصلاح .

خامساً : إسراف السلاطين فى حياة الترف والملاذات ، وأوضح دليل ما كان من حالة السلطان بادى الأحمر (١٦٩٢ / ١٧١٦ ميلادية) وابنه السلطان أونسه ، الذى تولى الحكم فى ١٧١٦ / ١٧١٩ ميلادية كما سبق بيانه .

(٥٣) من التقاليد المرعية أن يتزوج السلطان أو على الأقل أن تكون زوجته الشرعية الأولى من بيت عرف باسم بيت عين شمس كما جاء فى مخطوطه « فينا » ويبدو أن هذا البيت كان فى الأونساب التى منها السلطان « نول » وهى لا تقل فى مركزها الاجتماعى عن البيت المالك وموطنها أصلاً خور « أنسا » بالأريتريا الذى أخذت منه اسمها حيث تأثرت بثقافتها بالتقاليد المصرية القديمة التى امتدت وشملت ذلك الجزء من شمال أثيوبيا — وبنات عين شمس ترجع إلى العبادة الفرعونية « للشمس » وقد عرف السلطان نول بسيد قوم الشمس كما جاء فى مخطوطه تاريخ مدينة سنار لسكان الشونة .

سادساً : استخدام جماعات من الأقليات ، لتولى تصريف شؤون الدولة الأمر الذى ترتب عليه ابعاد أهل الشورى والخبرة ، وخلق التذمر والقلق .

سابعاً : الابقاء على تقاليد توزيع الأراضي ، فى الزعامات المحلية المختلفة ، وكان هذا العامل الأساسى فى بدء بذور الفتنة والتطاحن .

ثامناً : كان حكم وزراء الهمق حكماً فردياً ، تسنده القوة وهذا النوع من ولاية الحكم يقرس معه بذور الانحلال ، وتنتكس معه الظروف القائمة إلى حالة بدائية .

الترتيب الزمنى لولاية الحكم فى السلطنة السنارية

١ - هذه محاولة تهدف نحو تحقيق الترتيب الزمنى فى السلطنة السنارية ، وقد اعتمدنا فى ذلك على دراسة مقارنة استعرضنا فيها ، ما نقله بروس فى عام ١٧٧٢ م عن « سيد القوم » ، وهذا هو أقدم جدول وصل إلينا ، ثم ما كتبه ودضيف الله ، فى طبقاته قبيل وفاته فى عام ١٨٠٩ ميلادية ، وما كتبه كايو فى رحلته التى نشرت فى عام ١٨٢٦ م ، ومخطوطة كاتب الشونة التى أنهاها فى عام ١٨٣٨ م ، ومنها نسخة محفوظة فى مكتبة فينا وتنتهى فى ١٨٢١ م ، وكتاب تريمو الذى نشر فى ١٨٦٢ م ، وتاريخ شقير طبع ١٩٠٤ م (٥٤) ، وقد روجعت المعلومات التى وردت فى هذه المصادر على بعض المستندات (٥٥) الخطية ، الصادرة من بعض السلاطين ، وقد حددت هذه المستندات الزمن الذى صدرت فيه ، وهذا يقدم بدوره دليلاً على ان السلطان صاحب الوثيقة كان جالساً على العرش فى ذلك الوقت .

(٥٤) راجع : بروس . رحلة - ودضيف الله - الطبقات ، كايو - رحلة ، مخطوطة تاريخ سنار بدار السكتب المصرى بالقاهرة تحت رقم ١٨ م ، تريمو - رحلة ، نعوم شقير - تاريخ السودان طبع القاهرة ١٩٠٤ م

(٥٥) المستندات المشار إليها (وقد نشرت فى ملاحق الكتاب) وهى :

- ١ - كتاب من السلطان محمد بادي عجيب لأهله فى دقله .
- ٢ - كتاب من السلطان عدلان بن محمد
- ٣ - وهنالك وثيقتان نشرهما أركل (ترجمة انجليزية) فى مجلة السودان فى رسائل الخ
مجلد ١٥ ص ٢٤٨/٢٥٠

٢ - فاذا رجعنا إلى قوائم السلاطين ، التي وردت في المصادر التي أشرنا إليها آنفاً ، نجد انها قد كتبت بعد انقضاء مدة تقرب من الثلاثة قرون ، فيما يخص بروس ، وأكثر من ثلاثة قرون للمصادر الأخرى ، ولذلك كان طبيعياً أن تكون هنالك اختلافات ، وبخاصة تاريخ سلاطين الصدر الأول للسلطنة ، وقد كان أحمد الحاج أبو على المعروف بكتاب الشونة وصاحب المخطوطة المشهورة باسمه هذا ، أكثر توفيقاً في التنبيه إلى ذلك ، حيث يقول « سنذكر ذلك ان شاء تعالى تفصيلاً وإجمالاً على حسب ما عرض على المسمع من غير ترتيب ، لأنني لم أره مرتباً ، بل حكايات واردة ، ولم تخل من التقديم والتأخير والتبديل والتغيير (٥٦) .

٣ - وردت سنوات الحكم في مصادرها المحلية بالتاريخ القمري وقد اتخذ كل من بروس وكايو وغيرهما فترات الولاية ، التي أمضاها كل سلطان ، أساساً لتحديد التاريخ ، الذي اعتبره كل منهم بدء حكم البيت السناري ، وقد وصلوا إلى ذلك بأنقاص سنوات كل سلطان من العام الهجري السابق ، لوجودهم في سنار ، وأخذوا طريقهم في ترتيب تنازلي ، حتى وصلوا إلى تحديد بدء ولاية السلطان عميرة في أوائل عام ١٥٠٤ ميلادية ، لبروس وعام ١٤٨٤ م لكايو .

فحسبما ذكره بروس قد بلغت ولاية التسعة عشر سلطانا ، التي سبقت ولاية اسماعيل بن بادى ، ٢٦٥ عاماً قريبا وهذه تعادل ٢٥٦ عاماً شمسياً (٥٧) ، وحسبما جاء في كايو بلغت ٣٣٥ عاماً قريبا للسلطنة ، من قيامها حتى نهايتها ، وهذه تعادل ٣٢٤ عاماً شمسياً ، وقد أسقط كايو من حسابه ما يزيد عن السنتين والنصف ، التي بقى فيها العرش شاغراً لسبب أواخر من المشاكل الداخلية .

٤ - أخذ بروس وكايو بهذه التقديرات ، وحدد كل منهما التاريخ الذي قامت فيه السلطنة في سنار ، وذلك بأن خصم بروس الـ ٢٦٧ عاماً قريبا من السنة السابقة ، وهي ١٧٦٩ م التي انتهى فيها حكم سلف اسماعيل أي ١٧٦٩ - ٢٦٥ = ١٥٠٤ م ، وقد

(٥٦) مخطوطة تاريخ سنار - دار الكتب المصرية ١٨ م

(٥٧) كان التاريخ الشمسي قبل نهاية عام ١٥٨٢ م (المعروف بالتاريخ الجولياني) يسبق التاريخ الجديد بعشرة أيام لهذا أعاد البابا غريغوري الثالث عشر تنظيم التاريخ وذلك بأسقاط عشرة أيام من ٤ إلى ١٥ أكتوبر ١٥٨٢ م وبذلك بدأ عام ١٥٨٣ م عشرة أيام سابقة لتاريخ بدئه وفق التاريخ الجولياني وكان بدء العام الهجري ٩٩١ في ٢٥ يناير سنة ١٥٨٣ م بدلا من ١٥ يناير سنة ١٥٨٣

فات على بروس ان ال ٢٦٥ عاماً كانت بالحساب القمري ، وقد ربط بروس هذه السنة (١٥٠٤ م) بغزوة الشلك لأرض الجزيرة ، وتأسيسهم للسلطنة السنارية ، بعد محالفتهم مع العرب (٥٨) .

وهذا القول عن غزو الشلك لأرض الجزيرة لا نصيب له من الصحة للأسباب الآتية :-

أولاً : لأن السلطان السنارى الأول كان فى عاصمته فى منطقة المم على الأقل بعد زيارة داود روينيى فى ١٥٢٢ / ١٥٢٣ م .

ثانياً : ان مملكة علوة كانت قائمة فى صورة ما حتى غام ١٥٠٤ م ، وان نفوذ السلطان عميرة ، قد امتد إلى هذه المنطقة ، قبل ذلك التاريخ كما أوضحناه فى موضعه .

٥ - وقد سار كايو على نفس الطريقة ، التى اتبعها بروس فى تحديده تاريخ قيام السلطنة فى سنار ، وذلك بأن خصم ال ٣٣٥ عاماً قرياً من العام السابق لزيارته لسنار أى ١٨١٩ - ٣٣٥ = ١٤٨٤ م ، أما كاتب الشونة فقد كان أكثر توفيقاً منهما ، حيث ذكر أن السلطان عميرة تولى فى أول القرن العاشر الموافق ١٤٩٤/١٤٩٥ ميلادية ، ويقول فى مخطوطته أول عمارته بسنار أول القرن العاشر بعد التسعمائة ، وملك أربعين سنة فغاية ملكه إلى سنة أربعين بعد التسعمائة ، وهذا يوضح أن عميرة قد أنشأ سنار فى ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) أى بعد ولايته الحكم بعشرة سنوات ، ومن الواضح أنه لم ينتقل إليها نهائياً إلا فى حوالى ١٥٢٥ م ، وقد سبق انتقاله هذا ، امتداد نفوذه إلى حوض النيل الأزرق ، فليس هنالك إذن مجال للشك فى أن عميرة قد أعاد تعمير سنار فى ١٥٠٤ م ، وانتقل إليها بعد ذلك بحوالى العشرين عاماً .

٦ - ونجد فى القائمة أ . المرفقة مع هذا ، بياناً عن فترات ولاية الحكم ، كما جاءت فى مختلف الروايات التى لاتتفق فى بياناتها فى أكثر الحالات ، كما أننا لانجد فى هذه الروايات تاريخاً محدداً تحديداً دقيقاً ، بالنسبة لليوم والشهر والسنة لولاية الحكم واعتزله ، لذلك من الصعب الوصول إلى تحديد تاريخى صحيح فالسنوات متداخلة بعضها فى البعض ، غير أن هذه الصعوبات لاتمنعنا من محاولة ترتيب السلاطين ترتيباً زمنياً لأقرب سنة ، وسوف يبقى الحال على ما هو عليه الآن ، حتى يعثر على

(٥٨) أنظر رحلة بروس (بالانكليزية ص ٤٦٤ من الجزء الرابع

وثائق جديدة تلتقى ضوءاً ، على فترات حكم السلاطين الذين سقطت أسماءهم من القوائم التي لدينا ، ومن هؤلاء السلطان صابر المشهور بعجيب وابنه السلطان جمره ، اللذين ورد ذكرهما في خطاب السلطان محمد بادى عجيب ، الذى أوضح فيه « ومسئول فى زمنى الآن عشرة سلاطين على المنابر فى دار الدنيا وأنا العاشر ، » .

٧ — وإذا أخذنا بالقوائم الموجودة وأضفنا إليها اسم السلطان صابر المشهور بعجيب والسلطان جمره ابنه ، فإن ذلك يجعل بادى سيد القوم فى مكان يختلف عما هو عليه الآن ، ويبدو لنا والحالة هذه بأن بعضاً من السلاطين الذين وردت أسماءهم فى القوائم ، كانت لرجال تولوا المشيخة واختلطت أسماءهم مع السلاطين ، بسبب مضى زمن طويل قبل جمع هذه المعلومات، وقد يكون بعض هؤلاء المشايخ (الوزراء) من كانت لهم شخصية قوية ، حجبت السلطان الأصيل ، ومن هؤلاء السلطان عدلان ولد آى صاحب قتال كركوج ، والذى عزل فى الوقت الذى كان فيه موجوداً فى دنقله وكان ذلك فى الفترة التى كانت تعاني فيها السلطنة من الاضطراب الداخلى ، الذى أخذ مظهره فى تمرد الزعماء ، ومنهم الشيخ عجيب المانجلك ، وحدث بعد ذلك التطاحن الذى انقسمت معه البلد معسكرات، فهذا ينادى بسلطان وهذا يعزل القائم بالأمر، كما حدث فى أمر رباط وأوكل وطبل وبادى ورائقى ، اللذين حكموا فى أواخر عهد السلطنة .

٨ — ويلاحظ أن الفترة الذهبية للسلطنة قد استمرت ما يقرب من القرنين من الزمن تداول الحكم فيها خمسة عشر سلطاناً ، فيكون معدل السنوات التى قضاه السلطان الواحد حوالى أربعة عشر عاماً . ونجد أن السلطان عميرة قد حكم أربعين عاماً فى رأى وحوالى الثلاثين فى آراء أخرى وحكم كل من رباط وبادى أبو دقن وبادى الأحمر وبادى أبو شلوخ ما يقرب من ذلك . ولاشك أن هذه المسألة جديرة بالاهتمام ، والبحث عسر أن تظهر بعض المستندات المحلية ، من توثيق الأراضى والخطابات الخ الخ .

٩ — وتبين فى الجداول المرفقة أسماء السلاطين ، وفترات حكمهم بما لدينا من روايات محلية وغيرها ، بعد تحقيقها كما يتبع ذلك الجدول بجدول ، يبين الترتيب الزمنى لولاية الحكم ، فى أقرب حدوده الزمنية .

قائمة - ١ - عن سنوات الحكم كما جاءت في الروايات المختلفة

شقيقير	تريمو	كاتب الشونة	كايو	بروس	اسم السلطان
٣٠	٣٤	٤٠	٣٢	٣٠	١ (عميرة
١٠	١٠	١٠	١٠	٨	٢ (عبد القادر
١٢	١٢	١٢	١٢	١٧	٣ (نایل
٨	٨	٨	٨	١١	٤ (عمارة أبوسكيكين
١٥	١٧	١٥	١٧	١٧	٥ (دكين
—	٨	٨	٨	٣	٦ (دوره
١٢	٥	٤	٥	٣	٧ (طبل
١٠	١٢	١٢	١٢	١٣	٨ (أونسه
٦	٤	٤	٤	٤	٩ (عبد القادر
٧	٥	٣	٥	٥	١٠ (عدلان ولد آي
٣	٧	٧	٧	٦	١١ (بادی سيد القوم
٢٨	٢٧	٢٩	٢٧	٣٠	١٢ (رباط
٣٥	٣٧	٣٦	٣٧	٣٨	١٣ (بادی أبو دقن
١٢	١٢	١٢	١٢	١٢	١٤ (أونسه
٢٦	٢٧	٢٧	٢٧	٢٥	١٥ (بادی الاحمر
٣	٣	—	٣	٣	١٦ (اونسه
٦	٤	٤٠٨	٤	٤	١٧ (نول
٣٨	٣٣	٤٠	٤٠	٣٩	١٨ (بادی أبو شلوخ
٧	٣	٨	٨	٨	١٩ (ناصر
٨	٨	٨	٨	٨	٢٠ (اسماعيل
١١	١٢	١١	١٢	١٢	٢١ (عدلان
١	١	شهر			٢٢ (رباط
	٢	١٠٦	٢		٢٣ (اوكل
	٢	١	٢		٢٤ (طبل
٢	٢	١	٢		٢٥ (بادی
١	—	١	—		٢٦ (حسب ربه
١	١	١	١		٢٧ (نوره (نوار)
٨	٦	٦	٦		٢٨ (بادی السادس
٥	٥	٥	٥		٢٩ (رانقي
	١	١	١		العرش شاغر
١٦	١٥	١٤	١٥		٣٠ (بادی السادس

جدول (ب)

ولاية الحكم
من الى
مىلادى
مدة الحكم

(١) السلطان عميرة بن عدلان:

٤٠ ١٥٣٦ ١٤٩٧ } ذكرت المصادر المحلية انه قد حكم أربعين عاماً ويقول
كتاب الشونة ان مدة حكمه قد انتهت فى عام ٩١٠ هـ
عبد القادر بن عميره

٦٦ ١٦٠٢ ١٥٣٧ } نايل بن عميره
عماره أبو سكيكين
دكين
دورة (لم يذكر اسمه فى مخطوطة تاريخ سنار وتاريخ الفوننج)
طبل
أونسه
صابر
جمره

لا يعلم على وجه التحقيق ترتيب هؤلاء الولاة وبالتالى
فان مدة حكمهم ما زالت غير معروفة . وقد ورد ذكر
السلطان صابر والسلطان جمرة فى خطاب السلطان محمد
بأدى عجيب .

عبد القادر بن أونسة

٤ ١٦٠٦ ١٦٠٢ خلع عن العرش والتجأ الى أتيوبيا وطلب من النجاشى
حمايته - أنظر حوليات سيوسنس

عدلان ولد آى

٥ ١٦١١ ١٦٠٧ ورد ذكره فى المؤلفات المحلية وفى الطبقات وقيل أنه
عزل عن العرش بعد سفره الى دنقله

١٠ - بادی سید القوم (محمد بادی عجیب)

١٦١٢ ورد فی خطاب السلطان محمد بادی عجیب أنه
د العاشر علی منابر الدنيا ، - ويشير فی ذلك إلى ولاية
البيت السناری للحکم . وقد يكون هذا الاسم هو الاسم
الكامل للسلطان بادی أما د سید القوم ، فلا تعدو
عن أنها لقب من القاب التکریم ورفعة المكانة

رباط بن بادی

فی عهده حدثت حرب اتیوییا الاولى فی عام
١٦١٨/١٦١٩ وحضر فی مدته الشيخ عبد الرازق
أبو قرون (توفی ١٦٥٠ م) وغيره من الفقهاء . أنظر
الطبقات ص ١٤٢ .

بادی أبو دقن ابن رباط

تلیذ الشيخ ادريس محمد الأرباب (١٥٠٧ -
١٦٥٠ م) وقد عاش ١٤٣ سنة - أنظر الطبقات ص ١٤
زار السودان فی مدته الرحالة التركي أولیا شلي . ولم
يذكر اسمه . وكانت الزيارة فی نوفمبر - ديسمبر سنة
١٦٧٢ . وقد ذكر بروس نقلا عن القائمة التي أعطيت
له فی سنار أن بادی قد توفی فی ٢٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠ م
ويحتمل أن يكون قد تولى الحكم بعد عدلان بن محمد
أنظر الطبقات طبعة صديق ص ٦٠/٦٥ عن علاقة هذا
السلطان بالشيخ ود الترابي .

عدلان بن محمد

أصدر أمراً لمن يتولى حكم دنقله ليدفع هبات عينيه
أوضحها فی أمره لمسجد الشيخ احمد شنبو وينهى أمره
هذا بقوله د يامن يتولى السلطنة الزرقاء من بعدنا
الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد

المذكور أنه توصية من السلطان جمره الاموى سنة
 ألفاً وأربع وثمانون (١٦٧٣/١٦٧٤ م)
 وكتابة التاريخ بهذه الصورة قد تشير إلى أن السلطان
 جمره قد أصدر أمراً سابقاً في عام ١٠٨٤هـ (١٦٧٣
 م) وأن هذا السلطان عدلان بن محمد أصدر
 أمره هذا مؤكداً للأمر السابق . ويرجع ترجيحنا لحكم
 عدلان في هذه الفترة أن السلطنة قد بدأت تفقد نفوذها
 في المنطقة الشمالية (الشايقية ودنقلة) في أواخر القرن
 السابع عشر الميلادي فلا بد أن يكون السلطان جمره قد
 حكم في فترة سابقة من العصر الذهبي «ثانياً» أن خطاب
 السلطان محمد بادى عجيب الذى يذكر فيه أنه السلطان
 العاشر كما أوضحنا سابقاً . وقد جاء فيه ما يشير إلى أن
 السلطان صابر وابنه السلطان جمره قد سبقا بادى محمد
 عجيب فى الحكم .

وتدخل فترة السلطان عدلان بن محمد فى مدة حكم
 بادى أبودقن التى انتهت بوفاة كاذ كرنا سابقاً ويحتمل
 أن يكون السلطان بادى أبودقن قد اعتزل الحكم فى
 حوالى ١٦٧١م كما يحتمل أن يكون قد حكم بعد ١٦٧٤م
 وأمر تحقيق هذه النقاط متروك لما يحصل عليه فى
 المستقبل من وثائق .

١٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠ ٦٩

أونسه ابن أخ بادى أبودقن (ابن ناصر بن رباط)
 جاء فى قائمة بروس أنه قد تولى الحكم بعد والده
 السلطان بادى أبودقن وبقى فى الحكم حوالى لإحدى
 عشر عاما وبضعة أشهر .

٢٩ ديسمبر يونية سنة
 ١٦٨٠ ١٦٩٢ ١٢

بادى الاحمر ابن أونسه

حكم خمسة وعشرين عاما وعزل كما جاء فى قائمة
 بروس . خرج عن طاعته أهله الفونج ومعهم الشيخ
 سنة ١٦٩٢ ٦ يونية

من إلى مدة الحكم

أمين أراذب وعينوا ملكا اسمه اوكل لكننه انتصر عليهم.
وصله خطاب من النجاشي تكلا همايوت بتاريخ
٢١ يناير سنة ١٧٠٦ يطلب منه رعاية البعثة الفرنسية
التي رأسها رامول (الذي قتل في سنار في ٢٥ نوفمبر
سنة ١٧٠٥ م) وفي عهد زار سنار بونسيه ٨/١٦٩٩ م
وكرمب ١٧٠١ م والبعثات التبشيرية ١/١٧٠٢ م
أنظر أيضاً الطبقات (طبعة صديق) ص ٦٠/٦٥ عن
علاقة هذا السلطان بالشيخ ود الترابي .

ابريل
٢٥ ١٧١٦

أونسه بن بادى :

١٣ ابريل سنة
سنة ١٧١٦ ١٧١٩ ٣

خلف والده وعزل كما ذكره بروس وبعزله انتقل
الحكم إلى خلفه نول الذي يمت إلى البيت السنارى من
صلة الحرم .

ابريل سنة ٧ يونيو
سنة ١٧٢٠ ١٧١٩ ١

وقد بقى كرسي العرش شاغراً أكثر من عام

نول بن بادى:

٨ يونيو
سنة ١٧٢٥ ١٧٢٠ ٤

حكّم أربعة أعوام

بادى أبو شلوح ابن نول :

١٧٢٥

ذكر آركل في مقاله بمجلة السودان في رسائل ومدونات
مجلد ١٥ ص ٢٤٨/٢٥٠ انه قد وجدت وثيقتان نشرهما
في مقاله المذكور عن توثيق هبة أرض منحها الشيخ
رحمه الى الشيخ اليعقوباني وقد وقع السلطان على هاتين
الوثيقتين اللتين كتبنا بتاريخ ٢٨ مايو سنة ١٧٢٤
و٢ يونيو سنة ١٧٣٤ م وقد حدثت حرب أتيوبيا
الثانية في عام ١٧٤٤ م في عهده وذكر روس انه قد
عزل عن العرش في ٢٧ مارس سنة ١٧٦٢ وأضاف
إلى ذلك ان هذا السلطان بعد عزله قد ذهب إلى أتيوبيا
وطلب حماية النجاشي وإعادته لعرشه . وقد أقطعه

٢٧ مارس
سنة ١٧٦٢ ٣٣

مدة
الى الحكم
من

النجاشي ولاية رأس الفيل لكننه قد استدرج إلى كمين
دبره له الشيخ عدلان حاكم حوض العظيرة وقد قبض
عليه الشيخ ولد حسونة حاكم تيموي وقتله غيلة. وذكر
بروس انه قد استقى هذه المعلومات من الشيخ عدلان
نفسه .

٢٧ مارس
١٧٦٢ ٣٦

ابريل سنة

٨ ١٧٦٩ ١٧٦٢

ناصر بن بادي أبو شلوخ :

٨ ١٧٧٧ ١٧٦٩

اسماعيل بن بادي :

١١ ١٧٨٧ ١٧٧٧

عدلان بن اسماعيل :

رباط :

٣٠ يوما ١٧٨٧ ١٧٨٧

عينه الشيخ الامين والشيخ أبو ريده منافساً لأوكل
قتل في الحلفاية

أوكل :

١٨ شهر آ ١٧٨٨ ١٧٨٧

عينه الشيخ ناصر

طبل :

١٧ شهر آ ١٧٨٩ ١٧٨٨

عينه الشيخ ناصر قتل في الحلفاية

بادي الخامس :

١٢ شهر آ ١٧٩٠ ١٧٩٠

عينه الشيخ ناصر قتل في الحلفاية

١٢ شهر آ ١٧٩١ ١٧٩١

حسب ربه :

١٧٩٣/٢ ١٧٩٣ ١٧٩٢

نوره أو نوار :

٦ سنوات ١٧٩٩ ١٧٩٣

بادي السادس ابن طبل :

٥ ١٨٠٤ ١٨٠٠

رانقي :

١ ١٨٠٥ ١٨٠٤

كلن العرش شاغراً

بادي السادس ابن طبل :

يونيه سنة شهر سنة

تنازل عن السلطنة في وثيقة كتبها في ٢ يونيه

١٤٥٥ م ١٨٢١ ١٨٠٦

سنة ١٨٢١ وسلها لقائد الحملة المصرية اسماعيل كامل .

جدول (ج)

الترتيب التابعي	الاسم	ولاية الحكم من	السنة الميلادية الى	مدة الحكم يوم شهر سنة
١	عميرة بن عدلان	١٤٩٧	١٥٣٦	٤٠
٢	عبد القادر بن عميرة	١٥٣٧	١٦٠٢	٦٦
٣	نايل بن عميرة			
٤	عمارة أبوسكيكين بن نايل			
٥	دكين			
٦	دوره			
٧	طبل	١٦٠٣	١٦٠٦	٤
٨	أونسه			
٩	صابر المشهور بعجيب	١٦٠٧	١٦١١	٥
١٠	جمره بن صابر			
١١	عبد القادر بن أونسه	١٦١٢	١٨ ديسمبر سنة ١٦٨٠	٦٩
١٢	عدلان ولد آي			
١٣	بادي سيد القوم (محمد بادي عجيب)			
١٤	رباط	١٦٨٠	سنة ١٦٩١	١٠
١٥	بادي أبو دقن			
١٦	عدلان بن محمد	١٦٩١	سنة ١٧١٦	٢٤
١٧	أونسه ابن أخ بادي أبودقن (ابن ناصر بن رباط)			
١٨	بادي الاحمر ابن اونسه	١٧١٦	سنة ١٧١٩	٣
١٩	أونسه بن بادي			
٢٠	العرش شاغر	١٧١٩	سنة ١٧٢٠	١
٢١	أونسه بن بادي			
٢٢	نول بن بادي	٨ يونيو	١٧٢٥	٤
٢٣		سنة ١٧٢٠		

الترتيب التتابعي	الاسم	ولاية الحكم من	الى السنة الميلادية	مدة الحكم يوم شهر سنة
١٨	بادى أبو شلوخ	١٧٢٥	١٧٦٢	— — ٣٨
١٩	ناصر بن بادى	١٧٦٢	١٧٦٩	— ٩ ٧
٢٠	اسماعيل بن بادى	١٧٦٩	١٧٧٧	— — ٨
٢١	عدلان بن اسماعيل	١٧٧٧	١٧٨٧	— — ١٠
٢٢	رباط	١٧٨٧		— — ٣٠
٢٣	أوكل	١٧٨٧	١٧٨٨	— ٦ ١
٢٤	طبل	١٧٨٨	١٧٨٩	— ٥ ١
٢٥	بادى الخامس	١٧٩٠	١٧٩٠	— — ١
٢٦	حسب ربه	١٧٩١	١٧٩١	— — ١
٢٧	نوره أو نوار	١٧٩٢	١٧٩٢	— — ١
٢٨	بادى السادس بن طبل	١٧٩٢	١٧٩٩	— — ٦
٢٩	رانقى	١٨٠٠	١٨٠٤	— — ٥
	العرش شاغر	١٨٠٤	١٨٠٥	— — ١
٣٠	بادى السادس ابن طبل (اعيد للكرسى)	١٨٠٦	يونيه ١٨٢١	— ٥ ١٤
				٢٢ ٢ ٣٢٥

التنظيمات الادارية والاجتماعية وتقاليدهم

في الحلف السنارى

١ - التنظيمات الإدارية والاجتماعية :

قامت زعامة السلطان السنارى فى حوض وادى النيل الاوسط ، كما سبق أن أوضحنا ، على طراز « الجمهورية النجارية » . وأشرنا فى استعراضنا لتطور المجتمع فى البيئته والتقاليد والعادات المحلية وما تركته من أثر فى توجيه هذا الطراز الجديد من الزعامة ، بعد صراع عنيف انتصرت فى نهايته المميزات الموروثة عن أقدم العصور وانطبعت معها تنظيمات الزعامة بالطابع المحلى ، ويبدو هذا واضحاً فى مقومات بناء القرية ، التى تكون الخلية الأولى فى بنية المجتمع السودانى ، ثم ينتقل إلى وحدة أعلى ، وهى المدينة الصغيرة ، ثم إلى الثالثة وهى المدينة الكبرى ، التى تتجمع فيها التجارة ، وبها سوق النوافل ، التى تحط رحالها فى هذه المدن الكبرى فى الغدو والرواح .

فالقرية وهى المعروفة محلياً « بالخلعة » ، قد تتكون من أسرة واحدة عديد أفرادها ، أو من مجموعة من « قبيلة » ، أو بطون قبائل ، متألقة مع من دخل فى كنفها من السكان المحليين ، ويتولى شئون القرية زعيم يعرف بالشيخ ، وفى بعض الحالات بالأرباب ، إذا كانت له بالبيت الحاكم ويعاون الزعيم أكابر القرية (الأجاويد) ، وقاضى وهو فقيه ، الذى يتولى أيضاً أمر التعليم ، ويساعد الزعيم جماعة ، من أتباعه الذين يعهد إليهم بوظائف الكتابة ، والعشور والمحافظة على الأمن ، ويتأثر هؤلاء فى عددهم ووظائفهم ، بمركز القرية الاقتصادية ، الأمر الذى يختلف بين منطقة وأخرى والقرية تتكون من مجموعة قليلة من المساكن ، وتنتشر عادة المساكن بعيداً عن القرية ، وعلى طول الأراضى الزراعية التى كانت ملكاً للقبيلة ، ويقوم الشيخ بتوزيعها على أفراد قبيلة ، وفق النطاق الذى يراه من ناحية قدرتهم على العمل فى الأرض ، وقد تدخلت فى التوزيع عوامل أخرى ، وقد ذكر كرمب أنه وجد البيوت والأكواخ منتشرة على طول الطريق فى منطقة « دنقله » (٦٠) ، وتقوم المساكن عادة على أطراف الأرض الزراعية ، بعيدة عن مجرى المياه من نهر النيل أو روافده ، ولا يختلف الحال كثيراً من ناحية الأسس التى قامت عليها القرية ، عن حال المدينة الصغيرة أو

(٦٠) رحلة كرمب فى كتاب مملكة الفونج فى سنار لسكروفرورد بالانكليزية ص ٢١٥

الكبيرة ، فالقرية تسيطر على عدد من الحلال ، التي تنتشرها هنا وهناك على أطراف الأراضى الزراعية أو مواطن الوعى ، ويتولى شئونها الشيخ وجماعته الصغيرة من قاضى وعمال ، وتسيطر المدينة على مجموعة من القرى ، ويتولى شئونها مانجل أو ملك ، أما المدينة الكبرى وتكون عادة واقعة على ملتقى طرق القوافل ، وتسيطر على عدد من المدن الصغيرة ، وما يتبعها من قرى وحلال ، ويتولى شئون هذه الوحدة الكبرى ، زعيم الدار ويحمل لقب مانجل وينادى بالأرباب ، وولاية السلطنة للشيخ والملك والمانجل وراثية ، يتبادلها الزعيم وأقاربه أو من ينتمون إليه .

وتقام فى المدن الصغرى والكبرى الأسواق الأسبوعية (يختار يوم معين لكل منطقة ليتناسب مع المصاحبة العامة للسكان لكي يتمكنوا من الانتقال من سوق إلى سوق) ، فى هذه الأسواق يتبادل الأهالى مختلف منتجاتهم المحلية ، وكان التبادل غالباً عن طريق المقايضة فى القرى والمدن الصغرى ، أما فى المدن الكبيرة فكانت تستخدم بعض العملات الإسبانية وغيرها .

ويتحصل المانجل أو الملك على نصيبه من الدخوليات ، ومن المكوس على القوافل التى تختلف قيمتها بين منطقة وأخرى ، ويدفع الزعيم المحلى جزءاً من حصيلته ، العينية والنقدية إلى خزينة الساطان السنارى ، وكانت هنالك ثلاث مراكز جمركية فى السودان هامة الأول فى دنقلة ، والثانى فى قرى ، والثالث فى تشلجه .

وتميزت العلاقات بين الأهالى والزعيم المحلى بالطابع الدينى ، الذى لا يختلف عما كانت عليه حال القرية فى عصور الفراعنة ، التى تركت رواسبها وكيفت نفسها فى القالب الجديد ، لتتمشى مع الدعوة الإسلامية ، التى أزال الفوارق الطبقيّة ، وهدمت أركان الإقطاع النديم ، بإشراك الفرد ليجنى نصيباً من تعبته ، ليستمتع بحياة مناسبة رفعت من أغلال العبودية إلى مستوى إنسانى ، وبدأت البلاد فى الاتجاه نحو بناء جديد فى الاقتصاد والاجتماع .

ونجد الطابع الدينى واضحاً ، كل الموضوع فى الطقوس التى تتبع فى تقليد ولاية الملك للسلطان ، بصة خاصة كما سنعرض له فيما يلى :

٢ - تقاليد الحكم :

تصور لنا طقوس ومراسم ولاية الحكم ، فى السلطنة السنارية مدى الارتباط الوثيق بين الماضى البعيد والحاضر ، تصور مدى ما أحرزت التقاليد الموروثة من

انتصار ، في صراعها مع تقاليد العرب والمسلمين ، فاذا رجعنا إلى الماضي البعيد نجد أن الحاكم كانت له شخصيته ، التي استمدت قدسيته من الدين ، وكان عليه قبل أن يباشر سلطانه أن يتدرج في طقوس ومراسيم ، ليتطهر جسده وترتقى به عن مستوى البشر ، وكان له مطلق التصرف في رعيته واستعبادهم ، وإذا أراد أمراً قالوا له « فلتكن مشيئتك » ، واستمرت هذه التقاليد في عهد المسيحية في صورة لم تتأثر بتعاليم الدين الجديد ، وعندما دخل الاسلام السودان ، تفاعل مع هذه التقاليد ونشأت صور جديدة ، لها مظاهرها من الأوضاع القديمة والحضارة الجديدة ، واستطاع الاسلام إذن أن يدخل بعض التعديلات التي لم تغير من طبيعة التقاليد ، فانفلقت النواة وتقاومها الحاكم والفقهاء .

فالسultan لا يصل إلى كرسي الحكم ، إلا بعد أن يخضع لمراسيم ترفع من شخصيته ، عن مستوى الرعية وتؤهله للقيام بأعبائه التقليدية ، ومنها رمي البذور الأولى في موسم الزراعة ، وافتتاحه لدورة الحصاد ، ولهذا ارتباطه بالعقيدة الموروثة ، التي لا تتم أركانها إلا بعد قيام الحاكم بهذه التقاليد ، لضمان الخير والبركة ، التي سوف تجعل المحصول وفيراً لا يتعرض للآفات الزراعية ، أو أى مؤثر آخر يقلل من غلته ، كما كان على السلطان أن يتولى تكريس الزعماء المحليين ، وأعظام البركة ، قبل ممارسة مهام مراكزهم ، أما الفقيه فعليه أن يؤدي الصلوات للاستسقاء وغير ذلك من التوجه إلى الله تعالى ، لدفع الأذى والضرر والاكثار من الخير والبركات ، كما كان على الفقيه أن يقوم بتكريس من ينتخب للنيابة عنه ، في تولى أمر سجنائه في المناطق البعيدة ، عن مركز سجنائه الرئيسي .

وليست هذه التقاليد في شطريها ، ما يمارسه السلطان وما يمارسه الفقيه ، إلا صورة مما كانت عليه في العهد الفرعوني ، وهذه التقاليد منتشرة في السودان وفي المناطق المجاورة ونجدها في صورة واضحة في مناطق العزلة في السودان .

ويهمنا قبل أن ننتقل إلى استعراض هذه الطقوس والمراسيم التقليدية ، أن نحاول التعرف على الأسباب التي عملت على الإبقاء على هذه الحضارة في صورة أو أخرى ، طوال هذه العصور ، ومن دراستنا السابقة عن دخول الاسلام السودان ، ظهر لنا أن المجتمع كان في حالة ركود وجود من أثر الانحلال ، الذي أصابه في الفترات التي سبقت دخول الاسلام ، ولم يمكن للوافدين من العرب والمسلمين ، أن يدخلوا على

المجتمع السوداني ما يعرضه لهزات فكرية عنيفة ، أو تغيير ذى شأن فى مقومات حياته الاقتصادية والاجتماعية ، لأن دخوله كان هادئا ، يحمله التجار والدعاة ، وبعض العلماء الذين صهرهم المجتمع ، وحوّلهم إلى الاهتمام بمصالحهم الدنيوية ، لذلك أهملوا تكوين أجيال ، تحمل من بعدهم رسالتهم الدينية فى صورتها الصحيحة ، وتسربت دعوتهم الدينية فى سر أبقى على كثير من الأوضاع ، التى كانت تعيش فى ظلها القبائل ، وساعد هذا الحال على إيجاد انطباعات جديدة من صور الماضى .

٣ - طقوس وتقاليد انتقال ولاية الحكم

جاء فى مخطوطة تاريخ سنار ، فحين يملكون لهم ملكا جديدا يزوجه من نسل تلك المرأة ، ، ويسمونها ابنة عين الشمس ، ويحملونها على عنقريب من خشب السرطان (٦١) إلى حوش الجندى ويحبسوه (يحبسونهما) به سبعة أيام ، ثم يخرجوا به (السلطان المنتخب) إلى محل معروف لهم ، فيه عوايد تخرج لهم من الأرض يتفألون (يتفألون) بها بخروجها ويتشامون (يتشامون) ، بعدمها وهى باقية فيهم حتى انتهى ملكهم والله أعلم ، ، وهذه أول عبارة صريحة تشير إلى طقوس تقليد السلطات فى صورة عامة ، وفى نفس الوقت تكشف لنا عن بقايا العهود القديمة ، التى أخذت تنتقل من جيل إلى جيل ، حتى وصلت إلينا فى صورها الحاضرة ، وقد سجل ديزنى (٦١) ما شاهده من طقوس ، أتبعته عند تنويع ملك الفونج فى فازوغلى واسمه « حميدة رجب بدير ، وذلك فى فبراير سنة ١٩٤٤ م - وذكر فى مقاله ان بعض رجال العمدة ، قد أقبلوا وأخذوا من الجندى قطعة من القماش الأبيض ، كان متمنطقا بها ، وظلوا بها الملك لتحجب عنه أشعة الشمس ، حتى لا يتعرض لها ، قبل اتمام التقاليد المرسومة لولاية الحكم ، وبعد ذلك تقدم بعض الرجال مدشابكى الأيدي ، هيموا مقعداً لحمل الملك إلى حوش الجندى ، الذى يبقى فيه حتى المساء ، ومن ثم ينقل إلى منزل خاص منعزل ، يحبس فيه ومعه عذراء (٦٢) تشاركه بحبسه ، الذى تصل

(٦١) أنظر مخطوطه تاريخ ص ٤ كاتب المخطوطة احمد ابن الحاج أبو على المشهور بكتاب الشونة كما هو وارد ضمنا فى المتن . والنسخة التى اعتمدنا عليها هى النسخة المحفوظة فى المكتبة الأهلية فى فينا (النمسا) . وهذه العبارة الخاصة بالطقوس لم ترد فى مخطوطة تاريخ سنار المحفوظة بدار الكتب المصرية وهى مكتوبة بقلم مختلف عن نسخة فينا .

(٦٢) مقال ديزنى فى مجلة السودان فى مذكرات ومدونات ص ٢٧ - ٤٢ مجلد ٢٦ تحت عنوان « تنويع ملك الفونج فى فازوغلى »

(٦٣) يشترط أن تكون العذراء من نسل بيت عين الشمس .

مدته إلى سبعة أيام ، وفي نهاية هذه الفترة قد يختارها زوجة له أو غير ذلك ، ويبقى الحبيسان تحت حراسة الجندي ، لمنح الاتصال الخارجي ، كما لا يسمح لأحد بالبقاء في المنزل ، إلا لعجوز تقوم بتدليك الحبيسين ، وتطيبهما بالعطور المختلفة التراكيب أما الغذاء فإن الجندي ينقله إليهما ، بعد اعداده في الخارج ، ويتحتم على الملك أن لا يتعرض خلال فترة الاعتكاف لضوء الشمس ، حيث أن تعرضه للضوء يعد مخالفة للعوائد^(٦٤) ، تؤدي إلى حرمانه من العرش والانتقام منه .

وعلى ذلك فإن الملك لا يتسلم مقاليد الحكم ، قبل اتمام مراحل ثلاث ، تبدأ بمرحلة الاختيار من بين المرشحين للعرش ، وهم في غالبية الحالات ، من الصق الأقرباء بالحاكم السابق ، الأبناء ، الأخوة ، الأعمام ، أبناء الأخ ، أبناء العم ، أبناء الأخت ، وأخيراً الأقارب من الرحم ، كما حدث في اختيار السلطان نول ، ويقوم بعملية الاختيار مجلس من أكابر الدولة ، من أعضاء البيت السناري ، ويجتمع هذا المجلس عندما يشرف القائم على العرش على الوفاة ، أو يقرر المجلس عزله لسبب أو آخر ، وعندما يتم الاختيار يؤخذ المنتخب إلى محبسه في حراسة الجندي ، ومعه العذراء كما ذكرنا قبلاً ، وبعد نهاية فترة الاعتكاف التي فصلناها فيما سبق ، يقوم الجندي بمرافقة الحاكم المنتخب من محبسه إلى ساحة التتويج ، التي يجتمع فيها الأمراء وأكابر الدولة والأهالي ، وفي هذه الساحة يقام الككر تحت شجرة كبيرة الظل ، وعند وصوله إليها يقوم الجندي ، بخلع قفطان الحاكم ويحلق شعره ثم يتقدم أكبر رجال الدولة من البيت السناري ، ومعه قفطان جديد وعباءة ليلبسها الحاكم وتوضع على رأسه الطاقية أم قرين^(٦٦) ، ويسلم إليه السيف ، وبعد اتمام ذلك يجلس على الككر ، ويتقدم الوزير وأكابر الدولة والمشائخ وغيرهم لبيعة الحاكم الجديد وتحيته ، وللتحية

(٦٤) العوائد هي ال Taboo - العادات المحرمة .

(٦٥) الكسكر (Kakar) وهو كرسي الملك - أنظر مقال أركل ص ٢٢٧ مجلة السودان في مدونات ومذكرات المجلد الخامس عشر .

(٦٦) الطاقية أم قرين - أو أم قرن . هي إحدى شارات الملك وهي عادة قديمة العهد أنظر مقال كروفورد في مجلة السودان في مدونات ومذكرات ص ٣٣٣ / ٣٣٤ المجلد السادس والعشرين .

تقاليدها الخاصة وذلك أن يتمنطق الزعيم بثوبه (٦٧) عندما يتقدم لتأدية التحية، ويقبض كل من الحاكم الجديد والزعيم بكلتا يديه على يد الآخر، وتدق في أثناء ذلك موسيقى تصدر أنغامها من النفخ في القرون، بينما يقوم الفقهاء بقراءة الفاتحة وترتيل الأدعية.

وبعد الانتهاء من قبول مراسيم التهنئة، يذهب الحاكم ومعه الجندي وبعض أكابر الدولة إلى مكان معين، ينتظرون فيه خروج عوائد (٦٨) يتفألون بخروجها ويتشائمون باختفائها وينتقل هذا الموكب بعد ذلك إلى مجرى النيل، حيث يدخل الحاكم الماء حتى يصل إلى رقبته فيغطس رأسه، وبهذا تنتهي الطقوس والتقاليد ويستكمل الحاكم مراسيم تسلم سلطته الشرعية.

وذكر بروس وكايو (٦٩) أن من عادة السلطان أن يقوم بافتتاح الموسم الزراعي، عند رمي التقاوي، وعند جمع المحصول، وذكر بونسية أن السلطان في سنار لا يظهر أمام العامة سافر الوجه، بل يلثم بغطاء من الحرير الملون (٧٠)، ويستخدم هذا النوع من الحجاب، بصفة عامة بين الملوك الزعماء في المنطقة من الحبشة شرقاً إلى نيجيريا غرباً، وهي المنطقة التي يتحتم فيها على الزعيم المنتخب أن يمضي فترة من الزمن، تبلغ الستة أيام، يعتزل فيها الحياة العامة. وقد تختلف مراسيم ولاية الحكم بعض الشيء بين منطقة وأخرى، ومرجع ذلك الاختلاف إلى البيئته المختلفة لكل إقليم.

ففي أتوبيا نجد أن النجاشي يستكمل تويجه في المعبد، ومن ثم يخرج في طريقه

(٦٧) الثوب قطعة من القماش الأبيض يلتحف بها الرجال في شكل يختلف عن استعمال النسوة اللاتي يستعملن نوعاً من القماش الملون يعرف بقرن علعج، والمعادة أن يربط طرفاً الثوب حول الوسط عند الدخول على شخصية محترمة سواء كانت دينية أو مدنية - وهذا النوع من اللباس منتشر في الحبشة والسودان يقل تدريجياً كلما بعدت المسافة غرباً (أنظر كتاب برتون ص ٣٧). الثوب عادة يتكون من عرضين من القماش متلاصقين بالحياكة. وكل نصف منهما يعرف بالثقة (Shuqua).

(٦٨) العوائد كما يبدو كلمة شملت التقاليد المتوارثة في مختلف صورها، وهي في هذا الوضع بالذات يقصد منها انتظار خروج « دابة الأرض » وتحتاج هذه الظاهرة إلى تفسير وإلى تحديد علاقتها مع ماورد في سورة النمل « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » (آية ٨٢).

(٦٩) أنظر بروس في رحلته جزء ٤ ص ٤٦٦ وكايو جزء ٢ ص ٢٧٧

(٧٠) يونسية في كتاب البحر الأحمر والممالك المجاورة في نهاية القرن السابع عشر الميلادي ص ١٠٤

إلى مخيمه فتعرضه عذارى أكسوم ، اللاتي يقفلن الطريق بحبل من الحرير ، ولا يسمحن له وصحبه بالمرور ، إلا بعد أن يؤكد لهم انه النجاشي لمملكة صهيون ، وهذا الاعتراض نجده في السودان في طريق العريس عند ذهابه لعروسته ، فيمنعه من الوصول إليها بشتى الوسائل حتى يدفع لمن بهداياه وتعرف به الشعيقية ، وفي الرب نجد ان قبيلة الجسكون (٧١) . في نيجريا ، وبطونها المنتشرة في مختلف المناطق ومنها الميوم تتبع تقاليد وطقوس ولاية الحكم تتفق في كلياتها وتفصيلاتها مع ما هو متبع عند سلاطين سنار ، وأنهم يحرمون على الأمير أن يتخطى الماء ، كما انهم لا يسمحون ببقاء أثر قدمي (٧٢) الأمير على الأرض ، لذلك يسير خلفه خادم ، في يده قوام لنسر ليعني بها الأثر ، أولا بأول وتذكرنا هذه بما كان من أمر السامري ، قال فما خطبك يا سامري قال بصرت بما لم يبصروا به ، فقبضت قبضه من أثر الرسول فنبذتها ، وكذلك سولت لى نفسى ، (سورة طه آية ٩٤ و ٩٥) ويعرف الشخص الذى يتولى تهيئة الزعيم المنتخب في قبيلة الجسكون باسم كندشيوخو وهذه أصلها « جندى » شيخ ، والتصحيح ظاهر كنتيجة اللهجة المحلية .

وفي دارفور يبقى السلطان ، الذى تم تعيينه سبعة أيام في منزله ، قبل أن يباشر سلطانه ، وقد خالف هذه العادة السلطان عبد الرحمن (٧٣) (حكم إلى دفور ١٧٨٧ - ١٨٠٢ م) .

أما في مملكة تغلي فان ولاية الحكم والنزول عنة موكولة ، إلى امرأة تغلب به الأرتية (٧٤) (Artiya) وهى عريقة في حسبها ونسبها ، وهى من صفوة سلالة ملوك

(٧١) الجسكون موضوع كتاب الأستاذ ميك المسمى (مملكة سودانية) وهؤلاء كانوا يسكنون حوض نهر العظيرة وهم إحدى القبائل الكبرى التي هجرت موطنها ، في حوض النيل وفتت إلى غرب أفريقيا (حوض نهر النيجر والكمرون وسيراليون) وقد ورد ذكر هذه القبيلة في كتاب الخطط للقرنيزي باسم ديجيون (بورخاردس ٤٩٨) وذكر في كاترمير « ديجيون » ومنهم بقايا قليلة في جنوب سنار ويعرفون باسم « جكون آب جريد » وموضوع هجرة قبائل حوض النيل الأوسط بسبب هجوم النجاشي غير أنه في منتصف القرن الرابع الميلادي جديرة بالبحث والتحقق

(٧٢) أنظر كتاب الادارة الأهلية في نيجريا لمؤلفته مرجرى برهام ص ١٤٢

(٧٣) أنظر التونسي ٩٦/٦٤

(٧٤) أرتى (Arti) كلمة نوبية معناها الكاهن - صانع المطر ويطلقها البعض على لفظ الجلالة (أنظر قاموس مقارن للنوبية والانجليزية لمؤلفه ج . و. مرى G. W. Muray) وكتاب Alkmvist عن اللغة النوبية وتطلق Arti في اللغة السكيزية على الجزيرة Island .

تقلى ، ولهذا الا مرأة مكانتها الروحية ، ومقامها فى تقلى أعظم من « أيا باسى » كبيرة الميارم فى بلاد الفور ، وتقضى تقاليد تقلى أن يكون لها القول الفصل فى ولاية الحسك وعزل القائم عليه ، وهى تحتفظ بأدوات الحسك من تاج ونحاس وسيوف الخ . لسكنها لا تنفرد بأصدار أو امرها ، إلا بعد أن تجتمع كلبة المشايخ المحليين (المسكوك) ، وكشروط متمم لولاية الحسك الذهاب إلى مغارة عميقة ، فى إحدى الجبال تسكنها حية تعرف باسم « حميدة أم كما أبيض » ، ويسألون عن المستقبل ويسمعون صوتاً يخاطبهم بوضوح تام ، عن الحوادث المنتظرة وما يتوقع حدوثه فى عهد الحاكم الجديد ، من رخاء وغلاء وسلام وحرب ، وقد ذكر أوليا شلبي فى رحلته انه عند وصوله إلى سفح جبل سنداسى ذبحت سبعة جهال وسبعة خرفان وسبعة ماعز وسبعة ديوك وسبعة ثعابين . . . ، ولوث الجميع أيديهم فى هذا الدم ومسحوها فى الصخرة ، ولما سأل عن سبب ذلك قيل له ان هذا هو الطلسم لفتح باب الغار الذى دخل منه كبار القوم ، وسمعوا صوتاً بالترحيب ، وبعد ذلك أخذ كل منهم فى سؤال الصوت الخفى ، عن مقصده فكانت تأتبه الاجابة « مسموعة واضحة باللغة التى يعرفها وهى التركية . والذى يهمننا من هذه القصة ان التقاليد المرعية فى تقلى وهى استشارة الحية لها مصدرها الحبشى . ولا يخفى ان للحية فى تاريخ الحبشة أثر كبير .

مراسيم تقليد المشيخة - للزعيم المحلى

وننتقل إلى المراسيم الخاصة باسناد المشيخة أو المسكوكية (٧٥) ، فقد ذكر نعوم شقير (٧٦) « وكانوا إذا توفى شيخهم اختاروا شيخاً آخر ، وأخذوه إلى ملك سنار فيؤيده كما كان مشايخ العبد اللاب يؤيدون المشايخ والملوك ، الذين هم دونهم وتحت سيادتهم وذلك انه كان إذا مات لهؤلاء ملك ، اجتمع أهل قبيلته واختاروا لهم مالكا يولونه عليهم ، وأتوا به إلى الشيخ ، فيحلق الشيخ رأسه ويلبسه طاقية ذات قرنين ،

(٧٥) مكون مفردا مك وهو الشيخ المحلى .

(٧٦) يختص السلطان السنارى بجراء التعيينات المختلفة فى قطاعه أما فى المناطق المتحددة مع سنار فالسلطان يوافق على تعيين الشيخ أو الملك من بين المرشحين الذين كانوا عادة من بيت الرعامة . كما أن السلطان يعين القضاة « الشرعيين » أنظر الطبقات ترجمة دشين قاضى العدالة ص ٩٠ والقضاة الآخرين عبد الله العركى ص ١١٢ وعبد الرحمن ابن مشيخ النويرى ص ١١٤ وبقدوش ابن سرور ص ٤٤ - ويقوم الشيخ المحلى بتعيين من هم دونه مرتبة دون الرجوع إلى السلطان .

محشوة قطناً ويجلسه على كرسى يسمى بالككر ، ثم يخاطبه بلقب مك أى « ملك » ويقول له « مبارك عليك » ، فيقبل الملك يده وتدعو له بخير ، فيأمر الشيخ بضرب النحاس ، اشهاراً لتأييده ملكاً على أهله ، وعند ذلك يتقدم أهله ، فيسلمون عليه بالاحترام الذى سلم به على الشيخ ، ويخاطبونه بلقب « أرباب » ثم يقولون جعلك الله مباركا علينا ، ولتعمر البلاد بك ، وتكثر الخيرات على يدك ، فيقول لهم « الله يعمركم ويخليكم أنا بكم مش بلاكم » .

وذكر كرمب انه قد حضر أثناء زيارته لبلدة قري ، مراسيم تولية شيخ لاحدى القرى التابعة لشيخ قري ، ويقول ان الشيخ المعين قد أحضر إلى اجتماع فى البلدة ، لىسمع بعض الأدعية ، التى يقوم بها الفقهاء ، وبعد ذلك يقدم له الشيخ قيصاً حريراً وعمامة ويسلمه سيفاً كرمز لولايته سلطاته ، وعند ذلك يتقدم الحاضرون بالتحية للشيخ الجديد ، وذلك بالانحناء أمامه حتى تلمس جباهم الأرض ما يقرب من الثلاثين مرة — ويرقص الشيخ الجديد ، شاهراً السيف الذى قلده فى يده ويغنى مادحا شيخ قري (٧٧)

وفى بلاد المحس فى شمال السودان ، والتى كانت تحت حكم الكشاف ، فان تنويج الشيخ يتم بجلوسه على حجر فى مكان معين ، وفى بلاد المحس أيضاً نجد ان رجلاً يحمل عصاه أو سيفاً من الخشب يستقبل به الامام عند باب المسجد ، عند حضوره لصلاة الجمعة ويسير أمام الامام حتى باب المنبر فيسلمه العصاة أو السيف وبهذا يستكمل الامام صلاحياته ، للإمامة ويصعد على المنبر للخطبة ، ولهذا العادة أثر فى صعيد مصر .

مراسيم الاستقبال عند السلاطين

ذكر بونسيه أنه قد ذهب فى اليوم التالى ، لوصوله إلى مدينة سنار ، لمقابلة السلطان فى ديوانه الرسمى ، وأوضح المراسيم التى تراعى فى مثل هذه المناسبات ، وذلك بأن يخلع الداخل حذاه عند باب ديوان متسع ، اصطفت على جوانبه جنود من حملة الرماح ، ويقف الداخل عند حجر ، بالقرب من باب ديوان اعتاد السلطان أن يجلس

(٧٧) أنظر رحلته كرمب فى كتاب مملكة الفنج فى سنار مؤلفه كروفورد ص ٢٢٢ وما بعدها

فيه ، لمقابلة البعثات الأجنبية ، وبعد أداء التحية وفق العادة المتبعة ، وهى الركوع وتقبيل الأرض ، ينقل الوزير ، الواقف بالقرب من السلطان ، التحية ويحمل رد السلطان عليها ، ويقول بونسيه ان السلطان كان جالساً على سرير فاخر ، ويرتدى معطفاً موشاً بالذهب ، و متمنطقاً بحزام من قماش ، وعلى رأسه عمامة بيضاء ، وحوله عشرون من كبار رجال الدولة .

وبعد أن حمل الوزير تحية السلطان ، قدم بونسيه الهدايا التى أحضرها معه ، وهى عبارة عن مصنوعات زجاجية أوروبية ، وقد أظهر السلطان إعجابها بها ، وبعد حديث تناول الاجابة على الأسئلة التى وجهها إليه ، سأله عن سبب رحلته . واستمرت المقابلة زهاء ساعة من الزمن ، انتهى بعدها الاستقبال وانسحب الزائر ومن معه إلى الخلف ، وأعادوا الركوع وتقبيل الأرض ثلاثاً - وأمر السلطان الحراس بمرافقتهم إلى منزلتهم وأرسل إليهم أفداح السمن والعسل والمأكولات الأخرى وعجلين وخروفين .

مراسيم تقليد الخلافة الدينية

يختار الفقيه صاحب السجادة (الطريقة الدينية) كلقادرية وغيرها - من يصلح من تلاميذ بعد أن يستكمل مرحلة العلم ، ليشغل مركز خليفة الفقيه فى المكان الذى يختاره ، لئلا يشرع دعوته وتلقين المريدين تعاليم الطريق ، ويتم التعيين لمركز « الخليفة » ، فى حفل يقام أمام بيت الفقيه ، يجلس الطالب على كرسى وتلف على رأسه عمامته ، ويطوفون حوله عدة مرات ، قد تكون سبعاً ، ثم يتلوا الفقيه بعض الأدعية ، وبعدها يباركه ويسلمه ركوة وفروة وعكاز وسبحة ، تكون فى بعض الحالات مكونة من ألف حبة ، وتذبح الذبائح ، وتقام بعد ذلك الأذكار ، وينشد المداحون وينتهى الحفل ، عادة بعد صلاة العشاء بالدعاء والفاطحة .

مراسيم الاستقبال عند الزعيم المحلى

روى كرمب (٧٨) ان الأهالى عندما يزورون الزعيم فى « قرى » يتقدمهم رجل يحمل عصا طويلة ، ويتبعه القوم فى صف واحد ، يحيى كل منهم الشيخ بقوله « يا مانجل » أنا فلان ، ويرد عليه الشيخ مكرراً الاسم ، وبعد الانتهاء من المستقبلين يقيم الشيخ عرضاً لجنوده ، يقومون بتمثيل موقعة صورية ، تدق خلالها للطبول ، وتستمر الحال حوالى النصف ساعة ، ينصرف بعدها القوم إلى بيوتهم .

(٧٨) أنظر كتاب مملكة الفونج فى سنار لمؤلفة كروفورد ص ٢٢٢

تقاليد الاستقبال عند الفقهاء

جاء في كتاب الطبقات (٧٩) .. ان الفقيه عبد الصادق ولد حسيب أرسل إلى الشيخ حسن بالقدوم إليه ، ولما وصل الشيخ إلى حلة الفقيه ، وجده غائباً فانظره إياماً وفي يوم عودته ، علت التهليل والزغاريد ، وذهب الفقيه إلى الحوش (منزله) ولما زالت الشمس ضربت الطبول . وفرشت دكة الديوان ، ثم جاء الفقيه لابساً قميصاً عالياً كبيراً وجلس على الدكة وقامت العبيد يحملون العكازين (مفردها عكاز) ، للسلام ويقول الواحد منهم « أنا فلان ، ويكرر الفقيه الاسم فيرد عليه هذا الفلان « سيدى » ، فلما فرغوا قامت الفقراء فسلمت ، ثم قام أرباب الحاجات فسلموا وتكلموا وانتهى الاستقبال .

أما فيما يختص بمختلف الوظائف الأخرى ، فى السلطنة وفى الأقاليم المتحالفة ، فاننا لانجد ما يشير إلى ذلك تفصيلاً ، من حيث الرواتب التى تدفع للوظائف من كبار رجال الدولة إلى أدنى الدرجات ، وهل هى كانت تدفع وفق مقررات معينة ، أو كانت متروكة لهم لأخذ نصيبهم ، مما يحصلونه من عشور وضرائب الخ . ويبدو فيما يخص الوظائف الرئيسية أن أصحابها كانوا يحصلون على معيشتهم من أرزاق الاقطاعات ، التى تمنح لهم كما هو الحال فى دارفور .

ونجد تنظيمات فى دارفنج (جنوبى سنار إلى الرصيرص) أخذ بعضها فى الاختفاء فى العهد الحديث ، وقد يكون من المفيد أن نسجلها لصالح البحوث المستقبلية .
وهذه التنظيمات هى كالتالى :-

١ - وور AUR :

هذا هو لقب الزعيم المحلى ويقابله « مك » ، المستعمل بين المجموعات فى السودان الأوسط ، ولهذا الزعيم السلطات المدنية والدينية فى منطقته ، وعليه أن يقوم بدور رئيسى فى إقامة الشعائر الدينية .

ويتخذ هذا الزعيم مسكنه فى كوخ يعرف باسم واتل (We -ei - tel) ومعناها « كوخ الشمس » ، ويعتبر هذا الكوخ مركز الشعائر الدينية ، ويحتفظ الزعيم فيه

بمقعد خشبي ، ينتقل عند وفاة الزعيم إلى خلفه ، وهذه الوظيفة وراثية يرثها الابن عن الأب ، ولا يخرج هذا الزعيم إلى الحرب .

ويفصل هذا الزعيم في المشاكل التي تعرض عليه . كما أن من واجبه أن يعرض مصلحة منطقته المعيشية ، ويعاونه في ذلك موظفون كما هو موضح بعد .

٢ - سن أي كنج (بضم الكاف) (Sen - i - Kung) :

وصاحب هذا اللقب هو « قائد الحرب » ، ويقابله في سنار « سيد القوم » ، وهو منوط برعاية الأحوال اليومية وترفع إليه الشكاوى للفصل فيها أما المشاكل الهامة فيقدمها إلى الـ وور (Aur) الذي يفصل فيها باستشارة الأجاويد وسيد القوم .
 والوظيفة وراثية .

٣ - كاي Kai :

ويقوم هذا بممارسة علاج المرضى بالسحر أو غيره .

٤ - سن أي توك Sen-i-tok :

وهو قائد الماشية ، ولكل حلة (قرية) قائد ماشيتها ، ومن اختصاصه أن يقود الحيوانات إلى موطن الرعي ، عقب انتهاء فصل الأمطار ، وعليه أن يصدر أوامره إلى الرعاة لتغيير موطن الرعي ، عندما تتطلب الظروف ، كما عليه أن يأمر بأقامة الزرائب في المواضع المختارة في موطن الرعي ، والزرائب تقام عادة في شكل دائرة تحيط جوانبها أشجار شوكية .

٥ - سن أي سرم Sen - i - Serm :

وهو نافخ البوق (والبوق - النفير - من قرون الحيوانات) ويتولى « حامل البوق » ، ولكل قرية عاملها - دعوة السكان للخروج للصيد ، وهو الذي يتصرف فيما يجمعون ، وعليه أن يقوم بدوره « السحري » في عملية الصيد .

٦ - سن أي ساك Sen-i-Sak :

وهذا هو زعيم المريسة (الشراب المحلي) ، ويمارس وظيفته عندما يتقدم إليه شخص بطلب استخدام عدد كبير من العمال ، وفي هذه الحالة يقوم هذا الزعيم بأعداد

المريسة المطلوبة ، ويطلب من المخدم أن يعين مندوبا عن عماله لاستلام المريسة وتوزيعها على رجاله .

والمريسة تستخرج من خمير العيش وتستهعمل في بعض المناطق كغذاء رئيسي .

٧ - القماش Gatash :

وهو الذى يعرف مسالك الجبال والطرق ، ويرشد الغرباء إلى الطريق ، وإذا حدث خلاف بين الأهالى فى منطقة الجبال والانفسه ، فانهم يذهبون إليه فى الجبل الذى يسكنه ومعهم خروف لذبحه وإقامة حفل للصالح .

ونجد فى هذه المراسيم والطقوس مظاهر بارزة ، تتطلب بحثاً دقيقاً فى دراسة مقارنة لمعرفة مصادرها وتطوراتها ، ومن هذه المظاهر حبس السلطان المنتخب لسبعة أيام ، والتزامه بأن يتمتع كلية خلال لك المدة من التعرض لضوء الشمس ، ثم ذهابه إلى المكان المعين انتظاراً لخروج الدوائد ، وأخيراً دخوله الماء وغطسه فيه ، ويشرف على هذه الاجراءات الجندى ، الذى تبدأ مهمته من الساعة التى يتم فيها انتخاب السلطان الجديد ، وهذه المظاهر إن دلت على شىء ، فانها تدل على قدسية شخصية السلطان ، لذلك يتحتم عليه قبل أن يتسلم مقاليد الحكم ، أن يعتزل المجتمع للبدة المعينة تتبعها مباشرة مراسيم تقليده السلطنة ، وليس اعتزاله المجتمع إلا لى يتظاهر ويرتقى ، من مرتبة البشر إلى مصاف أنصاف الآلهة . وأن عملية التديك التى تقوم بها العجوز فى فترة الاعتكاف ، ليست إلا مصدرراً من مصادر منح السلطان النوة .

وتكشف لنا هذه التقاليد والطقوس ، عن مدى أثر المدينة المصرية القديمة وعباداتها ، وبخاصة عبادة الشمس ، التى نجد طقوسها بارزة فى شكل أو آخر ، فى حفلات التتويج ، ونجد أيضاً أنه من الضرورى ، أن يتزوج السلطان فى سنار من بنت عين الشمس ، كما يعرف الزعيم فى بعض قبائل نيجريا بابن عين الشمس (٨٠) ، وبدراسة هذه التقاليد والطقوس ، كما يمارسها بقايا الفونج فى فازوغلى (التى ذكره ديزنى فى مقاله آنف الذكر) ، وما هو متبع فى المناطق المجاورة للسودان ، فى نفس الزمن الذى سجل فيه ديزنى مشاهداته ، ومقارنة ذلك مع ما كانت عليه فى العصور القديمة ، يتبين لنا ما أدخل عليها من تعديلات وما أصابها من تطورات ، تتناسب

(٨٠) أنظر كتاب دراسات قبلية فى شمال نيجريا (بالانكليزية مؤلفه مك س ٣٥٦/٣٥٠)

مع البيئة المحلية الخاصة ، وما يسترعى الالتفات أن هذه التقاليد والطقوس في مختلف العهود ، التي مرت عليها لم يحدث تغيير في الأسس ، التي قامت عليها أصلا ويرجع ذلك الاستمساك بتلك الأسس إلى طبيعة الحضارة المصرية (٨١) .

والجندي هذا يقوم بدور رئيسي في مراسم التتويج ، ويكون عادة من رجال الدين ، فقد جاء في الطبقات ما قاله الملك عمارة أبو سكيكين للشيخ « ادريس بن محمد الأرباب » أنت في السابق كنت جندينا ، ثم بقيت جنديا لله ، وحات الملك أن كان ما عافيت أمي ، أردك إلى جنديتك (٨٢) . - وهذا المنصب يقابله في العصرين الفرعوني والمسيحي ، منصب « السكاهن » الذي يتولى تكريس الزعيم لتسلم مقاليد الحكم .



أم قرين

الطاقية

٤ - الطاقية أم قرون - من تسمية
نج وارضى صلفا (الشيخ عبد القادر)

(٨١) من تلك البقايا التي مازالت باقية :

١ - عادة التخطيب بالحناء ورسم علامة القرص الشمسي في أسفل السكف .

٢ - تكرار النسوة في حلقات الرقص كلمة حك (Haqi)

(٨٢) طبقات ود ضيف الله - نشرهما الشيخ ابراهيم صديق ص ٨/٧ والقصود من « حات

الملك » أي قسما بحياة الملك .

الكتاب الثالث

من امتداد الادارة المصرية إلى السودان
إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى

السلطنة السنارية في سنواتها الأخيرة

تميزت السنوات الستة عشر الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي بأشتداد الصراع بين إنجلترا وفرنسا، وبخاصة بعد أن فشلت الدولة الفرنسية في بسط نفوذها القوى في هولندا أمام النشاط البريطاني، وكان هذا الفشل من أبرز الأسباب التي دفعت فرنسا إلى الانتقال بمسرح الصراع إلى جنوب شرقي البحر الأبيض المتوسط، حيث نزلت الحملة الفرنسية في أرض مصر في عام 1798م، لاهميتها الاستراتيجية على مركز إنجلترا وعلى خطوط التجارة^(١)، بين الشرق والغرب وداخلية أفريقيا. وقد أحدثت هذه التطورات تغيير نظام الحكم في مصر، واهتم قائد الحملة نابليون بمحاولة إعادة فتح طريق التجارة، بين مصر وبين الفور وسنار، بعد أن أهملها المماليك، الذين وجهوا اهتمامهم نحو التجارة عبر البحر الأحمر إلى السويس، ومنها بطريق البر إلى شاطئ البحر الأبيض، وتركوا السودان في عزلة اقتصادية تكاد أن تكون تامة، ولم يكن لبريطانيا أن تهتم بالتنافس والتطاحن، الذي كان قائماً فيما بين زعماء المماليك بسبب التجارة عبر مصر، طالما أن ذلك الصراع لا يؤثر على شريان مصالحها في الشرقين الأدنى والأقصى، إلا أن نزول القوات الفرنسية في مصر قد أيقظ اهتمام الدول الأوروبية وبخاصة إنجلترا، التي كانت تحرص الحرص كله على بقاء هذه المنطقة منطقة الشرق الأوسط - بعيدة عن السيطرة لدولة أو أخرى، لما يخلق لها ذلك من متاعب، تتعطل معها مصالحها الاقتصادية، وعلاقتها مع الهند وإلى مستعمراتها في أورام ذلك وبذلت بريطانيا جهودها لإخراج الفرنسيين من مصر، الأمر الذي تم لها في عام 1801م، وبعد خروج الفرنسيين أقام الباب العالي ولاية في مصر، لم يكتب لهم التوفيق في إدارة البلاد، حتى انتزعها الشعب المصري، الذي سلم مقاليد أموره إلى محمد علي، واستخدم هذا الوالي عدداً من المستشارين الفرنسيين لمساعدته في تنظيماته الجديدة، كما أنه نشط في مطاردة المماليك والخلص منهم، لما كانوا يقيمونه من عراقيل ومشاكل لمحمد علي، وقد امتد نشاط المماليك إلى السودان حيث دخلت إليه بعض الجماعات منهم هرباً من محمد علي.

وكان لهذه التطورات في الشمال أصداءها في الجنوب (السودان)، حيث أيقظت الوعي، وأخذ زعماءه يتلمسون الطرق والوسائل للحصول على نجدة مصر، للخلاص مما حل بهم من تطاحن قبلي وحروب داخلية، زادتها تعقيداً هجرة المماليك^(٢) إلى البلاد، ومحاولتهم السيطرة على دنقله، والانتقال منها تدريجياً نحو الجنوب، حتى تم لهم الزعامة الكاملة، كما حاول أولئك المماليك الدخول إلى كردفان وبلاد الفور، حيث ذهب محمد بك المنفوخ وعبدالرحمن بك، واقترنت هذه الجهود من جانب المماليك في مهاجرهم بالاتصال بالوهابيين، في الجزيرة العربية عن طريق مندوبهم حسن جوهر الكاشف.

(١) كوبان - السفراء والبعثات السرية - لندن ١٩٥٤ - روزه. جزء أول ص ١٦١.

وكانت خشية مصر أن يتعاون المماليك مع أتيوبيا على قيام دولة مملوكية تسيطر على حوض النيل الأوسط وتنفذ إلى ساحل البحر الأحمر وتنشئ في هذا الجزء من وادي النيل مشيخات وزعامات تخضع في صورة أو أخرى للمماليك الذين يرتبطون في شكل ما مع دولة أوروبية عن طريق محالفات صداقة وامتيازات تجارية . وكان إلى مصر يرقب تطور الأحوال في جنوب الوادي بعين الحيطه والحذر والعمل على مواجهة ما قد ينتج من تطورات بخاصة بعد رحلة هنرى صولت (٣) في صحبة اللورد فلنشيا في عام ١٧٠٥/١٨٠٦ ورحلته الثانية في ١٨٠٩/١٨١٠ (وبين ١٨٠٥ و١٨١٠ م جاءت إلى مصر حملة فريزر التي فشلت) . وقد كان في رحلته الأولى مع اللورد فلنشيا التي أرسلتها الحكومة البريطانية إلى نجاشى أتيوبيا للحصول على موافقته على منح بريطانيا قاعدة بحرية في أرض الدناكل يمكن استخدامها لغزو مصر اذا قامت قوات فرنسية بقفل البحر الابيض المتوسط لاحتلال مصر مرة أخرى أو إذا وقعت مصر تحت نفوذ دولة قوية تخشى انجلترا منافستها . وفي الرحلة الثانية التي كانت أيضاً بأمر الحكومة البريطانية لتوثيق الروابط الدينية المسيحية . وهذه من أولى مراحل التوسع الأوروبي الذي اتخذ بآدى ذى بدء الدين كوسيلة لأهدافه .

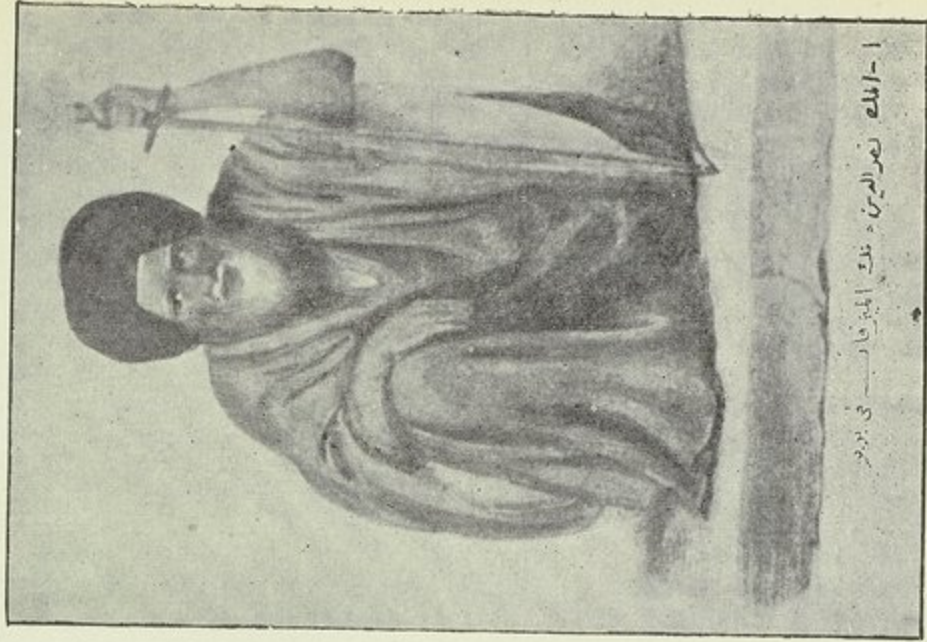
وقد اهتمت مصر بنشاط هنرى صولت في حوض البحر الأحمر وأتيوبيا الامر الذى تبولت عنه مكاتبات (٤) . ولم يتوان محمد على في اتخاذ خطوات مضادة لعرقلة الحركات المعادية التي تهدف إلى إقامة قوى منافسة ، تستطيع مناهضة مصر والضغط عليها . وذلك برسالة وفداً رسمياً إلى السلطان السنارى في عام ١٨١٣ م مطالباً العمل على مقاومة النفوذ المملوكى (٥) كما أرسلت بعثة ثانية إلى غندار بأتيوبيا لنفس الغرض مقاومة للنشاط المملوكى وجاءت إلى مصر كنتيجة للتطورات التي حدثت بتغيير نظام الحكم وزوال السيطرة المملوكية ، وفود من السودان على رأس كل منها زعيم من كبار الشخصيات ومنهم أبو مدين المطالب بعرش دارفور والملك ادريس ود ناصر من البيت السنارى ومعه زعماء من فازوغلى كما جاء الملك نصر الدين أبو حجل زعيم الميرفاب وفي الوقت الذى جاءت فيه هذه الوفود إلى مصر كان الوالى غارقاً في مشاكله الخاصة بشمال الوادي (مصر) ، غير أن تلك المشاكل لم تحجب عن مصر التيارات

(٢) أنظر مقال الأمير عمر طوسون « نهاية المماليك » في مجلة الحنجع المصرى مجلد ١٥ ص ٢٠٥/١٨٧ - أنظر أيضاً كتاب التونسى « تشجيد الأذهان » .

(٣) شغل هنرى منصب القنصل الانجليزى في مصر ١٨١٥/١٨٢٧ وكان مهتماً بالآثار الرحلات كما كان وكيلاً لشركة الهند الشرقية وله علاقات مباشرة مع وكلاء هذه الشركة في نخا (البنين) ومالطه .

(٤) أنظر أدوار دريو في كتابه بناء امبراطورية محمد على ص ٣٠٤

(٥) قابل الرحالة بورخارد هذه البعثة في شندى (أنظر كتاب ص ٣٠٨)



١- الملك نصر الدين - عند الميقات في بصر

أبو مدين الطالب
بعرش القصور
(عن بيرون) ←

↑
عن هوسكن
(تقلا
أبو حجل)
الملك نصر الدين



٢- أبو مدين - الطالب بعرض القصور

الخفية التي كانت تعمل في مهارة لتثبيت أقدامها في جنوب الوادي كما أشرنا آنفاً. وقد أخذ الوالي في إعداد خطته لتوجيه القوات اللازمة لاعادة الامن واستتابه في البلاد وذلك بعد أن تجمعت لديه المعلومات الضرورية وأهمها ماجاءت به البعثتان المصريتان من سنار وغندار ومما نقله زعماء الوفود السودانية . وقد حانت الفرصة لارسال أولى قواته تحت أمرة ابنه اسماعيل كامل بعد الانتهاء من الحرب في الجزيرة العربية. وأرسل الوالي قبيل سفر جنوده المهندس محمد خسرو بك المعروف بالدفتردار لكشف الطريق بين أسوان وحدود نقلة ، التي كانت تحت سيطرة الكشاف ، وجمع المعلومات عن نشاط المماليك في دار الشايقية وجنوبها (٦).

قامت الحملة بقيادة اسماعيل كامل أصغر أبناء محمد علي ، وبصحبه جماعة من كبار علماء الدين منهم القاضي محمد الأسيوطي ، والسيد احمد افندي السلواي مفتي السادة المالكية ، والسيد احمد البقلي مفتي السادة الشافعية ، وكانت مهمة هؤلاء العلماء القيام بارشاد الاهالي وتبصيرهم بأهداف الحملة التي ترمى إلى إرساء أسس جديدة لاعادة الطمأنينة والاستقرار للبلاد ، والتخلص من المماليك . وقد روعى في اختيار هؤلاء العلماء تمثيل المذاهب التي تعتنقها غالبية سكان السودان الشمالي ، فالأكثرية تتبع المذهب المالكي ، وقلة منهم على المذهب الشافعي ، وجماعات أقل على المذهب الحنفي ولم تكن التجريدة في واقع الأمر أكثر من قوة بوليسية أرسلت لاعادة النظام وتوطيد العلاقات بين شطري الوادي بعد أن تعطلت هذه الروابط بسبب قيام حكومة متنافرة من المماليك وقليل منهم من اهتم بأمر الجنوب ، وكانت من نتيجة تلك العزلة كساد الحياة الاقتصادية وتطاحن الزعماء المحليين واشتباكهم في حروب داخلية أكلت الاخضر واليابس ، واشتدت حركة العصابات للسلب والنهب وقطع الطرق وكان لزاما على مصر أن تعمل على إعادة الاستقرار والامن وإرجاع الحياة اليومية إلى مجاريها ، بعيدة عن السيطرة الأجنبية التي برزت في صورة محاولة المماليك في السيطرة على ذلك الجزء من وادي النيل ، وفي تلك السيطرة ما فيها من خطر على مصر نفسها .

ولم تجد التجريدة المصرية مقاومة بعد اشتباكها مع الشايقية الذين رفضوا ترك أعمال التعدي وقطع الطرق ، وقد طلب إليهم اسماعيل أن يركنوا إلى الزراعة وحياة

(٦) مقال الأمير عمر طوسون آف الذكر ص ١٧٨/٢٠٥

الاستقرار والعمل على إعادة بناء الحياة اليومية ، وحدث في إحدى المعارك إن وقعت في الأسر ابنة زعيم الشايقية العذراء « مهيرة » (٧) ، التي كانت في مقدمة المحاربين من أهلها كما قضت العادات والتقاليد القبلية ، وقد أحسن القائد المصري معاملتها وبالغ في إكرامها باعادتها بحملة بالهدايا ، الأمر الذي دفع والدها أن يتوقف عن محاربة من حافظ على شرف ابنته ، وطلب الصلح معه .

وسارت الحملة من دار الشايقية إلى دار الميرقاب ، وفي بربر حضر الملك نمر (مك شندی) وحاشيته ، مرحباً بمقدم الحملة ومعلنًا استسلامه وخضوع إقليمه للإدارة المصرية ، فأحسن قائد الحملة معاملته وإكرامه خلال الأيام الثلاث التي قضاهها الملك في معسكر الحملة في بربر ، وعمل هذا الملك بعد عودته إلى منطقتة على تأمين طريق الحملة عبر بلاده ، كما أحبط محاولة الملك المساعد الذي أراد أن يجمع رجاله ومن ورائه فلول من المالك ، لمحاربة الحملة وعرقلة سيرها ، وحاول الملك المساعد أن يستميل إلى جانبه الملك شاويش وفرسانه من الشايقية إلى جانبه إلا أنه لم ينجح في محاولته هذه ، وانضم الملك شاويش ورجاله إلى الحملة ومنح رتبة « السنجق » .

ورافق الملك نمر الحملة المصرية من شندي إلى سنار للاستئناس برأيه ومشورته في المسائل المحلية التي يتطلب حلها مراعاة التقاليد والعادات المحلية (٨) ، وحدث في يوم وصول الحملة إلى سنار عاصمة السلطنة السنارية إن وقع السلطان بادی الوثيقة التي اعترف فيها بتبعية للسلطان العثماني وتسليم إدارة بلاده إلى حكم مصر (٩) وقد قابل السلطان بادی الحملة المصرية في واد مدني ، معلنًا ترحيبه واستسلامه . وبما يجدر ذكره أن وزير السلطنة السنارية لما علم بقيام الحملة المصرية سارع بإرسال خطاب إلى الفقيه ابراهيم الفرضي (بفتح الفاء والراء وكسر الضاد) طالباً منه سؤال الله تعالى ليبتل بحجى الحملة (١٠) ، وهذه تبين لنا تغلغل المعتقدات في أصحاب السجاجيد .

٢ - الملك نمر والفرد باسماعيل بن محمد علي

لايمتنا في قليل أو كثير أن نتعرض لمراحل القتال الذي انتهى بامتداد الارادة

(٧) هذه عادة قديمة - أنظر هامش ٣٢ من الكتاب الثاني .

(٨) كتاب رحلة إلى دنقلة وسنار لجورج انجلش طبع بوستن سنة ١٨٢٢ س ١٥٨

(٩) الصدر آف الذكر س ١٦٩

(١٠) صورة الخطاب في الملحق السابع .

المصرية حتى شملت أجزاء السلطنة السنارية ، وتطهير البلاد من خطر المالك واستئصال شأفتهم ، لكننا لانريد أن نهمل ذلك الحادث الذى ذهب ضحيته اسماعيل وصحبه فى شندى . وبينما تتفق مختلف الروايات على أن الموت قد حدث بسبب الاختناق فان هذه الروايات تختلف فى عناصرها عن العوامل التى دفعت الى ارتكاب الجريمة . ويبدو أن المعلومات التى تجمعت حينذاك عن ملابسات القضية قد بنيت على بيانات لم يبدل فى تحقيقها أدنى جهد . وما كان لهذه المسألة أن تعالج على هذا النحو الذى ترك أثره العميق فى المجتمع السودانى ، وسواء أكانت هذه الأخبار قد نشرت فى صورتها الخاطئة عن حسن نية أو عكس ذلك ، فان الأمر الذى لاشك فيه أنها خلقت جواً من التشكيك فى الادارة المصرية للسودان ، كما أيقظت الشائعات المغرضة وتعطلت مرحلة البناء . وفى هذا التشكيك وما ينجم عنه من بلبلة للأفكار فى السودان وغير



٣ - الملك نمر - ملك شندى

الملك نمر - ملك شندى

السودان مصلحة للتربصين من الفرنجة من أصحاب المظالم السياسية ، التي لم تأخذ في ذلك الوقت صورتها البارزة الواضحة المعالم. ولم يفت هؤلاء الفرنجة استغلال الحادث في صورة أو أخرى كما فعل القنصل الفرنسي في القاهرة ماليت في قضية مقتل دي رول رئيس البعثة الفرنسية الى الحبشة الذي قتل وصحبه في سنار في ٢٥ نوفمبر سنة ١٧٠٥ م كما سبق أن أوضحنا ظروف ذلك الحادث .

مات اسماعيل بن محمد علي ورجال حاشيته الصغيرة اختناقاً بدخان القش الذي وضع في دار الضيافة التي أعدها الملك نمر (زعيم شندي) لنزول ضيفه وحاشيته وذلك خلال فترة وجودهم في شندي وهم في طريقهم الى مصر بسبب مرض اسماعيل وقد حدث هذا الحريق في ليلة ١٧ صفر سنة ١٢٣٨ هـ (أواخر أكتوبر سنة ١٨٢٢) واتهم الملك نمر والملك المساعد وألقت عليهما المسؤولية عن تدبير المؤامرة والاشترك في تنفيذها وقال البعض أن الملك نمر هو المسئول عن الحريق ويقول هؤلاء أن الباشا قد أغلظ في القول تملك نمر وطلب منه أن يقدم له ألفاً من الرقيق في خلال يومين (١١) . وجاءت في رواية لينان دي بلفون (١٢) أن اسماعيل طلب من نمر أن يدفع له ثلاثة آلاف ريال أبو طيره وستة آلاف من الرقيق . ونقل روبنسون (١٣) أن اسماعيل فرض على نمر أن يقدم من المال والمواشي الخيول والجمال والغلال والرقيق ما تزيد قيمته عن العشرين ألفاً من الجنيهات . وتضيف الرواية التي نقلها روبنسون أن الملك نمر أوضح لاسماعيل أن رجال قبيلته لا يملكون شيئاً يساعده على الاستجابة لمطالبه وأنه لذلك عاجز عن تنفيذ ما طلب منه . فما كان الأمير إلا أن ضرب نمر بالشبق وحاول نمر أن يرد الاهانة بالسيف لكن الملك المساعد منعه من ذلك وبعد الاعتذار وعد بتقديم المطلوب في اليوم التالي !! وهو يضم الانتقام لما لحقه من اهانة.

(١١) روبل في كتابه ص ٣٠٠ وما بعدها والمؤلف معروف بكرأيته للمصريين .

(١٢) دوان في السودان المصري ص ٣٨٧ وما بعدها .

(١٣) مقال روبنسون في مجلة السودان في رسائل ومدونات المجلد الثامن ص ١١٨/١٠٥ وقد ذكر لي الأستاذ محمد عبد الرحيم أن السادة موسى ود تركاب وموسى ود تنير وموسى ود حمزة والشيخ محمد الحاج فضل الله صهر الملك نمر وموسى ود هلال قد أخذوا جثمان اسماعيل إلى بيت أحدهم واحتفلوا بتشييع جنازته في جمع عظيم ودفنوه عند قبعة حاج فراج أمام مكنتات السوارى بشندي - وذكر لي أيضاً أنه سمع من الأمير اسماعيل احمد بن الخليفة عبد الله التعايشي أنه لما كان في الأسر في دمياط حدثت وفاة أخيه الأمير محمود وتقدم خمسة من أعيان البلد وهم عبد المنعم بك ، واللوزي بك ، وعبد الرازق بك ، الشيخ عبد السلام الغلابي ، ومصطفى بك الدرسي ، واحتفلوا بدفن الأمير في موكب كبير سار فيه العلماء والأعيان وكبار البلد وتقبلوا التعزية وأقاموا سرادقا لاستقبال المعزين كان ذلك كما ذكر لي سيادته في ابريل سنة ١٩٠٤ م .

ومما لاشك فيه أن هذه التقديرات خيالية ، لم يراع فيها صاحبها الامكانيات الاقتصادية لمنطقة شندي ، التي لم تسكن ، كما ذكر بورخارد ، أكثر من سوق تجارية تتجمع فيها السلع ، وبخاصة الحبوب التي تصل اليها يومياً على ظهر الابل من منطقة النيل الأزرق ، وأوضح هذا الرحالة أن منطقة شندي فقيرة الى حد كبير ، ولم يكن هذا الوضع الاقتصادي لشندي خافياً على اسماعيل ، وأن عملية حسابية بسيطة تكشف لنا عن أن هذه الروايات قد اختلقت ، لتخفي وراءها أسرار الحقيقة الدامغة .

وقد كان اسماعيل حريصاً الحرص كله على أن لا يحصل ما يسبب المتاعب للأهالي من جنوده ، وكان يتودد اليهم بشتي الوسائل ليدخل الطائفة الى قلوبهم ، وذكر انجلش ، الذي رافق الحملة ، ان بعض الخدم والجنود قد سلكوا مسلكاً مخالفاً لما أصدره من أوامر بشأن معاملة الأهالي ، فأنزل بهم العقاب الصارم (١٤) ، ودفع للأهالي تعويضاً عما أخذه منهم أولئك الأفراد ، وكان أن أمر اسماعيل بتخفيض الأموال التي قدرها دفع الله الأرباب وديوان افندي والمعلم حنا الطويل (١٥) .

ويجعل بنا أن نحاول استعراض ظروف الحادث ، وملابساته للكشف عن ما أخفته الروايات عن مسئولية ارتكاب الجريمة .

١ (تتفق الروايات ، في صورة اجماعية ، على ان المؤامرة قد نفذت بتكديس القش حول المنزل ، الذي أعد لنزول الضيوف ومن ثم أشعلت النار التي أوجدت سبباً كثيفة من الدخان لفترة مستمرة تكفي لاحداث الموت اختناقاً للنازلين في دار الضيافة ، وإذا أخذنا بعين الاعتبار إلى نظام تخطيط المساكن في شندي كما في غيرها من بلاد السودان نجد أن المنزل قد أحاط به حوش كبير وهذا يتطلب مقادير هائلة جدا من القش يحتاج نقلها وتكديسها - إذا فرضنا جدلاً توفر هذه الكميات في بلد محدود الموارد الزراعية مثل شندي - إلى استخدام الآلاف من العمال والعامل في مدة تزيد عن الأسابيع ولا يفوتنا أن نذكر ان الزمن الذي حدثت فيه الحريق كان في نهاية شهر أكتوبر ، وهذا يقع في نهاية الفترة الفاصلة بين نهاية فصل الحريف (الأمطار) وبداية الشتاء وعند ذلك تتحول الرياح من جنوبيه الى شماليه ، ونرجح أن كمية من أشجار السنط كانت في داخل الحوش ، وفي بعض الحجرات ، وهذه هي التي

(١٤) انجلش في كتابه حملة دقلة وسنار ص ١٠٩/١٤٠/١٤٢

(١٥) مخطوطه تاريخ سنار ص ٢٨ - الف

أشعلت فيها النار وأوجدت ستاراً كثيفاً من الدخان تسبب عنه الموت اختناقاً - ومما يسترعى الالتفات ان استخدام مثل هذه الخطة للانتقام من اسماعيل ورجاله لم يكن معروفاً في السودان - ومن هذا يتبين ان مدبر الخطة لم يكن من أهالي البلاد وإذا ربطنا هذه الخطة مع هدفها وهو الانتقام من اسماعيل فإن التهمة تتجه نحو صاحب المصلحة في ذلك ولم يكن في السودان غير « الممالك » والعلاقة بينهم والعلاقة بينهم ومحمد على لا تحتاج إلي بيان ، وقد كان من الأسباب الهامة لدخول الحملة المصرية الى السودان مطاردة الممالك وإخراجهم من البلاد قبل تثبيت أقدامهم فيها وانشاء دولة يتولون ادارتها . وذكر أنجلش ان جماعة من الممالك كانت في شندى وهربت منها إلى منطقة النيل الأبيض بعد أو رفضوا شروط الباشا التي عرضها عليهم في شندى ديوان افندى مبعوث اسماعيل للاستسلام . وفي الوقت هرب فيه الممالك الي منطقة النيل الأبيض أعان الملك نمر ولاءه وخضوعه ، الأمر الذي أغضب الملك المساعد وهو ابن عم الملك نمر ويحكم على الجانب الغربي للنيل تجاه شندى . وكان عدواً لدوداً لنمر لما بينها ثأر كما سنذكره فيما بعد . وحاول المساعد أن يتعاون مع الملك شاويش (زعيم الشايقية الذين فروا أمام الحملة) على عرقلة سير الحملة بشن الغارات عليها وهي في طريقها في منطقة شندى نحو الجزيرة . وقد أفسد هذه الخطة الملك نمر بما أقامه من حراسة على طول الطريق . واستسلم الملك شاويش ورجاله وانضم للحملة في ١٦ شعبان سنة ١٦٣٦ هـ (٢٠ مايو سنة ١٨٢١ م) وبعد أن دخلت الحملة أرض الجزيرة في طريقها إلى سنار عاد الممالك من منطقة النيل الأبيض إلى شندى - وكان الملك نمر في صحبه اسماعيل للاستئناس برأيه في المسائل المحلية التي تتطلب خبرة بالعادات والتقاليد المحلية - وكانت فرصة غيبته من شندى قد سهلت على الممالك أحكام الخطة وتديرها وفي جانبهم الملك المساعد وعلاقته مع الملك نمر علاقة « ثأر الدم » يطالبه به نمر .

ب) لم تسكن العلاقة في يوم من الأيام على شيء من التفاهم بين الملك نمر والملك المساعد لما كان بينهما من « ثأر » وقد حدثت بينهما قبيل وصول الحملة المصرية بسنوات قتال عرف بحرب « العواليب » وكان الملك نمر قد استنجد بسلاطان سنار لرد طغيان المساعد وقبيل وصول النجدة السنارية تخرج مركز نمر إلى الحد الذي جعله يفكر في الهرب والالتجاء إلى المجاذيب في الدامر وفعلاً أخذ في تنفيذ خطته هذه وعند وصوله إلى « جبيل أم على » اجتمع قادة جيش نمر وتداولوا أمرهم واستقر رأيهم

على الاستعانة بالأنقيب (شاعر الملك) ليثير حماس الملك نمر ويثنيه عن عزمه
والعودة إلى محاربه الملك المساعد خوفا من عار الهرب ، ودخل الأنقيب على نمر الذى
كان مستلقيا على سريريه وأنشده قائلا .

متمدد تقول سوتريه (١٦) ورايط لك قلبا ينط الهربا
الميتة ومات التربة (١٧) أفضل من نقيع الغربة (١٨)

وقال أيضا .

ما شفت أبوك يركب على المتورى ينتر هنا وحسه فى قوز برى (١٩)
اما اركب كاس وقل للخيل اندى واما اقعد فكى وود مرتضاك يقرى (٢٠)
خاطب والأنقيب الأرباب لإدريس عم الملك نمر منذأ .

ادريس يا عريس أضمرت بالرق ادريس مدفع الباشا إلى ذخيره تبقي
امرق نحاسك شمس ودق
قدر الله يطيح حتى ان دخل فى حق

وكان ان دقت الطبول للحرب وعاد نمر وجيشه واشتبك مع المساعد وأسفرت
المعركة عن انتصار نمر وعودته إلى شندى . الأمر الذى زادت معه الضغائن بين نمر
والمساعد وصار الأخير يترصد الدوائر للشأر من نمر الذى اشتهر بتقواه وخوفه من
الله وبعده عن اللهو والطرب كعادة زعماء القبائل فى ذلك الزمان ، وكان نمر يكره
الحرب والغزو كما جرت العادة بين القبائل .

وقد هرب الملك نمر بعد موت اسماعيل وتحمل المسؤولية لأن التقاليد والعادات
القبيلية تجعل من زعيم الدار مستولا عما يحدث فى داره من أهله أو من يساكنهم (٢١)

(١٦) سوتريه : جبل أسوتريا الواقع غرب ميناء بور سودان .

(١٧) الميتة ومات التربة : نموت وتجمعنا القبور .

(١٨) أفضل من نقيع القرية : فذلك أفضل من أن نعيش غرباء .

(١٩) المتورى : تصغير التورى - وهو الحصان العالى - ومعنى هذا أما رأيت فقد كان أبوك
يركب الخيل العالية التى يسمع صهيلها من قوز برى (قوز برى حلة بعيدة عن شندى) .

(٢٠) الكاس : الحصان العالى - اندى : اهجمى ويعنى هذا الجزء أركب الخيل الأصيل
وقل لها اهجمى وإلا فاقعد كالفقيه ولد مرهضى لتعليم الأولاد القراءة والكتابة .

(٢١) حدث أن على البربر من البطاحين قد قتل الشيخ حامد أبو سن فى عام ١٨١٨م فى بلدة
الصفية وهرب إلى شندى حيث احتفى بالملك نمر الذى رفض تسليمه للشكرية الذين زحفوا على
شندى ورابطوا بالقرب منها لأخذ القاتل عنوة . فتدخل المجاذيب للصالح وفى خلال ذلك هرب
على البربر فسقطت عنه حماية النمر . واقتلت الشكرية والبطاحين .

وهكذا كان لزاما على نمر أن يتقبل التبعة ويترك موطنه حتى لا يُلطخ اسمه بالعار
إذا سلم المسئولين عن الحادث وقت اختار اخف الضررين وهو الهجرة من بلدة إلى
مكان بعيد عن تناول الحكومة .

مات اسماعيل ورفاقه ، وهرب الملك نمر ورهطه ، وبقي المساعد بعض الوقت ،
يرقب اندلاع الفتنة والثورة الشاملة في البلاد، حتى تأتي أكلها بالقضاء على الإدارة
المصرية ، فيحقق أحلامه بأن يقيم شخصه زعيما على دار الجعليين على الأقل . لكن
الدفتردار قد عاجله بزحفه السريع ، نحو شندى والمنمة موطن الفتنة ، وهناك أراد
أن يعالج الأمر بالحكمة إلا أن أحد المتهوسين رماه بحربة محاولا قتله ، غير انها لم
تصبه ، فاختلط الأمر وحدثت اشتباكات ذهب ضحيتها الأبرياء . وهرب المساعد
نحو البطانة قبيل وصول دفتردار إلى شندى ، الذى سار فى مطاردته واشتبك مع
الهاربين إلا أنهم تمكنوا من الفرار نحو الحبشة .

وكان لهذه الفتنة أثرها فى المناطق الأخرى ، فى بربر وفى الجزيرة ، وهجر السكان
وبخاصة فى الجزيرة بلادهم، واعتصموا بمناطق بعيدة عن تناول الحكومة ، رتعتت
الزراعة وتوقفت الحياة اليومية ، ولم يكن من الميسور تحصيل الأموال الاميرية ،
وبذلك كانت المهمة شاقة جدا أمام الإدارة الجديدة ، وهى فى أول عهدا للعمل على
إعادة الطمأنينة والاستقرار ، وكان علاج الموقف يتطلب بعض الوقت .

وهذه القضية التاريخية الهامة جدرة بالبحث والتحقيق على ضوء ما قد يظهر من
وثائق جديدة (٢٢) .

(٢٢) أنظر روبرل

أنظر مجلة السودان فى مدونات ومذكرات .

أنظر الوثائق بالمحفوظات بالقصر الجمهورى (عابدين سابقاً) .

- ١ - وثيقة رقم ٢٧١ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ سلخ ربيع الأول سنة ١٢٣٦ هـ
- ٢ - وثيقة تركية رقم ٨٩ محفظة رقم ٨ بتاريخ ٣ ربيع الأول / ١٢٣٨ هـ
- ٣ - وثيقة رقم ٤٠٤ دفتر رقم ١٠ معية تركى بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٣٨ هـ
- ٤ - وثيقة رقم ٥١٢ من دفتر رقم ١٠ معية تركى بتاريخ ٨ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٨ هـ
- ٥ - وثيقة رقم ١٣ صفحة / ٤٠ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ رجب / ١٢٣٨ هـ
- ٦ - وثيقة تركية رقم ٢٥ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٢٥ رجب رقم ١٢٣٨ هـ
- ٧ - وثيقة رقم ٥ من دفتر رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٢٣٨ هـ
- ٨ - مكتوبة رقم ١٠٦ دفتر / ١٤ معية تركى بتاريخ ٢٠ شوال سنة ١٢٣٨ هـ
- ٩ - مكتوبة تركية رقم ١٨٩ دفتر رقم ١٤ معية تركى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٩ هـ

٣- تنظيمات الإدارة الجديدة :

انتقلت السلطة الشرعية لولاية البلاد السودانية إلى الإدارة المصرية في اليوم الثالث عشر من شهر يونيه عام ١٨٢١ م ، وذلك بتنازل السلطان بادي آخر ملوك سنار . وقد شمل امتداد الإدارة المصرية جميع الأجزاء التي كانت في حلف مع سنار ، عدا المنطقة التي تكون مثلثاً قاعدته حوض الدندر والرهد ، شرقي سنار ، وضلعيه ، يمتد على خط يتجه شمال شمالاً شرقياً ليتصل بالحدود الحبشية جنوبي سواكن ، ودخلت في هذا القطاع عطيش (حوض الدندر والرهد) والقضارف (البطانة) ، ويرجع السبب في ترك هذا المثلث إلى الاعتقاد بأنه مرتبط بالحبشة ، في نوع من العلاقات وقد بقي هذا الاعتقاد الخاطئ حتى أوائل ولاية خورشيد أغا (٢٣) .

وأخذت الإدارة الجديدة في وضع الأسس اللازمة لسير العمل ، ويبدو أن الحملة المصرية لم تكن قد أعدت لها باديء ذي بدء خطة مرسومة كاملة التنظيم ، قائمة على دراسات تفصيلية لمختلف المشاكل ، لتواجه تطورات الظروف ولم يكن لمصر أن تفعل أكثر مما فعلت في ذلك الحين ، لأن امتداد الإدارة المصرية ليشمل شطرى الوادى كان أول تجربة من نوعها وانها قد أفادت فعلا من أخطائها - والدليل على ذلك المرسوم الأول الذى الذى أصدره سعيد باشا عند زيارته للسودان (١٨٥٦/١٨٥٧ م) .

وبما يدل على أن الحملة لم تسكن مزودة بخطة واضحة انها قد تركت الامر في المناطق التي تسلمت ولايتها وهي في طريقها إلى سنار في يد المشايخ المحليين والكشاف

- ١٠- مكانة تركية رقم ١٩٠ دفتر / ١٤ تركى بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١١- وثيقة رقم ١٩٤ ترجمة دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ١٦ محرم سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٢- مكانة رقم ٢٥٥ دفتر ١٤ معية تركى بتاريخ ٢ ربيع الأول سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٣- مكانة رقم ١٦٤ سجل رقم ١١ معية تركى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٤- وثيقة تركية رقم ١٢١ سجل رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ٨ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٥- وثيقة تركية رقم ١١٧ سجل رقم ١٦ معية تركى بتاريخ ١٧ جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٦- مكانة تركية رقم ١٨٥ دفتر / ١٦ معية تركى بتاريخ ١٩ جمادى الآخرة سنة ١٢٣٩ هـ
 - ١٧- مكانة رقم ٢٧٧ دفتر / ١٦ معية تركى بتاريخ ١٥ رمضان سنة ١٢٣٩ هـ
- (٢٣) أظن ترجمة صورة مجلس المشورة (عقد في ١٢ أغسطس سنة ١٨١٦) في كتاب الحكم المصرى في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٣٣١

والقوايين (القواسين مفردها قواس) ، وبعض الجنود من المرتزقة (الباشبوزق) في المدن الرئيسية ، وفي هذا ما فيه من تجزئة للمسئولية الادارية ، وبخاصة في بلاد واسعة الأرجاء كالسودان ، لا تربط بينها مواصلات سريعة . وكان من أثر هذه التنظيمات أحياء التقاليد القديمة ، بشأن تحصيل الضرائب مما كان له أسوأ الأثر البعيد المدى كما سنبينه فيما يلي .

١ - التنظيمات الضريبية:

بدأت الحملة بعد تنازل السلطان بادي مباشرة ، بتكوين لجنة من ديوان أفندي والمعلم حنا الطويل بالاشتراك مع الأرباب دفع الله ولد حمد في وضع التنظيمات الضريبية ، وقد فتحت هذه اللجنة دفاتر الحراج وأرسلتها إلى القاهرة قبيل عودة قائد الحملة اسماعيل كامل ، من حملته على المناطق جنوبي سنجه ، وكانت التقديرات التي وصلت إليها هذه اللجنة ، على حد قول المعلم حنا الطويل أمام مجلس المشورة (١٢ أغسطس سنة ١٨٢٦ م) ، وزعناه (المال) على حسب قدرة كل واحد منهم (أهل القرى ألخ) وعلى حسب الموجود ، وبيان هذه التقديرات كآتي : -

كيسه

١١١٠٠

سنار

٢٩٤

حلقا

٣١٤

العرب بجهة النيل الأبيض

الجملة ١١٧٠٨ أو ٥٨٥٤٠ جنيهاً (الكيسة ٥ جنيهاً) (٢٤)

وبعد ذلك بعام تقريباً فتحت دفاتره الفردة ، ديسمبر سنة ١٨٢٢ م) وعهد أمر تحصيل هذه للضرائب إلى الجهاز الإداري المحلي لكل منطقة والذي تكون كما سبق أن أوضحنا من الشيخ والكاشف والقواس والجنود ولم يزود هؤلاء بالعدد الكافي من السكتاب للقيام بعمليات القيد بل ترك الأمر في يد أولئك المحصلين وفي ظل هذا النظام أخذت فيه التقاليد والعادات مكانها حيث كان على دافع الضرائب أن يدفع مبالغ إضافية تشمل حق الضيافة وواجب الشيخ والكاشف وهكذا إلى الحاكم الأعلى ، مما ارتفع بالمتحصل إلى أضعاف مضاعفة .

(٢٤) أنظر ترجمة صورة مجلس المسورة في كتاب المحكم المصري في السودان للدكتور محمد

فؤاد شكرى ص ٣٢٨

ما للنظام الذى اتبع بشأن تحصيل المال من البدو وغيرهم من الضاربين فى المناطق الصحراوية فإن مبالغ معينة قد فرضت على زعيم كل قبيلة أو شعبة وروعى فى ذلك التقدير حالتها الاقتصادية بما تملكه من ماشية الخ أو ما تقوم من نشاط فى تجارة القوافل . وترك للزعيم أن يجمع المال من أفراد قبيلته على طريقته الخاصة فيأخذ من زيد مثلا مائة قرش ومن عمرو عشرة قروش . ويأخذ الزعيم فى تقديره الفردة أن تكون حصيلته أكثر مما هو مقدر عليه فعلا لدفعه لخزينة الحكومة . وهذا الفرق بين المتحصل فعلا وبين المقدر أصلا كجباية على قبيلته يشمل حق الضيافة وحق الكاشف وغيره من رجال الحكومة . وقد ذكر موسى الكاشف أمام مجلس المشورة أن فى مقدمة الأكالين هناك هو السرعسكر ثم الكشاف ويأتى القائمون فى الصف الثانى والمشايخ فى الصف الثالث وكل من يليهم يأكلون (٢٥) ، سواء كانت هذه الاموال الاضافية تصل إلى أولئك أو لم تصل فانها كانت تجمع فعلا .

وتطورت التنظيمات الضريبية مع الزمن فشملت نواحي النشاط الاقتصادي المختلفة ومن ذلك العشور على السواقي ، النخيل ، الزراعة وعوائد الاملاك الخ الخ والويركو على أصحاب الحرف والصناعة والجمارك والتجارة والعقبة على المراكب كما أدخل نظام الالتزام (٢٦) . وهكذا نجد ان النظام الضريبي قد قام على طريقته الأولى التى استحدثتها الادارة المصرية والثانى ما أخذته من المتوارث القديم وهذا المزيج من الاسس كان مصدراً لخلق بيئة صالحة لانتشار جرثومة الافساد التى كان لها أبعد الاثر فيما حدث فى السودان من تطورات وبخاصة أن أمر التحصيل للمال قد ترك فى أيدي الزعامات المحلية يعاونها الكشاف وبعض القواسين والجنود من الباشبوزق .

وكانت فى حالات بعض القبائل التى يكثر فيها التعدى على غيرها بالسلب والنهب أن يعين لها بعض الخيالة والجنود المشاة لحفظ الامن ، وكان على القبيلة أن تدفع تكاليفهم إما كاملا أو مناصفة .

(٢٥) نفس المصدر ص ٣٢٥ وكان موسى الكاشف هذا أحد معاونى خورشيد باشا وقد توفي فى جبال الصعيد (أعلى النيل الأزرق) فى سنة ١٨٢٧ م .
 (٢٦) أنظر مكتبة محمد على الى سرعسكر السودان اسماعيل باشا التى يأمره فيها بأن يعطى كردفان لأحد المكوك المحليين نظير جعل معين يدفع سنويا غير ان الدفتر دار قد عارض هذه الفكرة - أنظر وثيقه رقم ٤٠٤ دفتر رقم ١٠ معينة بتاريخ ١٦ ربيع الأول سنة ١٢٢٨ هـ ديسمبر سنة ١٨٥٢ ميلادية) ودفتر ١٤ معينة تركى وثيقة ١٣ صفحة ٤ بتاريخ رجب ١٢٢٨ وفس الدفتر مكتبة ١٠٦ بتاريخ ١٥ شوال ١٢٣٨ هـ .

ونبين فيما يلي مقارنة بين التقديرات الضريبية في مختلف أنواعها كما بدأت في عام ١٨٢٢/١٨٢١ م وما وصلت اليه من عام ١٨٦٩ م حتى عام ١٨٧٩ م ونوضح البيانات عن فترتين منفصلتين أولاهما من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٤ م والثانية من ١٨٧٥ م إلى ١٨٧٩ م وهذه الفترة الأخيرة هي التي كان فيها غوردون باشا حكامدارا للسودان وأقاليمه . وبما يجدر توجيه النظر إليه ان الميزانية كانت تبدأ سنتها المالية من سبتمبر في سنة إلى سبتمبر من العام التالي ، وقد استمر هذا النظام معمولاً به حتى سبتمبر ١٨٧٥ م وتعديلت ميزانية ١٨٧٥/١٨٧٦ م وشملت المدة من سبتمبر سنة ١٨٧٥ حتى ديسمبر ١٨٧٦ م أي ان تلك السنة كانت خمسة عشر شهراً . وصارت السنة المالية بعد ذلك تبدأ من يناير إلى ديسمبر من كل عام .

تقديرات المتحصل فعلاً		تقديرات المتحصل فعلاً	
جنيه	جنيه	جنيه	جنيه
٣١٥٤٩١	٣٧٨٥٨٤	١٨٧٠	من سبتمبر سنة ١٨٦٩ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٠
٢٥٧٣٧٣	٣٥٩٦٦١	١٨٧١	» » » ١٨٧٠
٢٤٠٣٣٩	٣٥٦٩٩٤	١٨٧٢	» » » ١٨٧١
٣٠١٢٢٧	٣٦٣٠٠٣	١٨٧٣	» » » ١٨٧٢
٣١٩٢٩٢	٣٦٩٣٣٦	١٨٧٤	» » » ١٨٧٣
١٤٢٣٧٢٢	١٨٢٧٥٧٨	الجملة	
٠٣٩٣٨٥٦		العجز	

تقديرات المتحصل فعلاً		تقديرات المتحصل فعلاً	
جنيه	جنيه	جنيه	جنيه
٢٢١٧٦٧	٣٧٠٨٦٥	١٨٧٤	سبتمبر ١٨٧٤ إلى سبتمبر ١٨٧٥
٣٦٣٨١٨	٤٨٢٩٨٥	١٨٧٥	سبتمبر ١٨٧٥ ديسمبر ١٨٧٦
٢٧١٨٧٣	٣٦٣٧٤٤	١٨٧٧	يناير - ديسمبر سنة ١٨٧٧
٢٨٣٨٢٢	٢٩٢٤٩٨	١٨٧٨	» »
٢٨٧٧٠٥	٤٠٢٥٩٥	١٨٧٩	» »
١٥٢٨٩٨٥	٢٠١٢٥٩٧	الجملة	
٤٨٣٦١٢		العجز	

وكان العجز في الفترة الأولى ٣٩٣٨٥٦ أي بمعدل ٧٩٠٠٠ سنوياً
وفي الفترة الثانية ٤٨٣٦١٢ » ٩٧٠٠٠ »

ويلاحظ من الأرقام الخاصة بالفترة الأولى (من سبتمبر ١٨٦٩ إلى سبتمبر سنة ١٨٧٤ م) ان العجز في السنين من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٢ قد بلغ حوالى ٢١٩٠٠٠ ج و يرجع ذلك إلى التعديلات التي أدخلت بتخفيض الضرائب لتشجيع الزراعة، (وقد بلغ العجز في ١٨٨٢ م ١٠٣٠٠٠ ج تقريباً ولا يشمل هذا الرقم المال المخصص في الميزانية للعاشات) ، ولذا لانستطيع تحليل الأرقام ومقارنتها ونترك هذه المسألة لدراسة خاصة تتجمع عناصرها من الوثائق وتحتميق الظروف المحلية عن حالة الفيضان والأمطار وإلى ماغير ذلك من العوامل التي كان لها أثرها في الاقتصاد القومى .

ولما كانت البلاد تعتمد اعتماداً كلياً على محصولها الزراعى ورعى الماشية والقائمين عليها من الرقيق فان الميزانية العمامة كانت دائماً مصدر متاعب للخزانة المركزية لتغطية العجز .

وبالإضافة إلى عبء الضرائب الذى قد يرتفع في بعض الحالات إلى أضعاف مضاعفة كما أوضحنا من قبل فقد كان على المواطن العادى أن يدفع جانباً من دخله الخاض إلى الفقيه المحلى الذى يرتبط معه برباط روحى وقد خلقت هذه شعور قلق وبخاصة عندما تقل غلة الأرض أو تنفق الماشية لسبب أو آخر (قلة المطر الموسمية هبوط الفيضان عن مستواه في بعض السنوات والآفات الزراعية وأمراض الماشية).

ب - الاعفاءات الضريبية :

وقد أعقدت العطايا والامتيازات على رجال الدين والفقهاء والأعيان وشملت امتيازات الفقهاء القائمين عليها للتعليم الدينى الاعفاء من الضرائب التي تجبى عن الأرض التي يزرعونها^(٢٧) غير أن تلك الطمأنينة وذلك العمل على تعمير البلاد وقيام حكومة مركزية تتعامل مع الأفراد في مختلف البيئات الاقليمية لم يكن الأمر الذى يتقبله المجتمع في مرحلته التي كان عليها عند امتداد الادارة المصرية ، فالبلاد كما سبق أن أوضحنا قد وصلت إلى أدنى مراتب التدهور والانحلال وتفرقت أهلها إلى مجموعات قبلية يناصب بعضها البعض العداة والبغض وقد فقدوا شعورهم بالحاجة الى حياة استقرارية تهدف الى توحيد الصفوف وتكثيلها لتمكين البلاد من السير في ركب الحضارة والتقدم كما كانت تبغى السياسة التي جاء بها امتداد الحكم المصرى . فالمواطن العادى كان يزرع الأرض ليستقنبت منها حاجته من الغلال ولم تكن عليه التزامات

(٢٧) الدكتور عبد العزيز عبد المجيد . كتاب التربية في السودان جنونان ص ١٧ .

محددة نحو زعيمه القبلي في الصورة التي فرضتها الإدارة الجديدة . وقد أوجد هذا شعوراً خفياً نحو نظام الحكم المستحدث وبخاصة عندما يرى المواطن العادي أن الأعيان وغيرهم قد منحوا إعفاءات وعطايا الأمر الذي ألقى بعبء دفع الضرائب وغيرها على الفرد . وقد كان لهذه الحالة أثرها في المجتمع مما جعل الافادة من التنظيمات الجديدة بعيداً عن المساهمة في تثبيت أركان الحياة المستقرة وإرساء قواعدها لتقف أمام العواصف وما كان لها أن تنعم بذلك النوع من الحياة الذي ينشده الحكم والتوسع الأوربي يرقب تطور الأحوال ، وبالإضافة إلى هذه الاعفاءات التي منحت لفريق من أهل المدن فان هذه الامتيازات قد شملت خلال حكمدارية غوردون بعض القبائل والعشائر مما أزرى روج الحسد والتباغض بين القبائل .

وتوضح فيما يلي الجبايات التي كانت مقررة على المشايخ الضاربين في البادية وذلك قبل عام ١٨٨١ م ولو أخذنا بعين الاعتبار عند تقدير مال الحكومة عدد أفراد القبيلة وقدرتهم المالية فيما يملكون من حيوانات وموارد أخرى لوجدنا تفاوتاً كبيراً في تلك التقديرات .

أقل مبلغ جنيه	أعلى مبلغ جنيه		
٤١٠	١٦٣٢٧	البطاحين العشما	مديرية الخرطوم قبيلة الشكرية
١٢	٦٨١	القاسماب	بربر الكميلاب
٦٥	١٨٩	الهاوير	دنفلة القراريش
١٩	١١٠٢٣	المليكاب	التاكة الضباينة
١٣١٦	٩٠٢٣	الكواهلة	سناروفازوغلى رفاة الهوى
٣٩	٢٠٠٠	أولاد على	سواكن هباب
		عرب رحل شياخة	مصوع عرب رحل شياخة
٦	٣٣٦	حسنين وحسين	على عامر
٥٥	٨٤٧٢	زيادية	كردفان الكبايش
٢٥	٣٩٢٠	ترغم	دارا الرزيقات
٠٠	٦٠٠	غير معروف	كبكيه الفلانة
١٠٨	٢٥٠٠	بشير	درافور الزيادية

ج - التنظيمات الإدارية :

وعندما اندلعت نيران الفتنة بعد الغدر باسماعيل وصحبه في شندى وما تلى ذلك

من فرار الأهالي إلى دار عطيش والقضارف وغيرها من المناطق البعيدة عن متناول الحكومة ، صار تحصيل المال مستحيلا . ولهذا فان مهمة خلفه عثمان بك جر كس كانت في غاية من الصعوبة وبقى الحال على هذا المنوال حتى أوائل عهد خورشيد آغا (تولى منصب الحكمدارية من يونيو ١٨٢٦ حتى نهاية عام ١٨٣٨ م) .

وإذا رجعنا إلى إجابة موسى الكاشف أمام مجلس المشورة (٢٨) حيث يقول « أما الحكام الذين كانوا هناك منذ مدة عثمان بك لغاية الآن فلم يبحثوا عن شيء ما ولم يقوموا بأى عمل - فلم تعمرو البلاد وظلت أخذة في الخراب . أعنى ذلك أنه عند انفصال أى حاكم وتعيين آخر بدلا منه لم تكن تجرى محاسبة بينهما ، ولا كان الحاكم المنفصل يسلم البلاد إلى خلفه - فاذا كان المأمور الذى يأتى يسأل ويفحص أولا طبق أصول الديوان ثم يدخل الامور تحت ضابط ويربطها بقاعدة فيرجى للبلاد أن تعمره فاننا نجد في هذا ما يشير في صورة أو أخرى أن الامور كانت متروكة كلية في يد الشايخ ومعاونيهم .

وأضاف موسى الكاشف « ولذلك قد طلب استخدام كتاب فاذا تم هذا التفتيش كما يريد مولانا فان الكتاب المرسلين الى تلك الديار سيوزعون على الاعمال التى تحتاج اليهم لاحتياج البلاد الى أمثالهم لان الاقليم ملك فسيح وقد كان علم الكتابة مهملا في العهد القديم - وقد طلبنا الآن كتابا للحاجة الماسة بهم ولضبط أمور الديوان (٢٩) وقد عمل خورشيد آغا على بث روح الطمأنينة والاستقرار لانعاش البلاد بعودة الفارين الذين أمنهم وازالة مخاوفهم ، وأخذت البلاد تمارس تدريجياً حياتها اليومية في ظل أحوال مستقرة وأمن مستتب، وأدخلت زراعات وصناعات جديدة وأصلحت مساحات واسعة من الاراضى التى كانت مهجورة بسبب فرار أهلها بسبب الفتن ، التى حدثت عند مقتل اسماعيل فى شندى ، وانتظمت الحياة الاقصادية، وبدأ التحسن فى مستوى المعيشة ، واكتسب المجتمع حياة ملؤها النشاط ، وكان تطور الاحوال المضطرد مشار اعجاب وتقدير الرحالة ، الذين زاروا السودان فى تلك الفترة من الزمن. واستمرت السياسة الاصلاحية ، التى بدأها خورشيد آغا ، طوال عهد خلفه احمد باشا جر كس الذى اشتهر فى السودان باسم « احمد باشا أبا أدان ، (أبودان)

(٢٨) دكتور شكرى ص ٣٢٤

(٢٩) نفس المصدر السابق ص ٣٢٤

لضخامة أذنيه ، كما أطلق عليه احمد باشا الجزائر وتبهرت شخصية أبو ودان بتوطيد العلاقات الودية مع زعماء البلاد كما كان يتبادل معهم قرض الدويبة ومن ذلك ما قاله مادحا الشيخ إدريس (٣٠) .

ادريس وداعة السيدة الزيلية الأسد المشيته الضولعية
قمر سيفين مالوش تحية يريد يوم السكتال والتمبكية (٣١)

واهتم احمد باشا بالتوسع الزراعي وإنشاء مصانع في الخندق والمتمه والكاملين وغيرها واستخدم فيها عدداً من العمالي ولسبب لم يعلم بعد تمرد هؤلاء وأضربوا عن العمل في يوم واحد شمل جميع المصانع. وهرب الكثير منهم إلى ديارهم في الجبال جنوبي كردفان ، يعتقد ان هؤلاء كانوا من الرقيق الذي أدخل لجنسدية ، ويرجع هربهم إلى ما كان يلاقه اخوانهم من زعماء القبائل الذي ألحقوا بخدمتهم لتحصيل المال غير أن هؤلاء قد استخدموهم في الخدمة البيتية وأغلظوا في الاساءة اليهم .

وزار السودان في مدة حكمه محمد علي وتفقد أحواله ونظر في شؤنه لتدعيم حياته الاقتصادية وتحسين موارده .

وتوفي احمد باشا في سبتمبر عام ١٨٤٣ م واختلفت الروايات المحلية في أمر موته فمنهم من يقول انه قد جنح إلى الاستقلال بالسودان عن مصر ، على أن يكون تابعاً للباب العالي مباشرة ويقول البعض ان أحد زعماء السودان عرض على أحمد باشا أمراً أصدره السلطان سليم في حوالى ١٥٢٠ م بأن يكون السودان ولاية تابعة للسلطان العثماني مباشرة - وان احمد باشا أرسل كتابا إلى الصدر الأعظم في هذا الشأن - وقد أغضب ذلك محمد علي الذي أرسل قوة من مصر بقيادة السنجق « داموس أغا » للقبض عليه . وما بلغ ذلك احمد باشا تناول السم وكانت وفاته بالخرطوم ودفن في القبة الشرقية .

ويبدو أن هذه الإشاعات كان لها أثرها من حيث إدخال تعديلات على التقسيمات الإدارية في السودان وعلاقتها المباشرة مع القاهرة وسببت هذه التغييرات والتعديلات

(٣٠) الشيخ إدريس ود ناصر خال الشيخ عبد الرحمن البدوي الأزهرى ال عيسى .

(٣١) ومعنى هذا « ادريس الذي أودعته السيدة الزيلية كرامتها . كالأسد في مشيته القوية - وكأنه قمر سيفين ليست له تحية - يريد اليوم للقنال والتدخين (التباك) النارجيله) فقلت عن الشيخ شمس الدين الحنفي في وادى مدني عام ١٩٤٣

اضطراباً في الاداة الإدارية وانعدمت المسؤولية لقيام سلطتين أحدهما الحكمدار أو مدير عموم قبلي السودان . وثانيتها رجوع حكام الأقاليم في الكثير من شئونهم المالية وغيرها إلى النظارات في القاهرة - وزادت المشاكل تعقيداً بالآزمات السياسية التي قامت بين الباب العالي من جهة وبين عباس الاول من جهة أخرى .

وجاء من بعد أحمد باشا أبوودان «احمد ياشا المنكلي» ، ولم يبق في السودان إلا فترة قصيرة وتلاه خمسة عشر حاكماً للسودان في وظيفة الحكمدار أو مدير عموم قبلي السودان الخ . وذلك حتى فبراير ١٨٧٧ م عندما تقلد الحكمدارية الجنرال غوردون باشا . وهذا يعني ان الخمسة عشر حاكماً قد أمضوا في الحكم ما يقرب من الواحد والثلاثين عاماً أى بمعدل سنتين وشهر تقريباً لكل منهم وأطول فترة وهي خمسة سنوات تقريباً أمضاها جعفر باشا مظهر وستة منهم أمضى كل منهم سنة واحدة تقريباً . وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على ان هذه الفترات لم تسمح بالوقت الكافي لدراسة الأحوال والعمل على علاجها . وهذا أيضاً مما جعل الحكام في السودان يعملون دون سابق خبرة وتجربة كما تتطلبه الادارة الجديدة من دراية خاصة لتصريف المعاملات اليومية مع الجماعات المتباينة في نطاق سياسة عامة بعيدة المدى تهدف إلى الربط بين مختلف المجموعات القبلية ، الأمر الذي لم يكن موضوع إدارة جهاز حكومي عادي بل هو بالعكس أعمق من ذلك غوراً فهو فترة لانتقال شعوب قضت القرون العديدة في حالة متأخرة عن ركب الحضارة ، وكان من الضروري العمل على تنسيق الجهود بما يتمشى مع الظروف الواقعية محلياً للأخذ بيدها تدريجياً نحو مستوى رفيع .

لا شك في ان امتداد الإدارة المصرية إلى السودان قد حملت في ركبها أكثر من فكرة ورأى جديد واستخدمت وسائل منظمة للنقل ، وفتحت دور التعليم وأرسل عدد من أهالي البلاد إلى شمال الوادي (مصر لتلقى المعرفة والتدريب على الزراعة وكثر المال المتداول في الأيدي وأخذت الطريقة القديمة طريقة التعامل بالمقايضة في الاختفاء ، ودبت الحياة في المدن والقرى التي بدأت تحتل مكانتها في اقتصاديات البلد لأول مرة بعد إن كانت في عهد السلطنة السنارية تدار على صورة الجمهورية التجارية لمصلحة فئة قليلة ، واكتسب الفرد شخصيته وحرية في التعامل فيما ينتج وشملت سياسة التعمير والإنشاء مختلف مرافق الحياة بمساعدة الفنيين ، الذين أرسلوا من مصر إلى السودان للمساهمة في تقدم البناء والزراعة واستغلال الموارد الطبيعية . كما أرسلت مصر إلى السودان الإعانات المالية والحبوب لتفريغ الضائقات التي أصابت البلاد

سنة بعد أخرى لسبب قلة الأمطار الموسمية وتكاد أن تكون السنوات المجذبة في حلقات دورية في حدود السبع سنوات .

* * *

وكانت لزيارتي محمد علي وسعيد للسودان أثير في رفع معنوية الأهالي وبخاصة بعد أن أصدر سعيد في عام ١٨٥٧ م الأربعة مراسيم ، ويعتبر المرسوم الأول الذي وجه إلى المديرين كلائحة تأسيسية لارساء جهاز الإدارة في السودان على أسس سليمة يشترك أهالي البلاد في إدارة شئونهم وتقدير الضرائب وغير ذلك عن طريق المجالس المحلية وجمعيات ذات صلاحيات واسعة .

وقد حاول سعيد باشا أن يصلح الأخطاء الإدارية بإقامة تنظيمات محددة الخطوط يشترك فيها الزعماء والسكان من أهل السودان في صورة مجالس محلية لها دورها البارز في إدارة البلاد (٣٢) إلا أن المشاكل الكثيرة ذات الأهمية البالغة قد عطلت جزئياً وكليا تلك المشروعات الإصلاحية وساعدت على تفاقم الحال واضطرابه فيما بعد السبب استغلالها في إسناد مراكز المسؤولية بطبقة خاصة .

وأخذ الولاة الذين حكموا البلاد في الاهتمام بالمسائل السودانية وارساء قواعد حياة لمجتمع مستقر وبذلك الجهود لترغيب المجموعات الضاربة في البادية لسكنى مواطني الزراعة والإفادة من مياه الروافد . ولقد بذل الحكمداريون جهوداً صادقة في سبيل تحقيق ذلك رغم الصعاب التي نجمت عن التغييرات المتتابعة في الحكمدارين والتي كان من شأنها أضعاف مقدرة الحكمدار على العمل وتصريف الشئون وفق خبرته المحلية . كما ان هذه التغييرات الكثيرة عرضت الحكمدارين الى الشائعات المغرضة التي ترتبت عليها الاساءة الى الإدارة المصرية في السودان. ونذكر من هؤلاء أحمد ممتاز باشا (٣٣) الذي نعتقد أن التاريخ لم ينصفه الانصاف الكامل بما يتفق مع سيرته الحسنة في السودان . بل بالعكس لقد لقي ممتاز أقسى ما يلقاه إنسان من ظلم أخيه

(٣٢) كتاب المحكم المصري في السودان للدكتور فؤاد شكرى ص ٢٥٤/٢٤٥

(٣٣) تولى احمد ممتاز باشا إدارة مديرية عموم قبلي السودان من سنة ١٨٧١ إلى ١٨٧٢ م ودبرت له الشكاوى التي رفعت إلى الخديو ويتحققها ظهر فسادها بعد حبسه في القلعة بالقاهرة زهاء ما يقرب من الشهر وقد مات مغموماً بعد عودته إلى الخرطوم حيث دفن . وأشاع أعداؤه في السودان ومصر من أهل الفساد ما أساء إلى ماسمته - أظن الملحق الثامن حيث تعرض لترجمة حياة احمد ممتاز باشا .

الانسان - عمل ممتاز خلال خدمته في السودان على التوسع الزراعى وخاصة القطن وزراعته على نطاق واسع في دلتا خور بركة وفي حوض القاش ونهر العظيرة كما عمل على اصلاح اراضى دنفله وشق القنوات في تلك المنطقة لتوسيع رقعة الارض الصالحة للزراعة وإنشاء بعض الصناعات بما يتناسب والحال في كل اقليم . وفكر في إنشاء الخطوط الحديدية لربط البلاد ومخارجها في الشمال والشرق وتعبيد الطرق وتنظيم المواصلات البرية والمائية والبريد والمواصلات السلكية (٣٤) .

وقد كانت الفرصة مواتية للافادة من زراعة القطن في تلك الحقبة من الزمن بسبب الحرب الأمريكية وذهب ممتاز ضحية الدس والكييد من اسماعيل المفتش الذى كان يخشى من تقرب ممتاز من الخديو الذى بدأ في الاخذ بمقترحاته وقد عاون معنى بك الشامى اسماعيل المفتش بتقديم الشكاوى ضد ممتاز (٣٥) وتحريض الاهالى على مثل ذلك .

وقد تأثر مجرى الامور في السودان بالاحداث التى ألمت بمصر خاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ م مما هيا للسياسة البريطانية فرصة الانقلاب من موقف الانتظار ومراقبة تطور الظروف إلى العمل الجدى . ولعبت السياسة الدولية دورها الامر الذى أفادت منه بريطانيا التى عمل الخديو على إرضائها والاستجابة لمطالبها ، وبخاصة عن الرقيق ، وقد تعين صمويل بيكر لإدارة خط الاستواء للقضاء على النخاسة وقد حارب التجار ونكل بهم وامتدت قسوته إلى الاهلين فزاد بعمله هذا كراهية الاهالى للحكومة وفسدوا ثقتهم بها وترتب على ذلك ان فقدت الحكومة نفوذها وصارت القبائل تتربص برجال الادارة للفتك بهم ، وهكذا نجح صمويل بيكر في نشر روح التذمر بين الاهلين الذين صاروا يترقبون الفرص للخلاص من نيرها ، واحتمى الكشيريون منهم بتجار الرقيق الذى أنشأوا محطاتهم كما أسلفنا بعيداً عن سلطان الحكومة . عاد صمويل بيكر إلى بلاده وعين غردون مكانه ليصلح من اخطاء سلفه في أعلى النيل ، وطلب اليه الخديو أن يحرص على الحصول على رضاه الاهالي ومحبتهم والابتعاد عما يسبب عداؤهم للحكومة ، وقد حدد الخديو الغرض من تعيين غردون في ثلاث نقاط أولها استتباب الأمن والسلام واثانيهما القضاء على تجارة

(٣٤) أظن كتاب المواصلات في السودان وادى النيل للشاطر بصلى عبد الجليل

(٣٥) اسماعيل مرهنك باشا . حقائق الأخبار عن دول البحار بولاق مصر سنة ١٢ - ١٣ هـ

الرقيق وثالثها فتح البلاد الشاسعة للتجارة . ولكن غردون ولو انه نجح في بعض الشيء إلا أنه لم يكن موفقاً في الاجراء الذي اتخذه لوقف نشاط تجار الرقيق ومحاربة هذه التجارة ، ونعني بذلك اعلانه احتكار تجارة العاج لحساب الحكومة (مارس سنة ١٨٧٤) (٣٦) ، حيث نجم ذلك اغلاق النيل الأبيض للملاحة وتعطيل التجارة ، فازداد بذلك تدمير التجار من الحكومة التي سلطت عليهم رجالها وغالبيتهم من الأوروبيين المغامرين وخولت لهم سلطات واسعة لتنفيذ السياسة في نطاق ما حدده الخديو عن مهمة غوردون التي أشرنا إليها سابقاً .

وتتابعت المشاكل وتشابكت أطرافها فنوبار يذهب إلى إنجلترا ناصحاً بفرض الحماية البريطانية على مصر لمواجهة التقدم الروسي في البلقان وفي آسيا الصغرى (٣٧) . وألمانيا تقترح على بريطانيا على لسان مستشارها بسمر ك مثل ذلك تحقيقاً لأهدافها السياسية نحو روسيا وفرنسا وكان لهذه الجهود أثرها في خلق الارتباك المالية في مصر وتعطيل حركة الانشاء والتعمير التي رسمتها مصر للسودان . وسادت حالة الركود . وجاءت معدات الرقيق في ١٨٧٧ م وتعتبر الصرامة التي اتبعت في تنفيذها في السودان العامل المباشر في تكتيل حركات التدمير ضد الحكومة ، ثم استحكمت الازمة المالية واستنفذ اسماعيل جهوده لاتخاذ الموقف ، ونصحته الدول بالنزول عن الحكم فلما رفض سعـ الدول لدى الباب العالي لعزله وتم لها ما أرادت ، وبدأت من ثم التطورات التي انتهت في عهد خلفه بالاحتلال البريطاني ، وقد سبقته المذكرة المعروفة بمذكرة غمبتا (المذكرة المشتركة) للاحتفاظ بتوفيق في الحكم « كضمان لتقوم مصر ورفاهيتها ، وقد اشتركت في هذه المذكرة فرنسا وإنجلترا عندما أحستا بأن الوطنيين المصريين سوف ينادون بخلع توفيق الذي كان مرتبياً في أحضانها .

* * *

وقد أفاد امتداد الحكم المصري إلى خط الاستواء تقدم الكشف الجغرافي وعلوم الأجناس والنبات والحيوان كما تمسكت الإدارة المصرية من وضع يدها على مصادر تجارة الرقيق بعد أن سيطرت على منافذها على البحر الأحمر ومواطنها في الداخل . فقد تنازل الباب العالي لمصر عن مصوع وسواكن (عام ١٨٦٥ م) واستولت

(٣٦) أنظر كتاب الحكم المصري في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٧٧ / ١٨٩

(٣٧) أنظر أدوارد ديسي في كتابه إنجلترا ومصر ص ١٩ - ٢٠ لندن ١٨٨١ وقصة الخديوية

ص ١١٦٦ أيضاً محادثات نوبار والسفير الألماني كما أشار إليه لاقتر ص ٢٥٩

مصر على موافق شاطئ البحر الأحمر الأفريقي . بربره وزيلع وتاجورة واستولت في الداخل على هرر (١٨٧٢ - ١٨٧٥) وفي الغرب تسلمت دارفور (١٨٧٤ م) فأحكمت بذلك الحصار في مخارج تجارة الرقيق . وبقي منفذ جنوبي في منطقتة نهر الجوبا ، غير ان الحكومة البريطانية عارضت في امتلاك مصر لتلك الجهة بدعوى ان هذه المنطقة واقعة تحت سيادة سيد برغش سلطان زنجبار (٣٨) ، جرى كل هذا على أطراف البلاد السودانية ، أما في داخلية البلاد فان الاحوال أخذت في شق طريقةها الطبيعي نحو الاستقرار كما أخذ المجتمع في تكييف مقوماته وتوجيهها نحو شعور عام يجمع بين مختلف القبائل ويوحد كليتها لنشأة أمة سودانية الأمر الذي عملت الادارة المصرية منذ امتدادها إلى السودان على تحقيقه .

٤ - أراء الحكم ومشكلاتها

حاولت الادارة المصرية في النيف والثلاثين عاما الاولى من امتداد الحكم المصرى إلى السودان ، أن تقيم جهازاً للحكم ، استمد خطوطه العامة من التنظيمات التي كانت متبعة في شمال الوادى (مصر) مع الأخذ ببعض التقاليد المحلية المتوارثة ، وقد اشركت الزعماء المحليين من مشايخ وغيرهم في تحصيل الجبايات المختلفة في نطاق التنظيمات الجديدة ، وقد نقلت في نفس الوقت السلطات التنفيذية الفعلية التي كان يمارسها هؤلاء الزعماء إلى أيدي الكشاف والمأمورين والقواسين وغيرهم يعاونهم بعض الجنود ، وكان الأخذ بهذا النظام مصدر الخطر على الاستقرار الذي كانت تهدف اليه السياسة المصرية التي امتدت إلى السودان لتطهيره من عناصر الفوضى والاضطراب ، فهي في تطبيقها ذلك النظام إنما قد أغفلت أن تراعى بعين الاعتبار حالة القلق التي كان عليها المجتمع ، الأمر الذي يتطلب العمل التدريجي للأخذ بيد المجتمع حتى يصل إلى مرحلة يتجاوب فيها ويتعاون مع التنظيمات الجديدة .

فالمرحلة كانت مرحلة انتقال حضارى ، تحل فيها حضارة جديدة محل حضارة بائدة ، لا تتمشى مع روح العصر ، وبخاصة أن السودان قد أمضى أكثر من ثلاثة قرون في نطاق السلطنة السنارية والمشيخات المتحالفة معها ، والتي كانت نظمها كما سبق أن أشرنا ، تستمد أسسها من الجمهورية التجارية ، لذلك نجد في واقع الأمر أن

(٣٨) أرسل المديو اسماعيل حملة من السويس في ١٩ - بتمبر سنة ١٨٧٥ م الى مصب نهر الجوبا وذلك لفتح الطريق مع خط الاستواء لمكافحة تجارة الرقيق تنفيذاً لتوصية غوردون .

الاصلاحات التي شملت ترقية الزراعة والتوسع في إعداد المساحات من الأرض الصالحة للزراعة وتحسين وسائل الري والاكثر من الغلات وتنوعها وإنشاء صناعات جديدة ، ونشر التعليم في مناهجه التي تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه الخلاوي (مفردتها خلوة - الكتاب) التي قصرت جهودها نحو التعليم الديني المنقول ، كما أدخلت الادارة الجديدة تحسينات شملت مختلف نواحي النشاط ، من استتباب الأمن وتسهيل المواصلات وتعميد الطرق ، وقد دفع ذلك بالبلاد كثيراً نحو التقدم ، فان تلك الجهود الانشائية كانت بالنسبة لحالة المجتمع حالة انتقال مفاجيء لم يمهّد له بآتاحة الفرصة الكافية من الزمن للتدرج حتى يصل المجتمع إلى المستوى الذي تتكيف معه حالة البلاد وتأخذ الأمور مجراها الطبيعي . وكانت الأحوال تتعثر بهذه الفتنة أو ذلك القلق الذي يصور حالة المجتمع النفسية ، ولم يكن رجال الادارة في السودان من ذوى الخبرة فالعهد بهم قريب منذ قيام حكم في مصر له طابعه الجديد بعد أن طويت صفحة الادارة المملوكية - وبعد دراسة المشاكل التي اعترضت سير الحكم خلال فترة زادت عن خمسة وثلاثين عاماً ، أصدر سعيد باشا مرسومه خلال زيارته للسودان في عام ١٨٥٧م وكان في تلك المراسيم العلاج السريع للقضاء على عناصر التخلف ، وبالرغم من أن هذه الاصلاحات قد جاءت في وقت أخذت فيه المشاكل السياسية بالنسبة لمصر في الازدياد ، فانها أثمرت لحد ما في إرساء أسس جديدة لاشراك الزعماء والمواطنين لإشراكاً فعلياً مباشراً في إدارة أمورهم وتصريفها وفي تحمل المسؤولية ، ولو قدر لتلك الاصلاحات أن تأخذ طريقها نحو التنفيذ في نطاق سياسة تقليدية يراها الخاف عن الساف ، ولم تتعرض للتيارات الاجنبية الخفية ، لكانت نتائجها بلا شك أعمق رسوخاً في المجتمع ، وفي إرساء قواعده على أسس سليمة تتماشى مع طبائع الأشياء ، وبالرغم من تلك التيارات الخفية فان الاصلاحات قد أوقدت جذوة الوعي القومي ، الذي سار في اتجاهات متراخية تحركت من الزمن في اتجاهات مختلفة .

١ - مشكلة الرقيق :

وبينما كان المجتمع يعالج مشاكله ليتخلص منها وتستقر أسسه ، إذا به يفاجيء بمشكلة أخرى أشد تنكيلاً وأبعد أثراً ، ألا وهي مسألة أبطال « الرقيق » وهي عماد الاقتصاد القومي وحجر الزاوية في بنائه منذ آلاف السنين فقد أخذت بريطانيا في الضغط بطريقة أو أخرى لمنع « النخاسة » ، وتذرعت في خطتها هذه بأن هذه مسألة أنسانية

وصورت الرقيق في الصورة التي اعتاد الأوروبي أو الأمريكي أن يراها وتجول في خاطره من استخدام أولئك المساكين المثقلين بالأغلال والأصفاد، المسوقين بضرب السياط التي تلهب ظهورهم ولا يكاد غذاؤهم يكفي لسدر مقهم ، ويعيشون في أمكنة مظلمة ، وتناست أن الرقيق في الشرق يختلف اختلافاً كلياً في معاملته عن أولئك المساكين الذين وقعوا في قبضة الأوروبيين والأمريكيين ، وهذه الطريقة استطاعت إنجلترا أن تستثير مشاعر الغربيين حتى حصلت على توصية الدول في مؤتمر فيينا في عام ١٨١٥م بالأخذ بمنع النخاسة وتحرير الرقيق .

وكان أن أصدر محمد علي أمره إلى خورشيدآغا حكدار السودان (١٨٢٦-١٨٣٧م) لمنع هذه التجارة ووقف غزوات النهضة الموسمية . وجاء في أحد أوامره « انني لأريد تجارة لا تشرفني واني لعلی استعداد لبذل كل تضحية اذا تطلب الغاء هذه التجارة أية من تضحيات من جانبي^(٣٩) » . ويهدف محمد علي أن لا يلحق العار بشخصه في نظر جميع الشعوب المتمدنية وبخاصة في نظر الحكومة الانكليزية التي تقوم بينه وبينها علاقات ود وصداقة ، وقد أخذت مسألة الرقيق في مضاعفاتها حتى صارت مصدرأ شديد الخطر تمخضت عنه الاحداث والفتن في السودان ، فكانت كالمارد الذي خرج في غفلة من قمعه .

ويجمل بنا أن نتوقف قليلا لنعرض تطورات مسألة الرقيق النخاسة وأثرها في المجال الدولي والمقارنة بين ذلك الوضع مع ما كان عليه في دار الاسلام .

ب — أصول تجارة النخاسة في العصر الحديث :

بدأت تجارة الرقيق في صورتها الواسعة على يد الأوروبيين الذين اتخذوا من هذه السلعة عنصراً اقتصادياً هاماً يشبع أطباعهم ، وقد أنشأوا البيوتات التجارية الكبيرة برهوس أموال أوروبية دخلت معها أموال أمريكية في نهاية القرن الثامن عشر لمزاولة تجارة الرقيق ، وكانت السفن البريطانية تنقل أكثر من خمسين في المائة من شحنات النخاسة من السواحل الافريقية الى المستعمرات ، وكان الرقيق ينقل في شحنات تتكدس فيها الأجساد البشرية في العنابر دون أدنى اعتبار لانسانياتهم، ناهيك

(٢٩) أنظر كتاب الحكم المصري في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٦٣

عن الأمراض التي كانت تفتك بهم خلال الرحلات الطويلة الشاقة ، والتي تستغرق ما يقرب من الستة أسابيع ، يموت خلالها ما يقرب من الربع من العدد المنقول على السفن ، ولم يستيقظ الضمير الانساني وهو في سباته العميق بسبب الأرباح الوفيرة التي كانت تدرها هذه التجارة التي تتنافى مع القيم الانسانية ، ويبدو أن هذه القيم قد صقلها حب المال وسخرها في ركابه واستطاعت بريطانيا وهي صاحبة المصلحة المادية الكبيرة من هذه التجارة أن تنزع حركة المطالبة بإبطالها ، ولاشك في أن هذا التحول في اتجاه إنجلترا وما ترتب عليه من تضحيات مادية لم يكن بالأمر اليسير .

فاذا رجعنا الى تطورات العلاقات الدولية في السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر نجد أن ثلاثة عشر ولاية أمريكية قد أعلنت انفصالها عن التاج البريطاني في ٤ يولييه سنة ١٧٧٦م وأخذت في استرداد حريتها في دخول السفن الامريكية في مياه المحيطات بعد أن كانت التجارة البحرية تحتكرها السفن البريطانية في بعض المحيطات .

واستطاعت بريطانيا أن تتولى زعامة الحركة المطالبة بتحرير الرقيق وتحريره بعد أن أخذت بوادر كراهية هذه التجارة المخالفة للانسانية في بعض الممالك الأوروبية وفي إنجلترا بالذات حيث اقترنت هذه الكراهية بالقلق والخوف بسبب تفشى عادة استخدام الرقيق في الاعمال البيتية وقد بلغ عددهم حوالى العشرة آلاف جاء بهم أصحاب المزارع من الانكليز من المستعمرات وكان الخوف من ازدياد استخدام الرقيق في صورة تصبغ فيها عادة متوطنة لها خطرها على الانكليزى وبخاصة عندما كثر بين الطبقات الكادحة ، والاختلاط في مختلف صورته مع الرقيق يخشى منه أن يفقد الدم الانكليزى نقاؤه ، الأمر الذى يؤدي في نظرهم الى انحطاط الحضارة البريطانية ، وتزعج حركة المطالبة بتحرير وتحرير استخدام الرقيق «جرانفيل شارب» الذى استطاع أن يصبغ حركته بالدعوة الانسانية ، وقدمت شكاوى للمحاكم ، وصدر أول أحكامها عن رئيس القضاة «مانسفيلد» الذى قرر أن وجود الرقيق في أراضى إنجلترا عمل غير شرعى ، وتلت ذلك أحكام أخرى من محاكم المناطق المختلفة فى الجزيرة البريطانية ، إلا أن هذه الأحكام لم يشمل الرقيق الذى كان يستخدم فى الزراعة فى المستعمرات البريطانية فيما وراء البحار ، فقد أبقى على هؤلاء حتى يتسنى استغلال الارض بتكاليف رخيصة فيمكن أن تنافس المنتجات الزراعية من قصب وشاى وتبغ الخ ، المنتجات الاجنبية فى الاسواق الأوروبية وغيرها . وكانت الأمراض فى المناطق الاستوائية لا تسمح للأوروبي بالعمل الشاق فى تلك المزارع .

ح - تطور مسألة الرقيق :

وأخذت مسألة الرقيق تتطور في صورة أو أخرى حتى صارت أداة من أدوات الاستعمار في صراعه الحق بين الدول وبخاصة بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا في أفريقية وبين بريطانيا وروسيا في آسيا . وقد أخذ هذا الصراع مظهره في مطالبة بريطانيا بالغاء الرقيق الذي صورته في صورة ما كان يلاقيه هؤلاء النساء على أيدي أصحاب المزارع في المستعمرات وبذلك استطاعت بريطانيا أن تكسب الرأي العام إلى جانبها بعد أن أصدرت تشريعات اعتبرت النخاسة عملاً من أعمال القرصنة وذلك في عام ١٨٠٧ م واستطاعت انكلترا ان تحصل على توصيات مؤتمر فيينا في عام ١٨١٥ م بتحريمه كما ذكرنا من قبل .

ونشطت بريطانيا في مراقبة الشاطئ الغربي لأفريقيا لمنع نقل الرقيق إلى أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة) التي ثارت على انجلترا واستطاعت أن تفوز باستقلالها عن الامبراطورية البريطانية . ومن ذلك الحين صارت هذه الولايات عنصراً جديداً له خطره في مجال المنافسة التجارية الدولية ، ومن هنا يقين لنا أن التحول الذي طرأ في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، على مسلك بريطانيا تجاه الرقيق وجعلها تدخل تعديلات جوهرية على علاقاتها الخارجية كما أملته سياستها الأساسية وهي الاحتفاظ بالسيادة البحرية ، الأمر الذي قد دفعها في بعض الأحوال إلى وسائل عنيفة لضعاف منافسيها .

ودفعت بريطانيا تعويضاً مالياً بلغ حوالي العشرين مليوناً من الجنيهات لرعاياها من الإنجليز الذين يستخدمون لرقيق في مزارعهم فيما وراء البحار مقابل تحرير الرقيق (٤٠) ، عملت بريطانيا كل ذلك في عام ١٨٢٩ م لتحرير المستعبدين ، فهل كانت لتلك الجهود نتائج عملية بحيث اكتسب الرقيق حقوقه الانسانية وتركت له الحرية في التنقل طلباً للرزق وفق مشيئته وبالأجور التي يقبلها ، الواقع ان مسألة تحرير الرقيق لم تكن إلا إجراء صورياً ، فقد ألغى الرقيق في المعنى وليس في الروح فقد كانت في مزارع الانكليز في المستعمرات أكثر من ثمانمائة ألف من الرقيق يعملون في الزراعة في نهاية القرن الثامن عشر وكانت في المزارع الأمريكية اعداد وفيرة من الرقيق . وعلى الرغم من أن مجلس الكونجرس الأمريكي قد أصدر تشريعاً بمنع توريد

(٤٠) مذكرة السيد هنرغوردون (شقيق غوردون باشا) بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٤ م
تقلا عن كتاب المهديّة والسودان المصري « لمؤلفه ونجت ص ٥٥٤ / ٥٥٥

الرقيق إلى الولايات الأمريكية في ١٨٠٧ م على أن يسرى مفعول هذا التشريع ابتداء من أول يناير سنة ١٨٠٨ م فان بريطانيا كانت تهدف إلى تحرير الموجود منه فعلا في المزارع الأمريكية تحت ستار العاطفة الانسانية لخاق متاعب الأمريكان بزيادة تكاليف الانتاج في بلادهم حتى يعجزوا عن منافسة التجارة البريطانية .

د - النخاسة في الصراع الدولي:

وأخذت بريطانيا في مراقبة الشاطئ الغربي لأفريقيا بدعوى منع الرقيق إلى أمريكا ومضايقه السفن الأمريكية لمنعها من الدنو من ذلك الشاطئ ولكن هذا الاجراء في غرب أفريقيا قد أوجد مجالا للسفن الأمريكية في شرق أفريقيا والخليج الفارسي وتحول إلى هذه المنطقة النشاط التجاري ، كما قامت السفن الفرنسية والاسبانية والبرتغالية في نقل الرقيق ، ورفضت هذه الدول الازدعان للرقابة البريطانية . وأخذ النفوذ الأمريكي في العمل على انتشار تجارته في هذه المنطقة من المحيط الهندي ، وأحست بريطانيا بخطور هذا النفوذ على مصالحها الاستراتيجية في هذه الرقعة ، وبخاصة بعد أن عقدت الولايات المتحدة مع السيد سعيد في ٢١ سبتمبر سنة ١٨٢٣ ، والتي حصلت بموجبها الولايات المتحدة على امتيازات اقتصادية وتسهيلات للبشرين الأمريكيين واستطاعت بريطانيا بطرقها الخاصة أن تقبض على ناصية الأمر ، وبعد صراع طويل استطاعت بريطانيا من بسط حمايتها على السيد سعيد ومن بعده ابنه وذلك تحت ستار منع الرقيق (٤١) . وتمكنت بذلك بحجارتها من إنزال ضربة قوية على التجارة الأمريكية كما يصوره لنا الجدول الآتي : (٤٢)

١) قبل الحرب الأمريكية الأهلية

سنة ١٨٥٩	سنة ١٨٥٨	سنة ٨٥٧	سنة ١٨٥٦	سنة ١٨٥٥	
عدد طن	عدد طن	عدد طن	عدد طن	عدد طن	
١٠٨٩٠	٩٩٦٢	١١٤٨١	٧٢١٥	٩١٤٢	الولايات المتحدة
٤٩٣	١١٦٩	٧٧٠	١١٦٧	٤٠٩	بريطانيا
٤٤٢٨	٧٢٧٠	٥٩٠٧	٦٠٣٨	٣٩٨٩	ألمانيا
٣٠٦٦	٦١٨٦	٨٣١٩	١٠٠٧٩	٥٥٢٣	فرنسا
١٨٨٧٧	٢٤٥٨٤	٢٦٤٧٧	٢٤٤٩٩	١٨٧٦٣	الجملة

(٤١) أنظر « الاستثمار والتجارة » بالانجليزية لمؤلفه لنا رد ولف ص ٣٢٠ وما بعدها .

(٤٢) أنظر مقال شرق أفريقيا وأمريكا بقلم السيرجون جراي في مجلة تنجانيقا في رسائل =

ومدونات (بالانجليزية) عدد ديسمبر ١٩٤٦ ص ٨٦ / ٥٥ .

ب) بعد الحرب الأمريكية الأهلية

سنة ١٨٧٩	سنة ١٨٧٧	سنة ١٨٧١	سنة ١٨٦٦	
عدد طن	عدد طن	عدد طن	عدد طن	
٥٢٨٣ ١٠	٥٣٥٢ ١٠	٤٢٥٠ ٧	٢٥١٥ ٥	الولايات المتحدة
١٦٢٦٥ ٦٩	٤٢٤٨٧ ٤٨	١٠٤٥٩ ١٧	٦٥٦٨ ١٩	بريطانيا
٥٩٤٠ ١٣	٤٦٥٣ ١٥	٧٤٦٧ ١٧	٥٢٨٢ ١٦	المانيا
١٩٧٥ ٤	٣٢٥٩ ٥	٥٤٥٠ ١١	٣٧٧٢ ١٦	فرنسا
٨٩٤٦٣ ٩٦	٥٥٧٥١ ٧٧	٢٧٦٢٦ ٥٣	١٨١٦٧ ٥٦	جملة

الفترة ١٨٧٩/١٨٦٦		الفترة ١٨٥٩/١٨٥٥		
طن	عدد	طن	عدد	
١٩١٠٠٧	٢٨٢	١١٣٢٠٠	٣٥٨	الجملة العامة
٧٥٨٠٩	١٥٣	٤٠٠٥	١٢	نصيب بريطانيا
٪ ٣٩	٪ ٥١	٪ ٣	٪ ٥	النسبة المئوية

٥ - الرقيق في دار الاسلام

أما في دار الاسلام وبخاصة في مصر والسودان فقد كان الرقيق في حال أحسن كثيراً مما كانت عليه حالته في الغرب ومرجع ذلك إلى تعاليم الدين الاسلامي التي أوصت بالمعاملة الطيبة كما شجعت على تحرير الرقيق لما في ذلك ثواب، وقد ذكر أمير على ان الرقيق كان شائعاً في الجاهلية وقد تساحح الاسلام بالابقاء المؤقت على هذه العادة، والقرآن في نفس الوقت والواقع قد عمل على إلغائها (٤٣) تدريجياً وأبطل الاحتفاظ برقيق جديد، الأمر الذي يتمشى مع رسالة الدين التي قامت أساساً على المساواة والحرية.

وقد ذكرنا من قبل ان المجتمع السوداني، كما في مناطق أخرى من دار الاسلام، قد اختلف بالكثير من العادات والتقاليد القديمة، وهكذا بقي الرقيق وتغلغل في كيان السودان الاقتصادي، وصار دعامة النشاط في حياته اليومية، ومع ذلك فقد استغلت بريطانيا الناحية الانسانية، التي استندت في أساسها على مسألة الرقيق، حتى تضغط على محمد علي لمنع الاتجار في الرقيق، ولتحرير الموجود منه في خدمة الأهالي. وارتكبت بريطانيا من الاجراءات العنيفة الصارمة، في تنفيذ هذا المنع للنخاسة

(٤٣) أمير على ص ٢٦٢

وتحرير الموجود منه في خدمة الاهالى في السودان ، الامر الذى كان له اعمق الاثر في تطورات الاحوال في وادى النيل .

وأخذت مسألة الرقيق في مصر والسودان في التطور السريع ، وبخاصة ان انجلترا كانت ترقب بعين الاهتمام ما يجرى في حوض النيل ، بعد أن تغلغلت الادارة المصرية في السودان ، وبدأت في بسط نفوذها على المناطق في أقصى الجنوب ، وكانت بريطانيا تخشى قيام قوة من شأنها أن تخلق خطراً يتعارض مع المصلحة البريطانية في هذه المنطقة ، فقد حذرت الدول الأوروبية محمد علي من غزو الحبشة ، حتى لا تمتد السيطرة المصرية إلى القرن الأفريقي (المنطقة جنوب الهضبة الحبشية إلى نهر الجوبا) وتطل منه على المحيط الهندي (٤٤) ، وتنقل في ركابها آراء جديدة ، يتطور معها الوعي القومي ، في المناطق الواقعة على المحيط الهندي ، الذى يكون منطقة استراتيجية بالنسبة لانجلترا ، وقد ازداد قلق الدول الأوروبية من التقدم الذى وصلت اليه مصر بعد ظهور الجيش المصرى وبحريته في حرب المورة لمساعدة الباب العالى على إخماد ثورة اليونان (١٨٢٤ - ١٨٢٧) ، وبدأ بعد ذلك التاريخ صراع الدول الأوروبية للتوسع في حوض البحر الأبيض المتوسط في شاطئه الأفريقى ، فأنزلت فرنسا جنودها في الجزائر في عام ١٨٣٠ م ، لتعيد الطريق لبسط سيطرتها على أفريقيما الصغرى (تونس مراکش والمغرب الاقصى) ، وتكون لها في هذه المطنة قاعدة ، تخرج منها صوب الجنوب نحو قلب أفريقيا الاستوائية .

و — الرقيق وسيلة للضغط السياسى :

وبالغت الدولتان الانجليزية والفرنسية في التودد إلى مصر ، وذلك بالدور الذى لعبته في المشاكل ، التى قامت بين الباب العالى ومحمد علي في أزمة عام ١٨٣٢ (حرب الشام الاولى) ، من ناحية واشتد الضغط على مصر من ناحية أخرى بشأن الرقيق ، وكان من العسير حقاً أن تقوم مصر بمحاولة تحرير الرقيق في السودان دفعة واحدة بأوامر تفرض على الشعب ، دون أن تعطى الفرصة الكافية للمجتمع ، ليكيف نفسه

(٤٤) كتاب السياسة الخارجية في عهد المرستون جزء اول ص ٢٧٦ وقد حدث أن أرسل الحديو اسماعيل حملة إلى مصب نهر لجوبا وذلك لفتح الطريق التجارى بين خط الاستواء والمحيط الهندي ولكافة الرقيق عبر هذا الطريق . فعارضت بريطانيا في إرسال هذه الحملة باسم السيد برغش سلطان زنجبار . وكانت بريطانيا تخشى تحت ستار اسم السيد برغش اهتمامها بوقف التوسع المصرى على الساحل الأفريقى للمحيط الهندي والسيطرة على الموانئ الاستراتيجية .

مع الزمن لهذا الاجراء ، وأن تترك المشكلة لتحل نفسها بنفسها ، بما يدخل على المجتمع من تغيير في سلوكه اليومي ، نتيجة لما دخل البلاد من تطورات اقتصادية واجتماعية في ركاب الادارة المصرية ، وقد ذكر محمد علي إلى ريتشارد مادن « يعظم سرورى إذا ألغيت الرق لإلغاء تاما ، ولكن من الواجب على الانسان أن يهيء للشعب قبل ذلك وسائل التربية والتعليم ، لأن مسألة الرق في هذه البلاد من أشق المسائل وأشدّها صعوبة ، على خلاف الحال في بلادكم ، ذلك أن الناس اعتادوا أن يستخدموا الأرقاء لدرجة أنه إذا امتنع وجود الرقيق بالأسواق ، بادروا بالشكوى على نحو ما فعلوا سابقاً عندما منعت جنودى من تسيير الغزوات لصيد الرقيق في سنار (٤٥)

وكان للتيارات الخفية التي تحركها الدول الاستعمارية ، أثرها في عرقلة جهود مصر لوقف تجارة الرقيق ، التي زادت تعقيداً بدخول عناصر أجنبية ، وذلك بدخول الليفانتينيين والاوروبيين إلى السودان ، وممارستهم لصيد القبيلة وجمع العاج ثم صيد الرقيق ، وأنشأوا الزرائب والمحطات التي اتخذوا منها قواعد لحملاهم المسلحة لصيد الرقيق ، وقد احتفى هؤلاء الأجانب بالامتيازات الأجنبية التي تستمتع بها دولهم في مصر ، فصارت أعلامهم ترفع على مراكزهم ومحطاتهم ، حتى لا تتدخل السلطات الحكومية في أعمالهم والحد من نشاطهم ، وقد واجهت مصر هذه التطورات بأن طالبت قناصل الدول ذات الشأن ، بأن يرفعوا عن رعاياهم حماية التجارة المشتغلين ، بصيد الرقيق وتجارته ، وأن يكون للحكومة المصرية الرقابة القوية على تصدير الأسلحة والذخيرة ، وبهذا تستطيع الحكومة القضاء على هذه التجارة في مواطنها في السودان واضطر التجار الأجانب أمام مطالبة مصر للقناصل بالتدخل ، إلى بيع مؤسساتهم للحكومة التي قامت بالاستيلاء على الزرائب وتعويض أصحابها ، وتبع ذلك امتداد الادارة المصرية نحو الجنوب ، وكان أن رحل بعض التجار من المشتغلين بالرقيق إلى مناطق بعيدة عن سلطان الحكومة ، حيث وحدوا نشاطهم بتكوين قوهمبانية (أى شركة) وأنشأوا محطاتهم في مملكة انيورو . كما سيطر الزبير رحمت على بحر الغزال ومملكة كبيرة ، واتخذوا بلدة «باية» ديم الزبير (٤٦) مركزاً لنشاطه ، وتحالف مع الرزيقات ، ثم اشتبك معهم ومع سلطانه الفور في حروب ، انتهت بضم درافور

(٤٥) كتاب الحكم المصرى في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ١٦٤

(٤٦) نسبة إلى الزبير النفيعاني وهو غير الزبير رحمت .

إلى إدارة السودان المركزية، وترجع أسباب حرب الزبير مع الفور الى عوامل اقتصادية بحتة، وذلك أن الفور كانوا يعتمدون على حوض بحر الغزال، كمجال حيوى لهم لصيد الرقيق وجمع العاج، ووجدوا أن سيطرة الزبير على هذا الجزء الذى يعتبرونه تابعاً لهم، سوف تحرمهم من مصادر تجارتهم الرئيسية، فكان لامناص من الاشتباك بينهم.

وكانت سيطرة الزبير على تلك المناطق، قد أوجدت «مجالاً حيويًا»، خارجاً عن سلطان الحكومة، فى الجانب الجنوبي الغربى للسودان، ولم تلبث أن فتحت أبوابها لهجرة المغامرين والتجار من الأقاليم التى تسيطر عليها إدارة السودان، حيث اشتدت موجة التنكيل بالأهالى على يد الموظفين من الأجانب وعمالهم تنفيذاً لمعاهدة الرقيق، تنفيذاً صارماً دون أن تراعى فى ذلك مصلحة الأهالى، الذين يعتمدون اعتماداً كلياً، بحكم العادات الموروثة، على خدمة الرقيق، وكانت هذه الجيوب التى سيطر عليها الزبير مجالاً، وجد فيه المهاجرون متنفساً لكربتهم، ولو ترك الأمر للزبير أن يعمل وفق طريقته الخاصة، ولم تقم فى وجهه العراقيل، ولم تغدر حكومة غوردون بآبائه لاستطاع الزبير منع تجارة الرقيق، فى فترة قصيرة فى الوقت الذى يعمل فيه على تغيير الاتجاهات المحلية، والتوسع الاقتصادى الى المستوى الذى ينتقل فيه الرقيق الى مركز يسترد فيه حريته فى العمل كما يشاء، وبالأجر الذى يرتضيه، مادام المال متوفراً لمواجهة ذلك التطور.

ز - الرقيق - فى الدعاية المغرضة

وفى هذا العرض ما يبين لنا مدى محاولة مصر للأخذ بيد السودان نحو التقدم والسير فى ركب الحضارة وأنها لم تحاول أن تحد من حرية أهله من ممارسة حقوقهم الطبيعية واشراكهم اشراكاً فعلياً فى إدارة شئون بلادهم. ومرجع ذلك إلى أن مصر لم تكن لها «معتقدات أو رغبات»، على الصورة التى تمارسها الدول الاستعمارية. ويتبين لنا مما سبق ذكره أن مصر لم تذهب الى السودان لاستعباد أهله وتسخيرهم لمصلحتها كما جاء فى أقوال الفرنجة عن أهداف امتداد الادارة المصرية الى السودان، وأننا لاننكر أنه كانت هناك بعض الأخطاء التى بولغ كثيراً فى تصويرها للتأثير على رأى العام الأوروبى. ولاننكر أيضاً أن امتداد ادارة مصر الى السودان كان أول تجارتها بعد أن ذهبت لوضع حد لحالة الفوضى والحروب الأهلية التى اشتد أوارها بين

الزعامات القبالية ، ولكي تمنع من تثبيت أقدام فلول المالك التي دخلت البلاد للسيطرة عليها ، وكان وراءهم التوسع الأوربي ، الذي حاول جاهداً مساعدتهم على إقامة حكومة في السودان في صورة ماتحقق معها مطامعهم .

وبما جاء في أقوال الفرنجة أن مصر ذهبت الى السودان للحصول على الرقيق وأن الواقع يدحض هذا القول . فان الرقيق وهو كما أوضحنا عميق الأثر في اقتصاديات البلاد كان يدفع ضمن الجبايات المطلوبة للإدارة ، إلا أن تلك الإدارة لم تستخدمهم في مزارعها أو أنها حددت لهم مناطق للإقامة والعمل في داخلها ومنعهم من الانتقال من هذا السيد أوذاك فهي قد جندتهم في الجيش للخدمة في بلدهم وكانت تعاملهم على قدم المساواة وفق القوانين التي كانت تسرى على غيرهم من رجال الجندية . وبعد انتهاء خدمته كان له الخيار في الذهاب أين شاء وأن يعمل في حرية مطلقة بما يتمشى مع رغباته الخاصة . وفي هذا المسلك الطريق الأمثل نحو إنهاء هذه التجارة تدريجياً في نطاق تطور المجتمع . وانجلترا التي اتخذت من الرقيق أداة من أدوات الاستعمار لتعطيل التقدم في السودان لم تحاول في مفاوضاتها مع وكلاء الامام المهدي التعرض لهذه المسألة ، مسألة أبطال الرقيق - على نفس الطريقة التي أتتهجتها للضغط على مصر . كما أن تجارة الرقيق والسبي كانت قائمة في فترة الحركة المهدية ، وطلب كاشنرفي مذكرته التي أصدرها بعد إقامة الإدارة الجديدة في ١٨٩٨م بأن لايتدخل الحكام في أمر الرقيق الذي في خدمة أهله مالم يطلب منهم الرقيق ذلك .

أما القول بأن مصر ذهبت إلى السودان للحصول على الذهب - فلم يكن من المعقول أن تقوم إدارة جديدة دون أن تبحث في موارد البلاد الطبيعية لاستغلالها - ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر كانت تدفع من خزائنها الأموال اللازمة لسد العجز في إيرادات السودان ولو قدر للإدارة المصرية أن تسير على الخطى التي رسمتها بعد تجارها ولم يتدخل الاستعمار لسكان السودان غيره اليوم حيث كانت قد توفرت له امكانياته الاقتصادية واستغلالها منذ قرابة المائة عام .

وقد أرادت مصر باستخدامها الأجانب في مراكز ذات مسؤولية في السودان لتظهر حسن نيتها واستعدادها لإلغاء الرقيق - ولا يفوتنا أن نذكر أن مصر كانت في حاجة إلى إدخال الظمأنينة في قلوب الأجانب لما كانت واقعة فيه من مشاكل مالية . إلا أن أولئك الأجانب أساءوا إلى مصر بتصرفاتهم ومسلكتهم الشاذ وهذا مانفر الأهل وجعلهم ينظرون إلى مصر بعين الشك والريبة ، وصار مصيرهم معلقاً في كف

القدر . فبينما كانت مأمورية صمويل بيكر في خط الاستواء لإدخال الوسائل المشروعة للتجارة ونشر الحضارة والاستقرار في المناطق النائية ، فإنه قد اعتبر مهمته عسكرية لحرب الأهلى والتنكيل بهم ؟ وسلك خلفه غوردون في الجنوب مسلحاً قديكون مختلفاً في وسائله عما كان عليه ملك بيكر إلا أن النتيجة كانت واحدة من حيث تنفير الأهلى من الحكومة في الخرطوم والقاهرة ، التي اعتبروها مسئولة عن كل الكوارث التي حلت بهم بسبب مكاخفة الرقيق .

ح - دخول مسألة الرقيق في المعاهدات

وكانت الحكومة الانجليزية قد أخذت في التفاهم مع الباب العالى بشأن الرقيق وقد أصدر السلطان العثمانى تنظيماته بمنع الرقيق الأبيض في أكتوبر عام ١٨٥٤م والرقيق الأسود في فبراير سنة ١٨٥٧م وكانت هذه التنظيمات تشمل ضمنا مصر بوصفها أيلة عثمانية ، وأخذت بريطانيا في محاولاتها مع مصر منذ عام ١٨٧٣م لإبرام معاهدة بشأن إلغاء تجارة الرقيق في مصر والسودان والمناطق التابعة لمصر وبينما كانت المفاوضات دائرة حول هذه المسألة أصدر الباب العالى دستوره ١٨٧٦م الذى منح جميع الرعايا الحقوق والحريات المتساوية وبعد ذلك بعام أى في سنة ١٨٧٧م تم الاتفاق على الصياغة النهائية للاتفاق ووقعت عليه الدولتان المصرية والانجليزية في الاسكندرية في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧م .

وهناك مسألتان لها أثرهما في هذا الموقف، أولهما التنظيمات السلطانية التي صدرت في عام ١٨٥٨ بشأن الرقيق الأسود وهو يشمل جميع الإمبراطورية العثمانية ومنها مصر والسودان والمناطق التابعة لمصر ، ويبدو أن هذا كان سنداً لمسلح بيكر في إدارته لخط الاستواء في السنوات ١٨٦٩/١٨٧٣ و غوردون من ١٨٧٤ / ١٨٧٦م بالإضافة إلى الأوامر التي أصدرها ولاية مصر حتى ذلك الحين والتي كانت تهدف إلى تنظيم الإلغاء . والثانية أن الأزمة المالية المصرية قد برزت وجاء ستيفن كيف من رجال الخزانة البريطانية لبحث الحالة المصرية وتقديم تقرير عنها لحكومته . وفي هذه الفترة بالذات ، وبالرغم من الأزمة المالية التي صورت في صورة بعثت على القلق ، كانت مصر قد شقت طريقها نحو النمو الاقتصادى كما تتضح هذه الحقيقة من ملاحظة الأطراد في زيادة عدد السكان من عام ١٨٦٣ إلى ١٨٧٥م وزيادة النشاط التجارى في حركتى الوارد والصادر .

الزيادة	سنة ١٨٧٥	سنة ١٨٦٣	عدد السكان
٦٨٥٠٠٠	٥٥١٨٠٠٠	٤٨٣٣٠٠٠	الواردات
٣٤١٩٠٠٠	٥٤١٠٠٠٠	١٩٩١٠٠٠	الصادرات
٩٣٥٦٠٠٠	١٣٨١٠٠٠٠	٤٤٥٤٠٠٠	

وإذا رجعنا إلى معاهدة الرقيق ، التي أبرمت في الاسكندرية في ٤ أغسطس سنة ١٨٧٧ ، وإلى الذكريتو الخديوي الصادر في نفس التاريخ ، فاننا نجد أن الاتفاق قد قام على أسس ليس من شأنها أن تؤدي إلى نتيجة إيجابية عملية لالغاء الرقيق إلغاء تدريجياً في خلال الفترة المعينة لالغائه ، وهي سبعة سنوات لمصر واثنى عشر سنة في السودان ، حتى تتاح الفرصة للجمتمع في البلدين أن يكيف وضعه بما يتمشى والاتفاق الجديد ، في الفترة التي تحددت لسكل من مصو والسودان على التوالي .

وقد صيغت هذه المعاهدة على الشكل الآتي : -

- الديباجه - تعبر من أقصى أمانى الدولتين - بريطانيا ومصر - للتعاون في أبطال الرقيق بالسكليه .
- البند الأول - تتعهد الحكومة المصرية بأن تمنع منعاً كلياً من الآن فصاعداً إدخال الأرقاء وتفرض بأشد العقوبات على المخالفين .
- البند الثاني - تعتبر المتعاملين بالنخاسة أو المشتركين في عملياتها بمنزلة السارقين القاتلين ويحاكم هؤلاء أمام المجالس العسكرية أو المجالس المختصة .
- البند الثالث - عن معاملة الرقيق المنزوعين من المتجرين به .
- البند الرابع - تمنع مصر بقدر ماتحت يدها من سيطرة ونفوذ غزوات النهاضة وتعامل من يمارس هذه التجارة من القبائل معاملة القاتلين .
- البند الخامس - تصدر الحكومة المصرية أمراً يرفق مع المعاهدة يحدد بمقتضاه منع الرقيق كليه في أرض مصر والسودان من ابتداء تاريخ يعين في الأمر . وتوضح العقوبة على من يخالف ذلك .
- البند السادس - تسمح مصر للسفن البريطانية باجراء التفيتش في مياه البحر الأحمر على المراكب للبحث عن الرقيق ويبين هذا البند طريقة التصرف في هذه الحالات .

البند السابع — تشير إلى أن العمل بمقتضى هذه المعاهدة يبدأ بعد مضي ثلاثة شهور من توقيعها .

وللمعاهدة ذيل عن إنشاء قلم مخصوص فى كل من محافظتى القاهرة والاسكندرية للتصرف فى حالات الرقيق المختلفة .

معاهدات الرقيق لكسب مقوق

ووقعت الحكومتان المصرية والبريطانية معاهدة ثانية فى السابع من سبتمبر سنة ١٨٧٧ بشأن سواحل السومال . واهتمت بريطانيا بأن تحصل فى هذه المعاهدة على تعهد مصر ، بأن لا تعطى أى احتكار ، أو التزام أو ترخيص باعطاء أى قطعة أرض فى الحاضر والمستقبل لاية دولة أجنبية ، وأن لا تأخذ مصر عوائد جمركية تزيد عن الخمسة فى المائة ، وأن تتمتع بريطانيا وتجارها ، بالمعاملة كدولة ممتازة فى جميع البلاد ، التى تمتد إليها سلطة مصر . وأن يكون الحق لانكلترا فى تعيين مأمورى قنصليات ، فى جميع الموانئ والجهات ، وأن يتمتع هؤلاء بجميع الامتيازات والمعافاة وسائر المزايا المعطاة ، التى تعطى إلى سائر مأمورى القنصليات التابعين لآى دولة ممتازة ، واشترطت انكلترا ان لا يعين فى وظيفة مأمورى القنصليات من أهالى تلك البلاد ، أو البلاد المجاورة لها ، والتزمت مصر فى البند الرابع بمنع تصدير الرقيق ومنع تجارته وقبلت مصر أن يكون للسفن الانكليزية حق مراقبة تجارة الرقيق ، ومنعها وأن تضبط وترسل إلى المجالس المختصة ، السفن التى تتعاطى أو يشتبه فى أنها تتعاطى الرقيق وتحقيقاً لصلاحيه هذه المعاهدة من الوجهة القانونية ، وتنفيذها قضت على وجوب أن يعطى السلطان العثمانى ، الذى تتبع له مصر تعهداً رسمياً بأن لا يعطى فى أية صورة إلى أية حكومة أجنبية ، قطعة من سواحل السومال ومن سائر البلاد التى دخلت أو تدخل فى حوزة مصر .

فوضى تنفيذ معاهدة الرقبس

وقد قام غوردون خلال حكمداريته من ١٨٧٧ الى ١٨٧٩ م بارتكاب أفسى أنواع التنكيل والتعذيب بالأهالى - قتل وتشريد ومصادرة الممتلكات - بدعوى اقتلاع جذور النخاسة وذلك لتبرير مسلكه التعسفى ، ولذا رجعنا إلى ما ذكره غوردون بقوله : ان بيضة الثورة الحالية (يقصد الحركة المهديّة) قد وضعت خلال الأعوام الثلاث التي أتبع فيها ان أحكم السودان على مبادئ غير المبادئ التركية (٤٧) (يقصد بالتركية الادارة المصرية ونسبتها إلى الاتراك لم يكن إلا مغالطة واقتراء على واقع الأمر وحقيقته) وبهذا القول قد كشف غوردون عن حقيقة أهدافه التي حققها عن طريق ذلك المسلك الارهابى (٤٨) ، الذي أحدث أثره العميق فى المجتمع المحلى (٤٩) ودفع به الى الثورة فى وجه إدارة البلاد . وفى الحقيقة وواقع الامر ان الفترة من الزمن من ١٨٦٩ إلى ١٨٧٩ م التي تولى فيها بيكر مديريةية خط الاستواء من ١٨٦٩ / ١٨٧٤ وخلفه غوردون من ١٨٧٤ / ١٨٧٧ م وولاية الاخير لحكمدارية السودان لم تكن إلا فترة متتابعة نفذت فيها سياسة موحدة الاهداف وإن كانت الاساليب قد اختلفت بعض الشيء . وقد ذكر صمويل بيكر ، ان اهتمامى الأول كان لخدمة مصر ، وفى نفس الوقت كان على أن أساعد على نشر نفوذ إنجلترا وقد تحمس غور ون لنفس الغرض وضخى بحياته أملا فى وصول انكلترا إلى الخرطوم (٥٠) . وقد يبدو ان هذا المسلك من بيكر وغوردون كان غريباً بالنسبة لمصر لأنه يتناقى مع أبسط قواعد الواجب الذى يحتم ولاءهما لمصر التي أسندت إليهما مركزيهما للعمل على تقدم البلاد ورفاهية الأهالى . إلا اننا إذا رجعنا إلى روح العصر الذى عاشا فيه وماتركه من انطباعات فى عقليهما نجد تفسيراً لمسلكهما . ويذكر أن زميلهما استانبلى الذى التحق بخدمة الملك ليوبولد فى الكونغو الحرة كان يعتقد ان تلك المنطقة سوف تنتقل إلى الاملاك البريطانية .

ومعاهدة الرقبس التي ذكرناها آنفاً ، والتي كانت مصدر القلق والتذمر فى البلاد ، لم تكن واضحة المعالم مما جعل تفسيرها متناقضاً التناقض كله فبينما غوردون

(٤٧) صبرى س ٨٩ هامش ١

(٤٨) التن س ٣٥٤ إلى س ١٤٠

(٤٩) استراشى س ٢٤٣ .

(٥٠) دوغلاس مرى وسلفا هويت س ٣٥٣ - تقلا عن مكى عباس س ٤٢

قد أخذ في تنفيذها بشدة وصرامة في فترة ولايته حكمدارية السودان ١٨٧٧-١٨٧٩ م واستعان بالأوروبيين الذين عينهم في المراكز الرئيسية بدلاً من المصريين والسودانيين - وقد عين أربعة عشر موظفاً أوروبياً في شهر يولييه سنة ١٨٧٨ م وأدخل لجهاز الحكم عناصر قد اتقلت به من أداة صالحة ، للأخذ بيد البلاد نحو التقدم إلى أداة استعمارية كما أنه قد غير رأيه في مسألة الرقيق في حكمداريته ١٨٨٤/١٨٨٥ م كما سنوضحه في موضعه فيما بعد .

وهكذا نجد ان التنكيل بالأهالي في السودان على يد الموظفين الاجانب وعمالهم تنفيذاً للبعاهدة لم يكن مبعثه الشعور الانساني نحو الرقيق .

وكان مستحيلاً على الاهلين الذين أرتقمهم هؤلاء العملاء والوكلاء، من الأوروبيين والليفانتينيين في إدارة غوردون ، أثناء حكمداريته (١٨٧٧ - ١٨٧٩ م) ، أن يدركوا أو يصدقوا . ان هذا العسف والفسوة بأنهم يريدون حقاً إلغاء الرقيق وأبطال النخاسة . الامر الذي تعطلت معه الحياة اليومية وساد الذعر والارهاب ، وجاء فيما كتبه غوردون في يولييه ١٨٧٨ م « قبضنا على اثني عشر قافلة رقيق في مدة شهرين ، وقال أيضاً « اني أوجه ضربة قاصمة لتجارة الرقيق وقد أقت ما يشبه الحكومة الارهابية في معاملة هذه التجارة (٥١) » ، كما كان يصدر أحكامه بالاعدام رمياً بالرصاص على من يشبهه فيهم هو وأعوانه بممارسة هذه النخاسة ، ، ويذكر صاحب « غرائب الزمان في فتح السودان » قصة تدل على سوء الظن ، وهذا أضعف التعميرات ، التي يمكن أن يوصف بها ما كان يدور في ذهن أهل السودان تجاه نشاط الحكومة العنيف ، الذي أوجد بلبلة زاد معها سوء الظن بنوايا الحكومة وأغراضها وقد وصف مؤلف كتاب « غرائب الزمان في فتح السودان (٥٢) » ، الذي أشرنا اليه ، زيارته لإحدى الشون ، التي أعدت في الخرطوم لجمع الرقيق الصادر من النخاسين ، قبل أن تبت الحكومة في مصيرهم ، فقال « فدخلنا وإذا بها (الشون) من صنف الخدم (الرق) ، شيء لا يعد فلها نظرت ذلك اندهشت لكثرتهم ، ، قلت للتاجر ما هذا ؟ قال ألم تنظر قلت نعم أنظر (رقا) ، ولكن هذا شيء كثير ، وصدرت الاوامر بأبطال الاتجار فيه ، قال نعم ولكن هؤلاء قد صار ضبطهم من التجار ،

(٥١) الن - في كتابه غوردون والسودان ص ١٤٠ .

(٥٢) محمود طلعت في كتابه غرائب الزمان في فتح السودان ص ١٢٧ وما بعدها طبع مطبعة الاسلام بمصر عام ١٣٠٤ هـ (١٨٩٦ م) ومحمود طلعت هذا كان موظفاً في غرب السودان من ١٨٧٥ - ١٨٨٠ م .

وبعضوا في المحل خلاف لإثني عشر ألفاً (مرداً) (لفظة أمر تطلق على من سنه ١٧ إلى ١٦) وأرسلهم الحكمدار (يشير إلى غوردون) ، إلى الهند عن طريق مصوع ، ولا أدري إذا كان يتجر فيهم أو أرسلهم هدية لدولته، ففتخذهم عساكر بمستعمراتها الواسعة . ولكن الخبر الثاني هو الغريب عن العقل ، وكان ذلك قبل مغادرة غوردون للسودان في عام ١٨٧٩ م بعد أن حكم من ١٨٧٤ / ١٨٧٦ م في خط الاستواء ، ومن ١٨٧٧ / ١٨٧٩ م حكمداراً للسودان يعاونه أوربيون من مختلف الجنسيات ، في مراكز هامة ، عملت على آثاره الحفاظ وكرهية الحكم المصري .

* * *

غادر غوردون السودان في عام ١٨٧٩ م ، بعد أن حكم البلاد ، كما سبق أن أوضحنا على أسس تختلف اختلافاً كلياً عما كانت عليه ، فتعطلت التجارة والزراعة ، وشاع الفساد ، الذي امتد إلى القيم الاخلاقية ، وانحط بها بما يتنافى مع عادات البلاد وتقاليدها ، وسلم أداة الحكم إلى مساعديه من الأوروبيين والمتخلفين الذين أسرف في تعيينهم ، وكثر عدد المتعطلين من الأيادي العاملة على الأرض والرعي ، بدعوى المدنية والانسانية لتحرير الرقيق ، وقد هباً لإرساء قواعد الحكم على هذه الصورة ، التربة الصالحة للتدمير والفتنة ، ودفعها دفعاً قويا إلى الاستجابة إلى الدعوة التي نادى بها الامام المهدي ، للخروج بالبلاد بما وصلت اليه تحت حكم الأوروبيين ، ومن عاونهم من المختلفين .

مقاييد الادارة في يد الأوروبيين

وكانت سلطات الحكم ، وقد تسلم زمامها الأوروبيون والانتهازيون ، تتخبط في فوضى وجهل ، وفق حاجاتها اليومية ، وقد ساعدت هذه الحالة ، الارتباك والقلق ، وتوقف النشاط ، على سرعة انتشار الفتنة ، باجتذاب الانصار من الجماعات المتدمرة ، وكان الغدر بسليمان الزبير ورجاله على يد جسي ، بأمر من غوردون ، خاتمة المطاف ، فتكون بذلك شعور عام ، اكتسح الجميع وأشد ساعد حركة العصيان ، الذي كان موجهاً أولاً وقبل كل شيء ، إلى الخلاص من الادارة ، التي اصطبغت بالطابع الأوروبي ، الذي انحرف بها عن تقاليدها ، التي عرفتها أهل البلاد ، قبل سنوات العشرة الثامنة عن القرن التاسع عشر الميلادي ، عندما كانت الادارة وطنية خالصة (مصرية سودانية) وقبل أن يتسرب إلى السودان الأجانب وتقليدهم مراكز رئيسية في إداراته ، وكان لسيطرة التفوذ الأجنبي في مصر أثره ، في تقوية سلطان

هؤلاء الحكام في السودان ، وفي اتخاذهم ما يرونه من إجراءات في حرية مطلقة ، تعطل معها سلطان الحكمداريون الذين خلفوا غوردون ، وذهب ضحيتها الألوف من الأهالي ومن جنود الحكومة ، الذين وضعتهم الظروف السياسية في مصر ، في حالة نفسية متدهورة ، وأسلبت قيادتهم لمن يجملون التنظيمات العسكرية ، وفنون القتال ، والتدريب على خوض المعارك ، وكان عتاد هؤلاء ومعداتهم وذخيرتهم ، غنيمة باردة ، ساعدت على تطور الحركة وانتقالها من مرحلة إلى مرحلة ، ونذكر على سبيل المثال من طراز أولئك القادة ، الذين تولوا إدارة معارك دون سابق خبرة ، محمد بك أبو السعود تاجر الرقيق ، الذين عينه غوردون في منصب وكالة المديرية في «غندكرو» في سنة ١٨٧٤ م ، ثم طرده من الخدمة وإعادة ثانية في سنة ١٨٧٧ م مديراً للحسابات في الخزانة العامة في الخرطوم ، وكان أبو السعود في المركز الثاني بعد الحكمدار . وكان فشله ذريعاً وهزيمته منكراً ، عندما أرسله رؤوف باشا إلى الجزيرة «أبا» .

وعندما وصل رؤوف باشا لتولى منصب الحكمدار ، بعد مضي ستة شهور من سفر غوردون سلك مسلك غوردون في تنفيذ منع الرقيق . ولم تكن لهذا الحكمدار القدرة واتساع الأفق ، لمعالجة المشاكل كما كانت تتطلبها الحالة القائمة ، بل عمد إلى تنقيذ أوامر القاهرة التي كانت تهم ، لظروفها الخاصة ، بتنفيذ هذه المعاهدة في أية صورة من الصور ، املا في اكتساب رضاه الأجانب والانجليز؛ ليخفف عنها الضغط ، ولم تعلم انها بعملها هذا إنما قد زادت النار وقوداً وكان في عهد رؤوف باشا هذا ان أخذت الدعوة المهدية مظهرها السافر ، في صورة دعوة إلى الهجرة إلى المكان الذي اتخذته الامام المهدي مستقراً له لنشر دعوته ، وأرسل رؤوف باشا أبو السعود بك إلى الجزيرة «أبا» ومعهم يوسف باشا الشلالى للقبض على صاحب الدعوة وأتباعه ، ولم تكن قيادتهما موحدة بل ترك لكل منها أن يتصرف كما يشاء دون اعتبار لموقف زميله ، ويبدو أن رؤوف باشا لم يكن يقدر الموقف حق قدره ، فكان نصيب هذه الحملة الفشل ، بسبب جهل أبو السعود والشلالى بالفنون العسكرية ، ولم تكن هنالك خطة مرسومة للحملة ، بل ترك أمرها للظروف ، ولجهود الأفراد من ضباطها ، وذكر ابراهيم باشا فوزى في كتابه أن رؤوف باشا أرسل في أول الأمر الطيب بك مدير فاشوده إلى الجزيرة «أبا» إلا انه على حد قول ابراهيم باشا قد قبل رشوة من

أنصار الامام المهدي ، ولم يفعل شيئاً (٥٣) . وليس هناك من دليل على صحة هـ هذه الرواية . ويحتمل أن يكون ابراهيم باشا قد نقلها عن الشائعات والمعروف ان ابراهيم باشا قد عاد إلى مصر في ذلك الوقت تقريباً ، وبقى فيها حتى سفره مع غوردون في سنة ١٨٨٤ م وبقى أسيراً حتى نهاية حكم الخليفة عبد الله التعايشي في سبتمبر سنة ١٨٩٨ م .

استدعى رءوف إلى مصر ، وترك السودان في فبراير من عام ١٨٨٢ م بعد أن سلم مقاليد الحكمدارية إلى « جيجلر باشا » (١٨٧٧/١٨٧٩ م) بعد ان كان مفتشاً للتلغرافات ، ولم يكن من اليسير على جيجلر أن يدرك أو يقدر مدى خطورة الحركة المهديية « وهو من بيئة تختلف اختلافاً كلياً عن البيئة المحلية السودانية ، وذلك في الدين واللغة والتقاليد ، وبالإضافة إلى ذلك فإنه قد عمل زمناً في تنفيذ معاهدة الرقيق على الصورة القاسية التي رسمها غوردون . وبما يجدر ذكره ان جيجلر قد بقي نائباً للحكمداو طوال حكم عبد القادر باشا ، الذي كان متغيباً عن الخرطوم ، لإعادة الامن في أرض الجزيرة . ونجد فيما ذكره أحمد حمدي بك ، رسول الخديو الخاص ، ان جيجلر قد عمل جاهداً على أضعاف مراكز الحاميات المصرية على النيل الأبيض مما عرضها للأخطار (٥٤) .

جاء عبد القادر باشا إلى السودان في مايو سنة ١٨٨٢ ، وقد تعين حكمداراً بالإضافة إلى منصبه كوزير لوزارة السودان (نظارة السودان) وكانت له شخصيته القوية وخبرته في معالجة الشؤون الادارية والعسكرية . وقد استطاع القضاء على عناصر الفتنة والاضطراب في منطقة جزيرة النيل الأزرق والمنطقة الواقعة شرقي النيل الأبيض ، إلا أن الصفات ، التي استطاعت بما لديها من إمكانيات ضئيلة ، أن تقبض على ناصية الأمن ، لم تجد في مصر من يقدرها ، فيستمع إلى نصيح صاحبها ، بسبب ما كانت تعانيه مصر من أحداث داخلية وخارجية عند قيام الحركة العربية الوطنية ، وقد وجدت فيها بريطانيا الفرصة المواتية لاحتلال مصر ، متذرة بأكثر من سبب

(٥٣) ابراهيم باشا فوزى في تاريخه السوادان بين يدي غوردون وكتشبرى جزء أول ص ٧٧ القاهرة صفر ١٣١٩ وقد ذكر الشيخ محمود القبانى في كتابه السودان المصرى والانكليزى ص ١٥٤ « ان مدير فشوده قد قبض على الامام المهدي وحاول أنصاره رشونة مائة أردب من القمح فأطلق سراحه .

(٥٤) يوميات رسول الخديو تاريخ ٢٣ و ٢٤ مارس سنة ١٨٨٣ م .

تغطية لسياستها وخطتها بالنسبة لوادى النيل ، وكان لنزول الجيوش الانكليزية في مصر ، وهو المرحلة الأولى التي مهدت لخطوات أوسع ، انطباعاتها في السودان بصفة عامة ، وعلى مركز عبد القادر باشا حلي بصفة خاصة وكان وجوده في السودان ، يدير عملياته لاعادة النظام والاستقرار ، أمراً تضيع معه الفرصة المتجاء ، وكان عبد القادر باشا يعالج الموقف بما يتمشى مع طبيعة الدعوة المهديية ، وقد مكنته صفاته وكفائته من السيطرة على الموقف ، وهذا لا يتفق بل يعطل الأهداف الاستعمارية في حوض وادى النيل ، وكان من مصلحة تلك السياسة أن تستشرى نيران الفتنة في جنوب الوادى (السودان) لتخلق الوضع الذي يهيء الفرصة لكسب جديد .

عمدت هذه السياسة بوسائلها المختلفة إلى نشر الشائعات المغرضة التي من شأنها أضعاف مركز مصر في السودان ، كما انها عملت على اثاره مخاوف الخديو توفيق من نشاط عبد القادر باشا حكمدار السودان متهمه اياه القيام بتدبير يرمى إلى فصل السودان عن مصر ، وتبعيته المباشرة للباب العالي ، فاستدعاه الخديو في صورة توضيح لها مدى خوف توفيق ، الذي كانت ولايته على مصر عرضة للخلع لولا مناصرة الانكاز له ، تحقيقاً لأهدافهم من بقائه في مركز من الضعف، فبينما كان عبد القادر باشا يعمل وجنوده في جنوب جزيرة النيل الأزرق ، للحد من نشاط بعض ذوى المطامع الشخصية من الوطنيين ، الذين انتهزوا فرصة الدعوى المهديية لتحقيق بعض مطامعهم فالتفت حولهم بعض الجماعات وقاموا بحركة عصيان ، فاذا حسين باشا واصف يصل إلى معسكر عبد القادر باشا ليتسلم منه قيادة قواته ، فتعطلت بذلك خطته لتأديب الخارجين ، وفي نفس الوقت يصل إلى الخرطوم علاء الدين باشا صديق ، والجنرال هكس باشا ، ومعهما رسول الخديو الخاص ، الذي أحيطت مهمته حينذاك بالكتمان الشديد . وقد كشفت الرقائق عن هذه المهمة وحدودها ، فقد كلف الخديو هذا الرسول ضمن ما كلفه به ، لإعلان حكمدارية علاء الدين باشا بدلا من عبد القادر باشا حلي ، كذا تعيين الفريق هكس باشا رئيساً لهيئة أركان الحرب للقوات المصرية في السودان ، وإسناد قومندانية القوات إلى سليمان باشا نيازي، وإبلاغ عبد القادر باشا قرار إلغاء نظارة السودان التي كان يرأسها ، وبانفصاله عن الحكمدارية ، وغادر عبد القادر باشا الخرطوم في ٢٦ ابريل سنة ١٨٨٣ م في طريقه إلى القاهرة .

وفي اليوم الذي أعلنت فيه حكمدارية علاء الدين وقومندانية القوات إلى

سليمان باشا نيازي صرح هكس باشا لرسول الخديو ان هذه الاجراءات قد تمت بناء على طلبه (٥٥).

وقد حاول رسول الخديو عبثاً إقناع الخديو بأن ما أشيع عن عبد القادر باشا لا نصيب له من الصحة ، بل بالعكس طالب بالبقاء عليه لاتمام ما قد بدأه من أعمال (٥٦). لأن الخديو كان واقعاً تحت نفوذ المستعمر الخوفه من الشعب.

وهكذا أقصى عبد القادر باشا عن الميدان، وانتقلت قيادة القوات إلى سليمان باشا نيازي، بعد أن كانت هذه المسؤوليات من صميم اختصاص الحكمدار ، منذ امتداد الادارة المصرية إلى السودان حتى نهاية حكمدارية عبد القادر باشا، وعلى هذا تجزأت المسؤوليات ، وصار في السودان حاكم إداري وآخر عسكري ، فازدادت الثغرات التي أطلت منها رأس المنازعات والمشاحنات حول الاختصاص . وتمكن هكس من التدخل في كل صغيرة وكبيرة في تحركات القوات (٥٧). وبدأت بسيطرة هكس مرحلة خطيرة في تاريخ الادارة المصرية للسودان ، لأن هكس ومن معه من الضباط البريطانيين الذين جاؤا معه لمعاونته ، قد كونوا شبكة خاصة ، وعمل هكس وزملاؤه بشتى الوسائل على إبعاد المصريين عن العمل في دوائرهم ، حتى لا نتكشف خطتهم - واستعان هكس بمرجم من هيئة المخابرات البريطانية في الشرق الأوسط (٥٨).

النشاط البريطاني - صمد هكس

ويهمنا في هذا الموقف أن نتعرض للنشاط الذي قام به الانكليز وعملاؤهم بعد أن هياً له غوردون التربة الصالحة خلال حكمداريته ١٨٧٧/١٨٧٩ م ، فقد حدث

-
- (٥٥) يوميات الأميرالاي احمد حمدي رسول الخديو الخاص بتاريخ ٢٥ مارس سنة ١٨٨٣ .
(٥٦) المصدر آف الذكر بتاريخ ٥ ابريل سنة ١٨٨٣ دكتور صبرى - ص ٩٥
(٥٧) تلغراف ماليت في ٢٨ مايو سنة ١٨٨٥ م الى هكس - شبكه ص (٨٦) .
(٥٨) المترجم المشار اليه هو ادوارد بلدوين ليفانس * ولد في عام ١٨٤٣ ومات في سنة ١٨٨٣ م وموطنه شمال مقاطعة ريلز (بانجلترا) وذكر عنه ريتشارد هل في قاموس التراجم - ص ١٢١ انه قد اشتغل بالتجارة في مصر وجسده لبضعة سنونات قبيل التحاقه بالمخابرات البريطانية خلال الحملة الانجليزية على مصر في عام ١٨٨١ م وانه قد خدم مع هكس كرئيس لخبراته ومترجمه لاجادته اللغة العربية وقد ألحق هذا المترجم في الجيش المصري برتبة البورباشى . وكان الضابط الوحيد بين ضباط هكس من الانجليز الذى يستطيع التفاهم باللغة العربية في هجتها المحلية .

بعد احتلال إنجلترا لمصر في سبتمبر سنة ١٨٨٢م أن أرسل الكولونيل استيوارت في ديسمبر من ذلك العام إلى السودان ، لدراسة شؤون البلد في مختلف نواحيها ، وقد دون نتائج مهمته في تقريره المعروف (٥٩) ، والذي ضمنه توصياته ، بما يرى اتخاذه نحو إدارة السودان، وبما يجدر ذكره أن هذا الضابط كان ضمن قوات الحملة البريطانية التي نزلت مصر ، وقد قام استيوارت باتصالات واسعة في الخرطوم وفي غيرها من المدن ، تحت ستار جميع المعلومات لتقريره ، لاستفزاز الأهالي وتحريضهم على الانشقاق والعصيان في وجه مصر الحكومة الشرعية في البلاد . وبالرغم من أن الخديو توفيق كان يتوقع من استيوارت وهكس وزملائهم من البريطانيين القيام بنشاط لا يتمشى مع مصلحة مصر والسودان ، فإنه لم يكن قادراً على اتخاذ إجراءات مضادة للحد من ذلك النشاط ، نظراً لمركزه الدقيق فيما يختص بعرشه وولايته ، وبالإضافة إلى هذا فإن السيطرة البريطانية كانت قابضة على مرافق البلاد ، توجهها على النحو الذي تراه وقد اكتفى توفيق بأن طلب من الحكماء الجدد - ولا حول له ولا قوة بعد انتزاع اختصاصاته العسكرية - أن يراقب حركات استيوارت وهكس ومن يتعاون معهم ، وأن يحيط الخديو علماً بتلك الحركات أولاً بأول (٦٠) . وقد عاون هؤلاء رجال رسميون أمثال جيغلر وغيره من الأوروبيين ومن تعاون معهم من أصحاب المنفعة من الموظفين ، ومن غير الرسميين ببرزاسم الرحالة شوبر (٦١) ، الذي جاء إلى السودان في عام ١٨٨١م ، بعد أن أمضى فترة من الزمن في إنجلترا ، وبقي في السودان حتى عام ١٨٨٢م ، وقد طاف في منطقة النيل الأزرق ودار فنجج وبحر الغزال ، ومنطقة أم درمان والنيل الأبيض ، وهي المناطق الأقرب إلى البدائية الصالحة لغرس بذور الأفكار الجديدة ، التي من شأنها إثارة الفتن والتمرد على الحكومة القائمة ، ورسم شوير خرائط عديدة للأقاليم التي زارها . وذكر الشيخ

(٥٩) تقرير الكولونيل استيوارت - وثيقة برلمانية بريطانية مصر رقم ١١ سنة ١٨٨٣ م .

(٦٠) يوميات رسول الخديو .

(٦١) كتاب قاموس التراجم للسودان الإنجليزي المصري . مؤلفه رينشارد هل (بالإنجليزية) ص ٣٣٤ ويذكر هل أن هذا الرحالة هولندي الجنسية ، أيضاً كتاب السودان المصري والانكليز لكانب مجهول وهو مجموعة مقالات نشرت في جريدة الاهرام وطبع منها الجزء الأول في هذا الكتاب - وكانب المقالات هو المرحوم الشيخ محمود القباني (المتوفى في أم درمان في أول عام ١٩٥١ م) ص ١٨٤ .

محمود القباني في مقال له «... أصبحنا يوماً وإذا الشوارع مملوءة بأوراق كأوراق (الدعوة الى) الاعراس مكتوب عليها باللغات العربية والانكليزية والفرنسية ما يأتي « يا أهل السودان عموماً وأهل الخرطوم خصوصاً - قد استولت حكومتنا البريطانية على حكومتكم المصرية فاطلبوا الحرية » .

الامضاء

« رجال بريطانيا العظمى »

فارتاعت الحكومة لهذا الحادث وبثت العيون والجواسيس فأمسك خادم بربري وهو جرم منزله فوجد فيه نحو خمسة صناديق مشحونة من هذه الاوراق وعليها كلها ختم بواسطة لندرا ومصر والخرطوم وظهر بعد ذلك أنها وردت بطريق البريد وعليها عنوان سائح انكليزي اسمه مستر شوبر كان نازلاً في بستان خارج المدينة لأحد الوطنيين وكان منزل الخادم المشار إليه بجوار منزلنا .

ولدى استنطاقه أجاب بأن ٥٥ صندوقاً كملك الصناديق وردت في البريد باسم سيده فأرسل منها أربعين صندوقاً إلى جميع جهات السودان وسمى هذه الجهات والأشخاص الذين أرسلت معهم وإليهم . فاستدعت الحكومة السائح لاستجوابه فأنهها قنصل الانكليز فسكنت واستكانت (٦٢) .

ويضيف الشيخ محمود أن جماعة من السياح والبريطانيين كانوا يتصلون بالاهالي وبخاصة في الخرطوم ويتحدثون اليهم عن عطف بريطانيا على السودانيين وأن جلالة الملكة (فكتوريا) حزينة لما أصاب البلاد من البلاء ولذا سعت جلالته في فصل بلادكم عن حكومة الجناب الخديوي (٦٣) وهذا القول هو ما ذكره غوردون عند وصوله الخرطوم في ١٨٨٤ م . وأقام هؤلاء الدعاة شبكة واسعة في أطراف البلاد يعضدهم كثير من المأجورين وأخذوا يطوفون في أنحاء البلاد ، ويوزعون منشورات جاء في واحد منها « ان حكومة جلالة السلطان عبد الحميد لم تعد قادرة على القيام بنفقات حربها مع الروسية ، وقد باعت قسماً من أملاكها التابعة لمصر وهو السودان المصري لحكومة جلالة الملكة فكتوريا ، وتقاضت عن ذلك ٢٥٠ مليوناً من الجنينات وشروط البيع أن السودانيين ليسوا من أحرار المسلمين ، بل هم زنوج أرقاء

(٦٢) بنصه من المصدر نفسه ص ١٨٢/١٨٤ (السودان المصري والانجليز)

(٦٣) المصدر السابق ص ٢٨١ .

تأخذهم الحكومة الانكليزية وتبيعهم في أوروبا والهند وغيرهما من بلاد البيض ، حتى إذا أمسكتهم حكومة انكلترا جميعاً وأنفذت فيهم ما تشاء وخلت بقاعهم من بني جلدتهم أرجعت الارض إلى حكومة جلالة السلطان ، أما حكومة جلالة الملكة فتعرض على أن السودانين ليسوا بأحرار ولا مسلمين ولذا أرسلت مبعوثين من قبلها ليشاهدوا بأعينهم هل القوم حقيقة كما تقول حكومة الاستانة ، التي يعدونها قذوتهم دينياً وسياسياً أم الحقيقة أن ذلك ناشئ عن حيف الأتراك وبغضهم للجنس العربي الذي منه السودانيون والأمل وطيد أن لا يكون هذا القول صحيحاً ، وهو رأى حكومة انكلترا . . والواضح في هذا المنشور وما فيه من مغالطات يصور لنا أساليب الدعاية التي تعمل على بذور الفرقة والفتنة واثارة الخواطر وإظهار الدولة العثمانية وسلطانها خليفة المسلمين ، في صورة تحط من مركزها بين أهل السودان .

أخذ هكس في إعداد حملته استعداداً للزحف على كردفان ، واستطاع الخلاص من سليمان باشا نيازي ، الذي كان يعارضه في خطته ، وصار علاء الدين باشا القائد العام اسماً ، وانتهى الحل والعتد إلى يد هكس ، وبدأ في إرسال قواته إلى الدويم بعد اليوم الثاني من سبتمبر سنة ١٨٨٣م الذي انتهى فيه الاستعراض الكبير في أم درمان وسار الجيش من الدويم في جو من النفكك وعدم الانسجام^(٦٤) . وتضارب الآراء وانقسام القواد ، فكانت النسكبة في شيكان في الخامس من نوفمبر سنة ١٨٨٣ ، وقصة هذه الحملة مازالت في حاجة إلى التحقيق ، من حيث أسباب الهزيمة المنكرة ، التي ذهبت ضحيتها الحملة بأكملها ، ومن ضمن رجالها عدد كبير من الضباط المصريين والأجانب ومن بينهم علاء الدين وحسين مظهر . وقد أمدت هذه الكارثة الحركة المهديية بعتاد كبير وسلاح وفير ، الأمر الذي دخلت معه الحركة المهديية في مرحلة جديدة ، وبما يجدر ذكره أنه بينما كانت قوات المهديية تتجمع حول منطقة الأبيض كانت هنالك قوتان على الأقل ، على درجة مامن القوة ، لإحداها في دارفور التي على رأسها سلاتين والثانية في بحر الغزال يتولى إدارتها لبتون بك ، وكان في ظهير لبتون بك أمين باشا (جورج شنتر الالماني) مدير خط الاستواء ، وقد يكون لهذه القوات شأنها ، في تحسين الموقف وتخفيف حدته ، لو أن تسمية قد تم في صورة من الصور تتضافر فيه تلك القوات يرحفها من الغرب والجنوب نحو الأبيض لتعاونه على تخفيف الضغط الذي تلقتة الحملة التي قامت من الدويم . وقد كانت وسائل الاتصال مع دارفور

(٦٤) مذكرات عباس بك . نشرها القائمقام عبد الرحمن زكي في مجلة الجمعية التاريخية بمصر .

ممكنة عن طريق الصحراء من دنقله ، كما كان في الامكان الاتصال ببحر الغزال عن النيل . وكانت الحالة في هاتين المديريتين - حسبما ورد في تقارير - رسول الخديو ، على مايرام ، ولا يعلم السر في بقاء مديرهما في موقف المتفرج . وجدير بالعناية أن تحقق هذه القضية لأنها لاتعنى إلا أحد أمرين ، أما تفكك القيادة العامة وعدم التناسق في الخطط - وهذا أمر مسلم به ، أو تم ذلك عن عمد لحاجة في نفس يعقوب - وقد ذكر رسول الخديو أن أسرار الحملة وتحركاتها كانت تتسرب إلى رجل الشارع ، واتهم الرسول ماركو بولو بك بذلك^(٦٥) ، وذكر الرسول أيضاً أن وكيل قنصلاتو انجلترا في الخرطوم - جورجي اسطنبولية كان في الأبيض يعمل في معسكر الامام المهدي .

وقد سلم سلاتين مديريته للهدية في ديسمبر سنة ١٨٨٣م أى بعد شهر تقريباً من هزيمة شيكان ، وسلم لبتون بحر الغزال في ٢٨ أبريل سنة ١٨٨٤م وبقي أمين في خط الاستواء يصارع الفتن والقلاقل حتى خر صريعاً في شباك الاستعمار .

وقد زادت هذه الأحداث أهل السودان إيماناً بانهم قد صاروا أمام حرب شنها عليهم الفرنجة ، الذين احتلوا مصر .

وبعد هذه النهاية المحزنة لحملة هكس ، وما ترتب عليها من اخطار ، تذبذبه الضمير البريطاني ، كما هي عادته بعد أن يطمئن إلى مغنم كسبه ، في محاولة تبرئة ذمته من مسؤوليات هذه المغامرة ، وأرادوا القاء تبعثها على عاتق مصر وحدها ، وهي التي كانت مقيدة بتنفيذ توصيات السياسة البريطانية ، ولم تسكن مصر في مركز يسمح لها باختيار ما هو في مصالحها هي ، والحكومة البريطانية التي تقول بانها لم تسكن مسؤولة عن تعيين هكس في خدمة مصر ، هي أيضاً التي طلبت منه أن يحيطها علماً أولاً بأول عن تطورات الموقف في السودان ، وتكرر هذا الطلب من ماليت عن طريق الكولونيل استيوارت ، الذي كان يعمل كضابط اتصال مع هكس ، وهكذا حافظت انجلترا على القول بعدم مسؤوليتها وبأنها لا تهتم بشؤون السودان ، الذي يخص أمره مصر وحدها فقط ، جريا على سياستها التقليدية في اخفاء أهدافها .

(٦٥) يوميات احمد حمدي بك بتاريخ ٢٩ ابريل سنة ١٨٨٣ م .

أوضحنا فيما سبق ما تميزت به الفترة التي جاءت بعد الاحتلال البريطاني لمصر في عام ١٨٨٢م ، من أحداث متتابعة ، عجلت بمصير السودان ، فبينما كان هكس في طريقه من الدويم إلى الأبيض كان القنصل البريطاني العام الجديد في مصر — السير افلن بارنج قد بدأ محادثاته مع شريف باشا عن مسألة السودان ، واشتملت خطته ترك دارفور واقامة حكومة محلية ، ثانياً تعيين لجنة مكونة من ثلاثة أشخاص أحدهم أوروبي لادخال تعديلات على الادارة ، ثالثاً بناء خط حديدي — وفي نفس الوقت بدأت مناورة المفاوضات بشأن تخفيض عدد القوات البريطانية في مصر ، ولم تكن كل هذه المناورات أكثر من أسباب لكسب الوقت وتحويل التفكير إلى طريق آخر ، والدليل على ذلك أن كل هذه المناورات صارت أثراً بعد عين بعد السابع عشر من نوفمبر سنة ١٨٨٣م الوقت الذي بدأ فيه بارنج يشعر باحتمال هزيمة هكس الذي لم يسمع عنه شيئاً بعد ٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٣م .

وبعد أن تحققت هزيمة هكس كان لزاما التوصية باخلاء السودان حرصاً على أمن مصر وطاماً لينتها — على حد التعبير البريطاني — وكانت مصر حينذاك في حالة مالية لا تسمح لها بارسال حملة أخرى للسودان ولم يكن من المستطاع الحصول على قوة هندية أو انجليزية ، كما أنه لم يكن من مصلحة مصر ، في نظر الانجليز ، أن تطلب مساعدة عسكرية من الباب العالي ، إذن فلتتوقف المباحثات الخاصة بتخفيض الجنود البريطانيين المحتملين لمصر ، وعلى مصر أيضاً أن تقبل النصيحة بترك السودان إلى حدود معينة . حقاً أن السياسة المرتبة لها منطقتها الغريب .

وتحولت الاتجاهات إلى بناء سكة حديد من البحر الأحمر إلى بربر ، وأرسلت قوة من الجندرمة المصرية إلى سواكن لفتح الطريق إلى بربر .

وتقدم شريف باشا في ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣م بمذكرة إلى بارنج يعارض فيها ترك السودان بحجة أن الحديو لا يملك بمقتضى فرمان ٧ أغسطس سنة ١٨٧٩ حق التنازل عن أى جزء من أراضيه ، وذكر انه حتى ولو أن مصر كانت مطلقة اليد للتصرف في أمر السودان فان تركه سوف تكون له اسوأ العواقب ، وأوضح أن مصر في ذلك الوقت كانت مسيطرة على الموقف في جميع أنحاء السودان فيما عدا كردفان ، ولم يكن خبر استسلام سلالتين قد وصل بعد ، وأشاد شريف بما قامت

به مصر من امتداد للمدينة إلى السودان حتى منطقة البحيرات . وقال أنه مازال أمام مصر من الواجبات نحو السودان وتعميره وفتحته للتجارة والكشف العلمي ، وأضاف أنه لا ينكر أن مجودا قد قامت به مصر للحد من نشاط النخاسة — ولم تغن كل هذه الحقائق الدامغة لتتخلى بريطانيا عن موقفها بصدد تنفيذ نصيحته بالترك أو الاخلاء بالمعنى المقصود من الكلمتين استعملتا وهما (Abandonment) و (Evacuation) ولكل من هاتين الكلمتين تفسيرها الخاص . وهو مطاط يمكن تأويله إلى الغرض المقصود ولم يكن اختيار هذين اللفظين إلا لتفادى الكثير من المشاكل التي قد تثار وتواجه بريطانيا مسئولية ما وبخاصة أن وضع بريطانيا في مصر كان شائكا للعداء الذي كان قائما بينها وفرنسا وروسيا ، وكان من نتيجة اصرار بريطانيا استقالة شريف باشا ، في وثيقة سجل فيها موقفه ، وجاء بعده نوبار باشا ، الذي قبل تنفيذ النصيحة ، وقد عرض ايفاد عبد القادر باشا حلي إلى السودان ، ليشرف على سحب الحاميات المصرية ، وقال نوبار في هذا الصدد أن القيادة العليا لن يسلم زمامها إلى يد أفضل من يد عبد القادر باشا حلي . الذي يعرف عن السودان مالا يعرفه غيره ، فضلا عن أنه ضابط شجاع وكفء ، واستطاعت الحكومة البريطانية أن تتخلص مرة أخرى من عبد القادر باشا بأن طلبت من الحكومة المصرية كشرط أسامي أن تصدر أولا بيانا تعلن فيه عزمها على الترك (٦٦) . وبما لاشك فيه أن اصدار مثل ذلك البيان سوف يقيم الصعاب في تنفيذ هذه الخطة ، كما أنه يعرض القوات المنسحبة إلى أخطار جسيمة ، ويعرض المدنيين إلى النهب والسلب والفوضى . ولهذا رفض عبد القادر باشا هذه المهمة .

وقد حدث في الوقت الذي كانت تتبادل فيه المذكرات مع مصر ، ان طلبت الوزارة البريطانية من غوردون العودة من بروكسل ، للقيام ببعض المحادثات ، وكان غوردون قد ارتبط مع الملك ليوبولد الثاني للعمل في الكونغو الحرة التي يتولى سيادتها ذلك الملك .

وكتب غوردون بعد مقابلته للوزراء خطابا إلى بارنس (Barnes) جاء فيه «تقابلت مع ولسلي، الذي دخل على الوزراء وتحادث معهم، ثم عاد إلى وقال «ان حكومة جلالة الملكة تريد أن يكون واضحا لك انها تحتم اخلاء السودان، لأنها لا تضمن قيام حكومة المستقبل، فهل لك أن تذهب للقيام بهذه المهمة؟ فأجبت . نعم . فقال لي أدخل معي لمقابلة الوزراء، الذين سألوني «هل أوضح لك ولسلي رأينا، فقلت نعم، انه قال لي انكم سوف لا تضمنون حكومة المستقبل، وانكم تطلبون السفر لاجراء عملية الاخلاء، فأمنوا على هذا القول وانتهى الحديث» (٦٧) وكانت الملكة فيكتوريا مهتمة كل الاهتمام بمسألة السودان وقد ذكرت في خطاب لها إلى السير افلن وود أن ارسال غوردون كان يجب ارساله قبل الآن بكثير .

وقد سبق للورد ولسلي أن أوضح لغوردون أن الحكومة البريطانية لا تمنع في خدمته في الكونغو الحرة حسب اتفاقه مع الملك ليوبولد الثاني، الا ان لأمته عليه حقا أن يؤديه أولا قبل الذهاب إلى الكونغو — وهو السفر إلى السودان، وبعد انتهاء مأموريته عليه أن يذهب إلى الكونغو الحرة .

وحاول غوردون الاستعانة بالزبير باشا، إلا أن هذا الطلب قد رفضته الحكومة البريطانية، لأكثر من سبب، منها خشيتها أن يفتقم الزبير من غوردون لدم ابنه سليمان وبخاصة بعد أن صرح الزبير في مقابلة له مع غوردون في القاهرة بحضور السير بارنج أنه يعتبر غوردون مسئولاً عن دم ابنه وان ثأر الدم ما زال قائما بينهما وسوف يكون انتقام الزبير من غوردون مضيعة للخطة البريطانية . ويؤيد هذا ماجاء في مذكرات المساجور جنرال الاونورايل منتيج ستورت ورتلي أن الزبير باشا قابل غوردون في القاهرة في يناير سنة ١٨٨٤ في منزل القنصل البريطاني العام بحضور السير بارنج والسير افلن وود وجيرالد بورتال وصاحب المذكرات، وقال لغوردون أن ابني قد قتل رمياً بالرصاص بأمر محكمة عسكرية مستندة في حكمها إلى خطاب كتب مني (الزبير باشا) للحض على الثورة، وطالب غوردون بان يقدم هذه الوثيقة . وفعلا أرسل كاتب المذكرات إلى وزارة الحربية المصرية لاحضار

(٦٧) نفس المصدر ٣٤٥

(٦٨) التي ٣٤٤

اجراءات المحكمة العسكرية وعند عرضها وجدت بأختامها منذ ١٨٧٩م — أى أنها لم تفض أختامها لحوالى خمسة سنوات وبالبحث لم يعثر على الوثيقة التى أشار إليها ، وقال غوردون أن الامر كان مأساة وأن العدل انحرف عن مجراه . وانى سوف أعمل مايمكن للترضية ، ويبدو أن الحياح غوردون لذهاب الزبير إلى السودان كان لهذا الغرض — (المذكرات المشار إليها قد نشرت فى مجلة السودان فى رسائل ومدونات الجزء الرابع والثلاثين ص ٣٩/٤٠) .

جاء غوردون إلى مصر فى يناير سنة ١٨٨٤م ، بعد أن كانت نيته السفر مباشرة إلى سواكن عن طريق البحر الأحمر ، وسافر إلى السودان فى نفس الشهر ، ولا ندى أنه كان قد ارتبط بخدمة ليوبولد فى الكونغو الحرة ، وندبته دولته لتنفيذ سياسة الترك فى سرعة ، والتى قدر لها غوردون شهرين تقريباً يذهب بعدها إلى الكونغو الحرة ، كما ذكر فى خطابه لآخته ، وكانت خطط غوردون لتنفيذ السياسة التى رسمتها له حكومته متضاربة فى كيفية القيام بهذه المهمة ، مهمة الترك ، وتكوين مشيخات وسلطنات صغيرة ، يربط بينها حلقات فى صورة ما (٦٩) - ولا نعتقد أن مثل هذه المشيخات والسلطنات يترك أمرها لها فيما بينها دون أن تدخل فى تحالف معه باسم الحكومة البريطانية ، تدخل فيه هذه المجموعات فى حماية تلك الدولة ويسيطر عليها غوردون بعد انتقاله إلى بحر الغزال ، إلا أن موته فى الخرطوم قد قلب خطته رأساً على عقب وعطلها بعض الوقت .

استهتر غوردون بالقوة التى وصل إليها الامام المهدي أو تجاهلها ، وقد كتب ، وهو فى طريقه ، فى كرسكو بتاريخ ٣١ يناير سنة ١٨٨٤م ، وأن الاشياء قد زادت المبالغة ، وانى لا أخاف من تقدم المهدي ، فإنتى بعون الله سوف أصل معه إلى حل ، فالمهدى هو ابن أخت الخبير الذى خدم معى سابقاً .

وأعلن غوردون فى بربر ردا على الأسئلة التى وجهت إليه من أعيان المدينة بشأن معاهدة الرقيق لسنة ١٨٧٧م ، ومدى سرىان نصوصها على السودان فى وضعه الجديد ، قال أنها لا تسرى على السودان ، بسبب أن السودان قد صار منفصلاً عن مصر ، وأصدر بياناً رسمياً فى هذا الشأن ، وطلب غوردون من الامام المهدي أن يكون سلطاناً على كردفان ، كما كان راغباً فى اقامة سلاطين آخرين هنا وهناك فى

مناطق السودان القبلية ، وينسحب بعدها إلى حوض بحر الغزال ، وتتحول تجارة السودان إلى أوغندا ومنها إلى ساحل المحيط الهندي وتنقطع عروبه .

وكانت التعليمات التي أعطيت مكتوبة إلى غوردون قبل مبارحته ل لندن كالآتي :
« ترغب حكومة جلالة الملكة أن تذهبوا حالا إلى سواكن (٧٠) ، لكتابة تقرير للحكومة البريطانية عن الحالة العسكرية في السودان ، وعن الوسائل التي يستحسن اتخاذها لسلامة الحاميات المصرية ، التي تحتل مراكزها في تلك البلاد ، كذا لسلامة الرعايا الأوربيين الموجودين في الخرطوم .

« وعليك أيضاً أن تبحث وتقدم تقريراً عن الطريقة الممكنة للاخلاء من داخلية البلاد ، أيضاً عن الوسائل التي يمكن اتباعها لسلامة موانئ البحر الأحمر ، وإدارتها بواسطة مصر لإدارة حسنة .

« وفي صدد هذا الموضوع ، عليك أن تهتم اهتماماً خاصاً عن أنجع الوسائل لمنع التحريض الذي يخشى منه من جانب تجار النخاسة ، بسبب حركة التمرد (المهديّة) وسحب السلطنة المصرية من البلاد .

« وسوف تكون خاضعاً لتعليمات معتمد جلالة الملكة وقنصلها العام في مصر ، الذي عن طريقه ترسل تقاريرك لحكومة جلالة الملكة محتومة بالشمع الأحمر .

« وعليك أن تعلم أنه قد خول لك — وتكلف بالقيام بآية مأموريات أخرى ، كما ترى الحكومة المصرية ، والتي يجب أن ترسل إليك عن طريق السير افلن بارنج ، وسوف يسافر في رفقتك الكولونيل استيوارت ، الذي سوف يساعدك على إنجاز المهام التي توكل إليك .

« وبعد وصولك إلى مصر ، عليك أن تتصل بالسير افلن بارنج ، الذي سوف يحدد موعداً لمقابلتك ، لبحث معك مسألة سفرك إلى سواكن مباشرة ، أو أنك تذهب بنفسك أو يذهب معك الكولونيل استيوارت إلى الخرطوم عن طريق النيل .
وبما لاشك فيه أن هذه التعليمات التي كتبها أصلاً للورد جرانفيل (٧١) قد صيغت

(٧٠) تعدلت لفظة سواكن لقرأ مصر وذلك في الكتاب الأزرق — ورنام ص ٢٧٨
(٧١) ذكر النن ص ٣٤٠ — ان اللورد مورلي قد ذكر خطأ في كتابه عن ترجمة حياته غلادستون ان هذه التعليمات قد وضعت صيغتها غوردون . والأصل مازال محفوظاً بخط جرافيل .

في حذق ومهارة ، وذلك لابعاد المسؤولية فيما يختص بالاخلاء أو الترك ، عن عاتق الحكومة البريطانية ، وقد قال غلادستون رئيس الوزراء انه أى الحكومة البريطانية لا تلتزم بأية مسؤولية ، وكان أن أعدت الحكومة المصرية الفرمان الخاص بمأمورية غوردون ، كطلب المعتمد البريطاني ، الذى كان صاحب الأمر والنهى الفعلى فى مصر ، وان رفض تنفيذ ما يشير به من نصيحة — كما تواضع فى تسميتها — معناه ترك كرسي الحكم .

وفى الوقت الذى كان فيه غوردون يقطع صحراء العطور ، بين كرسكو وأبوحمدر فى طريقه إلى الخرطوم التى وصلها فى صبيحة يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م كانت قوات فالنتين بيكر باشا ، وقوامها من الجندرمة المصرية ، قد أصيبت بهزيمة منكرة فى موقعة التيب فى شرق السودان . وبما لا شك فيه ان هذه الهزيمة قد كان لها أثرها المباشر على مركز غوردون ومأموريته إلى السودان . كما أنها أذكت الشعور المحلى العام ، ولا يخفى ان الشعور العام فى البلد قد تزايدت كراهيته لحكامه من الأجانب ، بسبب ما أصابهم على يد هؤلاء من عسف وظلم منذ ولايتهم للنصاب الرئيسية فى حكمدارية غوردون ١٨٧٧ / ١٨٧٩ . وقد وجد الأهالى فى الهزائم المتتابة التى منيت بها قوات الحكومة فرصة ذهبية للخلاص من نيرها بعد أن ضاعت هيبتها وقوتها وصارت من الضعف بمكان ، وكان طبيعياً والحالة هذه أن يتعاون السكان مع الامام المهدي فى حركته ، التى كانت قد وصلت إلى مرحلة المقاومة بالسلاح ، وذلك بعد سقوط الأبيض .

ونجد فيما ذكره جراهام (Graham) الذى رافق غوردون فى رحلته الأخيرة حتى كرسكو ، ان غوردون كان يتصرف تصرفات متناقضة ، الأمر الذى جعل جراهام يتخيل انه فى حجة رجل قد حكم عليه بالموت ، فهو تارة يتحدث عن الاماكن المقدسة ، وأخرى عن جوز الهند ، ثم ينتقل الى مشروعاته المستقبلية فى السودان ، وبخاصة عن خطته لتسليم مديرتى خط الاستواء وبحر الغزال إلى الملك ليوبولد الثانى ، وعن ذهابه إلى تلك المنطقة لادارتها باسم ملك الكونغو الحرة ليوبولد (٧٢) ولم يكن مستغرباً وحالته هذه التى وصفها جراهام ، أن يتحدث إلى أعيان مدينة بربر عن مأموريته ، وانفصال السودان عن مصر ، ورأيه فى الرقيق ، وتعطيل الاتفاقية

التي أبرمت في عام ١٨٧٧ م بالنسبة للسودان، فهو بهذا التصرف الذي تنقصه الكياسة قد شجع عناصر الفوضى، وزاد العراقيين في طريقه، على عكس ما كان ينتظر من مؤازرة الأهالي له وتبين لنا هذه التصرفات مدى الخطأ الذي ارتكبه غوردون ودفع ثمنه غالباً، غوردون كان يؤمن من قرارة نفسه بضرورة انتهاء زعامة مصر للسودان كما ذكر اضيفه لورنس اليفانت (Lawrance Oliphant) (٧٣) الذي زاره في منزله في سفح جبل الكرمل.

أمر غوردون بعد وصوله إلى الخرطوم بهدم الحصون، التي عززها عبد القادر باشا حلى حول الخرطوم، كما أمر بحرق السجلات الحكومية، وحمل غوردون معه إلى الخرطوم من الريالات القشلى ما بلغت قيمته المائتي ألف جنيهه، وقد ضربت هذه الريالات خصيصاً في تريستا (إيطاليا) (٧٤) وهي تحمل صورة (ماريا تريزا) وهي من العملات المتداولة في السودان وأثيوبيا منذ زمن بعيد. ويبدو ان هذه العملة كان مقدراً لها أن تحل محل العملة المصرية المتداولة قانوناً في السودان.

وقد أثارت تصرفات غوردون بشأن الرقيق موجة من الدهشة في الصحف البريطانية التي أرسلت عدداً من البرقيات إلى غوردون تستفسر منه عن حقيقة موقفه وقد أجاب غوردون في برقيته بتاريخ ٢١ فبراير سنة ١٨٨٤ م انه سوف لا يقوم بتنفيذ المعاهدة في عام ١٨٨٩ م وانه إذا نظر إلى ما قرره حكومة جلالة الملكة بشأن مصير السودان (الاخلاء والفصل عن مصر) فان المعاهدة لا تحتاج إلى إيضاح وأضاف بقوله « ان المسألة هي أحد أمرين، الرقيق الموجود في حيازة أصحابه أو اصطياده من مواطنه وفي رأيي ان معاهدة ١٨٧٧ م سوف لا تنفذ في القاهرة فيما يختص بالرقيق الموجود تحت يد أصحابه » وعلق السير هنرى غوردون على ذلك في ٢٣ فبراير سنة ١٨٨٤ كالآتي، ان المعاهدة تشير إلى الاحتفاظ بالرقيق الموجود ولا تشمل إضافة رقيق جديد، وقد اعتبر الرقيق في بريطانيا في عام ١٨٠٧ م كعمل من أعمال القرصنة، إلا ان الرقيق لم يسترد حريته إلا في عام ١٨٣٩ م بعد أن دفعت الحكومة البريطانية تعويضاً لأصحابه بلغ حوالى العشرين مليوناً من الجنيهات اعتبرت مصر في ١٨٧٧ م إدخال الرقيق جريمة عقابها الموت وان بيع الرقيق جريمة

(٧٣) بيتي ٢٢٠ - الن ص ٣٧.

(٧٤) مذكرات الماجور جنرال منتيج ستوارت ورتلى - في مجلة السودان رسائل ومدونات

عقابها الموت وان بيع الرقيق من شخص إلى آخر ينتهي في مصر في ١٢ أغسطس من سنة ١٨٨٤ وفي السودان في عام ١٨٨٩ م ومن هذا يتبين ان الرقيق سوف يبقى على هذا الحال على أن لا يباع بل يجب أن يستمر في خدمة أصحابه . فالرقيق « مال » وإذا حرر الرقيق دون أن يدفع عنه تعويض لأصحابه ، وقد دفعت إنجلترا تعويضاً لرعاياها ، فان ذلك يكون نوعاً من النهب والسلب . لهذا فانه طبقاً للقوانين القائمة يحق لأصحاب الرقيق في السودان أن يتعاملوا فيما يملكون منه حتى عام ١٨٨٩ وهذا ما قاله غوردون لأهل السودان عندما أعلن انه لم يأت إلى السودان لنقض القانون ومصادرة أملاكهم (٧٥).

فصل سياسة الامراء

وحاول أن يعالج الموقف ليخرج من ورطته ، ولم يرض عليه في الخرطوم إلا أيام قليلة ، وذلك بأن طلب من بارنج السماح للزبير بالسفر إلى السودان ليخلفه في منصبه ، ويذهب هو إلى الكونغو ، وأرسل بارنج إلى جرانفيل بتاريخ ٢٨ فبراير سنة ١٨٨٤ م للموافقة على عودة الزبير، على أن يمنح نيشان القديسين ميخائيل وجورج الذي يخول حامله لقب سفير وعضو في الامبراطورية البريطانية من درجة فارس ، وأن يعطى له مبلغ من المال ليستعين به في تدبير شئون ولايته الجديدة المستقلة عن مصر ، كما يمنح إعانة سنوية مقدارها خمسون ألفاً من الجنيهات ، وأن يستمر دفع هذه الاعانة لمدة خمسة سنوات على أن يتوقف صرف هذه الاعانة السنوية على مدى سلوكه في إدارته الجديدة ولم توافق الحكومة البريطانية على هذا الطلب، لالآن الزبير كان تاجراً للرقيق، الأمر الذي سوف تثيره المعارضة البرلمانية الانجليزية وجماعات منع الرقيق ، ولكن لحشيتها من صلابه عوده وعدم انقياده لتنفيذ السياسة البريطانية ، التي كانت تهدف من ولايته إقامة سرواك أخرى في السودان ، تنتقل تدريجياً إلى أملاك التاج البريطاني فالزبير قد لاقى منذ حضوره إلى مصر مختلف وسائل الاضطهاد والنفي، وما كان ذلك إلا لصهره في قالب جديد لخدمتها ، غير أنه لم يتأثر بكل ذلك ، واحتفظ باستمساكه بمبادئه وتقاليده ، فحق لو ادى النيل أن يفخر ببطولته .

(٧٥) كتاب المهدي في السودان لمؤلفه رجينالد ونجت باشا ص ٥٥٥/٥٥٤ بالانكليزية .

وكان طبيعياً والامور تسير على هذا النحو أن يشتد الحصار على الخرطوم . الذى بدأ فى الثالث عشر من مارس سنة ١٨٨٤م، وأن تتعطل المواصلات وتسقط المدن الواحدة تلو الأخرى ، وأن يبدأ الامام المهدي فى الزحف صوب الخرطوم ، بعد أن بسط سيطرته على كردفان ودارفور وبحر الغزال ، فأمن بذلك ظهره وجناحه الأيسر ، وفى الأسبوع الأخير من يونيه أرسل الدراويش جيوسبي كوتسى الايطالى ، الذى وقع فى الأسر بعد سقوط بربر ، يحمل رسالة إلى غوردون للتسليم ، التى رفضها ، وكان غوردون ينتظر وصول الحملة البريطانية لانقاذ الخرطوم ، وبعد أن ساءت الأحوال وطال الانتظار بارحت الحملة مصر فى طريقها إلى الخرطوم ، وفى خلال تلك الفترة أرسل الدراويش جيوسبي كوتسى مرة أخرى إلى غوردون للتسليم فرفض الطلب ، كما طلب الامام المهدي من سلاتين^(٧٦) الذى كان أسيراً أيضاً فى معسكر الدراويش ليكتب إلى غوردون للتسليم حقناً للدماء وحفظاً على حياته ، غير أنه لم يرد على هذه الرسالة واكتفى بأن أوضح فى يومياته بتاريخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٨٤م « ليس لدى ما أكتبه من ملاحظات على رسالة سلاتين ، ولا أعلم ماهى الدوافع وراء هذه الخطوة منه بالكتابة إلى ، وعلى أى حال إذا كان (سلاتين) سيخرج من أسره ، فانتى سوف آخذه معى إلى الكونغو ، لكنه يحتاج إلى بعض التطهير^(٧٧) ، والتطهير المشار اليه فى رأينا من ناحية اعتناق سلاتين للإسلام . وقد أبدى غوردون فى أكثر من موضع اعتبار من ترك مسيحيته وصار مسلماً كمنبوذ لا يجوز التعامل معه وغوردون كما هو معروف ، يمثل طبقة مسيحية أرسطقراطية ، التى تميز بها عصر الماسكة فكتوريا .

افئاف صمء انقاء غوردون

وقد أرسل قائد الحملة اللورد ولسلى كتاباً إلى غوردون تاريخه ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨٤م جاء فيه « . . . وأفضل أن تنتهى المسألة سليماً ، وذلك بمساحة محمد احمد فيما مضى وجعله سلطاناً مستقلاً على كردفان ، ويكون الملك له ولأولاده من بعده ، وتأسيس

(٧٦) سلاتين ص ٣١٩ وما بعدها - كان جيوسبي كوتسى المشار اليه وكيل غوردون الشخصى فى بربر كما كان قنصل إنجلترا فى تلك المدينة وقد تسمى بعد اسلامه محمد يوسف وهو إيطالى ولد ١٨٤٣ وتوفى ١٩٢٣ - راجع ترجمته فى هل ص ١٠٧
(٧٧) ورنام ص ٣١١

حكومة وطنية في الخرطوم يكون الحاكم فيها مستقلاً عن مصر، وحكمه وراثي، فيملك دنقله وبربر والخرطوم وتعود أنت إلى انكلترا (٧٨) ، وقد أسقط ولسلي درافور وسنار وبحر الغزل ، وخط الاستواء وشرق السودان . وقد يكون الاهمال معتقراً لولا أن اللورد ولسلي كان مطلعاً على دخائل السياسة العليا البريطانية وخطتها نحو السودان ، إن لم يكن أحد صانعيها، وقد قام بدور هام عندما طلب إلى غوردون السفر إلى السودان ، كما أوضحنا من قبل .

قامت الحملة من كورتى في الثلاثين من ديسمبر سنة ١٨٨٤م في فرقتين لإحداهما بقيادة السير هربرت استيوارت عبر صحراء البيوصة ، والثانية بقيادة الجنرال أرل عن طريق النيل إلى أبو حمد وبربر ، والغرض من الحملة الثانية حماية جناح الحملة الأولى واسترداد بربر لتأمين المواصلات .

وبعد أن وصلت الحملة الأولى إلى آبار الجسكدول في الثاني من يناير سنة ١٨٨٥م ترك قوة صغيرة مكونة من ٢٢٢ صف وعساكر ، وعاد إلى كورتى في نفس اليوم ووصلها في ظهر اليوم الخامس من يناير ، وبارحها ثانية في اليوم الثامن من يناير ووصل الجسكدول بكامل قوته في صباح اليوم الثاني عشر وفي اليوم السابع عشر اشتبك مع الدراويش في معركة أبو طليح « شمالي المتمة وبالرغم من أن هذه الحملة قد حازت نصراً على الدراويش فإن القوة البريطانية قد لاقت مصاعب كثيرة كادت أن تودي بجميع الحملة ، وذلك أن بعض الأسلحة والمدافع قد أصابها العطل أثناء القتال إلى الحد الذي تمكنت معه قوات الدراويش الكثيرة العدد من الوصول إلى قلب الحملة ، ولو لم تتدارك الموقف سرية نزلت إلى الميدان في الوقت المناسب لكانت النتيجة فناء الحملة تماماً كما حدث في شرق السودان . ولا يخفى أن هذه الحملة البريطانية كانت أول تجربة في حرب صحراوية ، بعيدة عن البحر بأكثر من ألف ميل وفي ظروف قاسية . ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الحملة قد أضاعت حوالي العشرة أيام بين الذهاب والإياب .

ولأسباب لم تعرف بعد على وجه التحديد ، ويعتقد أنها بسبب مقاومة فرنسا لانجلترا في الميدان الدولي ، أن أرسل الخديو توفيق تلغرافاً إلى غوردون في نوفمبر سنة ١٨٨٤م جاء فيه « نحيطك علماً بأنه قد حدثت تطورات كبيرة منذ أن أوصت الحكومة البريطانية باخلاء السودان وانقطاع المواصلات معكم وأيضاً

(٧٨) نعوم شقير جزء ٣ ص ٢٧٤ .

صار من الضروري إدخال تعديلات على فرمان الذى أصدر إليكم ، ولهذا تبقى سلطاتكم كدير للسودان الذى يشتمل على الخرطوم وسنار وبربر فى حدودها الحالية (٧٩) .

وذكر نصحي باشا فى « جرنال الحوادث » الذى سجل فيه يومياته خلال الفترة التى أمضاها فى منطقة شندي لمقابلة القوات البريطانية ، وذلك عن حوادث يوم الأحد ٢٤ ربيع أول (١١ يناير سنة ١٨٨٥ م) ما يأتى :

وفيوم (فى يوم) الأحد الموافق ٢٤ منه فى الساعة ستة و ١٥ دقيقة ورد لنا جواب من الفقيه مصطفى أمير شنبات الغرب المجاورة للخرطوم المحضر يومين تاريخه بالبر الغربى مقابلاً لجزيرة نمرى الموجودين نحن بها مع ادمية (امرأة من الرقيق) وهذه صورته .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الولي الكبير والصلاة على سيدنا محمد وعلى آله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه احمد المصطفى ابن الفقيه الأمين إلى سعادة لوا قومندان وابورات السفرية محمد نصحي باشا أما بعد لا يخفاكم لإبلاغ السلام منا وإلينا ولكن نعلمكم أنه لسكل أجل كتاب ولسكل مملكة حد وزوال ودولة التورك (الترك) هذه كانوا أخذوها من ناس غيرهم ومثبوت أن ملكهم يزولوا (يزيله) المهدي عليه السلام فن حاربه هلك ومن تبعه سلم ومن الجملة أن الانجليز أخذوا الملك من الخديوى وسيروه جسم بلا روح واستلموا مصر ونحن وأنتم اخوان فى الدين ولا يجوز لكم أن تعصبوا الكفر على المسلمين ولا طاقة لكم بذلك إلا أن تملكوا أنفسكم على غير دين الله فطالع جواب خشم الموس بيك تجد حقيقة ما هو كائن فى الخرطوم فاقنع .

ولا سبيل إلى وصول الانجليز إليكم فان سلمتم فلنسلم مالنا وعليكم ما علينا ورحاكم (أرحامكم) وجناكم (أولادكم) وما لكم محرمة علينا فان سلمت فأنتم وأولادكم ومالك فى ذمتى أن ضاعت لكم ابرة تدفع لكم من بيت المال وعليك وعلى كافة الضباط الذين معك امان الله ورسوله ومهديه وان تعدى عليكم أحداً

(٧٩) ونجت مقال حصار الخرطوم وسقوطها بمجلة السودان فى رسائل ومدونات مجلد ١٣

(أحد) فيصير ما يصير عليه كالمناشير الصادرة من الامام وان صمتم فسوف ترون ما يحل بكم فشانكم ولكن كررت لكم يا أيها الباشا أنت ومن معك وأموالك وأولادك في ذمتي فان كنت لم تعرفني فسأل اخوانك الذين معك يفهموك وفاء معهم وانى رجل أشفق على العبد الغريب كالفريب والناس كلهم اخوانى فى الدين ولا عدم (عدو) لى إلا الكافر فاحضر مسلماً مرحباً بمن معك ولا بأس عليك ولا ضرر إلا هذا الحرب والسلام (٨٠) .

حاشية

ثم ويا حضرة الباشا ان هذا الجواب ورد علينا امبارح فى اثنى (أثناء) العشا من البقعة الشريفة والاخوان عرفونا ان الغوردون يوم الخميس الماضى أول أمس (٨٠) أرسل جواب إلى سيد الجميع الامام عليه السلام ، يقول له يا سيدى أعطيك عشرين ألف جنيه ودعنى أتوجه بلدى ، واترك لك الخرطوم ، فخر له الإمام عليه السلام على ذات الجواب يقول « احضر بمالك واحقن دماء المسلمين ، ولا حاجة لنا بجنيهاك (٨١) . وقد جاء هذا القول الخاص برغبة غوردون ترك الخرطوم وتسليمها للإمام المهدي نظير عشرين ألف من الجنيهات يفدى بها نفسه ليخرج من البلد ، قد جاء من جانب واحد ، وليس لدينا ما يؤيده أو ينفيه ، والمعروف أن حصار الخرطوم كان قد دخل فى مرحلته النهائية بالعزلة التامة وقلة المواد الغذائية .

واننا لانعلم الدوافع التى جعلت الإمام المهدي يرفض استلام الخرطوم دون حرب عندما عرض عليه غوردون ذلك فى خطابه المشار إليه آنفاً ، فى الوقت الذى وصلت إليه أخبار الحملة الانجليزية من دنقله واشتباكها مع الدراويش فى موقعة « أبو طليح » . وكان لانتصار هذه القوة على جموع الدراويش السكثيرة العدد أثرها فى معسكر الإمام المهدي ، الذى عقد مجلساً من الامراء ليتخذ قراره فى البقاء على حصار الخرطوم أو الهجرة إلى كردفان . وقد طلب أحد الامراء ضرورة الاسراع فى احتلال الخرطوم حتى تضيق الفرصة على حملة الانقاذ ، وكان الهجوم على المدينة

(٨٠) يوم الخميس المشار اليه يوافق الثامن من يناير سنة ١٨٨٥ م .

(٨١) جورنال الحوادث الذى كتبه نصحي باشا . صورة شمسية مودعة بمكتبه معهد الدراسات السودانية - كلية الآداب جامعة القاهرة . جاء فى مقال ونجت عن حصار وسقوط الخرطوم مجلة السودان فى رسائل ومدونات جزء ١٣ ص ٨٠ ما يفيد ان الباخرة اسماعيلية كانت معدة على تمام الاستعداد منذ الفجر (من يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ م) لركوب غوردون وهربه .

وسقوطها ومقتل غوردون وعشرات الآلاف من أهلها، وذلك في صبيحة اليوم السادس والعشرين من يناير سنة ١٨٨٥ م. وضاعت الفرصة على حملة الانقاذ التي عادت أدراجها وبقيت بعض الوقت في دنقلة، حيث اتخذتها مركزاً لها.

وقد تأثر موقف الحملة بالأحداث السياسية الدولية بسبب نشاط فرنسا وروسيا المعادى لسياسة إنجلترا، وقد كان مقدراً أن تقام حكومة في تلك المنطقة يتولى إدارتها ضباط من الانجليز، كما أن اللورد ولسلي قائد الحملة قد أرسل تلغرافاً إلى الوزارة البريطانية بتاريخ ١١ مارس سنة ١٨٨٥ جاء فيه: «... أحيطوا اللورد جرانفيل علماً باننى لأستطيع الانتظار وقتاً أطول، وأرى من واجبي أن أصدر اعلاناً بوصفى حاكم السودان العام، وفي حالة عدم وصول الرد على هذا الاخطار حتى اليوم الرابع عشر من مارس، سوف أصدر هذا الاعلان في حدود ساطاقى^(٨٢). ومن الطبيعي أن يكون اعلانه بتنصيب نفسه مقاليد الحاكم العام للسودان باسم حكومته إنجلترا، لا باسم مصر، وذلك لأن إنجلترا وهى الدولة التى تحتل مصر حينذاك وتهيمن على شئوننا قد عطلت سفر الامير حسن^(٨٣) أخ توفيق إلى دنقلة، ليتفقد الحاملة ولدعيم ساطة الادارة المصرية. ويبدو من صيغة تلغراف ولسلي انه مزودا بالتعليمات اللازمة لمواجهة مختلف التطورات السياسية، وهى فى مجموعها تهدف نحو فصل السودان وعزله عن شمال الوادى وربطه بطريقة أو أخرى مع المناطق الواقعة تحت النفوذ البريطانى فى خط الاستواء، غير أن المشاكل الدولية واشتداد الصراع بين المعسكرين المتنافسين إنجلترا وفرنسا قد حال دون تنفيذ تلك السياسة وجعل بريطانيا تلمس طرق ووسائل أخرى فى هذا السبيل. فنجدها فى عام ١٨٨٥ م تثير مسألة الجلاء عن مصر بعد الانتهاء من مؤتمر برلين ١٨٨٤ - ١٨٨٥ م ويذهب درمند ولف للمفاوضة مع الباب العالى، ويسافر المندوب البريطانى بصحبة المندوب العثمانى مختار باشا إلى مصر، وكل هذا كسباً للوقت ومراقبة التطورات الدولية وبخاصة بعد سقوط الخرطوم وانسحاب القوات إلى وادى حلفا، وقد ترك

(٨٢) جوين جزء ثاى ص ١١٤

(٨٣) مذكرات الماجور جنرال منتيج استوارت ورتلى - مجلة السودان فى رسائل ومدونات

بند ٣٤ ص ١٧٢ .

انسحاب القوات من دنقلة إلى وادى حلفا المنطقة بين الشلال الثالث وادى حلفا ،
التي كانت جزءاً من النوبة منذ قرون عديدة قبل قيام الكشاف العثمانيين بحكمها في
أعقاب فتح السلطان سليم لمصر .

وفي الوقت الذي كان فيه درمند ولف يتأهب للسفر من إنجلترا إلى الآستانة
طلب من ولفرد سكاون بلنت أن يجمعه مع السيد جمال الدين الأفغاني ، وكان
اهتمام ولف في حديثه مع السيد مركزاً في استطلاع رأيه فيما إذا كان من المستطاع
الحصول على اعتراف الدراويش بخلافة السلطان العثماني كما أنه أوضح للسيد اهتمام
بريطانيا بمسألة احلال السلام مع السودانين وقيام حكومة مستقلة في دنقلة تدخل في
اتفاق مع الباب العالي (٨٤) ، وربما كان هذا المنصب ، منصب سلطان دنقلة ، هو
الذي أرادت الوزارة البريطانية اسناده إلى السيد جمال الدين الأفغاني ، الذي رفض
العرض بسبب أن بريطانيا لا تملك حق التصرف في أرض ليست من أملاكها .

وفي أغسطس من تلك السنة كانت بريطانيا تتفاوض عن طريق وكلائها غير
الرسميين ومنهم ولفرد سكاون بلنت للوصول مع الدراويش في مفاوضات على
أساس نقاط ثمان ، وكان طبيعياً أن تنتهي المفاوضات بالاعتراف بالدولة الجديدة
بعد قيامها على الصورة الشكائية التي أرادتها بريطانيا . وكانت هذه النقاط الثمان هي :

- ١ (إخلاء سبيل الأسرى .
- ٢ (تأمين القبائل التي اشتركت في القتال ضد الحركة المهديية .
- ٣ (انسحاب القوات المصرية والانجليزية إلى وادى حلفا وسواكن .
- ٤ (إخلاء سواكن ومصوع وتسليمها للباب العالي .
- ٥ (الاعتراف للإمام المهدي بالسيادة داخل حدوده .
- ٦ (انشاء علاقات سياسية مع إنجلترا .
- ٧ (حرية التجارة .
- ٨ (الوصول إلى اتفاق لتحديد تجارة الرقيق اذا كان ذلك ممكناً (٨٥) .

وقد صيغت هذه الأسس لتجعل من السودان محمية بريطانية ، فالبند الثالث
يقترح انسحاب القوات الى وادى حلفا وسواكن والبنسند الرابع يسلم سواكن

(٨٤) بلنت - ص ٤٧٤ / ٤٧٦

(٨٥) نفس المصدر ص ٥٩٦ / ٥٩٧ ملخص خطاب سرى من بلنت الى غلادستون .

ومصوع للباب العالى ولم يذكر شيئاً عن وجود القوات الانكليزية فى سواكن بعد انتقالها للباب العالى . والبند الخامس يعترف بالسيادة للدرراويز داخل الحدود — أى أن العلاقات الخارجية سوف تكون بيد الغير ، وذلك الغير هو انجلترا كما جاء فى البند السادس .

وعطلت بريطانيا الامر العالى الذى أصدرته مصر فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٥ الى بيكر باشا فى شأن حفظ خط المواصلات بين بربر وسواكن وجاء فى هذا الامر ما يأتى «... وسينضم اليكم أورش سودانيون تحت قومندانة الزبير باشا الذى لكم الرياسة عليه مباشرة فلا شك فى أنه يسهل عليكم اجتناء ثمرات ما للباشا المومى اليه على القبائل من النفوذ المشهور» (٨٦)

تفاوض درمند ولف بعد وصوله الاستانة مع الباب العالى لعقد معاهدة لتنظيم المسألة المصرية والوصول الى حل بشأن الجلاء البريطانى عن مصر ، ولم يكن هذا الاتجاه من بريطانيا نحو مشكلات حوض وادى النيل إلا امتداداً للسياسة التى كان على بريطانيا الاخذ بها بعد الصلاحيات التى تمت فى مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥ م ، وقد تم الوصول الى اتفاق تمهيدى ثم التوقيع عليه فى اليوم الرابع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٨٥ م ، من كل من محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية عن الباب العالى ، والسرهنرى درمند ولف عن بريطانيا وصارت هذه الاتفاقية نافذة المفعول بعد ذلك مباشرة ، وقد جاءت هذه الاتفاقية فى سبع مواد بعد الديباجة ، وتحققت معها المرحلة الاولى للسياسة الانكليزية وذلك بحصولها على اعتراف الباب العالى — وهو صاحب السيادة على مصر والاقليم التابعة لها — حينذاك — بشرعية احتلال بريطانيا لمصر وأشارت فى الوقت ذاته بطرف خفى الى مسألة السودان .

وتعين بموجب هذه الاتفاقية مندوبين ساميين للسفر الى مصر للتعاون مع الخديو بشأن اعادة تنظيم الجيش المصرى ، ولمصلحة حالة السودان ، واجراء مباحثات لتسوية المسائل المصرية بعامة ، وقد جاء المندوبان الساميان الى مصر وقدم كل من مختار باشا المندوب السامى العثمانى والسر درمند ولف المندوب السامى البريطانى ، تقريره الى حكومته (٨٧) . وبدأت بعد ذلك مفاوضات بين تركيا وبريطانيا لوضع

(٨٦) قاموس الادارة والقضاء — فليب جلال المجلد الثانى ص ٣٠٦
(٨٧) الوثائق الفرنسية المصرية عام ١٨٨٤/١٨٩٣ — ص ٤٣/٧١

صيغة الاتفاق النهائي ، الذي تم في سبع مواد بعد الدبلوماسية ومعه بروتوكولين وملحق ، تم التوقيع عليها في الاستانة في الثاني والعشرين من مايو سنة ١٨٨٧ م من محمد كامل باشا الصدر الأعظم ومحمد سعيد باشا وزير الخارجية عن تركيا والسر درمند ولف عن بريطانيا .

وقد فقدت هذه الاتفاقية النهائية صلاحيتها بسبب توقف الباب العالي عن التصديق عليها ، وفقاً لما جاء في المادة السابعة ، تحت ضغط فرنسا وروسيا اللتان هددتا باحتلال فرنسا للشام وروسيا لأرمينيا . وفي الحقيقة وواقع الأمر أن بريطانيا لم تخسر شيئاً بسبب التوقف عن التصديق على هذه الاتفاقية ، وقد ذكر كرومر في كتابه مصر الحديثة في هذا الصدد ما يأتي : « انه بالرغم من فشل هذه الاتفاقية في تحقيق أهدافها فإن الحكومة البريطانية قد صارت في مركز دبلوماسي ، عند نهاية هذه المفاوضات ، أحسن مما كانت عليه عند بدئها ، فقد تحقق لها الحصول على اعتراف الباب العثماني بشرعية احتلال مصر ، كما انه قد برزت معها مسألة السودان في كيان خاص يحتاج الى مصالحة .

وقد أشارت المادة الرابعة من الاتفاقية النهائية الى الوضع في السودان وما فيه من ثورة تهدد أمن مصر الداخلي ، وأن هذا الوضع يتطلب اجراءات استثنائية للمحافظة على الحدود الجنوبية — عند وادي حلفا — خوفاً من تسرب الدراويش الى شمالي تلك المنطقة ، وأخذت بريطانيا على عاتقها مسؤولية القيام بهذه الاجراءات للمحافظة على الحدود إلى أن يحين الوقت الذي يتكون فيه الجيش المصري الجديد ويتم جلاء القوات البريطانية عن مصر .

وإذا قارنا ما جاء في الاتفاقيتين التمهيدية في عام ١٨٨٥ والنهائية في عام ١٨٨٧ م مع ما جاء في العرض البريطاني الذي قدمته لهندوب المهديّة والذي أشرنا اليه من قبل ليكون أساساً للمفاوضات بينهما ، نجد أن بريطانيا كانت تهدف أولاً الى تثبيت شرعية وجودها في مصر ، ثانياً الدخول في مفاوضات مع الدراويش بشأن تسوية الموقف على أساس التقاط الثمان التي سبق ايضاها . ولو كان قد قدر لهذه الاتفاقية النهائية النفاذ لاستطاعت بريطانيا أن تواجه فرنسا وروسيا في مركز أقوى ، وأن هذا الفشل الجزئي جعل بريطانيا تعمل على تهدئة الحالة الدولية وأخذت في معالجة الموقف بعقد المؤتمرات الدولية ، واشتد الصراع بين فرنسا وانجلترا في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي كما سنبينه في القسم التالي .

وقد يكون أول ما نغنى به ، بعد أن أوضحنا فيما سبق الدور الذى لعبته تلك الحركة من تطور فى مركز البلاد ، أن تتوفر على دراسة هذه الدعوة بالقدر الذى يتطلبه موضوع البحث ، الذى يتلخص فى تقصى الأسباب والعوامل الأساسية التى دفعت الى ما وصل اليه المجتمع فى الثلاثين عاما الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى ، ولم تكن تلك الأسباب والعوامل مجتمعة لإلاظاهرة اجتماعية تشابكت أطرافها وقد استجمعت عناصرها من الحياة اليومية وتقاليدها الموروثة عن أقدم العصور . ولم تكن حالة المجتمع المحلى فى الثمانين عاما التى تلت نهاية السلطنة السنارية إلا امتداداً لحياة المجتمع فى ماضيه القريب والبعيد ، متأثراً بما دخل البلاد من نظم و آراء مستحدثة فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ويشمل موضوع البحث . الظروف التى مهدت لقيام الحركة ثم ماهية الحركة وما دخل على طبيعتها من تطورات انتقلت بها من مرحلة الى مرحلة مع ترجمة حياة زعيمها وخليفته ويتهى البحث بدراسة عن مركز البلاد فى الصراع الدولى الذى اشتد فى الأعوام العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادى وامتد لأربع سنوات من أول القرن العشرين حيث استطاعت الدول من تصفية مشاكلها .

١ - الدعوة المهيدية وظروفها

لقد أوضحنا أن السودان قد أخذ فى الاستقرار نوعاً ما فى نهاية الخمسين عاما الأولى من امتداد الادارة المصرية إلى البلاد ، كما أوضحنا الظروف الدولية التى أخذت فى التدخل فى شئون حوض النيل متذرة بهذا السبب أو ذاك ، ومنذ ذلك الحين بدأت نقطة التحول فى تاريخ السودان . فقد جاء الى خط الاستواء صمويل بيكر باشا فى ١٨٦٩م وتولى إدارته باسم الادارة المصرية ، وخلفه غوردون باشا من ١٨٧٤ الى ١٨٧٧م ثم تسلم غوردون حكماً ديارية السودان وأقاليمه من ١٨٧٧ الى ١٨٧٩م . وكانت السياسة التى اتبعها بيكر وغوردون أثرها العميق فى الانتقال بآداة الحكم ، من طريقها الذى كان يتمشى مع حياة البلاد والاخذ بيدها الى التدرج فى مضمار التقدم ، الى ما كان على العكس من ذلك . فانتكست حالة البلد ورجعت القهقرى وبرزت مقومات المجتمع وتقاليدته التى قد كانت فى طريقها الى الاختفاء أمام ما أقامته الادارة المصرية فى السنوات الخمسين الأولى من

أعمالها في السودان . فالسياسة التي اتبعها غوردون وبخاصة بعد أن أسرف في تعيين الأجانب من مختلف الجنسيات في المراكز الرئيسية . وقد عمل هؤلاء وهم يجهلون أو يتجاهلون الأوضاع المحلية وما تتطلبه من صفات خاصة لمعالجة مشاكلها ، على التنكيل بالسكان وتجاوزوا الحدود في تنفيذ القوانين الصارمة الخاصة بالرقيق ، بالرغم عما جاء في اتفاقية الرقيق بشأن تصفية هذه المشكلة ، كما تدخل هؤلاء بالعبث بالتقاليد والقيم الاخلاقية بدعوى نشر الحرية ، كما عملوا أيضاً على تقويض الأسس الاقتصادية الامر الذي تعطلت معه الحياة اليومية ، وأحدث فجوة عميقة الغور في المجتمع الذي تميز بطابعه الديني الصارم ، ولم يكن من الهين الانتقال به فجأة من حال إلى حال وفي سرعة لا تتماشى مع طبيعة الأشياء ، وقد كان من اليسير على الأهلين أن يتقبلوا اسناد مقاليدهم إلى جماعات من غير المسلمين لو أخلص هؤلاء في رعاية مرافق الشعب والمحافظة على تقاليده ، متسامحين لا يتدخلون في المشاعر الدينية والحياة اليومية . فقد سبق أر تولى مديرية الخرطوم أراكبل بك وتذمر بعض الزعماء من ولاية نصراني ، فقال لهم إذا كان تعييني لا يرضيكم فأنا أترك البلاد ، فأعجب الزعماء بشجاعته واطمأنوا لاتجاهته وبقي في مركزه مرموقاً بالحب والاحترام ، غير أن الحال يختلف بتعيين غوردون الذي تميز بطابعه المسيحي المترمت ، شأنه في ذلك شأن معاصريه في العصر الفسكتوري ، الذي تأثر برواسب ماضى بلاده ، وكان غوردون ومعاونوه من الأجانب لهم نظرتهم الخاصة في معاملة الأهالي الذين كانوا يرون انهم في مستوى دون مستوى الأوروبي ، وان للأوروبي رسالة يتحتم على السكان قبولها ، فاندفعوا في تشديدهم وصرامتهم اندفاعاً كانت من نتيجته خلق روح التذمر ، وتوالى الأحداث في مختلف صورها وألوانها مما زاد في حالة القلق التي جعلت السكان يتطلعون إلى من يخلصهم من محنتهم التي امتدت إلى الدين كما تعطلت معها الحياة اليومية ، ولم تكن الحرية التي أرادها غوردون وأعوانه نشرها إلا تمهيداً لخروج المجتمع عن قيمه الدينية ، ليتقبل التبشير بالمسيحية عندما تتمكن المدينة الأوروبية من تثبيت أقدامها والسيطرة على مصير البلد . ويقدم لنا الحديث الذي دار بين غوردون والمطران دكتور تمبل على اتجاه غوردون نحو التبشير ، فقد تكلم غوردون مع المطران عند مقابلتهما في أكستر عن مسألة التبشير والصعوبات التي تواجهها بسبب عدم السماح بتعدد الزوجات وسأل المطران عما اذا كانت الديانة المسيحية تصرح للمسلمين الذين يتركون دينهم ويعتنقوا النصرانية بالاحتفاظ بعدد

من الزوجات يبلغ ثلاث بدلا من أربع يجيزها الاسلام ، وكان رد المطران بأن القوانين الكنسية لا تسمح بهذا التجاوز (٨٨) .

وقد بلغت حالة القلق مرحلة حاسمة عندما انهى غوردون حكمدايته في ١٨٧٩م بمقتل سليمان الزبير ورجاله بعد أن قبلوا عرض غوردون لتسليم واستسلموا فعلا الى جيسى باشا ، الذى أعدمهم رمياً بالرصاص فى دم بارد تنفيذاً لأمر غوردون ، الذى بنى حكمه على سند لم يستطع أن يقدمه الى الزبير باشا عند مقابلتهما فى مصر كما أوضحنا من قبل ، ولكن غوردون قد استطاع التخلص من سليمان حتى لا تعطل السياسة التى رسمها ، وهكذا تجمعت الزوبعة من عناصرها المحلية ، وزادت عليها نهاية الحركة الوطنية فى مصر وتشريد زعمائها عربى ورفاقه .

وكان لزاما أن يخرج الزعيم من بين صفوف الشعب لقيادة الحركة كما كان لزاما أن يكون لذلك الزعيم مقامه الدينى ، الذى يعد بثواب الجنة . ومقام الشهداء الأبرار الذين جاهدوا فى سبيل نصره الدين ، وقد وجد الشعب ذلك الزعيم فى شخص فقيهه أخذ قسطاً من العلوم الدينية ، تجاوزت مشاعره مع إحساس الأهلين ، وكان ذلك الزعيم هو الامام محمد احمد الذى تغلبت عليه حياة الزهد والتصوف والاعتكاف وكان مقصد أصحاب الشكاوى والمظلومين ليشفى جراحهم ، فداع صيته بين الشعب القلق المتذمر بسبب الخلاف الذى قام بينه وبين شيخه الشيخ محمد شريف نور الدايم ومما يجدر ذكره أن الامام المهدي قد صرح لشيخه المذكور فى عام ١٨٧٨م بأنه المهدي المنتظر ، فجاء إليه تاجر ، اتهم بتجارة الرقيق أو فى تجارة مشروعة وأهلب جسده بالسياط وصودرت أمواله ، ومواطن عادى ، ألقى على كاهله أعباء أموال الحكومة التى وزعت توزيعاً غير عادل بسبب الاعفاءات التى منحها غوردون لبعض الجماعات على حساب المجموعة من السكان . وأوصدت أبواب العدالة فى وجه أصحاب الشكاوى ، ووجد الأهلون فى هذا الفقيه متنفساً لسكربتهم ولتحقيق الانتقام والأخذ بالثأر لما أصابهم على يد غوردون ومن ظاهره فى إدارته ، وقد اعتبر كل من تعاون مع غوردون خارجاً عن الدين وجبت محاربتة ، وهذه الحالة تصور لنا مدى الأثر الذى تركه الظلم فى النفوس وهكذا أخرج الشعب الامام المهدي إلى العمل بعد أن

تهيأت الظروف المواتية لذلك . وبطبيعة الحال لم يسبق الامام المهدي الاحداث ويوجها تحقيقاً لرسالته ، والحقيقة وواقع الامر ان الاحداث هي التي وجهته وخلقت منه زعامته .

وكانت الدعوة ، التي ظهرت في الثوب الديني التقليدي الذي يتمشى مع طبيعة البيئة المحلية ، قد تسلمها الزعيم المرتقب ، وليس لنا في هذا الموضوع أن نناقش الفكرة - فكرة المهدي من ناحيتها الدينية الباطنية ، فهذه الفكرة قديمة ترجع إلى أقدم العصور ، وقد دخلت هذه الظاهرة في المجتمع الاسلامي ، وأخذت في الظهور ، بين الفينة والفينة ، متكيفة بالظروف المحيطة بها ، وكانت ركناً أساسياً في الشيعة ، قامت عليها فكرة الامام المخفي «أو المكتوم» ، وقد عرف هذا الامام «بالمهدي» ليشتمى في ذلك مع التكليف الذي حض عليه الاسلام بالدعوة إلى اتباع الدين ، التي تقوم على بناء مجتمع سليم راسخ القواعد ، يؤدي رسالته في الحياة على الوجه الذي حددته الرسالة الاسلامية . وقد حض الدين قادة الرأي من العلماء وغيرهم بأن فرض عليهم القيام بهذا الواجب حيث جاء في الكتاب الكريم « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (آل عمران) .

ومن هذا يتضح لنا ان دعوة الامام المهدي في السودان لم تكن إلا استجابة لمشاعر الاهلين التي انطبعت بما تركه حكم الأوربيين من أثر سيء ، وكان لتلك المشاعر انعكاساتها التي تمثلت في شخصية الامام المهدي وطبيعته الدينية . فالتفوا حوله وناصروه وبخاصة في المناطق الواقعة في دار غرب والنيل الأزرق وهي المناطق التي كانت تعتمد اعتماداً كلياً في اقتصادياتها على الرقيق في القيام على الأرض والرعي والخدمة البيئية ألخ ألخ . ولم يكن من السهل معالجة الرقيق دون أن تعطى للمجتمع الفرصة الكافية لتعديل نظمه . وقد طاف الامام المهدي البلاد من أقصاها إلى أقصاها ولمس ما اختلج في قلوب الاهلين من روح التذمر واليأس على يد أولئك الفرنجة ، ومن عاونهم من الوصوليين ، ومن هؤلاء من وصل إلى رتب عسكرية عالية بحكم الوظائف الادارية التي أوكلت إليهم ، وكان لهذا الخليط العجيب أثره في أضعاف الجهاز الإداري وتسرب الفساد إلى صميمه ، مما جعله عاجزاً عن القيام بواجباته من المحافظة على أمن البلاد ورفاهيتها ، فتهيأت بذلك الفرصة المناسبة ليعلم الامام المهدي رسالته محاربة الادارة الأوروبية ، وما كان للحركة المهديّة أن تسلك طريق

العنف لولا الظروف السيئة التي جعلت مقاليد الحكم في يد الفرنج ، مما جعلها تنحرف عن طريقها الديني إلى العنف والقتال . ولو كانت في البلاد إدارة تقدر الظروف المحلية وتهدف في أعمالها إلى خدمة الشعب لكان لها أن تستنفذ أهدافها في طريق سلمي ، والدليل على ذلك قائم فيما سبق أن ذكرناه عن الفترتين اللتين كانت فيها تقاليد الحكم في يد السلطة السنارية وفي الخمسين عاما الأولى من امتداد الإدارة المصرية إلى السودان .

وقصة الحركة المهديّة في السودان التي نادى بها الإمام محمد أحمد في حاجة قوية لدراستها دراسة عميقة لما لها من صلة بالمجتمع الاسلامي بصفة عامة وبالسودان بصفة خاصة . فهذه الحركة لها طابعها الخاص ولها ظروفها المحلية التي يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند معالجتها . وما زالت تنقصنا الوثائق المحلية الاصلية لتحقيقها تحقيقاً علمياً سليماً وتنقيتها من الشوائب التي قد لحقت بها من أفلام الكتاب من الأوربيين، الذين عملوا على تصوير تلك الحركة بما كان يدور في أفكارهم التي لم تكن في حالة من الاحوال تعبر صادقة عن الحال . وقد أضفى هؤلاء الكتاب على هذه الحركة من خيالهم الأمر الذي ترك أثره في أذهان الكثيرين بأنها كانت قطعة بين شطري الوادي ، وهذا لم يكن له وجود في تفكير الامام المهدي ، بل بالعكس كان يهدف نحو تحرير دار الاسلام من النفوذ الأوروبي (٩٩) والتعاون بين المسلمين . وهناك وثائق كثيرة مبعثرة هنا وهناك (٩٠) . ونعتقد ان الوقت قد حان لجمعها لتكون في متناول الباحثين ، ليتمكنوا من كتابة تاريخ صحيح له ماله وعليه ما عليه ، وللإفادة من ذلك في معالجة مشاكلنا الكثيرة ، فالمنشورات التي أصدرها الامام المهدي لم تجمع

(٨٩) جاء في جورنال الحوادث الذي كتبه اللواء محمد نصحي باشا عندما كان في شندى في انتظار حملة أنقذ غوردون ، ما يأتي في حوادث الخميس ١١ محرم سنة ١٣٠٢ هـ « ... فلا يليق بأيمانكم أن تجعلوا أمامكم الغردون الكافر الذي لا شبهة في كفره وأنتم مغروبن به ، ومنتظرون المدد من الانجليز ، وهم أعداء الله ورسوله وأعداء المؤمنين مع علمكم ببعدهم عنكم ... ويا حضرة الباشا وعشر الضباط والعساكر ان كنتم الجمع من بر مصر فتذكروا عدوان الانجليز اليكم وما جبروا لرابي معهم وتعلمكم على بلادكم وأراضيتكم وخراجاتكم ... » هذه قد وردت ضمن الكتاب الذي وجهه امراء المهديّة الذين كانوا في منطقة شندى إلى اللواء محمد نصحي باشا .

(٩٠) دائرة لمعارف الاسلامية طبعة سنة ١٩٥٣ - الكراسة الأولى - ترجمة الخليفة عبدالله التعايشي بقلم هالسون الذي أوضح أن توجد حوالى الخمسمائة والألفين من الوثائق الخاصة بالمهديّة والتي وضعت عليها إدارة السودان يدها بعد موقعة أم درمان .

بعد في صورة كاملة مرتبة ترتيباً زمنياً وتعمل لها قوائم موضوعية ، توضح لنا مراحل تطور طبيعة الرسالة والظروف التي أحاطت بكل حالة ، وهذه سوف تترجم لنا في صورة واضحة الأحداث والملاسات .

والإمام المهدي كما هو معروف لم يعمر طويلاً بعد وصوله إلى الخرطوم واتخاذ أم درمان مركزاً لإدارة أعماله ، فلم تتح له الفرصة الكاملة لارساء قواعد جديدة لرسالته ، وانتقلت ولاية الدعوة من بعده إلى يد الخليفة عبد الله التعايشي الذي واجه أكثر من مشكلة اقتنصت كل جهوده ونشاطه لمعالجتها ، ولا يفوتنا أن نذكر أن الحركة المهديّة قد أثمرت حفائظ الكشّيرين من رجال القبائل وغيرهم ، وقد لعب بعض هؤلاء دوراً هاماً في أذكاء الفتنة والدسائس كما عملوا على توسيع شقّة الخلاف بين الخليفة عبد الله وأقارب المهدي . وفي الواقع ان هذه الدسائس لم تكن إلا مظهرأ من مظاهر الصراع الخفي بين المهديّة والكارهين لتنظيماتها ، التي حرمتهم الكشّير بما كانوا يزاولونه من نشاط .

وهناك مسألة العلاقات الخارجية ، فقد كانت بريطانيا كما ذكر بلنت في كتابه « غوردون في الخرطوم (٩١) » كانت مهتمة بهذه القضية على طريقتهما التقليدية لاكتساب الوقت ومراقبة الحال وتطوراته عن كسب بما تستجمعه من معلومات من مبعوثي المهديّة ، وقد بدأت المفاوضات فعلاً عن طريق السيد جمال الدين الأفغاني وان شروطاً قد عرضت لتكون أساساً للمفاوضات للوصول إلى اتفاق على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه ، وكانت هنالك علاقات بين النجاشي منليك - أمبراطور أنيوبيا والخليفة عبد الله وكانت وراء أنيوبيا فرنسا كما سنتعرض له في القسم الثاني . كما ان ملك الأنبيرو قد أرسل بعثة إلى السودان (٩٢) عندما وصلت إليه أخبار انتصارات زعيم البلاد على الرجل الأبيض (الانجليز) وكان هدف هذه البعثة الحصول على مساعدة ذلك الزعيم لطرده الانكليز من أوغندا ، وقد حجز هذه البعثة عامل الخليفة عربي دفع الله في الرجاف وكانت الحال في السودان قد قاربت نهايتها .

(٩١) بلغت ص ٥٩٦

(٩٢) تقرير الخبائر السودانية رقم ٩٦ - دقلا عن مجلة أوغندا مجلد ١٩ مارس سنة

الامام المهدي

اختلفت الرواية في تاريخ مولده (٩٢) ، فنعموم شقيقير يقول انه قد ولد بجزيرة «لب» (في دنقلة) في عام ١٨٤٢ م وذكر ابراهيم فوزي ولد المهدي في عام ١٨٣٤ م بجزيرة الخناق ، وفي قول يؤيده السيد عبد الرحمن المهدي ان الامام المهدي قد ولد في الاسبوع الثاني من شهر أغسطس سنة ١٨٤٤ م وينتمي الى بيت الولي نجم الدين (المدفون في القاهرة) وقد خرج من هذه الأسرة أكثر من فقيه اشتهروا بالعلم والولاية أضرحتهم ما زالت قائمة وبخاصة في أسوان وبلاد النوبة السفلى وتعرف الشعبة التي ينتمي اليها بالعون اللاب نسبة الي «عون الله» وهو الابن المباشر لنجم الدين - ويسكن هؤلاء في شمال النوبة السفلى وفي أسوان ولا يعلم على وجه التحديد الظروف التي دفعت هؤلاء الى الانتشار جنوبا ، وفي أي الفترات ، وكان والد الامام المهدي يشتغل بالتجارة في صناعة المراكب والسواقي ، وقد أنجب خمسة أبناء منهم اثني واحدة وأربعة ذكور اشتغل ثلاثة منهم في صناعة المراكب أما رابعهم فهو «محمد احمد» فقد ذهب الى الكتاب وحفظ القرآن ودرس الفقه والتوحيد والتصوف في خلوة (كتاب) الفقيه الهاشمي بالقرب من كرري (شمال أم درمان) ثم انتقل الى خلوة الشيخ محمد الشنقيطي ثم الى خلوة الشيخ الامين الصويلح بمسيد (مسجد) ود عيسى ، ثم الى خلوة الشيخ الامير ، وذهب بعد ذلك الى الفقيه الشيخ محمد الضكير (استبدله المهدي بالخير) في الغبش (في بربر) نخرط فيما بعد في سلك تلاميذ الشيخ محمد شريف نور الدايم في عام ١٢٧٧ هـ (١٨٦٠ / ١٨٦١) ، وبقي حواراً (تلميذاً) لهذا الشيخ ما يقرب من العشرين عاماً .

فقد جاء في قصيدة نظمها الشيخ محمد شريف نور الدايم ما يلي :-

لقد جاء في عام زع (٩٣) لموضع على جبل السلطان (٩٤) في شاطئ البحر

(٩٢) قال الامام المهدي في نسبة الآتي :

محمد المهدي بن عبد الله بن عبد الله بن فحل بن عبد الولي بن عبد الله بن محمد بن حاج شريف ابن علي بن احمد بن علي بن حسب النبي بن صبير بن النصر بن عبد الكريم بن حنين بن عون الله ابن نجم الدين (المدفون في القاهرة) بن عمان بن موسى بن ابي العباس بن يونس بن عمان بن يعقوب ابن عبد القادر بن الحسن العسكري بن علوان بن عبد الباقي بن صخرة بن يعقوب بن الحسن السبط ابن الامام علي بن أبي طالب .

(٩٣) عام زع بحساب الأجددية ٧٧ (١٢) هـ (١٨٦٠ / ١٨٦١) م

(٩٤) جبل السلطان شمالي كرري - أم درمان .

يروم الصراط المستقيم على يدي
فقام على نهج الهداية مخلصاً
الى أن يقول :

وكان لدينا عيشة صدقاتنا
الى الخمس والتسعين (٩٥) أدركه القضاء
بصحبة شيطان من الجن ايس
وقال :

فقال أنا المهدي فقلت له استقم
وخادعني بالقول كالمهد ابنكم
فقم بي لنصر الدين تقتل من عصا
فهذا مقام في الطريق لمن يدري
ومحسوبكم في الحب في عالم الذر
فأنت لك الكرسى ولى دول الغير (٩٦)

* * *

وقد أكد الشيخ محمد شريف مقرر الدايم لنعوم شقير في عام ١٨٩٨ م (بعد
فتح أم درمان) ان سبب العدا بينه ومحمد احمد مرجعه الى أن قد نهاه عن دعوته
بالمهدية وقد أنكر أنصار المهدي هذا القول كما ذكر شقير ويقولون ان أصل العدا
هو انصراف الناس عن محمد شريف وميلهم الى محمد احمد بالعقيدة والاتباع ويبدو
ان القول بأن سبب الخلاف بينهما بسبب الأفراح التي أقامها الشيخ محمد شريف
بمناسبة ختان أولاد والرقص والموسيقى يحتاج إلى دليل . وسواء كان هذا أو ذاك
فان الشيخ القرشي من مشايخ السمانية (٩٨) المناوئين للشيخ محمد شريف، قد اجتذب محمد
احمد اليه وأكرم وفادته ، واشاع ان محمد احمد قد انفصل عن شيخه الذي خالف
الشريعة والسنة ، لما بين الشيخين من جفاء .

وما تقدم ذكره نجد ان فكرة الدعوى المهدية ، قد راودت محمد احمد في عام
١٢٩٥ هـ (١٨٧٨ م) وتميزت هذه السنة بالذات بمكاشفة صاحب الدعوة لشيخه
محمد شريف نور الدايم بأنه المهدي ، وقد نهاه شيخه عن ذلك ، كما تميزت بقيام

(٩٥) عا ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ م .

(٩٦) أنظر القصيدة بأكملها في نعوم شقير جزء ناك ص ١١٦ / ١١٧

(٩٧) أنظر المصدر السابق ص ١١٨ .

(٩٨) مؤسسها الشيخ الطيب ود البصير وكانت بينه وبين الشيخ محمد شريف مودة مفقودة .

الفتية لإدريس ومعها جماعة من أنصاره بإعلان العصيان على الحكومة ، التي أرسلت
باخرة حربية فتكت به وشتت رجاله وقتل الفتية في القراصة (على النيل الأبيض
جنوبي الخرطوم) ثم أرسل غوردون لأخته بما يفيد ان السودان قد بدأ يتهيأ
للخلاص من الحكومة واسترداد حريته - وغوردون كما معلوم كان حكمداراً
للسودان من ١٨٧٧ إلى ١٨٧٩ م . وان الخطة التي سار عليها في حكومته في تلك الفترة
قد هيأت التربة الصالحة لظهور الدعوة الإصلاحية وقد ذكر الشيخ محمد شريف في
قصيدته آفة الذكر ان الامام المهدي طلب من شيخه المعونة لنصرة الدين وعرض
على شيخه ان يكون له الكرسي الرئاسة) ويقوم هو بالعمل - ومن هنا بدأ جانب
من الصراع الذي أشرنا اليه من قبل .

وإذا رجعنا إلى الكتاب الأول ، كما أجمعت الروايات المحلية ، والذي وزعه
الامام سرأ بين أصحابه والاختصاص من رجال القبائل والفقهاء ، نجد انه قد صرح
بدعواه بالمهدية وطلب إليهم الهجرة والانضمام اليه في حركته الإصلاحية الدينية ،
ومبايعته على الجهاد في سبيل ذلك وكان ذلك الكتاب في التاسع والعشرين من يونيو
من عام ١٨٨١ م أي بعد ثلاثة أعوام تقريباً من أول حديث له مع شيخه عن مهديته
أما هذه الدعوة فقد أخذت مظهرها العلني بعد لقائه بالسيد عبد الله التعايشي الذي
قال له يا سيدي أنا عبد بن محمد تورشين من قبيلة التعايشة البقارة ، وقد سمعت
بصلاحك في دار الغرب فجئت لأخذ الطريقة عنك ، وكان لي أب صالح من أهل
الكشف وقد قال قبل وفاته انك ستقابل المهدي وتكون وزيره ، وقد أخبرني
بعلامات المهدي وصفاته ، فلما وقع نظري عليك رأيت فيك العلامات التي أخبرني
بها والدي بعينها ، فابتهج قلبي لرؤية مهدي الله وخليفة رسوله (٩٩) ، فالحركة المهدية
بدأت في أولى مراحلها كظاهرة اجتماعية تحكم فيها الطابع المحلي للجموع ، إلا أن
هذه الحركة قد تأثرت بالأحوال السياسية العامة وبمجريات الأحداث في السودان
وما أصاب الأهالي من تنكيل وصرامة في تنفيذ القوانين والطلبية (تسخير الأهالي
للقيام بأعمال لسداد مال المالى وإلى ما غير ذلك) .

رأى الامام المهدي من نفسه القيام بدعوته الإصلاحية واشتبك مع شيخه في
نزاع في هذا الصدد وانفصل عنه في ذلك العام . وذهب إلى الشيخ القرشي ود الزين

(٩٩) نعوم شقير تاريخ السودان ج ٣٠ ص ١٣٠ وما بعدها .

وهو من المشايخ لطريقة السمانية أيضاً . وقد توفي هذا الشيخ بعد زمن وجيز من زيارة الإمام المهدي له . وخرج الإمام في طوافه في البلاد السودانية ، وكان لما رآه من تدهور بالغ الأثر في نفسه ما اهتزت معه مشاعره ولما عاد لبناء قبة شيخه الشيخ للقرشي تقابل مع السيد عبد الله التعايشي كما أشرنا من قبل ، واختار الإمام الجزيرة « أبا » التي اتخذ فيها غاراً للعبادة مركزاً لدعوته الجديدة ويرجع اختياره لهذه الجزيرة الى موقعها بالنسبة لغرب السودان (كردفان) وفيها الموطن الصالح لنشر دعوته لأن هذه كانت بيئة بدائية وأصاب المجتمع فيها الكثير من المحن بسبب النخاسة وما إقترن بها من تنكيل واضطهاد وإرهاب الأهلين .

وقد بدأ الإمام المهدي رسالته بوصفه « مهدي رسول الله » ثم صار « المهدي المنتظر » ثم انتهى إلى « أمام الزمان » وجاء بعد وفاته آدم محمد البرقاوي في عام ١٨٨٧ وادعى انه « نبي الله عيسى » وظهر من بعده « النبي عيسى » في دار تامة في عام ١٨٩٥ م وتأتي مرتبة نبي الله عيسى بعد ظهور المهدي المنتظر .

وكانت أولى الهزائم الحكومة في الجزيرة « أبا » نقطة تحول في الحركة المهديّة فقد ترك الجزيرة إلى مهجره في جبل قدير (جنوبي شرقي كردفان) واتخذ من هذه المنطقة مركزاً لإدارة حركته . وهي الملجأ الطبيعي لبسط نفوذه ونشر دعوته وهناك النف حول المناوون للحكومة .

ويبقى الإمام المهدي في منطقة جبل قدير فترة من الزمن يرتب فيها شؤون رسالته ، ويرسل الدعاة إلى مختلف المناطق والأقاليم ، كما كان يرقب نشاط الحكومة المركزية التي كان في غاية من الضعف والخور بسبب تطور الأحداث في مصر والتي انتهت بالحركة العرابية ونزول الإنجليز في البلاد وصار ضغطها على رجال الحكومة في مصر أمراً واجب التنفيذ وكانت الإدارة في السودان لا تقدر الموقف وخطورته وصارت تعالجه في صورة أن دلت على شيء فإنها تدل على جهل فاضح فكانت ترسل التجريدات دون أن تعنى بدراسة تفصيلية لما قد تواجهه تلك الحملات من صعوبات ووضع الخطط الكفيلة بمواجهة تلك الصعوبات فكان طبيعياً أن ينتهي أمر تلك الحملات إلى الفناء .

وعمل الإمام المهدي بعد توطيد سيطرته في تلك المنطقة على تنظيف الجيوب المعادية لحركته في داخل نطاق هذه المنطقة وهي جبل الجرادة الذي رفض أهله قبول الدعوة في أول الأمر ، ثم باره والطيارة وغيرها من المراكز التي كانت فيها

حاميات مصرية ، والدلنج التي كانت فيها محطة تبشيرية مسيحية واتجه بعد ذلك صوب الأبيض التي استولى عليها بعد قتال مرير في ١٧ يناير سنة ١٨٨٣ م . كما انه راسل السيد محمد المهدي السنوسي ليقبل دعوة ولشغل كرسي عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وطلب منه الحضور إلى السودان أو القيام في جهته والغارة على مصر . وقد أرسل السنوسي رسولا من قبله ليستطلع جلية الأمر وعاد الرسول بعد مقابلة الامام المهدي في الأبيض . ولم تسمع شيئا بعد ذلك عن علاقته مع السنوسي . كما ان الامام قد أرسل إلى السلطان راجح فضل الله (١٠٠) طالباً منه العودة من بلاد الغرب إلى السودان . وحدثت مشاكل داخلية بين كبار رجال المعسكر المهدي منها ما حصل مع ود المنة وغيره من الزعماء المحليين ومقتلهم . وقد اختلفت الرواية في أسباب مقتل ود المنة فأبراهيم فوزي يقول ان الامام والخليفة عبد الله قد خشيا من مطامعه فتخلصا منه بتدبير قتله (١٠١) وفي قول مندوب الخديو توفيق الامير الای احمد بك حمدي، ان ود المنة قد أغار على القافلة التي كانت محملة بغنائم الأبيض والتي كانت في طريقها إلى جبل قدير (١٠٢) لأنه وجد أن الامام المهدي لم يعطه نصيباً منها .

وأخذ الامام المهدي في إعداد جيوشه استعداداً لمواجهة ما قد ترسله الحكومة من قوات لقتال ، واشتبك مع هكس في موقعة شيكان التي هزمت فيها الحملة وفنيت عن آخرها ، وبعدها استسلم سلاتين مدير دارفور وفي أوائل عام ١٨٨٤ م استسلم لبين مدير بحر الغزال ، وأرسل قوة لمناوشة أمين باشا في خط الاستواء ، وبعد أن استتب له الأمر في كردفان ودارفور وبحر الغزال ، وبعد ما اطمأن من ناحية خط الاستواء أعد حملته إلى الخرطوم . وقد انتقلت الحركة المهديية بعد سقوط الخرطوم إلى نهاية المرحلة الأولى وبداية مرحلة جديدة ، وهي مرحلة تأسيس جهاز للادارة . وكما سبق أن أشرنا أن التنظيمات التي فرضها الامام المهدي لارساء قواعد رسالته ، قد أثارت حفاظ بعض زعماء القبائل وغيرهم ، ودخل بذلك في صراع خفي لم تشتد وطأته إلا بعد انتقال الامام المهدي إلى الرفيق الأعلى ، وتسلم الخليفة التعايشي أمر الرسالة ، فبدأت الغيرة والحسد كمظهر من مظاهر الصراع الخفي ، تثير الفتن

(١٠٠) جاء السلطان راجح فغلاغير انه رجع بعد وصوله الى حدود دارفور عندما سمع بوفاة

الامام المهدي .

(١٠١) فوزي جزء ثان ص ١٦٥ .

(١٠٢) يوميات الأمير الای احمد بك حمدي .

والشكوك ، وانقسمت الصفوف واشتد الكرب والجماعات وتفشت الأمراض ، وصار الخليفة يواجه كل يوم مشاكل جديدة ، اختفى معها الهدوء والاستقرار ، فاستعان الخليفة بأهله من البقارة وقد زاد هذا الاجراء الأمور تعقيداً وكثرت الفلاقل ، وبدأت خيوط الاستعمار في العمل ، وانجلترا كانت تخشى لإنهياراً مفاجئاً لسيطرة الخليفة قبل أن تستعد مصر - على حد قول السياسة البريطانية لاعادة الأمن والنظام في السودان ، وكانت هنالك أيضاً أتوبيا تحاول التحالف مع الخليفة ومن ورائها فرنسا ، وهدف هذا التحالف مقاومة تقدم الانجيز نحو حوض النيل الاعلى وأرسلت فرنسا حملتها المتتابعة إلى حوض بحر الغزال لاحتلاله والاتصال بالخليفة وحكومته في تحالف يربطه بفرنسا . وكانت انجلترا ترقب هذا النشاط الفرنسى الاتيوي الذي زادت خطورته على مصلحتها بعد هزيمة الطليان في عدوة . وقد حطمت هذه الهزيمة الجناح الذي أقامته انجلترا من الطليان في شرق السودان وشمال أتوبيا ، فصار الطريق معبداً أمام فرنسا وحلفائها للتوغل في حوض النيل الاعلى وفي أتوبيا ولتحقيق هدفها في إقامة حائط يشق أفريقيا الوسطى من المحيط الاطلسي إلى البحر الاحمر يعترض الخطة البريطانية التي كانت تريد امتداد سيطرتها من الجنوب إلى حوض وادي النيل - فأمرعت بأرسال الحملة المصرية إلى السودان وادي النيل باسم مصر ، وانتهى القرن التاسع عشر الميلادي بانهيار سيطرة الخليفة وهنته وقيام حكومة إدارية من نوع آخر ، وقد شهدت السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع عشر نهاية صراع طويل مرير بين فرنسا وانجلترا كما سنبينه في القسم التالي .

مركز السودان والصراع الدولي

في

حوض وادي النيل

أوضحنا في أكثر من موضع فيما سبق مركز حوض النيل في الاستراتيجية الدولية وصراع الدول الاستعمارية لتنفرد لإحداها بالسيطرة على هذا الجزء من القارة الافريقية ، الذى كان وثيق الصلات بين الشرق والغرب بعامة وبين أقاليم البحر الأبيض المتوسط بخاصة ، وترجع تلك العلاقات إلى أقدم العصور التاريخية . ويهمننا في دراستنا هذه أن نتعرف على مراحل التطور في الصراع بين الدول واتجاهها نحو القارة الافريقية ، فقد بدأ الصراع مرحلته الأولى في القرون الست التي سبقت القرن التاسع عشر الميلادى مستمداً جذوره من الحروب الصليبية والتطور الزراعى وما تبع ذلك من نمو الدول الأوروبية وتقدم الصناعات . وقد تميز التوسع الأوروبى بالطابع الذى اخفى بين جنباته العوامل الاقتصادية لانتزاع الاحتكار التجارى من يد الممالك فى مصر وشرق البحر الأبيض المتوسط ، وهما حلقة الاتصال بين الشرق والغرب .

اتجه الأوروبيون من الفرنسيين والدومنيكان خلال القرن الثالث عشر الميلادى صوب أفريقيا الصغرى تونس والجزائر ومراكش ، حيث تسامح المسلمون القائمون على الأمر وأذنوا لهم بتأسيس مراكز للتبشير . وكان ذلك والحروب الصليبية تدور رحاها فى شرق البحر الأبيض المتوسط . ويبدو أن هذه الجماعات التبشيرية قد جاءت إلى هذه الديار وتخفى وراءها أغراضاً سياسية أكثر منها تبشيرية . والغالب على الظن أنهم كانوا يعنون فى الإبقاء على القطيعة والفرقة بين مسلمى هذه المنطقة وبين مسلمى شرق البحر الأبيض المتوسط حتى لا تتكفل القوى لمقاومة السيطرة الأوروبية التى حمل لواءها الباباوات .

وجاءت فى أعقاب المبشرين جماعات من التجار الأوروبيين من المسيحيين واليهود واشتغلوا فى تجارة الذهب والعاج وغيرها من السلع التى تنقلها القوافل عبر الصحراء إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط فى أفريقيا الصغرى . ويصور لنا تسامح المسلمين لوناً من الفرقة المذهبية والاجتماعية التى جعلت المجموعات الاسلامية فى الجانب الغربى من أفريقيا فى عزلة عن مجريات الأحداث فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وهذه الأوضاع العميقة الجذور فى المجتمع الاسلامى جذيرة بالبحث والتحقيق . فالدين الاسلامى لم يكن فى حال من الأحوال مسئولاً عن هذه الأوضاع لكنها هى

الطبيعة البشرية في مقوماتها القبلية التي لم تتأثر بالروح الاسلامية التي تدعو إلى الوحدة المتماكة .

وتوالى بعد دخول المبشرين والتجار البعثات المتلاحقة للكشف عن ساحل أفريقيا الغربي لغرض تحويل التجارة بعيداً عن الشرق الأوسط (شرق البحر الأبيض المتوسط) ولوصول إلى أتوبيا الدولة المسيحية التي ترامت أخبارها إلى أوروبا . وكانت المسيحية الأوروبية تهدف من وراء وصولها إلى أتوبيا إلى توطيد العلاقات لعقد محالفات دينية مسيحية لمحاربة المهالك المسلمين في مصر والدولة العثمانية فيما بعد^(١) .

وقد أصاب النشاط الكشفي في أفريقيا جمود نسبي خلال القرن الثامن عشر الميلادي بسبب منافسات الأوروبيين في السباق للسيطرة على الأراضي الأمريكية لاستغلالها في الزراعة . واشتد الطلب على الأيدي العاملة للقيام بالزراعة في الممتلكات الجديدة عبر المحيط الأطلسي ، وقامت على الشاطئ الغربي لأفريقيا سلسلة من المحطات لصيد الرقيق وتصديره وقد بلغت هذه التجارة الشائنة ذروتها في ذلك القرن وبدأت بعض الدول الأوروبية تشعر بوخز الضمير ، ومن ورائه العوامل السياسية كما أوضحناه من قبل .

وشهد القرن التاسع عشر الميلادي تطوراً في الاتجاهات نحو التوسع تحت ضغط التقدم الصناعي والاقتصادي ، وتدفق الأموال الأوروبية ، وبرزت عناصر جديدة في الحقلين الاقتصادي والسياسي ، فالسلطة كانت وقتاً على طبقة الأشراف والنبلاء ودخلت مع تقدم الصناعة طبقة من العامة ارتفعت بثرائها ، كنتيجة لنشاطها الصناعي إلى مستوى اضطرت معها حكوماتها لكي تفسح المجال أمام المجددين من الطبقة الجديدة للدخول في سلك الوظائف العامة الكبرى ، التي كانوا محرومين منها في الماضي ، كما أنها سهلت لهم الوصول إلى مراتب النبلاء والأشراف . ونجد هذا الاتجاه بارزاً في بريطانيا .

وقد تأثر التوسع الأوروبي إلى حد كبير في طبيعته وفي سيكولوجيته بما ورثته كل من الدول الأوروبية عن ماضيها القريب والبعيد ، وبما اكتسبته في تطاؤها مع

(١) راجع ص ١٢ وما بعدها من الكتاب الأول من هذه الدراسة .

منافسها خلال القرون التي سبقت القرن الثامن عشر ونجد أثر الكنيسة واضحاً في المراحل الأولى من التوسع الذي قام بالتمهيد له نفر من رجال الدين والمغامرين الذين اتخذوا من الدين ستاراً لهم ، وقد تبلورت الأفكار فيما بعد واصطبغت بالحاجة الاقتصادية التي اكتسبتها من التوسع الصناعي وظهور طبقة جديدة من أصحاب الثراء متأثرة في ذلك بعوامل ثلاث هامة ظهرت بين الدول الأوروبية وهي «أولاً، التطور الصناعي واستخدام البخار والكهرباء ، ثانياً ظهور القوميات والملكيات ، ثالثاً إشراك الشعوب في الحكم - الديمقراطية . وقد تطورت هذه العناصر بالاضع القديمة ، فأخرجت الأمم من تعريفها الضيق ، الذي كانت تراعي فيه مصلحة النبلاء والاشراف وغيرهم من أصحاب الاقطاع إلى المجال الدولي ، واستخدمت الوسائل العلية في استثمار الأرض وغلاتها وأخذت التقاليد القديمة في الزراعة في الاختفاء ، وأخذ النشاط الصناعي في الازدياد .

وقد كانت بداية مراحل الصراع الحديث بنشاط بريطانيا لمقاومة الروح الثورية التي نشرتها فرنسا في القارتين الأوروبية والأمريكية الأمر الذي سبب متاعب لتلك الدولة ، فكان أن عملت على تبديد أحلام فرنسا في بسط نفوذها في الاراضى الواطئة (٢) فاتجهت فرنسا إلى الشرق الأوسط لتضرب إنجلترا ضربة قوية بتهديد مواصلاتها التجارية مع الشرق وكانت الخطة التي جاءت الحملة الفرنسية لتنفيذها تتلخص في احتلال مصر ، شق قناة بين البحرين الأحمر والابيض المتوسط ، لبسط سيطرة فرنسا على حوض البحر الأحمر وجعله خالصاً للملاحة الفرنسية ، واستطاعت إنجلترا بقوة أسطولها البحري ووسائلها الدبلوماسية لإخراج الفرنسيين من مصر بعد احتلالها بما يقرب من الثلاث سنوات ، وهكذا استطاعت إنجلترا أن تبدد أحلام فرنسا مرة أخرى .

ومن الجدير بالملاحظة أن فرنسا قد نزلت في أرض مصر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي وخرجت منها في السنة الأولى من القرن التاسع عشر، وظهرت فرنسا في مثل التاريخ من نهاية القرن التاسع عشر في حوض النيل الأعلى وخرجت منه أيضاً بعد ذلك بثلاث سنوات تقريباً وذلك عندما خرجت حملة مارشان في نهاية القرن التاسع عشر وحملة تونكوود خرجت من شامبي في السنة الأولى من القرن

(٢) كوبان - السفراء والبعثات السرية يقدم لنا دراسة عن الوسائل والأساليب التي اتبعتها إنجلترا في صراعها الحثي لوقف النفوذ الفرنسي .

العشرين . وقد طويت صفحة هذا الصراع بين إنجلترا وفرنسا في حوض النيل والذي استمر أكثر من قرن من الزمان ، بالوفاق الودي الذي تم توقيعه في عام ١٩٠٤ وقد أعلنت إنجلترا في هذا الوفاق أنها لا تنوى إدخال أى تعديل على الوضع السياسى لمصر ، وأعلنت فرنسا من جانبها « أن تتوقف عن نشاطها بمطالبة إنجلترا لتحديد فترة احتلالها لمصر » .

وكان الصراع في خلال القرن التاسع عشر بين إنجلترا وفرنسا حلقة متشابكة الأطراف والنزعات مرتبطة بعضها ببعض بالرغم من اختلاف المظاهر بعض الشيء متأثرة في ذلك بالظروف الخاصة وانقسمت الدول الأوروبية معسكرات يناهض بعضها البعض ، وقد تزعمت إنجلترا كتلة من هذه الدول لمحاربة فرنسا التي قادت معسكراً ثانياً ، وانتقلت بين هذين العسكريين هذه الدولة أو تلك حسباً أمله سياستها الخاصة لتحقيق أمانها مستغلة في ذلك العداء المستحکم بين الدولتين الكبيرتين ، وكانت فرنسا تحاول جاهدة أضعاف إنجلترا والتفوق عليها في جميع الميادين السياسية والاقتصادية . وكانت إنجلترا بدورها تعمل على الحد من انتشار الافكار الثورية الجديدة التي نادى بها فرنسا والتي سببت لها متاعب كثيرة وبخاصة في أمريكا ، كما سبق أن أشرنا .

وقد أثار احتلال فرنسا لمصر مخاوف بريطانيا بالنسبة إلى حوض البحر الأبيض المتوسط الذى يجرى فيه شريان مواصلاتها مع الشرق القريب والبعيد وكانت إنجلترا في خشية من عودة الفرنسيين إلى مصر ثانية ، كما كانت في خوف من أن تعمد فرنسا إلى قفل البحر الأبيض المتوسط في وجه الاسطول الانجليزى بحكم موقعها عليه وبسلطانها على إيطاليا ، لذلك نجد أن بريطانيا قد أخذت في فتح طريق لها إلى وادى النيل من ساحل البحر الاحمر بعيداً عن متناول الاسطول الفرنسى ، فجاءت عن هذا الطريق بثلاث أوطر هندية تحت قيادة السير دافيد بيرد الذى نزل في القصير ومنها إلى النيل وسافرت بالمرაკب إلى رشيد التي وصلتها في نهاية أغسطس سنة ١٨٠١ م ، ويتبين لنا مدى خوف إنجلترا من عودة فرنسا إلى مصر أنها قد بقيت في أرض مصر لأكثر من عام بعد خروج الفرنسيين وتوقيع معاهدة أميان في ٢٧ مارس سنة ١٨٠٢ م التي لم تكن إلا هدية مؤقتة بين الدولتين ، فالجرب قد نشبت فعلاً بينهما في ١٦ مايو سنة ١٨٠٣ م وبالرغم من المشاكل التي كانت تواجهها إنجلترا في أوروبا بسبب تكتل الدول ضدها بزعامة نابليون الذى أصدر قرار برلين بتحريم التجارة بين دول أوروبا

الخاضعة لنفوذ فرنسا وبين إنجلترا سواء كان ذلك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، فان إنجلترا لم تغفل الوضع في حوض النيل وكانت تستعد لمواجهة ما قد يحدث فيه من تطورات بتدخل الفرنسيين ومن ذلك أنها أرسلت بعثة إلى أتيوبيا برئاسة اللورد فلتشيا ومعها هنري صولت القنصل الانجليزي في مصر ، للاتفاق مع النجاشي على منح قواعد حريرية في أرض الدنا كل لاستخدامهما لنزول الجنود البريطانية الهندية إذا دعت الظروف إلى ذلك في حالة عودة الفرنسيين إلى مصر ، وجاءت هذه الفترة حملة فريزر لمساعدة المالك ضد سلطة الباب العالي وكان عملها هذا مناقضاً لما جاء في معاهدة أميان بشأن إعادة مصر لسلطة الباب العالي . وقد باءت هذه الحملة بالفشل .

وبعد حوالي الستين عاما من خروج فرنسا من مصر عرض نابليون الثالث على إنجلترا مقترحه بشأن تقسيم شمال أفريقيا على أن تكون مصر من نصيب إنجلترا ، غير ان اللورد بالمستون رئيس وزراء بريطانيا حينذاك رفض هذا العرض ومرجع هذا الرفض انه قد وجد ان بقاء مصر تابعة للدولة العثمانية هو خير ضمان لمصلحتهم ثانياً انها (أى انكلترا) لم ترداعياً في ذلك الحين لتتحمل أعباء مالية بسبب بسط حكمها على مصر ، وهناك نقطة هامة أخرى كان لها أثرها وهي أن الفكرة الاستعمارية في ذلك الحين لم تكن قد تبلورت بعد وكانت بريطانيا في موقف المترقب الحذر حتى تنجلي مطامع غيرها من الدول ، لكنها لم تكن لتغضض عينها عن نشاط فرنسا وغيرها في هذه المنطقة ، واتخذت من الاحتياطات ما تواجه به التطورات الدولية بعد افتتاح قناة السويس في سنة ١٨٦٩ م الأمر الذي ازدادت معه أهمية مصر في الاستراتيجية البريطانية ، لذلك نجد ان حملة نابيير على أتيوبيا في ١٨٦٧ / ١٨٦٨ م لم تكن في واقع الأمر إلا تجربة قامت به قوات عسكرية للاستفادة من نتائجها في حالة العودة لاستخدام هذا الشاطئ لغزو مصر إذ جاء إليها الفرنسيون .

وجاءت الحرب السبعينية بين ألمانيا وفرنسا بعد أن اتخذت إنجلترا موقفاً سلبياً من تطورات الأحداث التي انتهت ، باعلان فرنسا الحرب على ألمانيا، وكان من مصلحة إنجلترا أن تدخل فرنسا في عراق يبعدها عن الميدان الدولي لفترة من الزمن ، قد تطول أو تقصر ، وقد تركت هذه الحرب تتقدم في الفنون العسكرية وللصناعية، فزاد القلق بين دول أوروبا التي اهتمت بتأمين سلامتها بالدخول في محالفات ، التي تنتهي عادة بالحرب بين المعسكرين المتنافرين ، وقد أبعدت الهزيمة التي حلت بفرنسا ، هذه الدولة من ميدان الصراع مع إنجلترا لفترة بلغت ما يقرب من العشرين عاماً أخذت

في خلالها المنتجات الصناعية في الازدياد ، كما أخذت رؤوس الأموال الأوروبية في التدفق خارج مواطنها للاستثمار بطريقة أو أخرى وللحصول على المواد الخام الضرورية للصناعات ، وعملت الدول الأوروبية على حماية منتجاتها . الأمر الذي كانت من نتائجه عزل الجزائر البريطانية وحرمانها من أسواق القارة الأوروبية . واتجهت أنظار الدول صوب النوسع في أفريقيا لفتح أسواق جديدة لتصريف المنتجات وللحصول على المواد الأولية اللازمة للصانع ، وكانت فرنسا قد أخذت في استعادة قوتها بعد هزيمتها في الحرب السبعينية ، واتجهت بدورها نحو أفريقيا لإنشاء فرنسا الجديدة ، كما حاولت ألمانيا أن تؤسس في هذه القارة « ألمانيا الجديدة » ، أما روسيا فقد كان اهتمامها موجهاً إلى آسيا ، وأن كل ما قامت به من نشاط في أتيوبيا كان مساندة منها لفرنسا في صراعها لضعاف مركز بريطانيا . وإذا نظرنا إلى خريطة أفريقيا نجد صورة واضحة للتسابق بين بريطانيا وفرنسا بصفة خاصة فشاطئ أفريقيا الغربي يكاد أن يكون سلسلة من المستعمرات التي تسيطر عليها بريطانيا وفرنسا ، فهذه فرنسية وجارتها بريطانية ثم فرنسية وبريطانية وهكذا وتقوم في خلف هذا الشاطئ الصحراء الكبرى وتسيطر عليها فرنسا .

٢ — تطور الصراع بين الدول :

شهدت النيف والستون عاماً الأولى من القرن التاسع عشر الميلاى تطورات خطيرة في اتجاهات الأوروبية بعامة وفرنسا وانجلترا بخاصة ، وقد سارت هذه الاتجاهات قدماً مع التقدم الزراعى والصناعى ، الذى كان له أثره فى نظم الحكم ، كما كان لهذا التقدم انطباعاته التى شكلت أهداف الدول ، وقد خضعت تلك الأهداف بآدى ذى بدء لتحقيق مطالب أصحاب السلطان ورجال المال وكان هؤلاء قلة تتحكم فى موارد الدول وتدخل فى محالفات ، انقسمت معها أوروبا ومعسكرات جمع كل منها أصحاب المصلحة المتقاربة ، وبالرغم من أن الدوافع التى حركت هؤلاء لبسط سيطرتهم كانت عاطفية غايتها تحقيق النفع لتلك الطبقة ولاظهار قوة هيبتها وتفوقها على منافسيها فى الميدان الدولى ، فإن أولئك نفر من أصحاب السلطان ورجال المال كانوا يهدفون نحو تأمين طرق الملاحة البحرية وسلامة محطات تموينها وكان طبيعياً والحالة هذه أن يحدث الاصطدام بين الدول بسبب التسابق للسيطرة على الأماكن الاستراتيجية التى تتحكم فى طرق الملاحة وموارد الخامات . ولم تشترك الشعوب مع

طبقة السلطان والمال في أهدافها لأن حالة الشعوب في ذلك الحين لم تكن قد بلغت الدرجة التي شعرت معها بالحاجة إلى أسواق جديدة لتصريف المنتجات المتزايدة، وللحصول على المواد الخام بأسعار تمكنها من المحافظة على أسواقها ومستوى صناعاتها أمام منافسة غيرها من الدول. ولهذا بقي التنافس في الفترة الأولى من القرن التاسع عشر قائماً بين أصحاب السلطان والمال في مختلف الدول وقد كنت وراء هذا التنافس العاطفة الشخصية ومطامعها المشوبة بالحسد والغيرة وحب الظهور بالقوة والنفوذ، وقد بدأ التنافس بين الدولتين اللتين تصدرتا التنافس وهما إنجلترا وفرنسا في حوض البحر الأبيض المتوسط وشواطئ غرب أفريقيا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، ولم يتطور هذا التنافس إلى المرحلة التي أضفت عليه المظهر الاقتصادي إلا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي، عندما أخذت الشعوب في المساهمة في هذه الاتجاهات عن طريق أموالها التي دفعت بها إلى خارج بلادها لاستثمارها والهجرة وإلى ماغير ذلك.

وقد أخفى المظهر الاقتصادي بين طياته أكثر من عنصر انتقلت من جيل إلى جيل مع رواسب الماضي، وكانت الدعوة إلى التبشير من أبرز العناصر التي تخلقت عن العصور الماضية، والتي استمد منها التوسع الإقليمي قوته، وسار التبشير جنباً إلى جنب مع العنصر الاقتصادي وصار كل منهما متمماً للآخر في تحقيق مطامع الدول التي أخذت في الازدياد إلى درجة أصيبت معها الدول بحالات من الصرع أفندتها قيمها الإنسانية.

وقد تميز مسلك كل من فرنسا وإنجلترا بطابع المجتمع في كل من البلدين، فالإنكليزي يؤمن بطبيعته، عن وعى وعن غريزة، بمصلحته في البحار وغايته في أن يحتفظ بقوة بحرية تفوق على غيرها مهما كان الثمن على حساب الغير، ولم يكن للإنكليزي أصدقاء أبداً أو أعداء أبداً بل كانت الأبدية لمصلحته أولاً وقبل كل شيء فهو يقاوم غيره بكافة الوسائل الدبلوماسية أو بالحرب إذا اضطره الأمر للاحتفاظ بتوازن القوة البحرية، وقد اكتسب الإنكليزي من عراكة الطويل في البحار بالكثير من الصفات ما عاونته في المشاكل الاقتصادية وكان لجوده وبرود طبيعته الأثر الأول في مغالبة الشدائد.

أما الفرنسي فقد تأثر بالحروب الطويلة التي خاض غمارها ضد النبلاء والاقطاع والكنيسة وقد جعله كل ذلك سريع العاطفية، تصدر قراراته دون تمحيص ودون أن

يدخل في حسابه المكسب أو الخسارة كما يفعل الانكليزي شأنه في ذلك شأن شعوب البحر الأبيض المتوسط ، لذلك قد أفادت بريطانيا من أخطائه وصبرت عليه حتى يستنفذ طاقته فتمتغلب عليه ، والبريطاني بطبيعته تطوري والفرنسي ثوري .

وكان لمصر نصيبها الذي أسهمت به في الصراع بين الدولتين ، فقد كانت قاعدة المحور الذي دار حوله التطاحن لأكثر من قرن من الزمان ، وحاولت بريطانيا أن تستقطع من مصر أجزاءها الجنوبية باتهامها إياها بأنها ترغب في التوسع واستغلال الغير ، والحقيقة وواقع الأمر ينفيان هذا الاتهام نفياً قاطعاً . فمصر في تاريخها القديم والحديث لم تحاول استعماراً كما عمل الأوروبي على تحقيقه ، لأن الشعب المصري بطبيعته لا يميل إلى ذلك ولم يشترك الشعب في عهوده المختلفة إلا قليلاً في الحروب التي شنها حكامه الذين استخدموا المرتزقة من الجنود الأجانب ، وحتى في اشتراكه في بعض الحروب التي دفعت إليها ظروف قاهرة فانه قد أعطى البلد الذي وصل إليه كامل حقوقه وعمل جاهداً لرفع مستواه في مختلف أوجه نشاط الحياة .

* * *

انتقل التسابق بين الدولتين بعد خروج فرنسا من مصر إلى شمال وغرب أفريقيا وصارت تنتقل المناورات والمداورات من نقطة إلى نقطة وكلها تهدف إلى منع إنجلترا من تثبيت أقدامها أو بسط نفوذها في صورة أو أخرى على حوض وادي النيل ، وكانت إنجلترا تعمل بدورها على تحطيم الخطط الفرنسية ويتبين لنا من الجدول المرفق مع هذا نشاط الدولتين في هذا المضمار ونرجو أن نستطيع الفاريء عن ذرأ في تكرار ما سبق أن تعرضنا له بالقدر الذي يتطلبه البحث استكمالاً لعناصر الموضوع .

وبينا نجد ان بريطانيا كانت تحاول تصفية مشاكلها مع فرنسا بعد خروجها من مصر بعقد معاهدة اميان التي تعهدت فيها بريطانيا فيما تعهدت به من إعادة ممتلكات للدول ، بعدم احدث تغيير في وضع مصر وعلاقتها بالباب العالي ، فانها - أي بريطانيا - كانت تحشى قيام فرنسا بغزو لمصر مرة ثانية - لذا أرسلت حملة فريزر في سنة ١٨٠٧ م لمناصرة المالك وإعادة سلطانها على مصر والارتباط معهم بمعاهدة ، وقد فشلت هذه الحملة - وبعد ذلك أرسلت إنجلترا بعثة إلى الحبشة من اللورد فلنشيا وهنرى صولت للحصول على قواعد في أرض الدناكل لنزول قواتها للزحف على مصر إذا قامت فرنسا منفردة أو مع بعض الدول المناصرة لها ، على قفل البحر الأبيض

للمتوسط في وجه بريطانيا ، وعقدت بريطانيا معاهدة ٣٠ مايو سنة ١٨١٤ م مع فرنسا اعادت بموجبها فرنسا ممتلكاتها ومؤسساتها ومصانعها في غرب أفريقيا ، ولم يمض طويل وقت حتى نزلت فرنسا في الجزائر في عام ١٨٢٠ م . وتنتقل من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى أنيوليا لعقد معاهدة صداقة وتجارة في سنة ١٨٤٢ م مع يوحنا نجاشي شوا في أعقاب معاهدة ١٦ نوفمبر سنة ١٨٤١ التي عقدتها بريطانيا مع النجاشي وقد جددت بريطانيا هذه المعاهدة في ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٩ ارتبط فيها النجاشي وخلفاؤه من بعده بصداقة بريطانيا .

واتجهت بعد ذلك قوى التسابق بين إنجلترا وفرنسا إلى شرق أفريقيا وجزيرة مدغشقر ، فبريطانيا كانت تهدف نحو منع فرنسا من تلك المنطقة وأصدرت في عام ١٨٦١ م قراراً بتحكيمها في الخلاف بين ابني السلطان سعيد الذي كان يحكم زنبار من مسقط (في جنوب شرق الجزيرة العربية) وذلك بتقسيم المملكة قسمين ، وكان الجزء الأفريقي ويشمل زنبار من نصيب السلطان مجيد وتولى الابن الثاني للسلطان سعيد الجانب الآسيوي في مسقط ، وفي ١٠ مارس سنة ١٨٦٢ أعلنت فرنسا وإنجلترا اتفاقهما على المحافظة على استقلال كل من مسقط و زنبار وتركت بريطانيا مدغشقر لفرنسا وتبع ذلك ظهور النشاط الفرنسي عند مدخل البحر الأحمر حيث عقدت هذه الدولة معاهدة مع زعماء الدناكل في ١١ مارس سنة ١٨٦٢ م تخلى بموجبها هؤلاء الزعماء عن منطقة « أوبوك » ، وبهذا حصلت فرنسا على نقطة أمامية لها خطرها على مدخل البحر الأحمر يبدأ منها الحزام الأفريقي الذي يمتد من شاطئ البحر الأحمر ويشمل منطقة حوض بحر الغزال وينتهي عند المحيط الأطلسي وكانت فرنسا تهدف من إقامة هذا الحزام ليكون حاجزاً أمام النوسع البريطاني شمالاً إلى حوض النيل وهكذا كانت لفرنسا نقطتان استراتيجيتان أحدهما في البحر الأبيض المتوسط بعد احتلالها للجزائر والثانية عند مدخل البحر الأحمر في « أوبوك » .

وبعد ذلك سنوات قليلة حدث أن احتجز النجاشي تيودور بعض الرعايا البريطانيين في محبسه فأرسلت الحكومة البريطانية حملة الجنرال روبرت نايبير في ١٨٦٧ م لانقاذ هؤلاء الرعايا ، وما يسترعى الالتفات ان هذه الحملة قد غادرت البلاد الآتيوية بعد انتصارها على النجاشي الذي انتحر أثر هزيمته ، ولم تحاول أن تحصل على مغن كما أنها لم تفرض عقوبات بل تركت الزعماء المحليين يتباحثون حول العرش الأمر الذي استمر حتى ١٨٧٢ م عندما استطاع يوحنا حاكم التجري أن يعلن نفسه نجاشياً ،

وفي الواقع ان بريطانيا قد اكتسبت هدفين من خروجها على هذه الصورة من أتيوبيا أولاً أنها تركت البلاد في حالة من الفوضى فصارَتْ نخباً لصيد المغامرين ، وثانياً انها كانت تخشى أن تفرض عقوبات أو التزامات على دولة مسيحية ، وتركت الأمر للزمن . ولا ننسى ان بريطانيا قد اكتسبت خبرة حربية قد تفيدها اذا ما جاء الفرنسيون الى مصر مرة أخرى . وجاءت إيطاليا إلى حوض البحر الأحمر ولم تكن لها حينذاك في ذلك مصلحة فحصلت على منطقة عصب، وذلك في ١٥ نوفمبر سنة ١٨٦٩م أي قبيل افتتاح قناة السويس بأيام قليلة ، وقد كان لافتتاح هذه القناة أثرها البالغ في انعكاساته على الصراع الدولي ، وأخذت بعد ذلك إيطاليا في تثبيت أقدامها في منطقة عصب، وعادت بريطانيا إلى سياستها التقليدية التي اكتسبتها من خبرتها الطويلة فهي بينما تظهر عدم الاهتمام بمنطقة ما تسعى جاهدة لمنح هذه المنطقة استقلالاً تعترف به هي ومنافستها فرنسا أو غيرها ، وتدخل في اتفاقات دولية بشأن الحدود، وانها بنشاطها هذا إنما ترمي إلى الاحتفاظ بهذه المنطقة في حمي القانون الدولي ، وترك المسألة لبعض الزمن فتبتاعها لقمة سائغة كما حدث في قضيتي زنبار ومصر ، فقد أوضحنا من قبل مسألة التحكيم في تقسيم سلطنة السيد سعيد ومعاهدة إنجلترا وفرنسا في ١٨٦٢م اما في مصر فقد عقدت اتفاقاً في ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بشأن ساحل السومال ، وأصدر الباب العالي فرماناً في ٢ أغسطس سنة ١٨٧٩ بعدم السماح لمصر بالتنازل عن أي جزء من الأراضي التابعة لها ولم يكن كل ذلك إلا توطئة للسيطرة على تلك الأجزاء بعد أن أجبرت مصر على الانسحاب من منطقة ساحل البحر الأحمر في ١٨٨٤م .

وفي الفترة التي سبقت انسحاب مصر من البحر الأحمر ازداد النشاط الإيطالي الذي بدأ في عام ١٨٦٩م فاستوات شركة روباتينو الإيطالية على رهيطه والجزائر الساحلية . ولم يكن دخول إيطاليا إلى هذه المنطقة إلا إيداناً بدخول قوى تستطيع بريطانيا استغلالها لمصلحتها في المحافظة على ذلك الجناح الخطير الأهمية بالنسبة لحوض النيل الأوسط والأعلى .

وأخذ الصراع يسير في خطى سريعة من عام ١٨٨٠م الذي أصدرت فرنسا في نهايته إعلاناً (بتاريخ ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٠م) أوضحت فيه حدود منطقة أبوك ، وتبع ذلك احتلال فرنسا لتونس في سنة ١٨٨١م بموجب معاهدة « قصر سعيد » وكانت هذه المعاهدة من الناحية الواقعية اقتراب الخطر الفرنسي على مصر عن طريق

الساحل الأفريقي فلم تكن تفصل بينهما - مصر وتونس - إلا مسافة قصيرة نسبياً كما كان لفرنسا أن تتحكم على الطريق البحري ، وقد شعرت بريطانيا بالخطر الذي يهدد مصالحها التي كانت تدعيها لنفسها في حوض وادي النيل ، والتي كانت تسعى جاهدة نحو تحقيقها . وتبع ذلك احتلال مصر في ١٨٨٢ م ، وعملت إنجلترا بطرقها الخاصة ، التي سنتعرض لها فيما بعد لتثبيت أقدامها في منطقة وادي النيل ، واشتد لذلك الصراع بين الدولتين واستطاعت فرنسا كسب الجولات الأولى في الصراع وكان ذلك نتيجة لدخول ألمانيا في الميدان وما حدث بينها وبين إنجلترا من جفوة ، فتكونت كتلة لتحد من المطامع البريطانية في هذا الجانب من أفريقيا .

وبدأت رقعة النضال تضيق شيئاً فشيئاً حتى انكسرت حول منطقة حوض وادي النيل والمنطقتين شمال وجنوب أثيوبيا وساحل البحر الأحمر الأفريقي ومنطقة أوغندا ، وهذه جميعها تكون وحدة وادي النيل التي امتدت إليها الإدارة المصرية وفتحت أبوابها للبدنية وللتجارة . واتخذت القوات التي اشتركت في الصراع قواعد لها في الأراضي المجاورة ، عملت منها كل من الدولتين المتنافرتين للوصول قبل الأخرى إلى حوض النيل الأعلى ووضع يدها عليه . وتنقسم المناطق التي اتخذ الصراع فيها مراكز زحفه ، ثلاث قواعد أساسية وهي :-

١ - المنطقة الشمالية . حوض وادي النيل الأدنى والأوسط .

٢ - المنطقة الشرقية . أثيوبيا والقرن الأفريقي وأوغندا وكينيا من الشرق والجنوب الشرقي .

٣ - المنطقة الغربية . الأملاك الفرنسية والكونغو من الغرب والجنوب الغربي . وظهرت إيطاليا وشركات شرق أفريقيا البريطانية والكونغو الحرة السياسية البريطانية بينما عملت في جانب فرنسا كل من أثيوبيا وروسيا وترددت ألمانيا وبلجيكا بين المعسكرين .

ولم يكن هنالك من مفر بعد أن اشتد النشاط أن تلتقي الدولتان المتنافرتان وجهاً لوجه لتصفية موقفهما الذي بلغ ذروة أزمته في السنوات العشر الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي . التي سبقها نشاط كل الدولتين لتدعيم قواعدها في المراكز الخلفية المتنازع عليها كما عملت كل منهما على تأمين موقفها من الناحية الدبلوماسية .

المنطقة الشمالية :

لعل أوضح ما تميزت به هذه الرقعة انها كانت الهدف الاول الذى اختارته فرنسا لاحتلاله فى سنة ١٧٩٨ م لتتخذ منها مركزاً تبسط منه سيطرتها على الطرق الملاحية فى البحرين الاحمر والابيض المتوسط ، ولتفرض سلطانها على الطرق البرية، كما اتخذت من هذه المنطقة قاعدة لنشاط شحناتها السرية للعمـل فى الشرق الأدنى والاقصى على اثاره الفتن والقلاقل وكان مقصدها من كل ذلك ازعاج منافستها انجلترا فى طرق مواصلاتها ونفوذها، ويرجع اختيار الفرنسيين للسيطرة على مصر الى وضعها الاقليمي من ناحية المناخ وسهولة مواصلاتها الداخلية ومواردها الزراعية، وسيطرتها على ساحلى البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط الشرقى .

وقد نبت فى هذه المنطقة الغرس الاول الذى انفلقت عنه المسألة الشرقية - مصر - وحوض البحر الابيض المتوسط ، وحول هذه المنطقة اشتد الصراع بين الدولتين الامر الذى استمر أكثر من مائة عام وامتد ميدانه واتسع حتى شمل جميع أفريقيا شمال خط الاستواء ، وشمل فى نهايته رقعة واسعة جنوبى ذلك الخط مباشرة.

ولم يكن لبريطانيا أن تتقبل هذه الضريبة القاصمة لما كانت تدعيه لنفسها من مصالح فى هذا الجزء من شمال شرق أفريقيا ، دون أن تنتقم من غريمتها . فالاسطول الانكليزى قد تعقب السفن الفرنسية التى لم تسكن وجهتها معروفة فى بادىء الامر ، وجاءت القطع الانكليزية بقيادة نلسن وهاجمت المراكب الفرنسية بعد أن ألقت مراسيها فى مياه خليج أبو قير وأنزل بها خسارة فادحة وكان ذلك بعد اسبوع تقريباً من نزول الحملة الفرنسية فى مصر بقيادة نابليون بونابرت ، وأخذت بعد ذلك البحرية الانكليزية فى فرض حصارها على الشاطيء المصرى لمنع وصول الامدادات من فرنسا ونشطت فى نفس الوقت لدى الباب العالى لعقد حلف تتعاون بموجبه الدولتان على إخراج الفرنسيين من مصر ، وكانت روسيا تسعى لدى الباب العالى لنفس الغرض ، وتم فعلاً الوصول إلى اتفاق بين روسيا وتركيا فى ديسمبر سنة ١٧٩٨ م وتلاه توقيع الحلف التركى والبرطانى فى يناير سنة ١٧٩٩ م .

ومما يسترعى الالتفات ان الحلف العثمانى البريطانى قد ألزم تركيا بتقديم جيش مائة ألف من الجنود تشتترك معه جميع القطع الحربية البحرية العثمانية فى حرب الفرنسيين ، وتعهدت بريطانيا بالاحتفاظ بعدد مناسب من قطع أسطولها فى شرق

البحر الابيض المتوسط، وأن لاتضع إنجلترا سلاحها إلا بعد تأمين أجزاء الامبراطورية العثمانية ، وهكذا استطاعت بريطانيا أن تقذف بالجيش العثماني وبيحرته في الصف الاول للقتال فيتلقى بذلك الضربة الاولى ، وتبقى في الصفوف الخلفية إلى أن يضعف الطرفان فرنسا وتركيا ، ويتبين لنا هدف بريطانيا من هذا الاتجاه بما أصاب الحملة التركية التي نزلت في أبو قير في يوليه سنة ١٧٩٩ م من هزيمة منكرة ، وقد كان مع هذه القوة السير سيدنى سمث في سفينه تبحره (الدجله) واضطرت الحملة التركية إلى مغادرة المياه المصرية ، وبما تجدر الإشارة اليه أنه بينما كانت أهداف روسيا وإنجلترا هي طرد الفرنسيين من مصر فانهما لم يوقعا حلفا ثلاثيا - روسيا - إنجلترا وتركيا - بل عقدت كل من الدولتين حلفا منفصلا مع الدولة العثمانية . ويبدو أن السبب في ذلك ترجع إلى تفادى اصطدام مصالح الدولتين وإلى ان ارتباط إنجلترا في حلف مشترك فيه دولة أوروبية من شأنه أن يحد من أغراضها، وقد أوضحها وزير الحربية البريطانية حينذاك في قوله « ان امتلاك أية قوة مستقلة لمصر سوف يكون ظرفاً سيئاً بالنسبة لمصالح إنجلترا » (١) .

وأخذت القوات العثمانية تشق طريقها إلى مصر حتى وصلت العريش وفي خلال ذلك كانت المفاوضات جارية لجلاء الفرنسيين عن مصر وتم الوصول إلى الاتفاق الذي عرف « باتفاق العريش » . لكن إنجلترا قد تباطأت في إعلان موافقتها على هذا الاتفاق خوفاً من عودة الجيش الفرنسي ، بعد الجلاء عن مصر ، إلى فرنسا فيزيد من قوة فرنسا . وجاءت قوة بريطانيا بحرية وأخرى من الهند عن طريق القصر إلى قنا ومنها عن طريق النيل إلى رشيد وبقيت القوات التركية والانجليزية في أرض مصر بعد خروج الفرنسيين في سنة ١٨٠١ ولجأت إنجلترا إلى وسائلها للبقاء في مصر، غير ان الدول الأوروبية ومنها مندوب روسيا في مؤتمر اميان أصرت على انسحاب إنجلترا في مصر وإعادتها لسلطان الباب العالي ووجدت إنجلترا نفسها مضطرة إلى ترك البلاد لتطور الاحوال في القارة الأوروبية . كما أنها وجدت إن المماليك وهم عملاءها قد اتصلوا بالفرنسيين ، وبالرغم من مشاكل إنجلترا في حربها مع فرنسا في أوروبا فانها كانت تتحشى ظهور الفرنسيين على أرض مصر ثانية ، لذلك أصلحت ما بينها وبين زعماء المماليك لتتذرع بهم كوسيلة للتدخل في شئون مصر

وغزوها ، وفعلا أرسلت حملة فريزر في سنة ١٨٠٧ لمساعدة المماليك ولتفويض سلطة الباب العالي غير ان هذه الخطة قد فشلت وانسحبت الحملة . وأرسلت اللورد فلنشيا وهنرى صولت إلى النجاشى للحصول على موافقته على منح بريطانيا قاعدة عسكرية في أرض الدتاكل تستخدمها الجنود البريطانية الهندية لغزو وادى النيل إذا دعت الضرورة لذلك .

واتجهت بعد ذلك بريطانيا إلى سياستها التقليدية بالتدخل تدريجياً في شئون مصر حتى تكتسب مع مضي الزمن حقوقاً تنتقل بها من مرحلة إلى مرحلة حتى تصل مرتبة استخدام تلك الحقوق كوسيلة للضغط السياسى الذى يتبعه استخدام القوة العسكرية وكانت مسألة الرقيق من أولى الادوات التى استخدمتها للضغط على مصر وبخاصة بعد أن حصلت على فرمانات الباب العالي ، وموافقة مؤتمر فيينا على التوصية بإلغاء النخاسة ، وأخذت الظروف تتطور من صورة إلى أخرى حتى انتهت ، كما سبق أن أوضحناها بنزول القوات البريطانية في مصر في سنة ١٨٨٢م

وقد بدأت مع هذا الاحتلال مرحلة جديدة في العلاقات البريطانية المصرية بعامه وبالسودان بخاصة ، فاستغلت الازمة المالية بالاضافة إلى قواتها المحتلة للسيطرة على جهاز إدارة البلاد وملحقاتها وصارت كلمتها هى العليا الواجبة التنفيذ . وكان الموقف المالى حجة تذرعت بها لمنع مصر من عملياتها فى السودان لاعادة الأحوال إلى مجاريها الطبيعية ، كما أن ذلك الموقف بعد أن هيأت له ظروفه فى السودان بعد هزيمة هكس جعلها تنفذ الخطوة التالية وهى إخلاء السودان على يد غوردون ، وانسحاب حملة الانقاذ بعد سقوط الخرطوم (٤) ، أعلنت أنها غير مسؤولة عن إنقاذ القوات المصرية الموجودة حينذاك فى دارفور وبحر الغزال وخط الاستواء وشرق السودان (٥) ، وقد ذكر لوجارد ه إن الاطلاع على كتاب عشرة أعوام مع المهدي ، والمقال الذى كتب فى المجلة الأهلية فى فبراير سنة ١٨٩٣ يجعل القارىء يشعر بالعار بسبب الدور الخطير الذى لعبناه فى تاريخ أفريقيا وذلك بإخلاء السودان وما ترتب على ذلك من إراقة الدماء (٦).

(٤) وافقت الملكة فيكتوريا بتاريخ ١٨ أبريل سنة ١٨٨٥م على انسحاب القوات البريطانية من السودان مع الاحتفاظ بحق حرية العمل فى المستقبل . جوين ص ١١٨

(٥) التّن ص ٣٥٧

(٦) لوجارد جزء ٢ ص ٥٧٢

وأخذت الأحوال تزداد سوءاً بالنسبة لمصر في عام ١٨٨٤م عندما بدأت بريطانيا في تنفيذ سياستها الرامية إلى اقتطاع أجزاء وادي النيل ، ففي يونيو من عام ١٨٨٤م عقدت معاهدة مع أتوبيا باسم بريطانيا ومصر، وقد وقعها النجاشي، والرير ادميرال السير وليم هيوت قائد الوحدات البريطانية في الهند الشرقية نيابة عن حكومة جلالة الملكة ، وميسون بك حاكم مصوع نيابة عن مصر . وتسلمت أتوبيا بموجب هذه المعاهدة منطقة البوغوص وجميع ما بها من المبان والمهمات والأسلحة التي تترك بعد انسحاب القوات المصرية من كسلا وأماديب وسنهيت ، وجاء في المادة الرابعة من هذه المعاهدة إعطاء الحق للنجاشي في تعيين مطران الكنيسة الأثيوبية وهي في ذلك قد سلبت حق البطريرك المصري تمهيداً لفصل الكنيسة الأثيوبية عن أمها الكرازة المرقسية ، وجاء في المادة السادسة أن جلالة النجاشي قد وافق على أن يقدم شكواه عن ما يحدث من خلاف مع خديو مصر وذلك بعد توقيع المعاهدة ، إلى الحكومة البريطانية لتسويتها . وهذه صورة من محاولات إنجلترا لتنفيذ خططها وتعزيز مركزها في حوض وادي النيل ، الأمر الذي كانت تعارضه وتقاومه روسيا وفرنسا بكل قوة في الميدان الدولي . وقد أضعف هذا النشاط موقف بريطانيا وخشيت معه أن تتطور المسألة في غير مصلحتها وبخاصة في السودان حيث أخذ مركز غوردون في التدهور وتحقيق فشله في مهمته وازداد خوفها أن ينتقل الزمام إلى يد أجنبيّة - فرنسا - لذلك عمدت بريطانيا إلى وسائلها الدبلوماسية لتقوية موقفها في مصر والسودان ، وكان أن عقد مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥م للنظر في الشؤون الأفريقية ، ووصلت الدول إلى اتفاق على الأسس التي يقوم عليها بسط السلطان على المناطق الأفريقية وما تجب مراعاته في مختلف الشؤون وشملت قرارات هذا المؤتمر ضمن ما اشتملت عليه عن التجارة والملاحة الخ الخ ، النواة التي قامت عليها النظرية التي تفسر « الاحتلال الفعلي » فقد جاء في التصريح الخاص بالشروط الأساسية الواجب مراعاتها لتحقيق شرعية احتلال أية دولة لمنطقة ما على الساحل الأفريقي . حيث جاء في المادة الرابعة والثلاثين أن « أية دولة تستولى من الآن فصاعداً على أرض من ساحل القارة الأفريقية من غير ممتلكاتها عند توقيع المعاهدة ، والتي لا يملكها أحد ، فإنه يتحتم على تلك الدولة ، أو الدولة التي تبسط حمايتها ، أن يتبع احتلالها أو بسط حمايتها إعلان الدول الموقعة على قرارات المؤتمر تعلنها فيه بما وضعت يدها عليه - امتلاكاً أو حماية - وبذلك يتسنى بموجب هذا الاخطار للدولة ذات الشأن والمصلحة

أن تطالب بحقوقها إذا كانت لها حقوق . ولما كان هذا النص قد ترك مسألة مصر دون تسوية فإن بريطانيا لجأت بعد انتهاء المؤتمر بفترة وجيزة إلى مفاوضة الباب العالي على أساس ما كر ظاهره بحث مسألة الجلاء عن مصر ، وباطنه الحصول على اعتراف من الباب العالي بشرعية الاحتلال وقد عقد فعلا الاتفاق الأولى في عام ١٨٨٥ م ، كما خرجت بموجب هذا الاتفاق مسألة السودان يجعلها مادة تبحث مصالحاتها ، وجاءت بعد هذه الاتفاقية المعاهدة النهائية بعد قيام المندوبين الساميين العثماني والبريطاني لبحث المسألة ، وذلك في عام ١٨٨٧ م ولم تنفذ تلك المعاهدة ، كما سبق أن أوضحنا لتدخل فرنسا وروسيا. ولم تكن هذه المعاهدة في الواقع إلا امتداداً للاتفاق الأولى الذي تم في سنة ١٨٨٥ م .

وعلى هذه الأسس نسجت السياسة البريطانية خيوطها حول وادي النيل لفصل شماله عن جنوبه ، وحاولت أن تجعل منه « أرضاً مباحاً » وتعطلت بسبب هذا الاجراء التجارة وصار السودان في شبه عزلة تامة عن العالم الخارجي . الامر الذي جعل رجال الاعمال من البريطانيين يطالبون بفتح التعامل التجاري مع السودان ورفع الحصار الذي فرضته وزارة الحربية المصرية التي صار السودان تابعاً لها وفق الامر الخديوي العالي بتاريخ ١٥ يناير سنة ١٨٨٤ م وظلت شئونه من اختصاص هذه الوزارة حتى السنوات الأولى من القرن العشرين . وحاول رجال المال من الانجليز تأسيس شركة بريطانية لاحتكار تجارة السودان ومركزها سواكن على غرار شركة شركة شرق أفريقيا وغيرها من الشركات البريطانية التي تقوم بالتمهيد لضم البلد الذي تحتكر تجارته إلى أملاك الدولة ، غير أن الباب العالي ومصر قد عارضتا في هذا الاحتكار ، ولم تكن الظروف الدولية بالنسبة لمركز السودان لتسمح بهذا الامتياز .

ولما كانت بريطانيا تواجه المشاكل التي تثيرها فرنسا وروسيا وغيرها منفردة ، فقد جاءت بإيطاليا وسهلت لها احتلال مصوع التي اتخذت منها قاعدة للتوسع في داخلية المنطقة وهدفها من ذلك أن تقوم إيطاليا بحماية القطاع الممتد على ساحل البحر الاحمر الأفريقي الذي يتكون منه جناح حركاتها في حوض النيل . وعملت فرنسا جاهدة لتوطيد قواعدها في مدخل البحر الاحمر وبخاصة بعد أن نقلت انجلترا ميناء عدن ومنعت السفن الحربية الفرنسية من أخذ حاجتها من القمح في عام ١٨٨٣ م عندئذ كانت مشتبكة في حربها مع الصين فسببت لها المتاعب وفي عام ١٨٨٧ أنشأت ميناء جيوتي وأعدته إعداداً كاملاً ليستقبل البواخر وحاولت بريطانيا الحد من

التوسع الفرنسي في هذه المنطقة فعقدت معها معاهدة ١٨٨٨م التي تشير بوجه خاص الى هرر والتي سنتعرض لها فيما بعد .

ازداد نشاط الطليان في القطاع الشرقى بعد توقيع معاهدة أوتشيانا في سنة ١٨٨٩م والذي يهمننا من نشاطها أنها كانت تهدف الى احتلال كسلا الامر الذي تضايقت معه إنجلترا وعارضته معارضة شديدة لخوفها من أن يقوم الطليان بإقامة خزانات على روافد المياه - القاش والعطبرة الذي يتصل بالنيل وبعد مفاوضات دامت ما يقرب من العامين توصلت بريطانيا وايطاليا من الوصول الى اتفاق اعترفت فيه ايطاليا بحق مصر في أعالي النيل بما فيه كسلا ، وبعد أن تم التوقيع على المعاهدة في ١٥ ابريل سنة ١٨٩١م ، وافقت بريطانيا - لا مصر - على احتلال ايطاليا لهذه المنطقة اذا دعت الضرورات العسكرية مع الاحتفاظ بحق مصر . ولم يكن استخدامها لحق مصر في هذه المعاهدة أو غيرها للمحافظة على حقوق مصر لمصر فعلا بل بالعكس لم يكن ذلك إلا وسيلة لابتعاد المنافسين في عقود دولية وتستولى هي على تلك الحقوق عندما تحين الفرصة المناسبة وكل ما يهيم بريطانيا الحصول على توثيق منعاً للمشاكل الدولية .

واشتد النشاط الفرنسي وشعرت بريطانيا بخطورة الموقف وما ينتظر من تطورات لذا أمرت سردار الجيش المصرى كاتشنر باشا دون سابق علم بالحكومة المصرية بالاستعداد لقيام الحملة إلى السودان لاعادة الحياة إلى طبيعتها ، وسارعت بفتح الاعتمادات اللازمة للحملة بعد أن رفض المندوبان الفرنسي والروسي في صندوق الدين الموافقة على المصروفات . وكانت هذه الاعتمادات سلفة لحساب مصر ، وقد زودت إنجلترا كاتشنر باشا بتعليماتها السرية التي لم يسمح له بفض أختامها إلا بعد وصوله الخرطوم والاستيلاء على أم درمان . وكانت هذه التعليمات تتضمن ما يتبع بعد سقوط أم درمان من تسليم القيادة والسفر إلى أعالي النيل لتحقيق وجود الحملة الفرنسية التي قادها مارشان واطاراه بمغادرة البلاد باسم مصر . وذكر لوجارد بصدد حقوق مصر :

«لقد تركت مصر السودان بناء على أمر بريطانيا، وكان من المعتقد أنها قد تنازلت عن جميع حقوقها على هذه الرقعة من الأرض ، غير أن تصريحاً حديثاً من تيجران باشا جاء فيها « أن مصر تحتفظ بكامل حقوقها على جميع المناطق التي كونت جزءاً من مديريةية خط الاستواء المصرية واستمر لوجارد يقول « ان هذا القول الذي ألتقى كالتنبؤ لا يمكن قبوله إذا نظرنا إلى مقاله المستر هاردينج بالنيابة عن الحكومة المصرية

« إن مصر لاتتحمل أية مسئولية بشأن الأهالي في تارك المديرية التي تركتها مصر أى من وادى حلفا وجنوبها ، وأنها تقبل فقط المسئولية من الأشخاص الذين ولدوا شمال تلك المحطة (حلفا) ، ويضيف لوجارد « وبتطبيق نظرية الاحتلال الفعلي ، فان مصر ليست لها حقوق على السودان الجنوبي بسبب أن أقرب نقطة تسيطر عليها (تقيم فيها الامن ، تباشر فيها رعاية الأهالي ، وتحافظ على ممتلكات الأجانب تبعد بحوالى الألفين ميل وقد بقيت على ذلك خلاء السنوات التسع الماضية (٧) » .

وأرسلت بريطانيا بعثة تحت رئاسة رنل رود لعقد معاهدة مع النجاشي . وقد فشلت هذه البعثة في مسعاها لتحويل النجاشي عن صداقته للفرنسيين ، وصار أمراً لأمير منه أن تلتقى فرنسا وانجلترا وجها لوجه في أعلى النيل ، ولما كانت فرنسا لم تعترف بمركز انجلترا في حوض النيل وظلت تقاومه ما يقرب من المائة عام ، وأن زحفها على منطقة بحر الغزال واحتلال مارشان لفاشودة وتونكوود لشامي كان يهدف الى ابطال حجة انجلترا في ادعاءاتها باحتلال مصر لتحقيق أحلامها في ربط مصر مع السكاب وشرق أفريقيا من جهة ومع غرب أفريقيا وشركة النيجر البريطانية من جهة أخرى على حد قول الجنرال مانجان (٨) لذلك أسرع بريطانيا بارسال الحملة المصرية بقيادة ككشنر باشا سردارها ، ولم تشارك القوات البريطانية في المرحلة الأولى من أعمال الحملة .

وننتقل الآن إلى النشاط في القاعدتين الشرقية والغربية والتي برز منها الصراع في صورته السافرة على أرض فاشودة .

(٧) لوجارو جزء ٢ ٥٧١/٥٧٢

تصريح تيجران باشا في مطبوعات البرلمان البريطاني ٧٣٠ بتاريخ ٢٧ أغسطس ١٨٩٢ ، وتصريح

هاردينج بتاريخ ٧ أغسطس سنة ١٨٩٢ م .

(٨) لاقر ص ٥٣٨

● المنطقة الشرقية :

تنقسم هذه المنطقة ، بالنسبة لموضوع البحث ، ثلاث أقسام ، أولها أتيوبيا - الهضبة الحبشية الخالصة ، ثانيهما القرن الأفريقي وهو الجزء الذى يطل على خليج عدن وشاطيء المحيط الهندى - بحر الزنج - الواقع جنوبى خليج عدن حتى مصب نهر الجوبا وثالثها شرق أفريقيا وكينيا وأوغنده وقد كانت مصر تسيطر على الجانب الأكبر من هذه المنطقة فيما عدا أتيوبيا، التى تحتل مركزاً ممتازاً بين جاراتها،التقت فيها الهجرات من جنوبى غرب آسيا والمجموعات الأفريقية من مختلف مناطقها الدانية والقاصية ، كما امتدت إليها المدنية المصرية منذ فجر التاريخ ، وتأثرت بتطور الحياة فى شمال الوادى - مصر - فى مختلف العصور ، وقد ازدادت أهمية أتيوبيا فى استرتيجية حوض وادى النيل بعد افتتاح قناة السويس الأمر الذى أدخل هذه القلعة الأفريقية فى نطاق السياسة الدولية ، وجعلها عنصراً له خطورته فى اعتبارات الجغرافيسية السياسية (الجيوبولوتكس) لهذا الجزء من شمال شرقى أفريقيا ، وبينما تمتاز هذه المنطقة فى مجموعها بوجود منابع النيل وروافده فى أراضيها فان أتيوبيا - الهضبة الحبشية - تسيطر على الجانب الأكبر من موارد المياه التى تمد نهر النيل بالماء والطمى ، فمنها يخرج السوبات والنيل الأزرق برافديه الدندر والرهد ، والعطبرة وتلتقى هذه بمرجى النيل الرئيسى ، كما يخرج منها القاش وخور بركه وهما لا يتصلان بالنيل إلا أن لها أهمية فى اقتصاديات شرق السودان - فى زراعته ومياهه الجوفية بخاصة فى البطانة وبالإضافة إلى ذلك فان أتيوبيا تطل ، وهى فى وضعها الإقليمى الطبيعى ، على الجانب الجنوبى الغربى لحوض البحر الأحمر ، وتمتد سيطرتها على الساحل الأفريقى لخليج عدن وبحر الزنج - من المحيط الهندى - إلى نقطة عند مصب نهر الجوبا ، فهى بذلك تتحكم على جزء كبير من الطريق الملاحي عبر البحر الأحمر وعلى مدخله الجنوبى - بوغاز باب المنذب وخليج عدن - ويشكل هذا الوضع الإقليمى على منافذ التجارة ، العنصر الحساس فى السياسة الدولية بعد أن صار حوض البحر الأحمر ممراً تجارياً بحرياً بعد افتتاح قناة السويس ، وقد أكسبت هذه المميزات الإقليمية الساحلية نشاطاً بحرياً اشتغل به الاتيوبيون فى الأزمنة الماضية ، وكان لهذه السيطرة ولهذا النشاط أثرهما فى توجيه السياسة الأوروبية ، فبالرغم من أنها دولة مسيحية كانت الدول المسيحية فى الغرب تسعى إليها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر لتوثيق عرى الروابط وللتعاون على حرب المسلمين كما سبق أن أشرنا فى الكتاب الأول ، فان السياسة

الدولية الحديثة التي تؤمن بمصلحتها الاقتصادية وبرسالتها لنشر المدنية بين الشعوب الأخرى غير الأوروبية، وقد تعاملت مع أتيوبيا على أساس أنها دولة شرقية متخلفة يجب أن تخضع كغيرها لرسالة الأوروبي فتقبل مايسمح لها به من مدينته في نطاق مصلحة الأوروبي وأقامت هذه الدول مناطق على طول ساحلها خضعت لسيطرتها فعزلت بذلك أتيوبيا عن حوض البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي، وقد تقاسمت هذه المناطق إيطاليا وفرنسا وبريطانيا - الأريتريا - السومال الفرنسي - السومال البريطاني والسومال الإيطالي، وصارت تجارتها الخارجية لا تمر إلا عبر هذا الحاجز وبخاصة المنطقة الفرنسية التي يخرج منها خط السكة الحديد جيبوتي - أديس أبابا، ويبدو أن هذا الحاجز قد أقيم أساساً ليخدم مصلحة هذه الدول في مسألة الرقيق ومنع استيراد الأسلحة والذخائر التي قد تسرب في كميات كبيرة إلى المناطق الأفريقية الأخرى فتخلق قلقاً للمستعمرين، وبالإضافة إلى ذلك فإن الدول تهدف إلى حرمان أتيوبيا من السيطرة على ساحلها حتى لا تتجدد لها أمجادها البحرية ولكي تحافظ على اقتصاديات في مستوى بدائي هزيل، ولحرمانها من استغلال مواردها المعدنية الغنية.

• ارتباط أتيوبيا بحوض النيل :

وقد اتصلت أتيوبيا، في مختلف أوضاعها الإقليمية، بتطورات الحوادث في حوض النيل ويهمنا في بحثنا هذا التعرض لهذه التطورات التي حدثت في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي، وقد أشرنا في الكتاب الأول إلى العلاقات في الفترة من الزمن التي سبقت القرن الثامن عشر، فقد اتجهت إليها السياسة البريطانية لتتخذ منها قاعدة تتحرك منها قواتها العسكرية لغزو مصر إذا عادت فرنسا لاحتلالها بعد خروجها منها في سنة ١٨٠١م وجاءت إليها حملة نابيير قبيل افتتاح قناة السويس وخرجت منها بعد إخلاء سبيل البريطانيين الذين احتجزهم النجاشي تيودوروس في سجنه كما سبق أن أوضحنا، هذا من ناحية بريطانيا في خطتها لمقاومة النفوذ الفرنسي ومن ناحية أخرى بدأت الدول بما فيها بريطانيا في محاولاتها في تثبيت أقدامها في حوض النيل وذلك بالحصول على معاهدات ووثائق من الزعماء المحليين يكسبون بموجبها ملكية لبعض هذه الأقاليم التي أخذت رقعتها في الاتساع شيئاً فشيئاً، ولم تكن هذه المعاهدات والوثائق لقاء ثمن معقول، بل بالعكس كانت تارة عن طريق التخويف وطوراً نظير هدايا زهيدة القيمة من قماش وخمر، وقد فرضت هذه

المعاهدات فرضاً على الزعماء المحليين سواء رضى هؤلاء أو لم يقبلوا وكان ما في يد الأوروبيين من وثائق هو الحجة التي يلتزم بها الزعماء لفرض الحماية والدخول بلادهم ضمن مناطق النفوذ ، والامتيازات ، وقبول النصيحة . وكل هذه تهدف إلى تحطيم النظم السياسية والاجتماعية في تلك المنطقة كما في غيرها من المناطق الأفريقية لتخضعها لخدمة الاستعمارية ، برمع الأسف فان هذا المسلك لا يعدو عن كونه سرقة منظمة استعمارات في الحصول عليها وسائل قانونية زائفة في أحط درجات التدليس والتزوير .

وقد اتخذت منها كل من فرنسا وبريطانيا قواعد لنشاطهما نحو وادي النيل ، كما كان لاثيوبيا نفسها دور هام في الصراع بين الدولتين المتنافستين وقد حاولت أن توطد علاقاتها مع زعماء المهديّة وبخاصة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي عندما اشتد الصراع ودخل في مرحلته الفاصلة . وبهنا أن نتعرف على الوضع في هذه المنطقة في الفترة التي سبقت الحركة المهديّة وعلى تطور العلاقات والأحداث التي تسببت في انسحاب مصر من شاطئ البحر الأحمر والمناطق التي كانت تسيطر عليها الإدارة المصرية .

تقسيم المناطق المصرية في موحى البحر الأحمر :

النشاط البريطاني :

امتدت إدارة مصر على ساحل البحر الأحمر حتى رأس غورد فواى وذلك في السنوات ١٨٧٢/١٨٧٤م واحتلت هرر في سنة ١٨٧٥ ، وأرسلت حملة الجوبا في سنة ١٨٧٥م ، ودخلت مصر في حرب مع اثيوبيا في عامى ١٨٧٥ و ١٨٧٦م انتهت بهزيمة ساحقة للقوات المصرية التي دخلت البلاد من أكثر من جهة تحت قيادة ضباط من الفرنج ، فقد كان الحديو وتؤيده انجائرا يتعقب منافذ تجارة الرقيق لإرضاء للدول الأوروبية ، وقد دفعه إلى هذا المسلك رغبته في الحصول على معاونة تلك الدول فى أزمته المالية ، وبما يؤسف له أنه تقبل نصيحة مستشاريه من الفرنج وأسقط مصلحة بلده من حسابه ، وفاته أن المطامع الاستعمارية كانت تخفى وراء تأييدها له فى توسعه خطة ترمى إلى استنزاف آخر قطرة من دم مصر لتصبح عاجزة بثقل كاهلها الدين فيسهل على الدول وبخاصة انجلترا أن تستولى على المناطق التي تديرها مصر ، وقد اتخذت هذه الدولة من الحديو مشعلا أنار لها الطريق ومهده لدخولها واحترق بعد

أن استنفذ طاقته واحترق فكان خلعته عن عرش مصر . وجاء الاحتلال البريطاني لمصر في سنة ١٨٨٢ وكانت من نتائجه أن أجبرت مصر على الانسحاب من شاطئ البحر الأحمر الأفريقي واستولت بريطانيا على النقاط الاستراتيجية وأعلنت حمايتها على ساحل السومال وميناء زيلع ، وبما يجدر ذكره أن بريطانيا قد مهدت لهذا باتفاقية ٧ سبتمبر سنة ١٨٧٧ بين مصر وبريطانيا ، وبالرغم من أن هذه الاتفاقية قد فقدت صلاحيتها لأن الباب العالي لم يصدق عليها طبقاً للمادة الخامسة فان بريطانيا اتخذت منها حجراً في بناء سياستها .

واشتد النشاط الفرنسي في منطقة أوبوك التي أخذت في الاتساع حتى تكونت منها مستعمرة السومال الفرنسي ، وخشيت بريطانيا من أن يكون هدف فرنسا بسط سيطرتها في صورة ما على هرر ، وبخاصة بعد أن أنشأت فرنسا ميناء جيبوتي التي افتتحت في عام ١٨٨٧م وتقع هذا الميناء في خليج تاجورة الذي تخرج منه القوافل إلى هرر ، وبعد مفاوضات توصلت الدولتان إلى أن ألزمت كل منهما بعدم القيام بمحاولة ضم هرر أو بسط الحماية عليها ، كما أوضحتم الدولتان في إعلانهما أنهما لا يتنازلان عن حقهما في معارضة أية محاولة من جانب حكومة أخرى لامتلاك هرر أو المطالبة بأى حق عليها ، وكان ذلك في الخطابين اللذين تبادلهما السفير الفرنسي في لندن المسيو وادنجتون واللورد سالسبرى بوصفه وزير الخارجية البريطانية في ٢ و٩ فبراير سنة ١٨٨٨ على التوالي ، كما أن الوزير البريطاني قد أخطر السفير الفرنسي بكتابه بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٨٨ أنه قد أكد للسفير العثماني بأن الحكومة البريطانية لا تدخل لافي الماضي ولا في المستقبل في حقوق السلطان المشروعة ، ويأمل الوزير البريطاني أن تكون الجمهورية الفرنسية في نفس الوضع (٩) . وقد فهمت فرنسا هذا البند على صورة تختلف عما كان يحول في ذهن رجال السياسة البريطانيين ، الذين اغفلوا نشر الوثيقتين حتى عام ١٨٩٤م حتى لا تعرقل مساعي إيطاليا في بسط نفوذها على أتيوبيا وكانت إيطاليا التي احتلت مصوع في ٢ فبراير سنة ١٨٨٥م بمساندة من بريطانيا قد أخذت في التوسع في الداخل . وعقدت معاهدة أوتشيلي في ٢ مايو سنة ١٨٨٩م ، وحاولت أن تفسر البند السابع عشر بما يفيد أن النجاشي قد وافق على أن تتولى إيطاليا المسائل الاثيوبية الخارجية وكان معنى ذلك أن أتيوبيا قد صارت محمية إيطالية ،

(٩) هرستل جزء ٢ ص ٧٢٦/٧٢٨ ، ولف ص ١٦٧ وما بعدها .

ونظراً لأهمية هذه النقطة لما نتج عنها من تطور في الأوضاع نذكر فيما يلي الاختلاف في تفسير هذا البند ، كما جاء في النصين الأمري والاطالي :

النص الأمري : البند ١٧ — سوف يكون لجلالة ملك ملوك أتيوبيا الحرية في أن يستعين بالحكومة الايطالية في أية مفاوضات مع الحكومات الأخرى .

النص الايطالي : البند ١٧ — سوف يكون لجلالة ملك ملوك أتيوبيا ملزماً بأن يستعين بالحكومة الايطالية . . .

أود أن جلالة ملك ملوك أتيوبيا يوافق على أن يستعين . . .

وقد أخطرت إيطاليا الدول الأوروبية بصورة من هذه المعاهدة في نصها الايطالي لإثبات حقوقها على أتيوبيا طبقاً لقرارات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥م وحاولت فرنسا استغلال الموقف لتسوية مشاكها مع إيطاليا في تونس بتنازل إيطاليا عن تلك المطالب نظير اعتراف فرنسا بمعاهدة ١٨٨٩ ، غير أن المفاوضات لم تنجح ، فبادرت فرنسا بعد نشر إيطاليا للكتاب الاخضر الذي احتوى على معاهدة ١٨٨٩م وذلك في عام ١٨٩٠م ، بتحذير النجاشي بمضمون البند ١٧ كما جاء في النص الايطالي فبادر النجاشي باخطار الدول بعدم اعترافه بالتفسير الايطالي الخاطيء والذي لا يتفق مع النص الأمري — وهو الذي يرجع اليه في حالات الاختلاف ، وكان هذا الاخطار في فبراير سنة ١٨٩١م . وأخذت العلاقات بين البلدين في التدهور الذي انتهى الى اعداد إيطاليا حملة لغزو الحبشة لأخضاعها بالقوة لقبول التفسير الايطالي . وقد منيت القوات الايطالية بهزيمة منكرة في موقعة عدوة في مارس سنة ١٨٩٦م الأمر الذي أزعج بريطانيا ، لأن انهيار إيطاليا في هذا الجانب من حوض النيل معناه ترك الباب مفتوحاً أمام فرنسا ، وعقدت إيطاليا مع أتيوبيا في ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ اعترفت فيها باستقلال أتيوبيا . وكانت إيطاليا بعد هذه الهزيمة تفكر في إخلاء الأرتيريا وانتهز هذه الفرصة الملك ليوبولد الثاني ملك البلجيك وصاحب الكونغو الحرة وأرسل وكلاءه إلى روما لمفاوضة الحكومة الايطالية للوصول إلى عقد اتفاق تبقى بموجبه مصوع في يد الطليان وتنتقل الأرتيريا ومناطق النفوذ الايطالية الموضحة في معاهدة ١٨٩١ التي عقدت بين إيطاليا وانجلترا ، إلى شركة الكونغو للاستعمار والاستثمار على أن يكون دخل هذه المنطقة مناصفة بين الدولتين إيطاليا والكونغو الحرة . وقد رفضت إيطاليا هذا المشروع .

وكانت إيطاليا قد عقدت معاهدة ثانية مع النجاشي بتاريخ أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ م منحت إيطاليا بموجبها قرصاً قدره أربعة ملايين ليرة للنجاشي بضمان إيراد جمارك هرر وقد سقط هذا الدين وفق البند الثاني من معاهدة ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٩٦ م الذي أشار بإلغاء معاهدة ٢ مايو سنة ١٨٨٩ م التي كانت معاهدة أول أكتوبر سنة ١٨٨٩ م تكملة لها كما نص البند الثالث من معاهدة أكتوبر .

ويبدو أن إيطاليا بعد توقيعها معاهدة أو تشيالي في سنة ١٨٨٩ م كانت تهتم بالحصول على تأييد بريطانيا التي كانت بدورها تخشى من امتداد الحماية الإيطالية على أتيوبيا إلى السودان وبخاصة منطقة كسلا التي كانت إيطاليا تطمع في امتلاكها ، وكانت بريطانيا تخشى أيضاً أن يطالب النجاشي بضم القسم المتناخم لحدوده من السودان إلى بلاده لذلك دخلت إنجلترا في مفاوضة مع إيطاليا لتحديد موقفها بالنسبة لحوض النيل وقد توصلت الدولتان إلى عقد بروتوكولين بتاريخ ٢٤ مارس و ١٥ أبريل على التوالي توضحت فيهما منطقة نفوذ إيطاليا وهي تبدأ من مصب نهر الجوبا وتمتد إلى الجزء الأعلى من حوض النيل الأزرق ويمتد الخط شمالاً شرقياً وينحرف من جنوبي كسلا إلى رأس كسار على البحر الأحمر ولم تدخل في المنطقة النفوذ هذه كسلا والجزء من نهر العظيرة وسمحت بريطانيا لإيطاليا باحتلال كسلا إذا مادعت الضرورة العسكرية إلى ذلك على أن لا تقوم إيطاليا بأى عمل على روافد المياه من شأنه أن يتدخل في مياه النيل لمصر وأوضحت بريطانيا حق مصر في استرداد هذه المنطقة (منطقة كسلا إذا ما احتلتها إيطاليا) عندما تحين الفرصة لمصر .

العلاقات بين أتيوبيا وإيطاليا والمهريّة :

كانت لمصر في أوائل عام ١٨٨٥ م قوات عسكرية على الحدود الأتيوبية السودانية في محطتي القلابات والجيرة وقد اتفقت الحكومة البريطانية مع النجاشي يوحنا على انسحاب هذه القوات وعودتها إلى مصر عن طريق أتيوبيا بسبب أن طريق النيل كان في قبضة الدراويش ، وقد أدخلت هذه القوات مراكزها في الأيام الأخيرة من شهر فبراير سنة ١٨٨٥ م بعد أن تركت أسلحتها وذخائرها ومهماتهما كما نص الاتفاق الذي تم بين النجاشي والأميرال هيوت وماسون بك ، ولم تمض إلا بضعة أيام من انسحابها حتى دخلت القلابات الحملة التي أرسلها الامام المهدي لاحتلال القلابات تحت

أمره عامله محمد ود الأرباب . وما تجدر الإشارة إليه أن الإيطاليين قد احتلوا مصوع في اليوم الثالث من فبراير سنة ١٨٨٥م وأخذوا بعد ذلك في التوسع في داخلية المنطقة ، ولم يكن مجيء الإيطاليين إلى مصوع ، التي كانت تديرها مصر ، إلا بتحريض من إنجلترا التي أرادت أن تتخذ من الطليان درعا لها لمقاومة المهديّة من ناحية والنشاط الفرنسي في أتيوبيا من ناحية أخرى مستغلة في ذلك ما بين الفرنسيين والطليان من منافسة في تونس ، واستطاعت بريطانيا بمسلكها هذا أن تصيب عصفورين ، إيطاليا وفرنسا ، بحجر واحد ، فهي تعلم بمطامع الطليان في المنطقة الساحلية إلى كسلا وتعلم أن فرنسا تحاول بسط نفوذها على أتيوبيا ، فإيطاليا ستقاوم تقدم الفرنسيين كما ستكون شوكة في جنب المهديّة ، وتعمل في الجانب الاتيوي على جعل هذه البلاد منطقة نفوذ لها ، وبدخول الدولتين في صراع في هذه المنطقة من أفريقيا يتهيأ لبريطانيا بعض الوقت لتواجه مشا كلها الأخرى ، وتستكمل عدتها .

وقد ترك نزول الطليان في مصوع أثره السيء في نفس النجاشي يوحنا الذي أخذت مخاوفه وشكوكه في الازدياد ، فقد كان النجاشي يأمل في ضم مصوع إلى سلطانه ، وجد في تسليم إنجلترا لإيطاليا باحتلال مصوع مخالفة للاتفاق الذي عقده مع الأدميرال هيوت ، كما وجد أن الطليان قد أخذوا في معاونة منافسه منليك حاكم شوا وتزويده بالأسلحة ، وبينما كان النجاشي قلقاً بسبب التعاون بين منليك والطليان ، كانت هنالك قلاقل في حدوده الغربية عند القلابات . فقد حدث أن طلبت أتيوبيا من عامل المهديّة تسليم قاطع طريق يدعى الحاج على الذي التجأ إلى القلابات ، فلم يجبه العامل ، فأعد جيشاً بقيادة الرأس عدار الذي هجم على القلابات فأحرقها وقتل عاملها محمد ود الأرباب ، وعين الخليفة عبد الله يونس الدكيم عاملاً جديداً وزوده بجيش كبير ، كما أرسل إلى النجاشي كتاباً يدعوه فيه إلى الاستجابة للدعوة المهديّة ، ولما لم يجبه شرع يونس في إرسال الغزوات إلى داخل البلاد الاتيوية (١٠) فأحدثت الأضرار والخسارة في المال والأرواح وفي أماكن العبادة مما دفع النجاشي إلى إعداد جيش لغزو القلابات ، وأخذ الرأس عدار في تجهيز القوات وأرسل الخليفة حمدان أبو عنجه في جيش كبير إلى القلابات استعداداً لمواجهة تطورات الموقف ، وحمل أبو عنجه

(١٠) أرشيف السكرتير الإداري بالسودان - المهديّة - ملف ١٢ - من الخليفة عبد الله إلى منليك رداً على رسالة شفوية لتلاحق بحالة السودان في وسائل ومدونات مجلد ٣٥ عدد ١ ص ٦٥ .

كتاباً ثانياً من الخليفة إلى النجاشي يدعو فيه إلى الطاعة ولما لم يجبه دخل أبو عنجه الاراضي الاثيوبية ، وأرسل النجاشي خطاباً إلى أبو عنجه يدعو فيه إلى الصلح وذلك في ديسمبر سنة ١٨٨٨ وكان رد أبو عنجه قاسى الالفاظ ، أغضب النجاشي إلى الحد الذي دفعه إلى أخذ العدة لحرب الدراويش بالرغم من مشغوليته بسبب نشاط الطليان في الشمال . ووصلت الجيوش الاثيوبية إلى القلابات في ٩ مارس سنة ١٨٨٩ م واشتبك الفريقان في موقعة انتصر فيها الاثيوبيون في أول الأمر ، إلا أن الانتصار قد انقلب هزيمة كبرى عندما أصيب النجاشي يوحنا بجراح مميتة ، وانتهز الطليان موت يوحنا وساعدوا منليك لتولى العرش وعقدوا معه معاهدة أوتشالي التي سبق الحديث عنها ، وانتقل النشاط السياسي إلى داخل أتيوبيا وسقطت بريطانيا وإيطاليا اتفاقات ٢٤ مارس و ١٥ أبريل سنة ١٨٩١ و ٥ مايو سنة ١٨٩٤ الخاصة بمناطق النفوذ التي وضعت أتيوبيا بما فيها هرر في دائرة النفوذ الإيطالي .

* * *

وكان الخلاف بين أتيوبيا وإيطاليا بشأن تفسير المادة السابعة عشر من معاهدة أوتشالي وما تبعها من استعداد الفريقين ، وحاول النجاشي منليك تحت ضغط الزحف الإيطالي الاتصال بالخليفة عبد الله النعاشي للوصول إلى اتفاق على عمل مشترك لمقاومة النفوذ الاوروبي ، وقد كان رد الخليفة مقتضياً وفي حذر (١١) . وقد بقيت المسألة معلقة إلى نهاية معركة عدوه وانتصار النجاشي ، الذي كتب للخليفة مبدياً رغبته في التفاهم ، وقد رد عليه الخليفة طالباً منه كعربون للصدقة التي يريد أن يطرد جميع الأوروبيين من السياح والتجار الموجودين في أتيوبيا وبالرغم من أن النجاشي لم يقبل هذا العرض فإن العلاقات بينهما قد تحسنت وفي منتصف عام ١٨٩٧ أبدى الخليفة استعداده للتعاون في حدود معينة ، وعمل للنجاشي على احاطة الخليفة عبد الله علماً بتحركات القوات الاثيوبية في المنطقة المتاخمة للحدود بينهما ، لمنع ما قد يحصل من حوادث بسبب أواخر ولا يعلم ما تم بصدد مطالب النجاشي الإقليمية في السودان التي أوضحها في كتابه الى الدول الاوروبية في أبريل سنة ١٨٩١ م والذي جاء فيه بأن الحدود الفعلية لسلاسه من ناحية الغرب والجنوب تبدأ من كركوج (على النيل الأزرق جنوبي سنار) وتنتهي عند نقطة التقاء نهر السوبات مع النيل الرئيسي ، ويسير خط

(١١) المصدر آف الذكر جواب منليك الى الخليفة بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٨٩٦ ورد الخليفة بتاريخ ١١ يونيه سنة ١٨٩٦ مجلة السودان في رسائل ومدونات مجلد ٣٥ عدد ١ ص ٩٥

الحدود محاذيا لمجرى السوبات حتى يصل إلى بحيرة سامبورا (رودلف) وجاء في هذا الاعلان ما يفيد بعزم النجاشي على إعادة حدود أتيوبيا الى أوضاعها القديمة وهي في ذلك تمتد حتى الخرطوم ، وقد وعدت الحكومة الفرنسية بتعصيد النجاشي في مطالبته الاقليمية لإعادة حدوده إلى الوضع الذي زعمه . وأن إرسال النجاشي لهذا الاعلان يتمشى مع الصلاحيات التي قررها مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥ بشأن إثبات «حق التملك الفعلي» ، وقد أرسل النجاشي حملتين إلى النيل الأبيض للعمل مع مارشان كما سنوضحه فيما بعد ، كما أرسل حملة أخرى صوب النيل الأزرق .

العلاقات بين أتيوبيا وفرنسا :

أوضحنا من قبل الدور الذي لعبته فرنسا في تحذير النجاشي بما جاء في تفسير إيطاليا للبند السابع عشر من معاهدة أوتشيلي ، واستعدادها لتأييد النجاشي في مطالبه الاقليمية ، ويرجع نشاطها هذا الى رغبتها في انشاء علاقات صداقة تربط بينها والحليفة عبد الله الذي كانت تهدف اليه لنجاح حملة مارشان ، وقد حاول النجاشي في عام ١٨٩٥ م فتح باب المفاوضات مع فرنسا لاقامة علاقات سياسية وتجارية على دعائم أقوى مما كانت عليه في معاهدة سنة ١٨٤٣ م التي عقدت بين لويس فيليب وملك شوا ، الا أن فرنسا قد أبدت تحفظاً بسبب حالة التوتر التي كانت قائمة بين منليك والظليان قبيل موقعة عدوة ، وبعد أن انجلى الموقف بانتصار أتيوبيا واستردادها لحقوقها أبدى الرئيس الفرنسي فيلكس فور استعدادها للدخول في المفاوضات لعقد المعاهدة المشار اليها ، وتكونت فعلاً بعثة دبلوماسية فرنسية للسفر الى أديس أبابا وتعيين لاجارد رئيساً لها ، وقد وصلت هذه البعثة الى أوبوك في ديسمبر سنة ١٨٩٦ م . وأرسل وزير المستعمرات الفرنسي اندر ليون بعثة أخرى تولى أمرها بونفالي - بونشان لاعداد حملة من أديس أبابا الى النيل الأبيض ، لتقوم بمعاونة حملة مارشان واعدادها ، وقد طلب ليون من لاجارد أن يتعاون مع هذه الحملة لضمان نجاح مارشان ، غير ان لاجارد كانت له شخصية من طراز خاص ، فقد تجاهل وجود هذه البعثة وحاول ان يعد بنفسه حملة أخرى لتسبق الحملة التي أرسلها وزير المستعمرات ، وكان لمسلك لاجارد أثره في فشل هذه الحملة في بلوغ الغرض الذي كونت من أجله ، وحاول لاجارد من ناحية أخرى تحريض النجاشي للقيام باحتلال فعلي لمناطق النيل الأبيض التي أوضحها في إعلانه للدول في ١٨٩١ م

وقد لاقى النجاح شى الأمرين من السياسة الغربية وخذاعها ، لذا أراد أن يتفادي ما قد يقوم فى المستقبل من عقبات لو أرسلت حملة فرنسية خالصة فأعد حملة أتيوبية صحبها بونشان الفرنسى ورجال بعثته عدا بولفالى الذى عاد إلى بلاده ومعهم المغامر الروسى ارتامنوف وقد وصلت الحملة الى السوبات فى ديسمبر سنة ١٨٩٧ م عند نقطة تبعد حوالى مائة ميل جنوبى فاشودة ، ولم تستطع الانتظار بسبب قلة الاغذية والمتاعب الاخرى وعادت أدراجها الى أديس أبابا ، وأرسلت حملة ثانية وصلت إلى النيل الابيض فى ٢٣ يونيه سنة ١٨٩٨ م وعادت أدراجها قبل وصول حملة مارشان إلى فاشوده بأسابيع قليلة .

ويبدو ان النجاح شى كان يشعر بالتزامه بمعاونة فرنسا فى تحقيق أهدافها السياسية فى حوض النيل الاعلى ، فى ٢٠ مارس سنة ١٨٩٧ وقع النجاح شى اتفاقية سرية مع لاجارد ممثل فرنسا بخصوص السيطرة على حوض النيل الابيض التى صدق رئيس الجمهورية الفرنسية على هذه الاتفاقية فى ٢٤ مايو سنة ١٨٩٧ وبما يجدر ذكره أن هذه الاتفاقية قد تم توقيعها فى نفس اليوم الذى تم التوقيع فيه على الاتفاقية الفرنسية الايوبية بشأن مسألة الحدود بين المنطقة الساحلية الفرنسية وبين أتيوبيا ويخيل لى ان هذه الاتفاقية لم تكن الا ستاراً لإخفاء الاتفاقية السرية .

وقد جاء فى البند الاول من الاتفاقية السرية تعهد فرنسا بتأييد النجاح شى بقدر المستطاع ليتمكن من المحافظة على سيطرته على الضفة النيل ، وجاء فى هذا البند أيضاً « انه بينما يتمكن النجاح شى من تثبيت سيطرته على الضفة اليمنى للنيل الأبيض فى المنطقة جنوبى خط عرض شمال ١٤ فانه يعاون بقدر الطاقة معتمدى الحكومة الفرنسية - الموجودين فى المنطقة الواقعة على الضفة اليسرى للنيل الأبيض بين خطى عرض شمال ١٤ و ٣٠ وجاء فى البند الثانى الاتفاق على رفع العلم الفرنسى على الشاطئ الايسر كما يرفع النجاح شى علمه على الشاطئ الايمن ، وجاء فى البند الثالث . ما يمنع الفرنسيين من احتلال أى منطقة من شرق النيل الأبيض ، وانه لا يحق لهم أن يدخلوا تلك المنطقة إلا إذا دعت الضرورة فقط (١٢) .

وقد ذكر السيد محمد عثمان الحاج خالد فى أقواله أمام ضابط المخابرات للقوات المصرية الانجليزية رذلك بتاريخ ١٥ سبتمبر سنة ١٨٩٨ م . ان مندوبين قد وصلا

(١٢) نص الاتفاقية السرية فى كتاب الوثائق الدبلوماسية الفرنسية جزء ١٣ ص ٢٧٨ / ٩ كما ذكره ساندرس فى مقاله عن الأمير سايمان ابن انجر عبد الله .

إلى الخليفة يحملان خطابات من النجاشي. وكان أحد الرسولين يدعى السيد محمد الطيب وهو من مسلمي الجبرته ويعمل في خدمة النجاشي . وثانيهما رسول الخليفة الخاص ويدعى السيد محمد البشري ، وأوضح السيد محمد عثمان ان السيد محمد الطيب قد أحضر إلى الخليفة علماً صغيراً مكوناً من ثلاثة ألوان وذكر ان هذا العلم قد تسلم اليه في أديس أبابا بحضور القنصل الفرنسي لاجارد وطلب منه منليك أن يبلغ الخليفة انه في حالة تقدم الانجليز لمحاربه فعليه أن يرفع هذا العلم لوقف تقدمهم كما طلب اليه أن يرفع العلم إذا جاءت قوة فرنسية إلى بلاده فانها سوف لا تسبب له ضرراً، وقد رفض الخليفة بشدة أن يتقبل حماية دولة أوروبية (١٢) . ومن هذا يتضح أن المعاهدة التي قيل انها قد عقدت بين النجاشي والخليفة لا تقوم على أساس (١٤)

وبما لا شك فيه ان النفوذ الفرنسي كان قويا في أديس أبابا في السنوات القليلة من نهاية القرن التاسع عشر الميلادي . وقد استطاعت أن تعرقل مساعي بعثة رنل رود - ونجت باشا التي ذهبت إلى أديس أبابا في مايو سنة ١٨٩٧ في محاولة لاقتناع النجاشي لتخطيط الحدود الاثيوبية السودانية ولتطلب من النجاشي سحب مطالبه بالمنطقة الواقعة على الضفة اليمنى للنيل الأبيض وقد رفض منليك لاستجابة لمقترحات البعثة ، وقد قنعت البعثة بالحصول على وعد من النجاشي يمنع إرسال الأسلحة إلى الدراويش (١٥) وكانت فرنسا متهمة بامدادهم بالأسلحة . وقد طلبت البعثة تأجيل بحث هذه المسائل إلى ما بعد فتح أم درمان وهي تضم في نفسها أنه يمكن استخدام قطع نيلية قوية على النيل الأبيض وسوف يكون لها أثرها في تثبيت حقوق مصر وبريطانيا (١٦) .

(١٢) نقلا عن مقال ساندرسن عن الأمير سليمان ابن انجر عبد الله - مجلة السودان في رسائل ومدونات مجلد ٣٥ جزء أول ص ٥٩ / ٦٠

(١٤) اشارة الى المعاهدة عبد الله حسين في ص ٢٥١

(١٥) مذكرة ونجت وكلانجين المرفقة مع كتاب رود إلى سالسبري - أوراق دار المحفوظات العامة البريطانية - وزارة الخارجية / ٣٢ / ١ نقلا عن مقال ساندرسن مجلة السودان رسائل ومدونات مجلة ٣٥ جزء أول ص ٦٤ .

(١٦) نفس المصدر آف الذكر ويلاحظ هنا ان بريطانيا قد أوضحت ان لها حقوقا .

النشاط الروسي في أتيوبيا :

اشد نشاط الروس في أتيوبيا في صورة واضحة منذ يناير سنة ١٨٩٥ م وذلك لشد أزر فرنسا في الصراع بينها وبين إنجلترا ، وقد اتخذ النشاط الروسي مظاهر غايتها الاهتمام بالمسائل الجغرافية والدينية ، وجاء إلى أديس أبابا مغامر روسي يدعى ليونتييف في أوائل عام ١٨٩٥ م ومعه هدايا غالية للنجاشي ، ورد النجاشي على ذلك بإرسال بعثة إلى القيصر الروسي لتقديم التحية . وعاد ليونتييف إلى أديس أبابا في نهاية العام ويعتقد انه قد قاد المدفعية الأتيوبية في موقعة حدوده . وأصدر النجاشي أمره بتعيين ليونتييف هذا حاكما لمديريات خط الاستواء الأتيوبية ومعه البرنس هنري دي أورليانس الفرنسي كمساعد له .

وحاول الضابط الروسي أشاكوف أن يربط بين الكنيسة الأتيوبية وبين الكنيسة المسكوفية . وكان هنالك روسي آخر يدعى بولا توفيك ومعه عدد من القوزاق وبعض الفرنسيين وقد رافقوا حملة الراس ولد جيورجيوس .

وقد أخذ النشاط الروسي في الخمود بعد انتهاء الصراع الفرنسي البريطاني وما كان له أن يستمر وليست لروسيا مطامع في هذه المنطقة أكثر من معاونة صديقتها فرنسا ضد إنجلترا .

النشاط البلجيكي في أتيوبيا :

أوضحنا فيما سبق محاولة الملك ليوبولد الثاني الاستيلاء على الأرتيريا عدا موضوع التي تترك للبلجيان ، وعلى منطقة نفوذ إيطاليا التي تشمل أتيوبيا وإدارة هذه المنطقة بشركة الكونغو للاستثمار والاستثمار وقد فشلت المفاوضات بعد أن تمت صياغة الاتفاقية وكان ذلك في نهاية عام ١٨٩٦ م . وجاء في عام ١٨٩٧ م البرنس هنري دي أورليانس لانشاء شركة رأس مالها ١٨٠٠٠٠٠ فرنك لأغراض التعمير وقد كان ليوبولد الثاني مهتما بالاهتمام كله بهذه الشركة التي كانت مؤسسة بلجيكية وبالرغم من أن هذا المشروع لم يقدر له النجاح فإنه يعطينا صورة من النشاط البلجيكي الذي يهدف إلى ربط الكونغو مع أتيوبيا وبالتالي مع البحر الأحمر .

شرق أفريقيا ، كينيا ، أوغنده :

يختلف هذا الجزء الثالث من المنطقة الشرقية في أكثر من ناحية ، فبينما نجد أن سكان القسمين الأول والثاني - أتوبيا والقرن الأفريقي - يرتبطان ارتباطاً وثيقاً بالمنطقة الأولى ، التي تشمل حوض النيل في شطريه مصر والسودان ، في الحضارة والمدنية على درجاتها المختلفة نسبياً ، فإن هذا القسم الثالث تسكنه أقلية لها ماض حضارى ، وأن غالبية سكانه من مجموعات من الأفريقيين الذين تفاوتت درجات أفريقيتهم ، وهم في صورة عامة يعتمدون اعتماداً أساسياً على الزراعة والرعى ، لذلك قد وجد فيهم الأوروبي بجبال لم يصطدم فيه بتقاليد ووراثات قديمة تناصبه العداء بين الفينة والفينة ، كما أن الأوروبي قد استطاع استغلال ضعف هؤلاء في السيطرة عليهم وتسخيرهم لخدمته في الزراعة وموارد الثروة المعدنية ، بخالفاً في ذلك تلك الأسطورة الكبرى التي ادعى الأوروبي أنه قد جاء لتحقيقها وفي مقدمة ذلك خرافة الرقيق ، والعمل على رفاهية السكان المحليين ، وترويضهم على قبول رسالة المدنية الأوروبية ، وهذه هي الأسس التي اتفقت الدول على مراعاتها في قرارات مؤتمر برلين سنة ١٨٨٤/١٨٨٥ وبروكسل عام ١٨٩٠ م . فالرقيق قد اتخذ وسيلة لامتلاك أراضي الوطنيين ، وأن استيلاء الأوروبي على أرض الوطنى التي هي عماد حياته ، معناه أن يكون الوطنى مستعبداً اقتصادياً يسعى لخدمة الاجنبي لقاء فترات العيش الذى يتركه له ، وأصدر المستعمر الأوروبي القوانين والتشريعات الخاصة باستخدام الاهالى كل في منطقته وتحرم عليه الانتقال من سيد إلى سيد ، وينقل الوطنى من مكان إلى مكان للخدمة في المناجم والمصانع ويفرض عليه أن يعيدش في الحدود التي ترسم له ، فأجوره غاية من الغبن ، معيشته ومسكنه من أحط الدركات ، وكل هذه تهدف إلى تحطيم النظم الاجتماعية المحلية وهدم الاسرة ، ولم تختلف دولة عن أخرى من الأسس التي قامت عليها تنظيمات العمل والتي لم يقصد منها أصلاً إلا منع المنافسة بين المزارعين الأوروبيين لتخفيض التكاليف في الانتاج . ولو ترك أمر العمل لحرية الوطنى لكان التنافس والهجرات من منطقة إلى أخرى بل من ولاية إلى أخرى وفي هذا ما فيه من سبل يجتمع فيها الوطنيون في حرية يتشاورون ومن هنا تبدأ مرحلة التطوع إلى المزيد وهذا ما يشاهه الأوروبي ، ويعمل على منعه ولو إلى حين . وقد تجاوزت بعض الدول - إن لم تكن كلها في صورة أو أخرى - القيم الانسانية في معاملتها للأهليين وتسخيرهم للعمل الآلى تحت ظروف قاسية - من تغذية سيئته وحرمان من

العلاج فتنفت بينهم الامراض المختلفة ، وزادت على ذلك بالقتل والتعذيب لا قتل الاسباب ، كما حدث على نطاق واسع في الكونغو الحرة ، الامر الذي اثار فضائحه الرأى العام الاوروبى ، وتصور لنا القسوة التى مارسها الاوروبى بين الشعوب التى جاء لتدينها ورفاهيتها الاكذوبة الكبرى التى قامت عليها رسالته التى اتخذها معبراً لتحقيق سيادته التى تهدف نحو الحصول على مغام مادية اختص بها نفسه فقط وجعل من الوطنى منبذاً لا يرتقى إلى مستوى الاوروبى ، وبالرغم من ضآلة الجهود التى بذلها المبشرون لتعليم الوطنى إذا قورنت بما يصرف على الاوروبيين المستوطنين فى البلاد الافريقية ، والتى رسمت مناهجه لخدمة الحكومات ، فان ذلك قد دفع بالوطنى الى اليقظة بعد أن أخذت الصدمة النفسية التى تركها فى نفسيته دخول الرجل الابيض الذى اعتقد فيه فى بادى الامر أنه الرجل المختار الذى جاء لرعايته .

* * *

وقد بدأ الصراع فى مرحلته الاولى بين الاوروبيين والمجموعات من العرب الى استوطنت ساحل أفريقيا الشرقى - بحر الزنج - وكانت فيها سلطنة زنجبار (برالزنج) واشتد بعد ذلك التطاحن بين انجلترا وألمانيا وعمل وكلاء البلدين على الحصول على معاهدات ومواثيق من الزعماء المحليين فى البلاد بطريقة أو أخرى، وتأسست الشركات التجارية البريطانية والالمانية، وجاءت البعثات التبشيرية ، وكل يعمل فى ميدانه الخاص لتحقيق هدف موحد هو بسط السيطرة ، فرجال الشركات قد حصلوا على امتيازات لإنشاء المزارع واستغلال المناجم وفرض تنظيمات لخدمة مصالحهم، وأخذوا ينفذون رويداً رويداً حتى أتموا تقويض الزعامات المحلية وتحطيم المجتمع كما تم لهم اغتصاب السيادة ، والسيادة فى نظر الاوروبى معناها تعطيل جميع الاجهزة القائمة وتسخيرها على الوجه الذى تراه - دون اعتبار للقيم الانسانية والاخلاقية - وبالرغم من أن حكومتى بريطانيا وألمانيا لم تظهرا اهتماماً بنشاط وكلاء كل منها فى بادى الامر فان عدم الاهتمام هذا قد انقلب بعد وقت قصير الى حماس شديد أقرب صورة الى الصرع ، ولم يكن ذلك التعفف إلا مرحلة رياضة الفكر والرأى العام ، وامتدت سيطرة الدولة الدولة وحمايتها أو سيادتها فى سرعة فائقة على الممتلكات التى حصل عليها أولئك الافراد الذين لم يكن نشاطهم موضع اهتمام دولتهم .

واشتد السياق فى التوسع بين الدولتين ، فألمانيا كانت تحاول أن يمتد سلطانها على منابع النيل والاقاليم المجاورة ، وأن تقيم حزاماً يبدأ من الشاطئ الافريقى على

المحيط الهندي وينتهي في الجانب الغربي المطل على المحيط الأطلسي ، وكانت هذه الاطماع صورة لما كانت تفكر فيه فرنسا . ويبدو أن ألمانيا لم تكن في مركز يسمع بالمبادأة بالعداء لانكلترا لانها كانت تعتقد أن بريطانيا سوف تعاونها في تثبيت أقدامها في القارة الأفريقية نظير المساعدة التي قدمتها ألمانيا لانكلترا في المشاكل الدولية وفي مقدمتها مسألة احتلال مصر .

وقد توغل المغامر الألماني كارل بيتزر إلى حوض النيل الأعلى طمعاً في وضع يده على خط الاستواء الذي كان يحكمه باسم مصر أمين باشا (ادوارد شنيتزر الألماني) . وكانت إنجلترا قد دبرت حملة لإنقاذ أمين باشا لاجراجه من مديريته ، وجعلها أرضاً مباحاً ، بينما كانت موارده المحلية تكفيه للاحتفاظ بولايته التي شملت رقعة واسعة من الارض ضمنها المادى ، واللاتوكا والاشولى والمورى والمكراكة الجزء الشمالى من الانيبورو ، وتنتهى حدودها الجنوبية في نقطة شمالى بحيرة فكتوريا ، ويتاخما من الشمال مديريةية بحر الغزال .

وقد أسهم في حملة الانقاذ ولجنتها أباطرة الاستعمار ، الفرسان الثلاثة ليوبولد الثانى ملك البلجيك وصاحب الكونغو الحرة، ووليم ماكينون مدير الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا، وهنرى استانلى الرحالة المعروف، الذى عمل في الكونغو لحساب ليوبولد الثانى ، وكان يعتقد ان الكونغو الحرة سوف تنزعها بريطانيا في يوم ما تضمها إلى أملاكها الافريقية . وقد جمع استانلى لهذه الرحلة ١١٥٠٠ جنياً وحصل من مصر على ١٠٠٠٠ جنيه فصارته جملة المبلغ ٢١٥٠٠ جنياً وتزودت الحملة بخطابات من مصر إلى عاملها أمين باشا ، وكانت لجنة الانقاذ ورجالها الثلاثة ينظرون إلى مغنم كبير يعوض لهم المبالغ التي صرفوها ، فقد كان لدى أمين باشا حوالى الخمسة والسبعين طنناً من سن الفيل في محطة وادلاى ، قدر ثمنها بحوالى الستين ألفاً من الجنيهات .

وأخذ المستعمرون بعد خروج أمين باشا قوة واقتداراً ثم مقتله على يد جماعة من الكنين ، على تقسيم أراضي المديرية فيما بينهم . ولم يكن من اليسير على المستعمر أن يستبقى الاوضاع التي عملت الادارة المصرية على انشائها لتقدم البلاد ورفع المستوى المعيشى فقد حملت شعلة العلم والمدنية دون شرط أو قيد لجنس أو لون كما فعل الأوروبي ، كما انها أدخلت زراعة البيضاء والقطن والأزر والخضراوات واستوردت

أشجار الفاكهة من الهند وغيرها لزراعتها لمصلحة الأهالى لأنه لم تكن حينذاك وسائل للنقل سريعة لتصديرها إلى الخارج وشجعت الإدارة المصرية على غزل الدمور من القطن المحلى . وقد عمل الأوروبي على مطاردة العرب والتنكيل بهم واضهاد الزعماء المحليين الذين فتحوا بلادهم للتجار من العرب ، وأنزلوهم عن سلطانهم ورفعوا من سار في ركابهم ، وحتى تيبوت (حامد بن محمد من كبار تجار زنجبار) الذى استعان بنفوذه الفرنجة فى الكونغو والأوغنده لم ينج من محاولة الغدر به ، كما اضطهد سليم بك مطر الضابط المصرى وأجبر على السفر وهو فى حالة المرض الشديد (١٧) وغيرهما كثير ، ولم تكن النهى التى وجهت إليهم ومنها الخيانة ، ولم تكن هنالك خيانة فى معناها الصحيح بل أنهم كانوا يمثلون الرسالة الإسلامية التى تقضى مضاجع الاستعمار (١٨) ، واستخدم المستعمر الجنود من السودانيين الذين كانوا فى خدمة الجيش المصرى وبقوا فى خط الاستواء ، لإخضاع القبائل وأساء المستعمر إليهم بعد أن وصل إلى أغراضه فكان تمردهم .

* * *

وقامت على الساحل الأفريقى ، أفريقيا الشرقية البريطانية وأفريقيا الشرقية الألمانية وذلك فى مناطق النفوذ التى تقاسمتها الدولتان بمقتضى اتفاقيتى أكتوبر/نوفمبر سنة ١٨٨٦ وأول يوليه سنة ١٨٩٠ م . وحاول ولیم مكينون مدير الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا عقد معاهدة مع الملك ليوبولد الثانى بوصفه صاحب السيادة على الكونغو الحرة وقد تم الوصول إلى صيغتها النهائية فى ٢٤ مايو سنة ١٨٩٠ م إلا أن الحكومة البريطانية لم توافق عليها وبقيت معلقة حتى عام ١٨٩٤ م الذى اتفقت فيه الحكومتان الإنجليزية والكونغو الحرة على عقد معاهدة استمدت خطوطها العريضة من معاهدة ماكينون ليوبولد كما سئذينه فى القسم التالى من البحث الخاص بالمنطقة الغربية .

وكانت بريطانيا مهتمة بإقامه حاجز حول حوض النيل الأعلى فى حدوده الجنوبية ليكون سداً أمام منافسيها وبخاصة فرنسا التى كانت إنجلترا تحشى وصولها إلى حوض

(١٧) مات فى الطريق فى منتصف ليلة ١٦ أغسطس ١٨٩٣ م . وقد اثنى عليه لوجارد ثناء عابراً واتهم مكدونالد بعدم فهمه للرجال - لوجارد جزء ٢ ص ٤٨٨ / ٤٧٩ .

(١٨) جون . المرجون ملتر فى مقاله عن تيبوت بمجلة أوغنده مجلد ١٩ - جزء أول مارس ١٩٥٥ .

النيل وتثبيت أقدامها فتنتقل بذلك المشكلة المصرية في حوض النيل إلى المجال الدولي وفرنسا فيه الكثير من المناصرين . وفي الوقت الذي كانت فيه إنجلترا تعالج المشاكل عن الطريق الدبلوماسي كانت تعد عدتها لتقوية أسطولها البحري للساعة الفاصلة بينها وبين فرنسا ومناصريها من روسيا وألمانيا وقد كفت الدولة الأخيرة عن مساندة إنجلترا بعد أن خاب أملها فيها .

وكان نصيب هذا القسم الثالث من المنطقة الشرقية قاصراً على حماية ذلك المدخل الجنوبي الشرقي إلى حوض النيل الأعلى وخرجت حملات مكدونالد واستن النخ .

المنطقة الغربية :

جاء الفرنسيون ووكلاء ليوبولد إلى منطقتي خط الاستواء وبحر الغزال وازداد نشاط وكلاهما في التسعة العاشرة من القرن الماضي ، وبدأ المزحف لبسط السيطرة عن الطريق الذي سلكته الدول في الحصول على معاهدات ومواثيق من الزعماء المحليين وكان ذلك المسلك هو الطابع الذي تميزت به العشرين عاما الأخيرة من القرن الماضي التي اشتد فيها التطاحن وبخاصة في العشرة سنوات الأخيرة . فقد كانت الكونغو الحرة دولة اعترفت بها الدول وهي وإن كانت قد سدت فراغا في الحزام الذي كانت تعمل بريطانيا على إقامته حول حوض النيل الأعلى كما أشرنا من قبل ، فإن الجانب الشمالي الغربي من هذا القطاع قد بقي في حاجة إلى تدعيمه وربطه مع بقية الحلقة التي بدأت بايطاليا على ساحل البحر الأحمر وأثيوبيا ، وإنجلترا في شرق أفريقيا والكونغو الحرة في الجنوب ومنطقة نفوذ ألمانيا شرقي بحيرة تشاد . وكانت لفرنسا منطقة نفوذها بموجب إعلان فرنسا وبريطانيا بتاريخ ٥ أغسطس سنة ١٨٩٠م الذي تحددت فيه هذه المنطقتين في الصحراء الكبرى وحدود منطقة النفوذ البريطاني بين النيجر وبحيرة تشاد ، واعترفت بريطانيا في إعلانها بحماية فرنسا على مدغشقر .

وكانت منطقة النفوذ الألمانية التي أشرنا إليها قد تم الوصول إليها بين الدولتين في الخامس عشر من نوفمبر سنة ١٨٩٣م . وما جاء في البند الرابع من هذه الاتفاقية « أن النفوذ الألماني لا يمتد بعد حوض نهر شارى وأن دارفور وكردفان وبحر الغزال سوف لا تدخل في نطاق النفوذ الألماني حتى ولو كان أحد روافد نهر شارى يخرج من هذه المناطق . غير أن طمأنينة إنجلترا بعد أن أتت حزامها حول حوض النيل الأعلى قد انقلبت، إلى قلق وذعر عندما تنازلت ألمانيا عن منطقة نفوذها هذه إلى فرنسا وذلك

بالاتفاق الفرنسي الألماني بتاريخ ١٥ مارس سنة ١٨٩٤ م ، الذي حصلت منه فرنسا على منفذ إلى حوض النيل الأعلى فسارعت بريطانيا إلى عقد معاهدة مع الكونغو الحرة بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ لمنع توغل الفرنسيين ودخولهم إلى حوض بحر الغزال ، وبموجب هذا الاتفاق أعطت إلى ليوبولد الثاني لمدى حياته منطقة اللادو (غرب النيل وبحر الجبل شرق خط طول ٣٠) وتبدأ جنوباً من بحيرة البرت إلى فاشوده شمالاً كما أعطت ليوبولد الثاني ولخلفائه من بعده المنطقة الواقعة ما بين خطي طول ٢٥ و ٣٠ وتحد شمالاً بخط عرض شمالاً ١٠ ، ومنحت الكونغو إنجلترا مراً عرضة خمسة وعشرين كيلو متراً بين بحيرة تنجانيقا وبحيرة البرت أدوارد وقد لقي هذا هذا الاتفاق معارضة شديدة من ألمانيا في احتجاجها وتهديدات فرنسا بما اضطر معه ليوبولد على تغيير موقفه ، وقد عقد اتفاقية مع فرنسا بتاريخ ١٤ أغسطس سنة ١٨٩٤ أوضح فيها الحدود بين ولايته في الكونغو الحرة وبين مستعمرة الكونغو الفرنسية ، وقد التزم ليوبولد الثاني في المادة الرابعة من هذه الاتفاقية بتنازله عن احتلال أى جزء أو مزاوله أى نشاط سياسى فى المستقبل فى منطقة حوض بحر الغزال داخل الحدود التى أوضحتها الاتفاقية (١٩) .

وكانت فرنسا فى نفس الوقت قد استعدت لارسال حملتها لاحتلال محطة فاشوده التى وقع عليها الاختيار بالنسبة لموقعها الاستراتيجى الخطير على مجرى النيل الرئيسى بعد خروجه من حوض بحر الغزال والتقاءه بالسوبات وجاءت الحملة الفرنسية إلى هذه المحطة فى يوليه سنة ١٨٩٨ ، ووصلت بعدها حملة صغيرة استقرت فى شامبي ولم يكن قائدها يعلم شيئاً عن تحركات مارشان قائد حملة فاشوده . وقد سبق وأوضحنا الفشل الذى أصاب الحملة التى أرسلت عن طريق أتيوبيا ، وبقي مارشان فى فاشوده إلى أن جاءه كمتشتر قائد حملة السودان وطلب منه الخروج من المحطة بوصفها بلدة سودانية تابعة للسودان الذى استعادته مصر . وبعد مشاورات سياسية بين إنجلترا وفرنسا أخطرت فرنسا إلى إخلاء فاشوده والانسحاب من تلك المنطقة ويرجع هذا التقهقر من جانب إلى ضعف أسطولها البحرى بالنسبة للأسطول البريطانى الذى استكمل عدته وصار على استعداد لمواجهة التطورات . وخرج مارشان من فاشوده فى عام ١٨٩٩ وعاد إلى بلاده عن طريق أتيوبيا وبقيت حملة شامبي التى قادها الضابط تشكودك وقوامها حوالى الثلاثين من الجنود السنغاليين ، وقد وصلت إلى شامبي فى ٢٠ مارس

(١٩) مرسلت ص ٥٦٩ / ٥٧٠ نص الاتفاقية .

سنة ١٨٩٩ (٢٠) بقيت في محطتها حتى تسلمت أوامر الحكومة الفرنسية
بالانسحاب .

وهكذا انتهت مرحلة الصراع البريطاني الفرنسي الذي استمر أكثر من مائة عام
في هذا الجزء من القارة الأوروبية ، وقد اتخذ خلالها مظاهر مختلفة وانتقل من مكان
إلى مكان ، وتصور لنا هذه الأحداث السياسية الأساليب والوسائل التي اتبعتها بريطانيا في
معالجة مشاكلها في صبر وجلد غير عابثة باللطمات وما أصابها من فشل في أكثر من موقف .
انسحبت فرنسا من حوض النيل بعد هذا العراك الطويل الذي كانت تهدف من
ورائه مضايقة إنجلترا وإخراج مسألة احتلالها لمصر إلى الحقل للدولى ، الأمر الذي
يزعج إنجلترا الأزعاج كله ، وقد بقيت بعد إخلاء الفرنسيين لفاشودة مشاكل كثيرة
بين فرنسا وبريطانيا وبين أتيوبيا وبريطانيا لما كانت تدعيه الأخيرة لنفسها من حقوق
في حوض وادى النيل . أما عن فرنسا فقد عقدت معها الاتفاق الودى في عام ١٩٠٤م
الذى التزمت الدولتان في مادته الأولى : ان بريطانيا تعلن أنها ليست لها فيه في تعديل
مركز مصر السياسى ، وأعلنت فرنسا من جانبها أنها لا تنوى اتخاذ أى إجراء من
شأنه عرقلة أعمال بريطانيا في مصر وذلك بطلب تحديد مدة احتلال إنجلترا لمصر .
وشملت المواد الأخرى تبادل المنافع الخ الخ (٢١) ، وبدأت الدولتان صفحة جديدة
في التعاون في الميدان الدولى . أما أتيوبيا ومطالبها في حوض النيل الأبيض وغيره
من مناطق السودان فقد تحددت في معاهدات عقدت في هذا الشأن . وخسر السودان
جزءاً كبيراً من أراضيه الجنوبية والغربية والجنوبية الشرقية ، التي انتزعتها بريطانيا
وضمتها إلى الاقطار المجاورة وفي مقدمتها الكونغو البلجيكية وأوغنده ، كما فقدت
أسطورة الرقيق قيمتها كأداة للضغط السياسى . وبقيت مشكلتان وهما التبشير والاستعمار

* * *

هذه كلمة موجزة عن الصراع في حوض وادى النيل بين الدولتين وما تخلف عنه
من مشاكل كثيرة وبخاصة بعد أن انفردت بريطانيا بفرض سياستها وسيطرتها ،
تحققت معها بداية مرحلة جديدة أساسها اتفاقية سنة ١٨٩٩م ، وهذه تتطلب دراسة
أكثر عمقاً وتفصيلاً لتحقيق العناصر الخفية . ونرجوا مخلصين أن تستوى هذه
الدراسة من يتوفر عليها .

(٢٠) مقال البريجادير جنرال فيج - قطع السدود ، مجلة السودان في رسائل ومدونات مجلد

عدد ٨ وما بعدها .

(٢١) هرسلت س ٨٢٠ / ٨٢٢ .

جدول مختصر عن النشاط الدولي

نزلت القوات الفرنسية أرض مصر .	١٧٩٨
توقيع اتفاقية العريش بشأن جلاء الفرنسيين عن مصر	١٨٠٠ ٢٤ يناير
جلاء للقوات الفرنسية عن مصر .	١٨٠١ سبتمبر
معاهدة اميان بين إنجلترا فرنسا واسبانيا وهولنده الخ .	١٨٠٢ ٢٧ مارس
جلاء القوات البريطانية عن مصر .	١٨٠٣ مارس
محمد علي واليا على مصر .	١٨٠٥
نزول حملة فريزر أرض مصر .	١٨٠٧ ١٧ مارس
خروج حملة فريزر من مصر بعد هزيمتها .	١٤ سبتمبر
حرب الوهابيين - مصر في جزيرة العرب .	١٨١١ / ١٨١٩
بورخارد في رحلته إلى النوبة	١٨١٢ / ١٨١٤
مؤتمر فيينا الذي اقترح على الدول منع الرقيق .	١٨١٥
امتداد الادارة المصرية إلى السودان .	١٨٢٠ / ١٨٢١
وصل لبنان دي بلفون إلى أعلى النيل .	١٨٢٧
وصل الكاشف ابراهيم إلى ما وراء الخط العاشر عرض شمالا	١٨٢٨ / ١٨٣١
اتفاقية بين فرنسا والجزائر - احتلال الجزائر .	١٨٣٠ ٥ يوليه
معاهدة بين فرنسا وتونس .	٨ أغسطس
زار روبل أتيويا .	١٨٣١ / ١٨٣٣
أعلنت بريطانيا تحرير الرقيق .	١٨٣٣ / ١٨٣٤
حرب بين الأمير عبد القادر الجزائري والفرنسيين .	١٨٣٣ / ١٨٣٧
اعتراف الأمير عبد القادر بالسيادة الفرنسية .	١٨٣٧ ٣٠ مايو
دفعت بريطانيا تعويضاً للزارعين الانجليز عن الرقيق .	١٨٣٨
حملة سليم قبودان لكشف أعلى النيل .	١٨٣٩
اتفاقية بين بريطانيا والدول بشأن مصر .	١٨٤٠ ١٥ يوليه
وثيقة بيع جزيرة موسى في خليج تاجوره لبريطانيا .	١٩ أغسطس
وثيقة بيع جزيرة باب في خليج تاجوره لبريطانيا .	٢٧ أغسطس
معاهدة تنازل بموجبها السيد محمد حاكم زيلع عن جزيرة	٣ سبتمبر
اوباد القريبة من زيلع لبريطانيا .	

فرمانات تركية عن حدود مصر ، (لمحمد علي باشا) .	١٨٤١ / ١٣ فبراير
معاهدة بين بريطانيا وحاكم شوا (أتويويا) .	١٦ نوفمبر
أخطرت فرنسا الدول باحتلالها للجزائر .	١٨٤٢ / ٢٨ يناير
معاهدة تجارية وصداقة بين ملك شوا وفرنسا .	١٨٤٣
معاهدة بين بريطانيا وأتويويا .	١٨٤٩ / ٣ نوفمبر
لفنجستون في حوض الزمبزي :	١٨٤٩
بارت وزميله في رحلة من طرابلس إلى النيجر .	١٨٤٩ / ١٨٥٣
اخترق لفنجستون أفريقيا من الزمبزي إلى لوانده .	١٨٥٣ / ١٨٥٦
صراع بين إنجلترا والولايات الأمريكية بسبب التجارة في شرق أفريقيا وخليج العجم .	١٨٥٥ / ١٨٥٩
ريتشارد بيرتون وسيدك يكتشفان بحيرة تنجانيقا وفكتوريا نيانزا .	١٨٥٨ / ١٨٥٩
رحلة لفنجستون الثالثة في أفريقيا .	١٨٥٨ / ١٨٦١
معاهدة تجارية بين سردينيا وأتويويا .	١٨٥٩ / ١٠ فبراير
سيدك وجرانت - سافرا عبر أوغنده إلى غندوكرو ، قابلا السير صمويل بيكر في سنة ١٨٦٣ .	١٨٦٠ / ١٨٦٣
بيكر يكتشف بحيرة البرت .	١٨٦٣ / ١٨٦٤
تحكيم بريطانيا بشأن استقلال كل من مسقط وزنبار .	١٨٦١ / ٢ أبريل
اعلان كل من فرنسا وإنجلترا عن استقلال زنبار .	١٨٦٢ / ١٠ مارس
تنازل زعماء الدناكل عن أبوك بفرنسا	١٨٦٢ / ١١ مارس
فرمان تركي عن مصوع وسواكن .	١٨٦٥ / مايو
لفنجستون في ننجانيقا .	١٧٦٦ / ١٨٧١
شفينفورت . سافر من الخرطوم إلى نيام نيام وكشفه لنهر أويل .	١٨٦٦ / ١٨٧١

صمويل بيكر في خدمة مصر . حاكماً على المناطق الجنوبية من السودان .	١٨٧٣ / ١٨٦٩
افتتاح قناة السويس .	١٧ نوفمبر ١٨٦٩
اتفاقية عن بيع عصب لإيطاليا .	١٥ نوفمبر ١٨٦٩
	١١ مارس ١٨٧٠
كشف ناخجال منطقة بحيرة تشاد .	١٨٧٠
ستانلي يبحث عن لفنجستون لانتقاه	١٨٧١
ستانلي في الكونغو بالنيابة عن ليوبولد الثاني .	١٨٧٧ / ١٨٧٤
غوردون في خط الاستواء بدلاً من صمويل بيكر .	١٨٧٦ / ١٨٧٤
دى برازا الفرنسي في حوض الكونغو الأدنى .	١٨٧٥
تأسيس الجمعية الدولية لكشف أفريقيا .	١٨٧٦
اتفاقية بين مصر وبريطانيا بشأن ساحل السومال .	٧ سبتمبر ١٨٧٧
غوردون حكاماً لعموم السودان .	١٨٧٩ / ١٨٧٧
فرمان تركي لا يسمح لمصر بالتنازل عن أى جزء من ساحل السومال لاية دولة أجنبية ، فرمان تولية الخديو توفيق .	٢ أغسطس ١٨٧٩
اتفاقية بين سلطان رهيفة وشركة روباتينو الإيطالية يتنازل فيها عن جزائر أم البشار ورأس الرمل ودرماشيه .	٣٠ ديسمبر ١٨٧٩
اتفاقية بين سلطان رهيفة يتنازل فيها عن للشاطيء والجزائر في خليج عصب بين رأس لومه ورأس سنتيار .	١٥ مارس ١٨٨٠
اتفاقية حماية إيطالية على رهيفة .	٢٠ سبتمبر ١٨٨٠
إعلان من فرنسا عن حدود أبوك .	٢٥ ديسمبر
معاهدة احتلال فرنسا لتونس .	١٢ مايو ١٨٨١
ذكريتو مصرى بشأن شرق السودان ويشمل مديريات التناكه، ومحافظتى سواكن ومصوع ، وسنهبت والقلابات ، وتوابعها بما فيهم قبيلة الضباينة .	٣٠ نوفمبر

- ١٨٨٢ ١٠ مارس إتفاقية بين الحكومة الإيطالية وشركة روباتينو انتقلت بموجبها أملاك الشركة إلى الحكومة .
- ١١ يوليو بريطانيا تضرب الاسكندرية .
موقعة التل الكبير ، واحتلال مصر .
- ١٨٨٣ ١٥ مارس معاهدة بين إيطاليا وسلطان عصب بشأن عصب صدق عليها
ملك شوا بتاريخ ٢٢ مايو سنة ١٨٨٣ .
- ١٢ مارس معاهدة بين إيطاليا وشوا عن الحدود .
- ١٨٨٤ ٢٢ أبريل اعتراف الولايات المتحدة بالكونغو الحرة :
- ٢٣/٢٤ أبريل فرنسا والكونغو تتفقان على حق فرنسا في الاستيلاء على الكونغو في حالة إخلائه .
- ١٨٨٤ ٣ يونيه معاهدة بين بريطانيا وأثيوبيا ومصر بشأن منطقة البوغوص والمسائل المتفرعة واعتراف النجاشي بحق بريطانيا في الفصل في المشاكل بينه وبين مصر بعد هذا التاريخ ، وحق النجاشي في تعيين المطران لكبرى الحبشة .
- ٢١ سبتمبر معاهدة بين فرنسا وسلطان تاجوره حامد بن محمد يتنازل عن قبة خراب ، وتعهد السلطان بأن لا يدخل في معاهدات مع الدول الأجنبية قبل الحصول على موافقة حاكم ابوك الفرنسي ، وفي هذه المعاهدة مخالفة لما جاء في المادتين السادسة والسابعة من معاهدة ١٨٤٠ بين السلطان وبريطانيا .
- ١٨٨٤ ١٥ نوفمبر مؤتمر برلين للمسائل الأفريقية .
- ١٨٨٥ ٢٦ فبراير
- ١٨ أكتوبر إقرار تنازل عن قبة خراب لفرنسا .
- ٨ نوفمبر اعتراف ألمانيا بالكونغو الحرة .
- ١٤ ديسمبر إقرار تنازل لفرنسا من اديلاي إلى امبادو .
- ١٦ ديسمبر اعتراف بريطانيا بالكونغو الحرة .

- ١٦ ديسمبر اتفاقية بين بريطانيا والكونغو الحرة بشأن الاختصاص القنصلي وغيره .
- ١٩ ديسمبر اعتراف إيطاليا بالكونغو الحرة .
- ٢٧ ديسمبر اعتراف هولنده بالكونغو الحرة .
- نوفمبر-ديسمبر معاهدات بين جمعية شرق أفريقيا الألمانية مع الزعماء المحليين
- ١٨٨٢ / ١٨٨٥ معاهدات بين بلجيكا والزعماء المحليين في أعلى نهر الكونغو .
- ١٨٨٤ / ١٨٨٥ عودة غوردون لاختلاء السودان
- ٢ يناير معاهدة بين فرنسا وزعماء العيسى في الصومال - حماية .
- ٧ يناير اعتراف اسبانيا بالكونغو الحرة .
- ٢٦ يناير سقوط الخرطوم في يد الدراويش ومقتل غوردون .
- ٣ فبراير احتلال إيطاليا لمصوغ .
- ٥ فبراير اعتراف فرنسا بالكونغو الحرة .
- ٥ فبراير اتفاقية بين فرنسا والكونغو الحرة بشأن المحطات الخاصة والممتلكات .
- ٥ فبراير اعتراف روسيا بالكونغو الحرة .
- ١٠ اعتراف السويد والنرويج بالكونغو الحرة .
- ١١ فبراير ١٨٨٥ اعلان فرنسا حمايتها على المنطقة من رأس على إلى قبة خراب
- ١٤ فبراير اعتراف البرتغال بالكونغو الحرة
- ٢٣ فبراير إعلان بلجيكا اعترافها بالكونغو الحرة
- ٢٣ اعتراف الدانمارك بالكونغو الحرة
- ٢٧ وثيقة الشركة الاستعمارية الألمانية .
- ٢٦ مارس معاهدة فرنسا بحمايتها على ساحل الصومال
- ١ أغسطس اعلان من البلجيك عن تأسيس الكونغو الحرة ، تولى سيادتها ليوبولد الثاني .
- ٢٤ أكتوبر اتفاقية بين الباب العالي وبريطانيا بشأن الجلاء عن مصر الخ

- ١٨٨٦ } ٢٩ أكتوبر
 ١ } ١ نوفمبر
 اتفاقية بين بريطانيا وألمانيا عن حدود زنبار .
- ١٨٨٦/١٨٨٤ معاهدات بين بريطانيا وزعماء ساحل السومال - حماية
- ١٨٨٧ مارس معاهدة بين بريطانيا وألمانيا - مناطق النفوذ في شرق أفريقيا .
- ٢٢-٢٩ أبريل مذكرات بين الكونغو وفرنسا بشأن حق الاستيلاء .
- ٢٩ أبريل بروتوكول بين فرنسا والكونغو عن الأوبانجي .
- ٢٤ مايو امتيازات الشركة البريطانية لشرق أفريقيا في زنبار
- ٢٤-٣١ مايو مذكرات بين بريطانيا وإيطاليا بتحديد مناطق النفوذ من رأس كسار على البحر الأحمر .
- ٧ يولييه اتفاق بين إيطاليا وزعماء الدناكل عن أوسه .
- ٢٠ يولييه إعلان بريطانيا حمايتها على ساحل السومال من رأس جيمبوتى إلى بندر زيادة .
- يولييه اتفاق بين ألمانيا وبريطانيا بشأن عدم ضم أية ممتلكات تقع تقع خلف حدود مناطق النفوذ في شرق أفريقيا .
- ١٨٨٧ ٢٠ أكتوبر اتفاقية تحالف بين إيطاليا وشوا .
- ١٨٨٨ ٢-٩ فبراير اتفاق بين بريطانيا وفرنسا عن خليج ناجوره وهرر الخ
- ٩ ديسمبر معاهدة بسيادة إيطاليا على الدناكل
- ١٨٨٩ ٢ مايو معاهدة أوتشبالى بين أتيوبيا وإيطاليا
- ٢ أغسطس وصية الملك ليوبولد الثانى بانتقال حقوق سيادته على الكونغو الحرة إلى البلجيك وذلك فى حالة وفاته .
- ٣١ أغسطس اتفاق عن حكر للشركة البريطانية فى شرق أفريقيا فى زنبار .
- أول أكتوبر اتفاقية بشأن قرض من إيطاليا لآتيوبيا بضمان جمارك هرر
- ١٨٩٠ ٢٤ مايو اتفاقية ماكنون وليوبولد التى لم توافق عليها بريطانيا
- ١٤ يونيه اتفاق بريطانيا و زنبار - الحماية البريطانية .
- ١ يولييه اتفاق بريطانيا وألمانيا بخصوص مناطق النفوذ

- ٢ يوليه قرار بروكسل بشأن الرقيق .
- ٤ نوفمبر إخطار بريطانيا للدول عن حمايتها لزنجبار
- ١٨٩٠/١٨٨٤ مذكرات بشأن محميات ألمانيا في شرق أفريقيا
- ١٨٩١ ٥ مارس اتفاق بين زنجبار وشركة أفريقيا الشرقية البريطانية بشأن موانئ بنادر
- ٢٤ مارس بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بشأن منطقة النفوذ الإيطالية من الجوبا إلى النيل الأزرق .
- ١٠ أبريل أرسل النجاشي خطاباً دورياً إلى الدول الأوروبية يعلن عن مطالبته بجميع حدوده القديمة على النيل إلى بحيرة رودلف .
- ١٥ أبريل بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بخصوص منطقة النفوذ الإيطالية من رأس كسار إلى النيل الأزرق .
- ٢٠ أغسطس أعلنت الشركة البريطانية الامبراطورية لشرق أفريقيا عزمها على اخلاء اوغنده
- ١٨٩٢ ٢٢ مارس فرمان سلطاني بولاية عباس موضحاً فيه حدود مصر .
- ٣٠ مارس اتفاق لوجارد مع ملك اوغنده
- ٢٢ يونيه إخطار بريطانيا بوضع محميتها زنجبار في نطاق مواد التجارة الحرة التي وردت في قرارات برلين .
- ١٨٩٣ ١٢ أغسطس معاهدة بين زنجبار وإيطاليا بشأن بنادر
- ٢٩ مايو معاهدة مؤقتة بين بورتال وملك اوغنده لسد الفراغ بانسحاب الشركة البريطانية .
- ١٥ نوفمبر اتفاق بين إنجلترا وألمانيا عن مناطق النفوذ في غرب أفريقيا
- ١٥ مارس اتفاقية بين فرنسا وألمانيا تنازلت لفرنسا عن جزء من منطقة نفوذ ألمانيا سنة ١٨٩٣ الموضحة باتفاق إنجلترا
- ١٨٩٤ ٥ مايو بروتوكول بين بريطانيا وإيطاليا بشأن شرق أفريقيا وهرر
- ١٢ مايو اتفاقية بين بريطانيا والكونغو بشأن مناطق النفوذ وحوض بحر الغزال واللاذو .
- ٢٢ يونيه إخطار بسحب البند الثالث من اتفاقية ١٢ مايو سنة ١٨٩٤ بين بريطانيا والكونغو .

- ١٤ أغسطس اتفاقية بين فرنسا والكونغو عن الحدود .
- ٢٧ أغسطس اتفاق كولفيل وملك اوغنده
- ١٨٩٥ ٥ فبراير اتفاق بين فرنسا والبلجيك بشأن الشفعة في أملاك الحكومة الحرة .
- ٢٥ يونه
٧ يوله } اتفاق مصر وإيطاليا بشأن الحدود بين خور بركة والبحر الاحمر
- ١٤ ديسمبر اتفاق بين بريطانيا و زنبار بخصوص الادارة البريطانية على الساحل والجزائر فيما عدا زنبار وبمبا .
- ١٨٩٦ ١ مارس واقعة عدوه التي هزمت فيها إيطاليا .
- ٢٦ أكتوبر معاهدة بين إيطاليا وأثيوبيا اعترفت فيها إيطاليا باستقلال أثيوبيا .
- ١٨٩٧ ٢٠ مارس اتفاقية بين فرنسا وأثيوبيا بشأن الحدود بين أثيوبيا والمنطقة الساحلية الفرنسية .
- ٢٠ مارس اتفاقية بين فرنسا وأثيوبيا (سرية) بخصوص امتداد نفوذ الدولتين إلى حوض النيل الأبيض .
- ١٨٩٧ ١٤ مايو تبادل مذكرات بين بريطانيا وأثيوبيا بشأن معاملة السوماليين الذين يقبلون الرعية الاثيوبية .
- ١٨٩٧ ٣٠ أغسطس مذكرة بين بريطانيا وأثيوبيا بتوثيق معاهدة ١٤ مايو سنة ١٨٩٧ .
- ٢٥ ديسمبر إقرار تنازل من إيطاليا لمصر عن قلعة كسلا
- ١٨٩٨ ٧ ديسمبر اتفاقية بين مصر وإيطاليا بخصوص ضرائب الرعى المطلوبة لادارة أرتيريا .
- ٧ ديسمبر اتفاق بين مصر وإيطاليا بشأن الحدود الشمالية لارتيريا
- ١٨٩٩ ١٩ يناير اتفاقية السودان ثم اتفاقية ضم حلفا وسواكن للسودان
- ٢١ مارس اعلان متمم للاتفاقية التي عقدت بين بريطانيا وفرنسا في ١٤ يونه سنة ١٨٩٨ عن مناطق النفوذ .

« الملاحق والوثائق »

الملحق الأول

وثيقة الفقيه محمد أبو دليق^(١)

بيان حامد بن صالح الدليقاني قد توضح أفكار الزمان . والزمان وارثاً لكل مكان سنة ستائة واثنين وسبعين من هجرة خاتم الرسل عليه الصلاة والسلام أن من أهل الشروق الألسنة العربية ١٣ طائفة نزلت بدار ديمس وما من أبحار النيل أربع هلالية واثنان من بني مخزوم واثنان من كنانة وواحدة خزرجية من بني النجار واثنان من بني أمية واثنان من بنو هاشم ففرقوا من الأيتم إلى تونس العلام بعد فتوح الاسلامي النوراني بالقسمة السهمية وقسمة هلاله لأجل المساعي من شبكة كاز إلى تونس العلام وكنانة وبنو مخزوم من جبل أودون إلى جبال الذهب برور وبحار وبني أمية على شاطئ البحرين الفتيين ما بين أتره وبربر وما بين مرج البحرين الأبيض والأسود والعباسية من حجر العسل إلى جبل أبو نفاقير مشرقاً وغرباً وبعضاً منهما مع الخزرجية من ملواد إلى البحيرة (بالقطر المصري) .

ثم بعد ذلك أولاد سمار وسمرة وسميرة الهاشمية مع أعمامهم كامل واحمد ولیمها من القوم أول ما نزلوا من الشرق استقروا ليمان الكاسنجر وعمهم حاسن مع أهله نزلوا بأمر غيره بمعائم جديدة نحو بربر وقد انتقلنا برور الغرب إلى بحر الغزال استغرقتنا فيه أربعة خلفات ومنه انتقلنا إلى وادي مقدم من جبرة إلى أم طوب وقد ورثنا فيه خلفتان وكلت الديار من مشاهي المساعي قد توجهوا هنا أولاد محمد أبو دليق عبد الله وعلي وصالح إلى شرق هوات سلسي في سرور شهر رجب سنة ١٠٠٠ ينقضى ثلاثة أعوام ووسمهم على الإبل والبقر والغنم على اليمين نار فوق الأذن مطرق وشاهد وانتقل منه سالم بن معارف إلى الصعيد هو وأولاده حكار وسليمان فاختلفوا مع الجمع ومدروكون في السجل وانتقلوا النقارة إلى كوميات النوق (دنقلة) دار منها سبعة وعشرين^(٢) خلفنا فيها خلفه واحدة ومحمد وارث الدين أبو دليق وماسمي

(١) نقلت هذه الوثيقة عن مخطوطة محتفظ بها الشيخ يس أحمد أبو دليق بواد مدني . ويكتب الاسم أيضاً أبو « دلق » ومصغرها « دليق » = الخرقة البالية .

(٢) دار منها سبعة وعشرين . يقصد دار منها سبعة وعشرين درجة التي للمسجد = ويشير بذلك إلى أن دار كوميات النوق التي هي دنقلة هي نهاية ما تمنى الجماعة من امتلاكها في الدنيا .

أبو دليق كان بالتعليم قد حصل عراؤه بالمساجد والزمن وأحل لاميسرة بيد أبيه صلاح الاراية الاسلام الوارثها (٣) من جده عبد الله ابن العباس المتقسمة إليه من التسعة رايات المؤيدات بالنصرة - أنشأها صلى الله عليه وسلم بعد دخوله المدينة اثنان لأخواله أولاد عم آمنه بنت عبد الله ابن جابر الاوسى وأخيه عامر وواحدة لشقيقه جابر بن عبد الله الخزرجى وواحدة لصديقه أبي بكر وواحدة لسيدنا عمر وواحدة لسيدنا عثمان وواحدة لسيدنا علي وواحدة لعمة حمزه وواحدة لعبدالله ابن العباس . ثم أن صلاح لما هم (٤) من عراء ولده كساه الراية وأمه باباجها وحفظها تكون ورثة لصاحب المقام وجرادة لمن يقدم بدينه إلى محلنا فبذلك تأثر اسم شاهر بالدليقاب . ثم نبين لك أولاد محمد وارث الدين ستة ضريس وكروم وعلي وناصر وعوض الله وحامد وأولاد ضريس شرق جبل أبونعوق وكروم وعلي ناصر الأشقة هما بالتوقد وعوض الله وحامد فارقوا أهلها في التوق إلى دار الغرب بمليط (دارفور) وأولاد كروم سليم وسال وعايد وأما ناصر وأولاده أربعة صالح وصبح الله وسجاد وأمين وان صالح بن ناصر امه كنزبه وفارق النقارة وقارن الموالسكة (٥) في وادى عريس وله ولدين واحد صبح الله وأخيه حامد وصبح الله وولده حمد تنير ولد كوكو وكوكو ولد عبيد الله ولد الضو وحامد وأخيه ولد صالح وصالح ولد الطيب والطيب ولد محمد ومحمد ولد الحسين والحسين ولد صالح فاختلفوا مع الموالسكة ومدروكين بالسجل ثم أن الوسم على الابل أربعة وجوه نار الدليقاب أولاد ضريس ومن معه القلادة على الشمال والطوق على الورك اليمين وأولاد الملك ناصر القلادة على اليمين والخرار على الشمال عميد كغنز وأولاد كروم والقلادة على الشمال والخرار على اليمين والسامع وأولاد ادريس ولد عايد سكنوا وادى القعب (٦) باللقية بالشاباط وتم تبين أهل الله من الدليقاب على وابن أخيه عبد الله بالهواد (٧) وحامد بمقرات واحمد أبودليق لشرق جبل ابنعوف (ابن عوف) الملقب بقادى أمه زوافى بنت حسن القناوى الحسن حيدر وسليمان المعقور بن احمد بدارفور

(٣) الوارثها = التي ورثها

(٤) لما هم = عندما خالجه الموم

(٥) الموالسكة = الماووير

(٦) القعب = شمال دقله .

(٧) الهواد = شرق أبودليق بالبطانة .

رئيساً بها وسالة (٨) بالارتل وصالح بجرادة وارقو والشيخ ابراهيم بأرض مصر
وعبد الكريم بالين ثم نبين لكم الوارثون . قد انتقلت من النوق إلى وادي مريخ
جزيرة قشاب (٩) استقرنا بها صاحب السجادة حامد بن صالح ابن عابد بن كروم
بين محمد أبو دليق إلى صلاح بن ساجد الملقب بدير بن سوان بن شرع الدين ابن
أبو مرخة بن سعد الدين بن سمار ابن كروم بن حمد الحجازي بن قضاة بن الرفع
ابن مصرف بن سقف بن أمان بن حرقان بن كوثر بن موسى بن ابراهيم بن سعد الدين
ابن عبد الله الفضل بن عبد الله بن العباس ثم النبي صلى الله عليه وسلم .

بيان حامد بن صالح الدليقاني والله أعلم بالصواب ياغفار اغفر ذنبي بالله .

(تعليق)

آثرنا نشر هذه الوثيقة بكاملها إتماماً للفائدة . فهي تبين لنا صورة من صور
الحياة بعد دخول العرب في هجرتهم إلى بلاد السودان وقد جاءت ترجمة حياة الشيخ
أبو دليق في كتاب الطبقات والوثيقة مكتوبة بجزر العمارة الأسود القائم اللون على
ورق المعروف باسمه « أبو شبك » الذي يستعمل في كتابة الوثائق .

(٨) سالة = ينطق بفتح السين واللام والتاء .

(٩) قشاب = المعروفة باسم قوشابي . أو غوشابي في دقله .

الملحق الثاني

وثيقة عن حفريات أثرية في حوض خور برکه بالارتيريا^(١)

كتبها كارلو كوتى روسيتي^(٢)

قام الضابط الايطالى لويجي تالاموتي^(٣) برحلة تفتيشية في حوض خور برکه - في المنطقة بين بلدة أغوردات إلى ملتقى هذا الخور برافده (Ambacta) وكان ذلك في شهر يونيه من عام ١٩٠٢ الميلادى - وقد لاحظ هذا الضابط أن بعض المواقع لها قيمة أثرية من شأنها أن تساعد على توضيح تاريخ الارتيريا والمناطق المجاورة من أتيوبيا والسودان . وقد بعث إلى هذا الضابط بمذكراته عن هذه المواقع لتحقيقها وأرى من المفيد أن أنشر ما وصلت إليه من نتائج للحفريات التي قمت بها في هذه المنطقة التي لم يكشف عنها من قبل .

مقابر الفونج :

هناك مجموعات من البنايات الصغيرة الحجم منتشرة على طول السهل الواقع في واد الرافد (Lacreb.) وتمتد على خور برکه في اتجاه شمالي حتى تقترب من ميناء سواكن . وتعرف هذه البنايات بمقابر الفونج الذين أسسوا ملكا في سنار في القرن الخامس عشر الميلادى والتي امتدت حدودها جنوبا وشرقا حتى شارفت على البحر الاحمر .

وهذه البنايات صغيرة مربعة في حجمها ولا يعرف هذا النوع من فن البناء في هذه المنطقة في الوقت الحاضر . ويتكون البناء من أحجار كبيرة منتظمة الشكل الخارجى معقودة فوق بعضها متماسكة بطبقة طينية بين الأحجار . وهنالك أحجار طويلة متشابهة الاطراف تربط بين الاجزاء العليا للبناء وتقوم على هذه الأحجار «قبة»

(١) روسيتي مقال ١٩٠٣ ص ١٣٤ - ١٥٠

(٢) أنظر مقال الدكتور مراد كامل عن ترجمة حياة روسيتي (٢٥) ابريل سنة ١٨٧٢ -

٢١ أغسطس سنة ١٩٤٩) مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد ١١ جزء ١ ص ١٥١/١٥٨

(٣) كان موظفاً بالادارة الايطالية لارتيريا .

من الحجر والطين . وفي البناية نافذة صغيرة في كل من الجوانب الأربع وتقع في منتصف المسافة من سطح الأرض لاعلى البناء . وتطل على السهل المحيط بها وأرضية البناء في كل الحالات أعلى من مستوى السهل .

وقد قمت بفتح إحدى هذه البنايات المنتشرة في أعداد قليلة منعزلة أو في مجموعات كبيرة . وكانت تلك البناية التي نبشت من المجموعة القائمة في وادي لنقيب (Langeb) بين تأميمات وآبار إداردى . وقد وجدت على عمق خمسين سنتيمتر من سطح الأرض بقايا عظام بشرية تحول هيكلها إلى مسحوق أبيض اللون . ولم أعث على أوعية أو كتابات في داخل المدفن وأضيف على ماتقدم ذكره أن عدداً كبيراً من هذه البنايات موجود من « دور طه » .

ويقال أن الفونج قد أصيبوا بهزيمة منكرة كما تذكر الرواية التي يتناقلها الأهالي أن الجماعة المعروفة بالقدين Al Gheden ترجع في أصلها إلى الفونج التي هاجرت بعد الموقعة الفاصلة .

* * *

هذا هو التقرير الذى نشره الاستاذ روسيني عن هذه الحفريات ويجدر بنا فى هذا المقام أن نشير إلى ما كتبه مادجان مساعد جيولوجى إدارة السودان الذى زار منطقة البحر الأحمر شمالى بورسودان فى ديسمبر سنة ١٩٢٠ وإلى تعليق كروفوت على هذا المقال والذى حاول فيه أن يحدد تاريخ تلك المباني وقد أنهى كروفوت تعليقه بأنه « يربط باطمئنان بين هذه القباب وبين الجماعات من البشما المستعربين الذين اتصلوا عن طريق القوافل بين بلدة قوص أو أسوان وعيذاب فى القرن الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر . » أنظر مجلة السودان فى مدونات ورسائل (S.N. & R.) الجزء الخامس ص ٧٨ / ٨٢ مقال Madigan C.J. عن وصف الحصون شمالى بورسودان .

وبما لاجدال فيه أن هذه المسألة تتطلب المزيد من البحث الذى يتحتم قيامه فى منطقة البحر الأحمر من حوض خور بركة وعلى طول طرق القوافل عبر الصحراء الشرقية . وهذه ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ مملكة البلى الاسلامية وحروبها التى انتهت باضعاف هذه المملكة وتفرقت أصلها إلى مجموعات صغيرة امتصتها قبائل أخرى كما ذكره لوبو وكتاب فتوح الحبشة الذى نشره رينيه باسيه . وكتاب قبائل البجا الذى كتبه بول (Pavl, A.) سنة ١٩٥٤ .

الملحق الثالث

ملخص تاريخ أريجي^(١)

أول من أسس المدينة المذكورة هو حجازى ولد معين وذلك فى عام ٨٨٠هـ (هجريّة) ثم من بعد المدينة المذكورة أسست مدينة سنار بواسطة الملك عمارة دنقس وذلك بمعيّنة (معاونه) الشيخ عبد الله جماع جد العبد لاب ثم بعد انتظام وتعمير مدينة أريجيّ فاول شيخ تعين للمدينة المذكورة الشيخ نور محمد ولد رحيمه فى عام ٩١٣ هـ وقتل فى غزوة محمود ولد كوينه حينما غزا الجعليين خرب ادريس ود ملك الجعليين حينما عصى ملك سنار . وتعين بعده شيخاً لاريجيّ ابنه محمد نور وتعين بعده ابنه الشيخ شيمول محمد ولد نور الذى جمع بين المشيخة ووزارة ملك سنار بادى ودرجب وكان ذلك قبل خروج الملك بادى لحرب الشكرية الذين خرجوا عن الطاعة وعين الوزير شيمول ود محمد نور لخدمة العريان جهة الداخلة الشلال ثم لما رجع الملك بادى من حرب الشكرية باتنيرة^(٢) واستقراره برفاعه^(٣) وكان من عادة ملوك سنار يعملون عروضات ويرحون بالخيّل أمام الملك وكان أول من رجح بالحصان أحد إخوانه أبناء عمه محمد ناجى وعادة أهل الخيل يقفون على بعد من الملك والمذكور (محمد ناجى) طلق الحصان حتى قرب من الملك وعلا الغبار على رأس الملك بادى فامتلاً قلبه غيظاً منه وأمر أن يضرب بالسياط لإساءته الأدب فلما ألقى على الأرض لم يثبت للضرب وعظم ذلك على إخوانه لعدم صبره وتجلده لأن عادة أهل السودان التجلد والصبر على المسكاره وكانوا اخوان الرجل المضروب استأذنوا من الملك ليحملوه إلى سنار للمعالجة فأذن لهم بحمله وكان الملك بادى قبل قيامه لحرب الشكرية عزل الشيخ الأمين مسمار والشيخ احمد على ولد هيفه شيخ السكاتير والمذكور من

(١) هذه المخطوطة من الأصل الذى يحتفظ بيت ولد شيمول بالسلمية (بين ولد مدنى والحصحصا على النيل الأزرق) وقد تفضل بالاشراف على نقلها الأستاذ يوسف أحيمر بسكك حديد السودان .

(٢) حوض العظيرة أو الأتيرة .

(٣) رفاعه تقم شرق النيل الأزرق بالقرب من الحصحصا .

كبار أهل الطواقي (٤) وكان أولاد عم الرجل المضروب تعصبوا (٥) واضرموا على قتل الملك هم وعشيرتهم وبعضاً من الطواقي كالشيخ أمين مسمار والشيخ احمد على هيفه وحلفوا على قتل الملك بادى ثم ان اخوان المضروب كانوا تحت قبضة الملك فصار كلا منهم يستأذن الملك للتوجه إلى سنار من رفاة لأجل مناظرة أخوهم (أخيهم المضروب) حتى تكاملوا بسنار جميعهم وقويت شوكتهم وسعوا في كيفية حرب الملك بادى . وكان الوزير إذ ذاك شنبول ود محمد نور الذي كان خليفة الملك على سنار لأجل خدمة العربان بالداخلية . فتوجهوا إليه وقتلوه وشاع الخبر إلى الملك برفاة وقام الملك بادى من حينه بالجيش وتوجه لسنار للحرب معهم فلما وصل إليهم قابلوه واصطفت الصفوف ثم أن الملك أمر ابنه دوس (٦) أن يفتح معهم الحرب فنازلهم وبعد قليل ولى منهم هاربا ثم بعد ما هرب ابنه دوس تقدم الملك بنفسه للحرب فبرز الشيخ الامين مسمار من مشايخ طاقية العبدلاب (٧) فضرب الامين مسمار الملك بادى بالسيف على رقبة فقطع وريده ثم ان الضربة قد أذت الملك بادى وأما الملك بادى عاقب الشيخ الامين مسمار بالضرب بالحقة ستة ضربات بالسيف فلم تؤثر فيه ضربة واحدة ثم أن الملك لما أحس بالآلم وعرف أنه هالك أمر أولاد عمه بأن يقتلوه بسيوفهم لأجل ما يقولوا (٨) قتله الشيخ الامين مسمار وهو عار عليه وقد كان ضربوه بسيوفهم وقتل على هذه الكيفية . ثم بعد قتل الشيخ شنبول ود محمد نور تعين ابنه الشيخ مدني ود شنبول في أربجي أعظم مشيخة وكانت أيامه في معظم عمارة أربجي وفي أيامه كان أحد الفقراء المشاهير الفقيه محمد علقم ثم أن الفقيه نفسه توجه إلى ملك سنار وفي ذلك الوقت كان ملك سنار محمد ولد ناصر وبعد وصوله إليه والوقوف بين يديه طلب من الملك جاها إلى حلتة (٩) بمعنى خدمة جميع البلد تعطى إليه لأن عادة ملوك السودان يعطون الفقهاء في ذلك الزمن الأعشار وقد مضى له بأعشار حلتة وصار يخدم حلتة بنفسه خاصة وبدون أمر

(٤) طواقي مفردا طاقية وهى غطاء الرأس الرسمى لشارة الحكم وتعرف بالطاقية أم قرين (قرن) أنظر صفحة ١٢٣ .

(٥) تعصبوا = جمعوا أهل عصبيتهم .

(٦) دوس = تنطق بضم الدال وفتح السين - والسكامة أصلا ترجع الى المصرية القديمة

(٧) مشايخ طاقية العبدلاب = أى مشايخ مانجليكية العبدلاب .

(٨) لأجل ما يقولوا = حتى لا يقولوا .

(٩) حلة = قرية .

الشيخ مدني وبعد ما أمضى له الملك لم تكن للشيخ مدني ود شمبول سلطة عليه ولا على أهل الحلة التي بها الفقيه ود علقم وبهذا السبب الشيخ مدني شيخ أربجي قتل الفقيه ولد علقم وجميع أهل الحلة التي كانت تخدم الفقيه ود علقم فلما سمع ملك سنار بذلك غضب غضباً شديداً وعزل الشيخ مدني ود شمبول عن شياخة أربجي وعين بدله لأربجي محمد ود النو من دناقلة أربجي وأهلها القدام وكان من أهل الغناء المشهورين بأربجي وكان بعد ما عزل الشيخ شمبول توجه هو (١٠) وجميع جيشه إلى جبال العطيش وأقام هناك مدة سبعة سنوات والشيخ محمد النو الذي تعين بدله مقياً بأربجي وبعد حضور الشيخ مدني من جبال العطيش بسنار هو وأخواته وجميع الجيوش والعوائل والعشيرة التي معه قاصدين جهة السليمة ليكونوا بها فلما سمع الشيخ محمد النو أن الشيخ مدني شمبول أخذ معه الخواص من أولاد عمه وتوجه بهم إلى سنار لمقابلة الملك ليتمس رضاه فلما سمع الشيخ ود النو أن الشيخ مدني ود شمبول شيخ أربجي المعزول سابقاً توجه لسنار خشي منه أن يتفق مع الملك ويرجع شيخاً على أربجي ثانياً وأن الشيخ المذكور محمد ود النو أخذ خيولاً وعبيداً وجوارياً وذهباً كثيراً ليعطيه للملك لبقائه على شياخة أربجي فلما قرب من سنار قابله الشيخ مدني الذي كان يخافه خارجاً من سنار بعد أخذه الأذن من الملك ثم ان الشيخ مدني بادر على قتل الشيخ محمد ود النو وذهب بجميع ما جاء به للملك من خدم وعبيد وخيول وذهب ورجع به للملك وأخبره الخبر فلما سمع منه الملك ذلك غضب غضباً شديداً وهم بقتل الشيخ مدني شمبول ثم ان أكبر رجال الدولة والأعيان دخلوا على الملك ليشفعوا للشيخ مدني من القتل وقالوا هذا الرجل من بيوت الملك وأن أبناءه لهم عند الملك جاهها وكانوا من أعظم شجعانه ولهم مزايا كثيرة وقد انحل غضب وقال للشيخ مدني قد عفوت عنك فمن وقتها قد قام الشيخ مدني لوطنه السليمة وصار جميع عمار أربجي تحته وكان خراب أربجي سنة ١٠٤٠ (هجرياً) وتعمرت السليمة وكان بلال ود بله من أهل شورة الملك وكانت تصدر منه كلمات في حق الشيخ مدني ومنها كلمة قالها قال ساجيب مشيخة الشيخ مدني وأعطيتها إلى أحد عبيدي ولما بلغ الشيخ مدني هذا الكلام بهذه الصفة اغتاظ على بلال ودبله وكان احمد ابراهيم من قبيلة البساتنة وهو من التجار المشهورين بأربجي والمذكور كان سافر إلى أرض النخا (نخا - باليمن) وأحضر معه بضائع نفيسة تليق بالملك - سيوف ودروع عظيمة . ولما بلغ ذلك ملك

سنار قد أرسل إلى الشيخ مدني شمبول بان يشتري له منه سيوف ودروع بالثمن وقد أخذ الشيخ مدني السيوف والدروع وكان مقدراً قيمة الجميع ٢٥ أوقية ذهب وأن الملك تأخر في ردها إلى الشيخ مدني شمبول وطال الزمن بعد وصول الأشياء إلى الملك وصار التاجر يلح على الشيخ مدني شمبول بالمطالبة وأن الشيخ مدني عرف التاجر بأن الملك لم يرسل إليه الذهب ولما طالت المدة وكرر التاجر إلحاحه بالمطالبة على الشيخ مدني وأخيراً التجأ إلى بلال ودبله مستنجداً به للخلاص من الشيخ مدني وتداخل بلال ودبله بين الشيخ مدني والتاجر وعرفه أن أصل المال له لذلك صار بلال يطالب بالمال وأخيراً اشتكى للملك سنار وقال له ان الشيخ مدني ود شمبول قد أكل ذهبي ظلماً فلذلك ملك سنار طلب الشيخ مدني ولما حضر عنده أمره بدفع المبلغ إلى بلال ولما اتضح للشيخ مدني الأمر استأذن الملك في الرجوع إلى المسلمية وبعد مراجع للمسلمية استعد بآلة الحرب إلى بلال ودبله في رحلته وكانت بالقرب من المسلمية وقتله هو ومن معه من أولاده وعشيرته ثم ان الشيخ مدني عصا على ملك سنار وطلبه ملك سنار ليحضر عنده ولم يحضر عنده فقال له الوزراء ان هذا الرجل إلّا محتال على قبضه بدون حرب فقاموا من وقتهم وتوجهوا إلى المسلمية وقالوا له ان ملك سنار حلف يميناً لا يعافيك بشيء مطلقاً وحلف الوزراء أمام الشيخ مدني المسلمية على كتاب الله وقالوا له قد قتلت قبله الشيخ محمد النو بستار قريباً من كرسى الملك فلم يحصل لك شيئاً وان هذا هو وأهله لم يؤخذ له الملك فيهم بشيء فلما سمع منهم الشيخ مدني هذا الكلام توجه هو وأخواته إلى سنار فلما بلغ الملك قدمهم إلى سنار قال اعملوا حيلة عليهم واقبضوهم بدون شوشرة فبوقتها قد عين الملك جيشاً قبل وصولهم حلة طيبة قندلاوى فوقفوا على الشيخ مدني أربعة أنفار وألقوا عليه القبض ووضعوا فيه الحديد وكذلك أخيه الشيخ عدلان في محله قبض وكذلك بقية أخواته توجهوا إليهم أنفار وألقى فيهم الحديد ثم ان الشيخ مدني اجتهد مع الوزراء والرؤساء بالمبالصة (الرشوة) في فك أخيه الشيخ عدلان وقال ان أنفك الشيخ عدلان وبقي في العقب (الأهل) لم تخرب دار شمبول ما دام هو فيها وقال للوزراء قولوا له أن أخيك مدني توجه للشرق ولم تعرف له جهة ومن وقتها قام الشيخ عدلان وهرب منهم وخرج بالشرق وان الشيخ مدني شمبول هو وأخواته أدخلوهم على الملك ففي الحين أمر الملك بقتلهم وقتلوا بسيف الشيخ محمد ناصر ضحى وأما ما كان من أمر الشيخ عدلان قد طلبه الملك وأحضره لديه وعفا عنه وأعطاه المشيخة وصار شيخاً (واستمرت المشيخة في بيت شمبول إلى أن حل ركاب حكومة العصميلة

(العثمانية) وعصت الجعليون وقتلوا ود الباشا (الأمير اسماعيل كامل) وحرقه بالنار وكان الحاج شمبول قد قدم من أرض الحجاز بصفة تاجر ولما وجد ود الباشا والأكابر الذين مقتولين معه وكانت الحكومة قد جردت العساكر لمحاربة الملك نمر لأن الملك نمر تجهز لحرب الحكومة وكان ما كان من أمره إلى أن قام من بلده ولما طلبت الحكومة المشايخ المعينين وجاءت الكشاف وكان مركزهم أبو فروع وكان إذ ذاك الشيخ شمبول فاستمر شيخاً إلى ١٢٥٦ هـ وتعين بدله ولده عبد القادر شمبول أربعة سنين وبعدها عزلته الحكومة وتعين مساعد عبد القادر عام ١٢٦٠ هـ ثم بعد وفاة الشيخ مساعد ولد عبد القادر تعين الشيخ مدني ود عبد القادر وقد عزل وتعين بعده شيخا الشيخ احمد أبو الروس أبوام كثير من قبيلة الجوادكيك وبعد وفاته تعين الشيخ مدني شمبول ود مدني ود شمبول وقد عزل وتعين مأمور إدارة المسلمية وتعين بدله شيخا الشيخ بخيت عبد الصادق الشيخ عدلان شمبول وتعين بعده الشيخ مدني شمبول مأمور إدارة المسلمية وعزل وتعين بعده الشيخ بادى ود بخيت ود إدريس وعزل من المشيخة ثانياً وتعين الشيخ مدني شمبول سنجق واستمر بيك باشا (بكباشى) الرئيسة (الرؤساء) الى أن قتل في أول ثورة المهديّة بشات هو وأخواته فهم عبد القادر بيك باشا والعض شمبول بيك باشا وكتور شمبول بيك باشا ومدني عبد القادر شمبول وعبد الصادق احمد شمبول ثم تعين بعده الشيخ عبد القادر مساعد سبعة عشر يوماً في المشيخة وحلت المهديّة. وقد تم نظام المشايخ المتقدم ذكرهم في سنة ١٢٩٩ هـ .

(٢)



والدعوى اليها والجميع الاهل كونه الفقيه
 السلطان وندوه مول سلطنة اقتراة السلام منها اليريد
 الدول وندوة جمال غسل وتلافون متقال ذهب وسرجين فضايين لا
 ٢٤٤ لله دعوا القموق لاس رشاق وعلين وايريون بعون خيرة واير
 عن فرالى خرايم برسبايل الخ استغناء لاله اسمي اطعام المسكين
 انه اعين نبيهم محمد بعد السلام ياسينونا الفقيه محمد ابراهيم
 محمد تقدم منها سليمان ابن زكرياء ابراهيم يوم الاثنين اوان
 عن فرالى خرايم برسبايل الخ استغناء لاله اسمي اطعام المسكين
 حيدر الله نور الله اشرفنا الله اوله الله الفاضل الفطاح الامام
 حيدر الله نور الله اشرفنا الله اوله الله الفاضل الفطاح الامام

(١)

السلطان من اسلم عنده من السلطان من التوب اليه سلطان الفقيه من سنة
 السلطان السلطان الساربه اير قواعق وانوت التي من يولي باسقام مدينة متغلة
 بشرط ان يولي كل عام من خريف سلطنة الدار الزرقاء فبعد من ميا كرسنه دعوا
 دول محمد الشيخ احمد شريفه ربيعة الشيخ محمد ابو الفطحية وعشرون محبان مقال
 عيون الدار واربعون سنة ساون وندوة اشرفنا الله اوله الفقيه الفاضل
 رشاد احمد حيدرات بالملك العن ظل صوبه بي دي فاد زكاته اسعد الشيخ احمد شريف
 وان بعدة تقصير المحمد المذكور لايمان ما ابد او كذا الزمان اير الفاضل احمد
 رانا فكله في السنة ونشاد بي ان اجرة ونحيت ابن الدهر وادعي الاسماع
 في كندوا يشاء مسود شيخ احمد شريف قال مقال ما اير مساجد في الزمان
 دكدون تعظم حرمته في موهوبه عبد زيد وقال بعدة في الزمان
 تموجه الطور وقال المير عبد الله من ان يشرف قليل مسجد اير جعلت له
 الزمان يتعجب التوب ويد ايدت امره في يد الشيخ المذكور خيرة
 مدينة صنفه فيامل ما امرت في ذلك السنة في طبعات
 فان يتولى السلطنة الزرقاء من بعد في العجبة قد
 يرحم لما كماله في سنة الماس في هذا المسجد المذكور
 في سنة في الله لفظا من الامم مستند الف وادعي

المحقق الرابع - (١) خطاب السلطان عدلان بن محمد
 (٢) خطاب السلطان الفور محمد الفضل

الملحق الرابع

بسم الله الرحمن الرحيم وصليت على محمد خير
والله وحجبه و (سلم)
الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور اللهم اجعلنا من المعتصمين بسنة ...
ومن والى السلطنة السنارية انى قد أجزت وأمرت إلى من يتولى بأحكام مدينت
ضنقلة بشرط أن يوفى كل عام من خزينة سلطان الدار الزرقاء فيدفع مرتباً كل
سنة بعد إمضاء ذو الحج لمسجد الشيخ أحمد شنبو خليفة الشيخ محمد أبو دليق مائة
وعشرون مكيال من معالي عيش الدينار وأربعون شاه ساوية وعشرة أبقار ساوية
وسبعين ثوب بنادى وكذا أجزت جميعاً من بالملك التحت ظل سيفي يؤدى وفاء
زكاته لمسجد الشيخ احمد شنبو ومن بعده لمن يصحب المسجد المذكور لا يعافى منا
أبدأ وكذا ألزمتكم أيها القايمون الآن بالمانجلكيه قنديل بن ابراهيم وزنادى ابن
الجرى وعجيب ابن الذكر وبادى بن اسماعيل ان تجددوا بناء مسجد الشيخ احمد شنبو
وقال تعالى إنما يعمر مساجد الله الآية وقال تعالى ذلك ومن يعظم حرمات الله فهو
خير له عند وقال تعالى ذلك من يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب
وقال صلى الله عليه وسلم من أتى بشيء قليل لمسجد الله حلت له شفاعتى وكونوا من
الذين يستمعون القول وقد أبدت أمرى تحت يدى الشيخ المذكور فيؤدى من يتولى
ملك مدينت ضنقلة فيعامل بما أمرت فى ذلك السند وهيات يا من يتولى السلطنة
الزرقاء من بعدنا الفنجية قد يجرى لما كان مرتب لصاحب هذا المسجد المذكور انه
توصيت من السلطان جمره الاموى سنة ألف وأربع وثمانون .

الملك لله ورسوله
عدلان ابن محمد
ختم السلطان

ملحق نمرة ٥

١ — بيان التقسيمات الزراعية — ب والمعاملات

١ — التقسيمات الزراعية:

١ (الأراضي النهرية:

جزائر — وتشمل الأراضي التي يفصلها الفيضان العالي عن الشاطئ .
رمال — شاطئ النهر الرملی .

براية — (Barraya) الأرض المنحدرة من الشاطئ حتى شاطئ النهر الرملی
وتعرف أيضاً بالسوكة (Seluka) .

القيف — (Qeif) الجزء الأعلى من شاطئ النهر .

القرير — (Qerer) الجزء من الأرض من طرف القيف الأعلى وتمتد إلى حدود
الغابة . أو الأرض الزراعية السوداء المعروفة بالتربة القطنية وتشمل أرض القرير
الجرف المطرى إذا كانت زراعية بالأمطار والجرف الحى إذا كانت الزراعة
بالرى الصناعى .

ميعه — (Ma'ya) أو فراش وهي الأراضي المنخفضة وتقع بالقرب من النهر
وتحيطها غالباً أشجار السنط .

٢ (الأراضي التي تعتمد في زراعتها على الأمطار :

تعرف بأرض « الضهارى » وهي تبدأ من نهاية أرض القرير النهرية وتشمل
الضهارى (مفردها ضهره : ظهر) .

١ — العزازة (Azaza) وهي الأرض الصلبة والرملية وتصلح لزراعة الدخن
أو لإقامة مباني القرية (الحلة) .

٢ — البادوبه (Badoba) وهي الأرض المشققة وهي التربة القطنية وإذا كانت
تتشرب المياه بسرعة تعرف بالفوده (Foudah) وإذا كانت المياه تبقى على سطحها
فتعرف بام جميده (Baom Gemeida) ومحصول هذه قليل رغم ان الزراعة تنمو
فيها بسرعة .

٣ - حريق - وهي الأرض التي ينبت فيها في فصل الأمطار (الخریف) نوع من القش يزيد ارتفاعه عن القامة . وتشتعل فيه النار قبيل الزراعة ويكون الرماد المتخلف عن الحريق سماداً كبير القيمة وتختص المناطق الآتية لهذا النوع من الزراعة :-

دار الأحامدة : جنوبي كوستي

منطقة جبل مويار جبل أولي : غربي سنار

منطقة الدندر : وتشمل حوض الدندر والرهد .

البطانة : القسم جنوب غرب وشمال شرق القصارف .

وفي المناطق التي ينمو فيها القش القصير فإنه يترك للنمل الأبيض المعروف بالأرضة أو أم رصاص والمتخلف منها يترك على الأرض لتسميدها .

ويستخدم الشادوف أو النبروه (الاسم المحلي للشادوف) لرى الأراضي التي على النيل . كما تقام الساقية على النهر لزراعة الأراضي العالية على شاطئ النهر . وتخفر الآبار التي تعرف محلياً باسم المترة (Matara) لاستخراج المياه الجوفية لرى الأراضي البعيدة عن النهر .

هناك مصطلحات أخرى وهي :

البور - (الغفار - القفار) وهي الأرض التي لا تزرع .

حداب - وهي الأرض الصخرية على شاطئ النهر ولا تصلح للزراعة .

هدام - أرض الشاطئ التي تتآكل من المياه .

قرض - وهي الأرض الصخرية التي تغطيها طبقة طينية وتقوم عليها بعض الشجيرات .

حرام - وهي الأرض التي تفصل بين مزرعتين ويكون عرض هذه المنطقة على مسافة « رمى الفاس » .

نقاده - الأرض الزراعية قريباً من الحلة .

مغورة - (Maghura) التي تقع بين المساكن وتزوم على زراعتها النساء .

بلاد - أو بلدات الأرض التي تزرع أذرة .

ب (المصطلحات المحلية في المعاملات الزراعية - الجبايات أ الخ :

العشور - وهي العشر الذي يدفع عينا من محصول الأذرة .

قُدح — يدفع بواقع أربعة أرباع من الأردب من زراعة السمسم (الأردب ٤٢٢ رطلا والرابع يساوى واحد على عشرين .

دقافه — (Dagaga) (القاف صعيدية) يدفع صاحب القطية (محل السكن : البيت) عشرة قروش سنويا لصاحب الأرض (صاحب الأصل). ويستولى صاحب الأرض على قطعتين أو ثلاثة من أثواب الديمور من زارع الجروف بصرف النظر عن مساحة الأرض المنزرة .

وفي زراعة أرض السلوك (البرابة) يستولى صاحب الأرض على ثلث أو نصف المحصول حسب الاتفاق وذلك في حالة قيام صاحب الأرض بتقديم التقاوى .

دقندى — (Dugundi) المبلغ الذى يحصله صاحب الأرض من المستأجر الجديد في حالة ماتكون قطعة الأرض قد أصلحها المستأجر السابق وتقدر القيمة بالاتفاق .
ضحوه — (Dahwa) جرت العادة على أن يستخدم صاحب الأرض الرجال وهم غالباً من الرقيق في العمل نصف اليوم لاصلاح الأرض وتنظيفها للزراعة وهذه تحدث عند إنشاء قرية جديدة وفي الحالات التي يعجز فيها الرجال عن العمل عند صاحب الأرض بسبب أعمالهم الخاصة فان على كل شخص أن يدفع قرشاً أو قرشين بدلا عن شغله شخصياً . وبما يجدر ذكره أن هؤلاء الأشخاص المطلوب منهم العمل هم « الرقيق » .

خيرية — ريال صغير . ويؤخذ عن تأجير الأرض لمالك الأرض وهذه متعارف عليها بصفة خاصة في دار الحسانية والحسينات .

قيراط — ما يحصله رئيس القبيلة عيناً من الزراعة التي يقوم بها الاجانب في دار البقارة .

وهناك جبايات أخرى تحصل وتعرف بالقطرة والزكاة وهي كالرسم الآتى :-

١ — الفطرة :

تحصل بواقع $\frac{1}{5}$ هـ أرتال عن الشخص - رقيق أو حر - طالما يعيش في كنف العائلة وتدفع هذه سنوياً في أول عيد رمضان الذى يعرف باسم شهر الفطرة فاذا كان لرجل زوجتين وخمسة أولاد وثلاثة من الرقيق يدفع رب العائلة ثلاثة وخمسين رطلا وثلاث الرطل عن أهل بيته العشرة .

٢ — الزكاة :

١ (زكاة النقود : تدفع بواقع خمسة في المائة من المال أو ثمن الذهب والفضة .

ب) زكاة العيش (الحبوب)

تؤخذ عن الزراعات التي تنتج ١٦٠٠ رطلا فأكثر . ولا يحصل شيئاً عن

الزراعات التي تنتج أقل من ١٦٠٠ رطلا .
 ج) زكاة المال عن الحيوان
 وتقدر هذه وفق نوع الماشية كآلاتي :-

الغنم والماعز :

رأس واحد عن كل أربعين أو زيادة إلى ١٢١ وعند ذلك يدفع صاحبها رأسين
 وإذا زاد العدد عن ١٢١ فتؤخذ رأس عن كل مائة .

المواشي :

من ٣٠ إلى ٤٠ : يدفع عجل صغير
 ٤٠ د ٥٠ : يدفع عجل عمره من سنه إلى سنتين ويعرف بالنتي
 ٥٠ د ٦٠ : يدفع عجل واحد عمره ثلاثة إلى أربعة سنين ويعرف بالربع
 ٦٠ د ٧٠ : يدفع اثنين من العجول الصغيرة
 ٧٠ د ٨٠ : يدفع عجل واحد صغير وواحد نتى
 ٨٠ د ٩٠ : يدفع اثنين من العجل النتى

وبعد ذلك يؤخذ عن كل ثلاثين رأس عجل صغير وعن كل أربعين عجل نتى
 أى أن تسعين رأساً تساوى ثلاثة وحدات كل منها ثلاثين يؤخذ عنها ثلاثة عجول
 صغيرة - أيضاً مائة وعشرة من الماشية تساوى أربعين زائداً أربعين زائداً ثلاثين
 تؤخذ عنها عجل صغير واثنين نتى .

الجمال :

من ٥ إلى ٢٠ : شاة عن كل خمسة جمال
 ٢٥ د ٣٦ : جمال صغير أو ناقة صغيرة
 ٣٦ د ٤٦ : جمال لبن
 ٤٦ د ٥٦ : جمال عمره من سنتين إلى ثلاثة سنين
 ٥٦ د ٧٠ : جمال عمره من أربعة إلى خمسة سنوات
 ٧٠ د ٨٠ : جملين لبن
 ٨٠ د ٩٠ : جملين لبن وعدد اثنين من الغنم وهكذا كلما تم العدد ٣٥ جملا
 يدفع جمال لبن أى أن ١٢٠ جملا تساوى ٣٥ + ٣٥ + ٣٥ + ١٥ يدفع عنها ثلاثة
 جمال لبن وثلاثة أغنام .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده
محمد النبي بعده



بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله وحده
محمد النبي بعده
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين
أجمعين
أما بعد
فإننا قد علمنا
بوصول جنودكم
وأنتم في بلادكم
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله
الطيبين الطاهرين
أجمعين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله
الطيبين الطاهرين
أجمعين

عن حضرت من نهار الرجال وخبث من صوم ليل الابطال
يوم الحرب والنزال الواثق بانفسه الدين الشيخ محمد بن
المرجوا القزويني الشيخ عدلان نصره الله من ابي حضرت
الفتية احمد ولد الفتية ابراهيم الفرضي وكافرة البغزرا
الفرضي يسلم عليكم جزيل التسلام قالذي تعرفكم
من زماننا هذا كله ما طلبنا القبايل قاعدين في البرية
ومعادها تعيقوا وتسوا ونظرنا في حالهم فطالبناهم
والوقت هذا نطقنا بقتنا في الدند وطالسين
قبائل الشرق والعراب وانتم اياكم مرتبنا وقرنا
واسبار وعوتنا القتال وشركا نارية الخمر والشمر
بعد وصول جواني جامة انتم وعلمه فقرامه

الملحق السادس

صورة خطاب من الشيخ محمد ابن المرحوم الوزير الشيخ عدلان
إلى الفقيه احمد ابراهيم الفرضى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده

محمد لاني بعده

(ختم) (الشيخ محمد بن الوزير الشيخ عدلان)

(١٢٣١ هـ)

× (١) من حضرت من تها به الرجال وتحشى من صولته الأبطال .

(٢) يوم الحرب والنزال الواثق بالله الديان الشيخ محمد بن

(٣) المرحوم الوزير عدلان نصره الله أمين إلى حضرت

(٤) الفقيه ولد الفقيه ابراهيم الفرضى وكافة الفقرا (٥) الفرضيين يسلم عليكم

جزيل السلام فالذى نعرفكم به (٦) نحن زماننا هذا كله ما طلبنا القبائل قاعدين

في الجزيرة (٧) وعمارها تعبوا (٣) ونظرنا في حالهم رفقا بهم (٨) والوقت هذا

بقينا (٤) في الدندر طالبين (٩) قبائل الشرق والعريان وأنتم إياكم مرتبتنا وفقرانا (٥)

(١٠) وأسباب دعوتنا الصالحة وشركانا في الخير والشر (١١) بعد وصول جوانب

أنتم وجملة فقراكم (١٢) جدوا واجتهدوا واتعبوا بسؤال الله (٣) على نيمه قضا

حاجتناهمة عالية (١٤) ونية صادقة لا يكون منكم غفلة ولا تهاون (١٥) ولا فترة (٦)

ولأن سألتم عن الترك سلطنة (١٦) مصر بلغنا خبر قدومهم في مائة وثمانين

(١٧) ألف وهذا شيا قاسى على كافة المسلمين (١٨) أتركوا جميع أموركم واصر فوا

همتكم بالسؤال (١٩) إن شاء الله ربنا يبطل سفرهم ويرجعون (٢٠) إلى محلهم كونهم

ما يعرفوا مرتبة ولا غيره (٢١) ولا عندهم اعتبار في خاص ولا عام لاني واثق بذلك

× العبر الموضوعة بين قوسين تشير الى ترتيب السطور في الخطاب المذكور الذى لا يحمل تاريخاً

(١) أنظر كتاب الطبقات ص ٢٢ ترجمة الشيخ ابراهيم بن عبودى الفرضى

(٢) ما طلبنا القبائل أى اننا لم نطلب القبائل الموجودة في الجزيرة .

(٣) تعبوا = أصابهم اليأس .

(٤) نزلنا في الدندر .

(٥) يقصد أنتم سندننا ووسيلتنا إلى الله - فقرانا جمع فقير أى فقيه .

(٦) لا تفترؤا وتكاسلوا

الملحق السابع

خطاب السلطان محمد بادی عجيب

(بسم الله الرحمن الرحيم)
(ختم السلطان)

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير . هذا مسطر من السلطان محمد بادی عجيب الى بنو أمية الساكنين دار ضنقلة امراء القوم فقد نصركم الله بعون دائم . الى المانجلك الشيخ قنديل ولد بادی والشيخ بادی ولد قنديل والشيخ حماد ولد تيممه والشيخ الفيل ولد الحجاج انكم ارسلتو لنا ابن أخينا المانجلك اسماعيل ولد قنديل بمكاتبة منكم بالجميع بان يرسلوا لكم اصول ابايكم الى مركز الصحابه عليهم رضوان الله

فان يا أهلونا تعرفونا في كتابتكم الاصول عز شان ولم لنا سوى شان عز غير ذلك من ماتوروا الاصل

أولا نخبركم أنتم من بنو أمية عليمة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فبنوا أمية قبل النبوة سلاطينا وملوكا ولما ظهر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد جعل الله أبنكارا من بنو أمية أبا بكر وعثمان ابنه وعمر وعثمان ومعاوية ومن محبة النبي ص. م لمعاوية يدعو اللهم زد كرمكم الذي كنتم به شانا ابايكم بقدر جاه النبي لم خفضت درجتنا ومستوين في زمن اء لان عشرة سلاطين على المنابر في دار الدنيا فانا العاشر وأيضاً اسماعيل ابن المانجلك الشيخ قنديل ابن بادی ابن اسماعيل ابن السلطان حمرة ابن السلطان صابر الشاهر بعجيب ابن عامر ابن عبد العزيز ابن صابر ابن عميره ابن الهاجر ابن مرامه ابن مدين ابن صبيحة ابن دهاشر ابن حذيفة ابن مروان ابن عبد الحكيم ابن معاوية ابن اليزيد شره الله به يكيد ابن معاوية حبيب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأيضاً الشيخ بادی ولد قنديل ابن اسماعيل سلطان حمرة وأيضاً الشيخ حماد ابن عيمة ابن عيسى ابن الكامل ابن عيسى

ابن جناح ابن هزيمة ابن الولي عياد ابن منار ابن عبد الله الجهني جد الجهينة وايضاً
 الشيخ الفيل ابن . . . ابن بطيحه ابن الفيل ابن غريمة ابن شاهر ابن كميده ابن زايد
 وش ابن عما ابن صفروسه ابن دياب ابن هاجج ابن بصاير ابن كناية
 ابن صملة ابن قيا ابن حجاز ابن بهرة والهجرة مع بهرة من بنوا مخزوم والنسب
 عز والا سف جارح فقد ترى وقايح والالسنه صامته والعبد عزيز ترى
 مكارمه الحذر من مجارح الالسنه أيها الاهل بعد حضور ابن الأخي عنكم
 اسماعيل ابن قنديل فاحضروا عند الولي الصالح الفقيه محمد ابو دلق
 بعده فابرزوا جميع وأجمعوا رؤوس الديار بمناهات الخيول النحاييس بعد الجمع
 يصير تلاوتها جبراً على الخلق وبعد التلاوة فقد صارت من شرف نسبنا من يدرك
 وكانت النسبة منى الى سيدى محمد ابو دلق امانة عنده لا يسلم لاحد
 اسم لشيء لازم يحضر بصورة من للنسبة الامية وتفضل بطرفه امانة وايضا
 من أمراء القوم فقد وكلنا لكم المانجلك اسماعيل ابن أخينا قنديل وطلابين
 حضوره عندنا لاستواء المجلس بعد الاتمام لأجل حضور الرسايل
 منكم اليها الأمراء بالاستماع للمانجلك بعدم الخلاف واوصينا المانجلك اسماعيل
 لحظيرت مسجد الفقيه محمد ابو دلق كل عن بيته عمومياً الجميع ما يسهل قدر الطاقة
 وعن كل سنة تعطوا الزكاة له وعقدنا نيتنا عليه واتباع خلف ذريتنا لذرية خلف
 الولي الصالح محمد أبو دلق ابن الفقيه نفعنا الله ببركته في الدارين آمين .

(ختم السلطان)

المكاتبة من السلطان

محمد بادى عجيب

ملحق رقم ٨

أحمد ممتاز باشا

مدير عموم قبلى السودان

قد يقسامال المرء عن سبب اختيار هذه الشخصية من بن الشخصيات التي تولت حكمدارية السودان في الفترة من ١٨٢٠م الى ١٨٨٥م وبينهم من اثبت جدارته وكفاءته وحسن ادارته . أما أحمد ممتاز باشا فقد اكتشفته ظروف غامضة حاولت أن تطمس معالم نشاطه وجهوده لرفاهية السودان وتقدمه الاقتصادي على أسس سليمة . وتبين لنا التقارير والمكاتبات التي نشرها في نهاية هذا الملحق مدى اهتمامه بالزراعة بخاصة القطن وعمله على رفع مستوى المعيشة وتحسين البلدان باعادة تخطيطها وتوفير مياه الشرب وادخال تعديلات على الضرائب بما يتمشى مع حالة الأهالى . كل ذلك قد خلق له أعداء وحاسدين وجدوا فيه منافسا قويا سوف يضعف من مركزهم وحظوتهم لدى الخديو المتعطش للمال وحتى لا تضيق عليهم فرص مطامعهم التي أغرقت البلاد في الديون التي ذهبت ضحيتها مصر والسودان فصر احتلها الاجنبي والسودان ترك في ايدي الأجانب من الموظفين الذين عمدوا الى هدم كل أثر للإصلاح الذي قامت به الادارة المصرية ، لكي تعود به الى حالة بدائية حتى يصبح أرضابلا صاحب قسطنطينة المستعمر بطريق أو آخر . ولذلك لجأ منافسوه الى دس الوشايات في صورة شكاوى أرسلت تباعا الى الخديو كما ستعرض له فيما يلي .

* * *

عين ممتاز افندى محافظاً لمصوع بعد أن كان في ضبطينة مصر واسندت اليه الرتبة الثانية (١) وقد تلقى علومه في المانيا وتخصص في الهندسة العسكرية وذلك بعد تخرجه من مدرسة المفروزة (٢) التي انشأها عباس الأول في مارس سنة ١٨٤٨ م .

(١) انظر مكانبة رقم ١ صفحة ٦٦ دفتر ٥٣٧ (تركي) عابدين المعية وتاريخه ١٦ يونيه سنة ١٨٦٥م (١٤ محرم سنة ١٢٨٤ هـ) نقلا عن كتاب الحكم المصري في السودان للدكتور محمد فؤاد شكرى ص ٢٥١ .

(٢) انظر سرهنك في كتابه « حقائق الأخبار في دول البحار » ج ٢ ص ٢٧٤ .

وقد عين ياورا للسلطان عبد العزيز خلال زيارته لمصر في مارس سنة ١٨٦٣ م وشغل منصب محافظ البحر الأحمر وعمل على ادخال تحسينات في سواكن كما اقام خزانا عند الشاطه (٣) لحفظ مياه الامطار لتوفير مياه الشرب للبيناه .

كما وضع مشروعات لزراعة القطن في دلنا القاش وخور بركة عند طوكر وانشا قنوات للرى في دنقله مازالت آثارها باقية الى اليوم وطلب من الخديو انشاء خط حديدى يربط بين البحر الاحمر وبربر بدلا من شندى وقد كافاه الخديو برتبة الباشوية وبتعيينه محافظاً لشرق السودان وشمل اختصاصه موانىء سواكن وقطاع مصوع وساحل الصومال ومديرية التاكة وامتد نشاطه الى تعمير حوض خور القاش وحوض نهر العظيرة باستغلال الاراضى الصالحة لزراعة القطن التى جعل زراعتها اجبارية عندما تولى منصب مدير عموم قبلى السودان فى ١٨٧١ م لموسم زراعى واحد وكان غرضه من ذلك التكليف أن يتعرف على الطاقة الاتاجية للقدان الواحد بالنسبة للزارعين وقد أقامت الحكومة محلجا للقطن فى كسلا بلغت تكاليفه نحو الثلاثين الف جنيه وذلك استجابة لطلب أحمد ممتاز باشا . الذى يرجع اهتمامه بالتوسع الزراعى للغلال وزراعة القطن بالذات الى رغبته فى بناء مجتمع جديد يقوم على ممارسة الزراعة وبعض الصناعات فتستقر الحياه ويرتفع المستوى المعيشى وبذلك تزداد طاقتهم على دفع الاموال الاميرية فى يسر وسهولة واقترح ممتاز باشا فى تقريره أن تحصل الجبايات عينية من المحصول كما اقترح أن يحلج قطن الأهالى فى كسلا ويرسل لسواكن حيث يباع بالسعر الجارى فى تلك الميناء . وكان السعر اثنى عشر ريالاً ونصف الريال للقنطار ويحمل الجمل بالتين (وزن الباله قنطارين) وكان من رأيه أن ينقل القطن الذى تجمعه الحكومة على صالات للقاهرة فى أيام الفيضان حيث أن سعره فى القاهرة أعلى من سعر سواكن وهناك عامل آخر لا يقل أهمية عن العامل السابق ذكره عن اهتمام ممتاز بالتوسع الزراعى وبخاصة القطن — الا وهو العجز فى انتاج القطن العالمى الذى تسبب عن الحروب الأمريكية وكان طبيعياً أن يحاول ممتاز باشا استغلال هذه الفرصة لتنمية الموارد المالية وقد بذل الخديو كل معونة لممتاز لتنفيذ مشروعاته لأنه كان يأمل أن يدخل عليه القطن أموالاً تساعد فى مشكلاته المالية .

(٣) تقع الشاطه بجوار سواكن مباشرة .

(٤) عباره عن مجموعة من الأشجار تضم الى بعضها وتستخدم لحمل القطن أو غيره بأقل التكاليف وفى نفس الوقت فان الأشجار تباع بعد وصولها غايتها لاستعمالها فى المباني وغير ذلك .

وقد دخل ممتاز بسبب نشاطه في مشاكل دفعت إليها الغيرة والحسد في قلوب رجال اسماعيل المقربين وعلى رأسهم اسماعيل صديق المفتش . فدير التاكة يعرقل جهود ممتاز ويعطل توزيع بذرة تقاوى القطن وأرسل هذا المدير شكوى للخديو . واشتبك مع جعفر باشا مظهر حكامدار السودان حينذاك ورفع الأمر إلى الخديو الذى استدعى جعفر باشا مظهر بعد أن قام شاهين باشا كنج بالتفتيش على أعمال ممتاز في شرق السودان ورفع تقريراً للخديو مثنياً على جهوده وحسن إدارته وكان ذلك حوالى ١٨٧٠/١٨٧١ م .

* * *

عين ممتاز باشا مديراً لعموم قبلى السودان لما عهد فيه من كفاءة وجدارة وخبرة بثئون السودان الاقتصادية والإدارية . ودخلت في اختصاصه مديريات الخرطوم وسنار والنيل الأبيض وفازوغلى^(٥) . وفى المدة القصيرة التى قضاهها في مركزه هذا وجه اهتمامه نحو فحص موارد الميزانية ومصروفاتها . وعمل على معادلتها أو على الأقل تخفيف ما تدفعه الخزانة العامة لتغطية عجز ميزانية مديريات السودان لذلك أوقف الاحسانات التى كانت تدفع للعلماء . كما أدخل تعديلات على الضرائب التى رفعها سلفه جعفر باشا مظهر بما يقرب من الخمسين فى المائة لغير ما سبب أكثر من أنه أراد أن يعرف ماستكون عليه حالة دافع الضرائب وعند ذلك ينظر فى تعديلها . كما رفع ممتاز عن أهالى النيل الأبيض وغيرهم المبالغ الاضافية التى فرضها جعفر باشا لسداد قيمة نصف استحقاق ومرتبات سوارى وعسكر المعينين للحفاظة على الأمن . وقد جعل ممتاز جباية الضرائب تقوم على أساس مقدرة الفرد المالية . فكان على الأغنياء أن يدفعوا أموالاً أكثر مما كانوا يدفعونه فى الماضى الذى كان فيه المواطن العادى يتحمل أكثر العبء . ومن هذا يتبين لنا مدى ما كانت عليه السياسة المالية من تخبط بسبب الارتجال وفقدان الكفايات والخبراء . فأثارت هذه التعديلات التى أجراها ممتاز باشا الطبقة الغنية صاحبة النفوذ ومن هنا بدأت الدسائس تدبر للخلاص من ممتاز باشا وقد تزعم هذه الحركة معنى بك الشامى^(٦) وكيل مديرية الخرطوم صنيعه اسماعيل باشا صديق المفتش الذى كان عدواً لدوداً لممتاز باشا بسبب خشيمته من ازدياد نفوذ ممتاز لنشاطه وقدرته على معالجة مشاكل السودان المالية والادارية لذلك كان

(٥) أمضى ممتاز فى منصبه كمدير عموم قبلى السودان حوالى عشرة أشهر .

(٦) أنظر سرهنك فى كتابه حقائق الأخبار عن دول البحار جزء ٢ ص ٢٧٤

اسماعيل باشا صديق اليد الخفية التي تلعب لاعداد الشكاوى وإرسالها للخديو عن تصرفات ممتاز باشا التي صورت بأنها تزوير في السجلات وادعى البعض كما تناقلته الروايات « أنه تقبل الرشاوى » ولم يكن من العسير في زمن ساد فيه الانحلال أن يذهب ممتاز ضحية « نأفسيه » من رجال السلطة في مصر الذين كان يهمهم اختفاء أمثال ممتاز وإقصائهم عن مراكزهم والقضاء عليهم ليخلو لهم الطريق للوصول إلى تحقيق مطامعهم الذاتية .

وكان من نتيجة هذه الشكاوى التي صاحبها الرسل يحملون الهدايا ومنهم معنى بك الشامى . أن تعطلت المشروعات التي بدأها ممتاز لمعارضة المديرين لتنفيذها لأسباب غير معروفة . كما ألقى القبض على ممتاز عند وصوله إلى القاهرة ووضع في السجن في القلعة بالقاهرة حيث أمضى حوالى الشهر حتى ظهرت براءته وأطلق سراحه . وقد كافأه الخديو باهدائه عزبتين مساحة كل منها ٢٥٠ فدان لإحداها في دار البقر في المحلة الكبرى والثانية في كفر الدوار . وقد حزت في نفسه حالة القبض عليه وإيداعه السجن بسبب الوشايات وعز عليه أن يعامل بمثل هذه المعاملة بعد جهود المضنية التي بذلها لرفاهة السودان وتقدمه الاقصادى . وعاد إلى الخرطوم بمفرده بعد أن ترك عائلته في القاهرة . ولا شك أن طول مدة السفر قد ضاعف من هواجسه حتى وصل إلى الخرطوم في حالة نفسية غير طبيعية وبينما كان متأهبا لاستقبال المهنيين في إحدى المناسبات المعتادة وجد أنه قد خرج مبكراً عن الموعد المحدد فاستلقى على أريكته ليسترخ قليلا وطلب من خادمه الخاص أن ينهه عند اقتراب الموعد ولما ذهب إليه وجد أنه قد فارق الحياة وله من العمر ما يزيد قليلا عن الخمسة والاربعين عاما . وهذا ما ذكره خادمه الخاص نقلا عن حفيده الأستاذ ابراهيم رياض المحامى . وقد أيد هذه الرواية أكثر من شخص من المعمرين . وطويت بوفاته صفحة شخصية قدمت للبلاد أجل الخدمات في الوقت الذي وصل فيه الانحلال إلى مرحلة خطيرة وأراد الخديو اسماعيل أن يرسل ابنه الوحيد محمود في بعثة الى الخارج مع البرنس حسن غير أن والدته قد رفضت أن يفارقها وحيدها الذي استمر في صرف معاشه عن والده ممتاز باشا حتى وفاته في سبتمبر سنة ١٩٤٢ (ولد حوالى ١٨٦٧ م) وله من العمر خمسة وسبعين عاما ويرجع استمرار المعاش طوال هذه المدة لعاهة في إحدى العينين وقد أنجب ممتاز ابنتين تزوجت واحدة المرحوم محمد بك فهمى الغمراوى والثانية من المرحوم محمد بك توفيق وبعد وفاة ممتاز تزوجت أرملته من الاميرالامى

محمد بك رستم - وتزوجت ابنة خال أرملة من محمود باشا خليل والد السيد محمد محمود خليل .

وهكذا يقين لنا أثر الشائعات التي استطاعت أن تقلب الحقائق وتزورها وقد جاء فيها أن ممتاز قد حبس في الخرطوم لأكثر من خمسة أعوام في انتظار هيئة المحاكمة برئاسة خالد باشا .

وقالوا ان أملاكه قد صودرت . وأنه مات مسموماً . وكل هذا لانصيب له من الصحة . فأبن ممتاز تقاضى معاشه حتى وفاته في سنة ١٩٤٢ والاطيان التي أعطاها له الخديو بقيت حتى زواج ابنتيه . وخالد باشا ذهب الى السودان في ١٨٧٤/١٨٧٥ م وشغل منصب وكيل الحكمدار اسماعيل باشا أيوب . وقد اعفى خالد باشا من أعماله ونقل الى مصر بسبب عدم رضاه اسماعيل باشا أيوب عن أعماله . وجاء في خطاب آدم باشا العريفي مأمور ادارة عموم قبلي السودان الذي استلم أعمال المديرية بعد وفاة ممتاز باشا ما يفيد بأن وفاته قد حدثت في أواخر عام ١٨٧٢م (١٦) .

(١٦) أنظر وثيقة ٣٤ حيث جاء فيها تحصيل الأموال والبقايا (يقصد المتأخرات) من عهد حضوره لغاية قيامه وقد حاولنا أن نراجع هذه الكلمة الأخيرة فلم نعثر على الأصل ورجح ان قيامه ، قد كتبت بدلا من « وفاته » .

- ١ ٦ دفتر ١٩٣٤ أوامر عربي . صورة الامر رقم ٨ ص ١٤ بتاريخ ٢٣ صفر سنة ١٢٨٧ هـ . بشأن نزع محافظات سواكن ومصوع والتاكة وباقي سواحل البحر الاحمر لحد بربره . وجعلها محافظة مستقلة تحت اسم «محافظة سواحل البحر الاحمر» ، وتعيين احمد ممتاز باشا محافظا عليها .
- ٢ ١٧ دفتر ١٨٤٩ وارد معه صورة رقم ١ ص ٨ و ٩ بتاريخ ٩ جمادى الثاني سنة ١٢٨٧ . من مديرية التاكة إلى المعية السنية بشأن الاهتمام بزراعة القطن في أراضي المديرية .
- ٣ دفتر ١٨٤٧ معيه عربي ، صورة المكاتبه العربية رقم ٨ ص ٥٢ بتاريخ ٢٩ رجب سنة ١٢٨٧ . من محافظة سواحل البحر الاحمر إلى المعية السنية عن زراعة القطن واعتراضات مدير التاكة .
- ٤ دفتر ١٨٤٧ معية عربي ، صورة المكاتبه العربية نمره ٧ ص ٥٢ في ٢٩ رجب سنة ١٢٨٧ هـ من محافظة سواحل البحر الاحمر إلى المعية السنية عن زراعة القطن .
- ٥ دفتر ٣٩١٠ معية صادر سواحل البحر الاحمر . صورة المكاتبه العربية نمره ٨ ص ١٧٨ في ٢٩ رجب ١٢٨٧ . إلى المعية السنية عن زراعة القطن .
- ٦ ٢٦ دفتر ٣٩١٠ صادر سواحل البحر الاحمر . صورة المكاتبه العربية نمره ٧ ص ١٦٩ في ١٦٩ في ٢٩ رجب ١٢٨٧ . من محافظة سواحل البحر الاحمر إلى المعية السنية . تقرير عن امكانيات التوسع في زراعة القطن في حوض القاش . وتنفيذ اعتراضات مدير التاكة .
- ٧ دفتر نمره ١٩٣٥ (أوامر كرام) صورة أمر كريم صادر إلى محافظة سواكن نمره ٤٤ ص ٥٩ في ٢٣ شعبان سنة ١٢٨٧ هـ - شكر المحافظ لما بذله من مسعى للتوسع في زراعة القطن لما يترتب عليه من التقدم والرفاهية للسكان المحليين .
- ٨ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربي . صورة أمر رقم ٣ ص ٣٦ في ١٦ شوال سنة ١٢٨٧ إلى محافظة سواحل البحر الاحمر . بشأن الموافقة على رفع عبد الرازق بك مدير التاكة ووكيله وتعيين الاميرالاي ألماس بك مديراً والبكباشي

- فرج افندى وكيلا للتاكة وارسال ثلاثة آلاف أردب بذرة قطن لتوزيعها على الأهالى .
- ٩ دفتر ١٨٤٩ واردمعية عربى ، صورة المكاتبه العربيه نمرة ٣ ص ٨ بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٢٨٧ هـ . من مديرية التاكة الى المعية السنة - شكوى مدير التاكة بسبب ما يلاقيه من محافظ سواحل البحر الاحمر .
- ١٠ ٣٣ دفتر ٣٩١٢ جزء رابع صادر ، سواحل البحر الاحمر، صورة المكاتبه العربيه رقم ١٦ ص ٤٨ بتاريخ ١٢ ذى الحجة سنة ١٢٨٧ هـ من محافظة سواحل البحر الاحمر الى المعية السنيه - عن زيارة المحافظ لسواحل البحر الاحمر .
- ١١ ٤ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربى نمرة ٥ ص ٩٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٨٨ أمر كريم الى محافظ سواحل البحر الاحمر . أمر كريم بشأن إقليم « سمر » التابع الى مصوع .
- ١٢ ٥ دفتر ١٩٣٥ أوامر عربى رقم ١١ نمرة ١٤٦ بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٨٨ أمر كريم الى محافظة سواحل البحر - بشأن طابية حريققو .
- ١٣ ٦ دفتر ١٩٣٥ أمر عربى رقم ٦ ص ٩٤ بتاريخ ٩ محرم سنة ١٢٨٨ أمر الى محافظة سواحل البحر الاحمر ، بشأن الموافقة على تشكيل مجلس مخصص للنظر فى القضايا والدعاوى ، وان أعضاء من نظار الاقسام بمديرية التاكة .
- ١٤ ٧ دفتر ١٩٣٥ ، أوامر عربى رقم ١٢ ص ١٤٦ بتاريخ ١٣ محرم سنة ١٢٨٨ هـ ، من المعية الى محافظة سواحل البحر الاحمر . بشأن الموافقة على تخفيض المربوط على أهالى دهلك الى النصف .
- ١٥ ١٢ دفتر ١٨٤٨ معية مكاتبه عربيه رقم ٩ ص ٢١ بتاريخ ١٨ ربيع أول من محافظة مصوع للمعية السنيه .
- ١٦ ١٥ دفتر ١٩٣٦ أوامر عربى جزء ثان رقم ٤٢ ص ٢١ بتاريخ ٢٤ ربيع الثانى سنة ١٢٨٨ هـ الى محافظة مصوع . بشأن الموافقة على إنشاء سد على

خور بلك الجهة ، لحفظ المياه للزراعة ، وتعيين المهندس الفرنسى بولان لهذا العمل .

١٧ ١٦ دفتر ١٩٥٣ . أوامر صورة أمر كريم صادر رقم ١٤ ص ١٥١ بتاريخ ١٥ ربيع أول سنة ١٢٨٨ هـ إلى محافظة سواحل البحر الأحمر - بشأن تشكيل مجالس محلية فى التاكة ، وسواكن ، ومصوع ، للنظر فى شكاوى الأهالى المدنية والجنائية والتجارية والفصل فيها .

١٨ ٤٠ دفتر رقم ١ (بدون نمره معية) ترجمة الوثيقة التركيه نمره ٢ ص ٤ بتاريخ ١٥ رجب سنة ١٢٨٨ هـ - إرادة سنیه الى رئيس المجلس النحصوص - بشأن إلغاء حکمدارية السودان وتعيين ممتاز مديراً عاماً لمديريات الخرطوم وسنار وفازوغلى والبحر الأبيض . وتعيين علاء الدين بك مديراً التاكة ، على المناطق الشرقية من السودان والممتدة أراضيها الى حدود الحبشة وسواكن وجعلت هذه المنطقة إدارة مستقلة ، وتعيين حسين خليفة مديراً على مديرتى دنقلة وبربر ، كما أوضحت الوثيقة توزيع القوات العسكرية فى مختلف المديريات .

١٩ دفتر ١٨٥٩ معية عربى . صورة المكاتبه رقم ١ مرور ص ٢٥ بتاريخ ٢١ شعبان سنة ١٢٨٨ هـ من مدير عموم قبلى السودان إلى المعية السنية . بشأن مقابله ممتاز فى أسيوط للمهندس المكلف بكشف الطريق إلى شندى لإنشاء سكة حديد ويذكر بعض المقترحات .

٢٠ دفتر ١٨٥٩ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٣ ص ٢٥ بتاريخ ٣ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ . من مدير عموم قبلى السودان الى المعية السنية . بشأن تعيين أورطة لأشغال قطع الاخشاب .

٢١ دفتر ١٨٥٢ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٥١ ص ٤٢ بتاريخ ١٤ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ من المعية ، بختم المهردار ، لارسال ماتى أردب تقاوى نيلى مع الآلات المهمات الأخرى .

٢٢ دفتر ١٨٥٢ معية عربى . صورة الوثيقة العربية رقم ٢٣ ص ٤٣ بتاريخ ٢٤ رمضان سنة ١٢٨٨ هـ من المعية الى نظارة المالية لارسال تقاوى قطن

- من صنف الأشموني، كذا عشرة أرادب من بذرة سيلان،
- ٢٣ دفتر ١٨٥٩ معية عربي رقم ٩ ص ٤٢ بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨
من مديرية عموم قبلي السودان، الى المعية السنية، بشأن زراعة القصب
واستخراج العسل الاسود للاستهلاك المحلي .
- ٢٤ دفتر ١٨٥٢ معية عربي رقم ١٠ ص ٤٣ بتاريخ غرة شوال سنة ١٢٨٨
من مديرية عموم قبلي السودان، الى المعية السنية، بشأن الاهتمام بالتوسع
الزراعي، القطن، النخيل، والفواكه والخضروات، وأقترح المدير تحويل
ماكينات بعض البواخر للنيلية لخلج وكبس القطن .
- ٢٥ دفتر ١٨٥٩ معية عربي صورة المكاتبه رقم ١٨ ص ٥٠ بتاريخ ١٣ شوال
سنة ١٢٨٨ هـ . من مدير عموم قبلي السودان الى المعية السنية — يؤكد فيه
ضرورة الماكينات اللازمة لخلج القطن، ويطلب ارسال تلامذة من مدرسة
الخرطوم، أو من غيرهم، الى القاهرة لتعليمهم بمدارس العمليات
الميكانيكية والزراعة، وبعد تمام تعليمهم يرسلوا الى السودان،
للعمل في المناطق اللازمة .
- ٢٦ دفتر ١٨٥٩ معية عربي صورة المسكاتبه العربية رقم ٢٤ ص ٥٣٧ بتاريخ
٢٩ شوال ١٢٨٨ هـ . من مدير عموم قبلي السودان الى المعية السنية،
يقترح انشاء مديرية جديدة مركزها القضارف وتضم مناطق القضارف
وراشد ودوكة وكنجاره وما يجاورهم من الأهالي والبلدان التابعة لمديرية
سنار وفازوغلي — كما يطلب تشجيع زراعة القطن والنيلة .
- ٢٧ دفتر ١٨٥٩ معية عربي، صورة الوثيقة العربية رقم ٢٨ ص ٥٦ بتاريخ
٢٥ ذى القعدة سنة ١٢٨٨ هـ من مدير عموم قبلي السودان إلى المعية السنية،
يذكر فيه أن الأموال المتأخرة في مديرتي سنار والخرطوم لغاية ١٢٨٨
تبلغ ١٤ بارة و ٢١١ قرش و ٩٦٧١٦ كيسه، ويرجع أسباب التأخير
إلى اهمال التوسع الزراعي .
- ٢٨ دفتر ١٨٥٣ معية عربي رقم ٤ ص ٢٥ بتاريخ ٤ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ هـ

من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلي السودان ، بشأن ارسال عمال لمراقبة زراعة النيله .

٢٩ دفتر ١٨٥٣ معية عربي . صورة الوثيقة العربية رقم ٦ ص ٢٥ بتاريخ ٢٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ من المعية السنية إلى ممتاز باشا مدير عموم قبلي السودان ، بخصوص أطيان جفلك الدائرة السنية .

٣٠ دفتر ١٨٥٢ معية عربي رقم ١١٨ ص ١٤٩ بتاريخ ٧ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ هـ من المعية السنية إلى المالية ، وهو عبارة عن :

اخطار عن تعيين اسماعيل أيوب باشا مديراً إلى عموم قبلي السودان بدلا من ممتاز باشا .

٣١ دفتر ١ بدون نمره أمر نمره ٤٤ ص ٣٤ بتاريخ ٣ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ هـ من المعية إلى اسماعيل أيوب باشا ، تبليغه أمر تعيينه مديراً للسودان القبلي .

٣٢ دفتر ١٨٥٢ معية عربي رقم ٥٧ ص ١٥١ بتاريخ ٣ جمادى آخر سنة ١٢٨٩ هـ من المعية السنية إلى المجلس الخصوص ، أخطاراً بتعيين اسماعيل أيوب باشا مديراً على عموم قبلي السودان ، بدلا من ممتاز باشا الذي صار انفصاله من هذه الأمور .

٣٣ دفتر ١٨٦٤ معية رقم ٣٩ ص ٤ بتاريخ ٢١ جمادى ثان سنة ١٢٨٩ من آدم باشا مأمور لإدارة مديرية عموم قبلي السودان - يذكر فيه أن ممتاز باشا قد أدخل تعديلات في التنظيمات والمقررات وانه لم يتم بتحصيل الاموال من عهد حضوره لغاية قيامه (وفاته - التي حصلت بالخرطوم) .

٣٤ دفتر ١٨٦٤ رقم ٤٠ ص ١٤ بتاريخ ٣٤ جمادى آخر سنة ١٢٨٩ هـ من سعادة آدم باشا مدير عموم قبلي السودان (مأمور ادارة مديرية عموم قبلي السودان وقائم بأعمال المدير المتوفى) إلى المعية السنية يذكر فيه أن الاموال المتأخرة لغاية حضور ممتاز باشا كالاتي :

	بارة	قرش	كيس
متأخرات الاموال	١٧	١٢	١٨٠٥٤
الاموال المربوطة عن سنة ١٢٨٨	١٩	٢٧٩	١٥٣٦٧
	٣٦	٢٩١	٣٣٤٢١
الاموال التي تحصلت في فترة ادارة ممتاز باشا	٢٥	١٨٠	٣٩٨٨
	١١	١١١	٢٩٤٣٣

المبالغ التي أمر ممتاز باشا بخصمها

	بارة	قرش	كيس
نصف استحقاق الجنود التي كانت مفروضة على قبائل النيل الأبيض .	٣٠	٨٣	١٠٧٤
خصم من زمام القسم .	٢٥	٤١	٥٣٧
الغرامة التي حكم بها على أهالي النيل الأبيض .	٠٠	٠٠	٢٠٠
خصم من زمام عربان رفاعه الهوى لعدم مقدرتهم على الدفع .	٢٠	١٨١	٤٥٩

جملة الخصومات	٣٥	٣٠٦	٢٢٧٠
المبالغ المتأخرة	١٦	٣٠٤	٢٧١٦٢

ملحوظة : الوثيقة عن ٢٧ توضح أن الاموال المتأخرة عن مديرتي سنار والخرطوم لغاية سنة ١٢٨٨ هي ١٤ بارة و ١١١ قرش و ٩٦٧١٦ كيس ، وبما لاشك فيه أن المسألة الضريبية في حاجة إلى دراسة تفصيلية للكشف عن أوجه الضعف ، فيها وان لا تركز إلى القول أن المسألة مجرد اهمال شخص معين ، فهي في الواقع أبعد عمقا عن مثل هذه الأقوال .

F. A. Brockhaus Esq

30. De Vries Gardens

Jan. 27. 1890

My dear friend

A number of Germans and
Americans write to me in the course of a week
but unfortunately they write to me in their own
language - I wish I - to my shame be it said -
do not know a word. When I am married
to a certain fair lady - I shall be better able
to appreciate their sentiments for she is almost
as great a linguist as I am, until then I
must content ^{myself} with dropping German opinions

order to stimulate a healthy rapid ^{development} in
Africa. Both nations should agree upon ^{their} frontiers
~~words~~ - the process of attrition ^{each} upon each
would produce what I - as a lover ^{of} ^{the} ^{race} ^{and} ^{of} ^{the} ^{world}
dearly love to see. England for instance ^{does} ^{not} ^{take} ^{the} ^{same} ^{care}
care in the least for the Congo State ^{as} ^{she} ^{has} ^{no} ^{share} ⁱⁿ ^{it} - ^{and} ^{cannot} ^{have} ^{and} ^{is} ^{driven} ^{out} ^{of} ^{East} ^{Africa} ^{she} ^{will} ^{not} ^{take} ^{care} ^{of} ^{it}. ^{and} ^{the} ^{Germans} ^{will} ^{then} ^{come} ^{to} ^{take} ^{their} ^{interest} ⁱⁿ ^{it} which their friends among people
the world otherwise have in the neighboring world
a rich powerful & enterprising Power. ^{Yours faithfully}

الملحق التاسع - خطاب هنري ستانلي الى بروكهاوس

الملحق التاسع

خطاب هنرى ستانلى الى بروكلهوس

« ٣٤ حقائق دى فيبى »

صديق العزيز

يكتب إلى فى كل أسبوع عدد من الألمان والنمساويين فى لغتهم ، التى لا أعرف منها مع الأسف كلمة واحدة ، وربما أكون فى موقف أحسن أقدر فيه ما تحمله إلى هذه الرسائل من عواطف ، وذلك عند ما يتم زواجى بسيدة معينة تعرف عدداً من اللغات منها الألمانية ، وحتى يحين ذلك الوقت فإنى قانع بإهمال هذا العدد من الرسائل ، ولا أعلم ما تحمله إليه من تمنيات أو لعنات .

(ويستطرد فى حديثه عن المشاكل الخاصة بأمين باشا مدير خط الاستواء ، وعن المنافسة بين البريطانيين والألمان فى شرق أفريقيا) .

ثم يقول فى الصفحة السادسة من خطابه ما يأتى : —

« إذا كان المستعمرون من الألمان يعتقدون أنهم سوف يجدون مالا كثيراً عندما يطردون الانجليز من شرق أفريقيا ، فانهم يقعون فى خطأ عظيم .

ان التنافس بين الانجليز والألمان يجعل قيمة لشرق أفريقيا ، وان خروج البريطانيين من هذه المنطقة فى صورة مزرية سوف يحدث انعكاساته على المصالح الألمانية فى القارة الأوروبية واذا حدث وخرج الألمان من شرق أفريقيا فى مثل هذه الظروف فإن المصالح البريطانية سوف تنعدم .

وانى أود أن تصل الدولتان إلى اتفاق مناسب تتوفر معه لكل من الدولتين الامكانيات لاستغلال المناطق التى تسيطر عليها كل منهما وتجنئ ثمار جهودها . وأرجوا أن تفكر قليلا فى هذا الموضوع فإنك سوف تجد نفسك قد وصلت إلى نفس النتيجة التى وصلت إليها .

أن جميع القارة الأفريقية لا تساوى شيئاً في نظر بريطانيا إذا قورن ذلك بما سيكلفه النزاع مع ألمانيا، وأن القارة الأوروبية لا تساوى شيئاً بالنسبة إلى ألمانيا إذا انقطعت العلاقات بين الدولتين فالخير كل الخير أن تتفق الدولتان على تخطيط الحدود بينهما، وليكن بينهما التنافس في البناء والتقدم الأمر الذي أتمنى أن أراه في أفريقيا التي هي موضع اهتمامي .

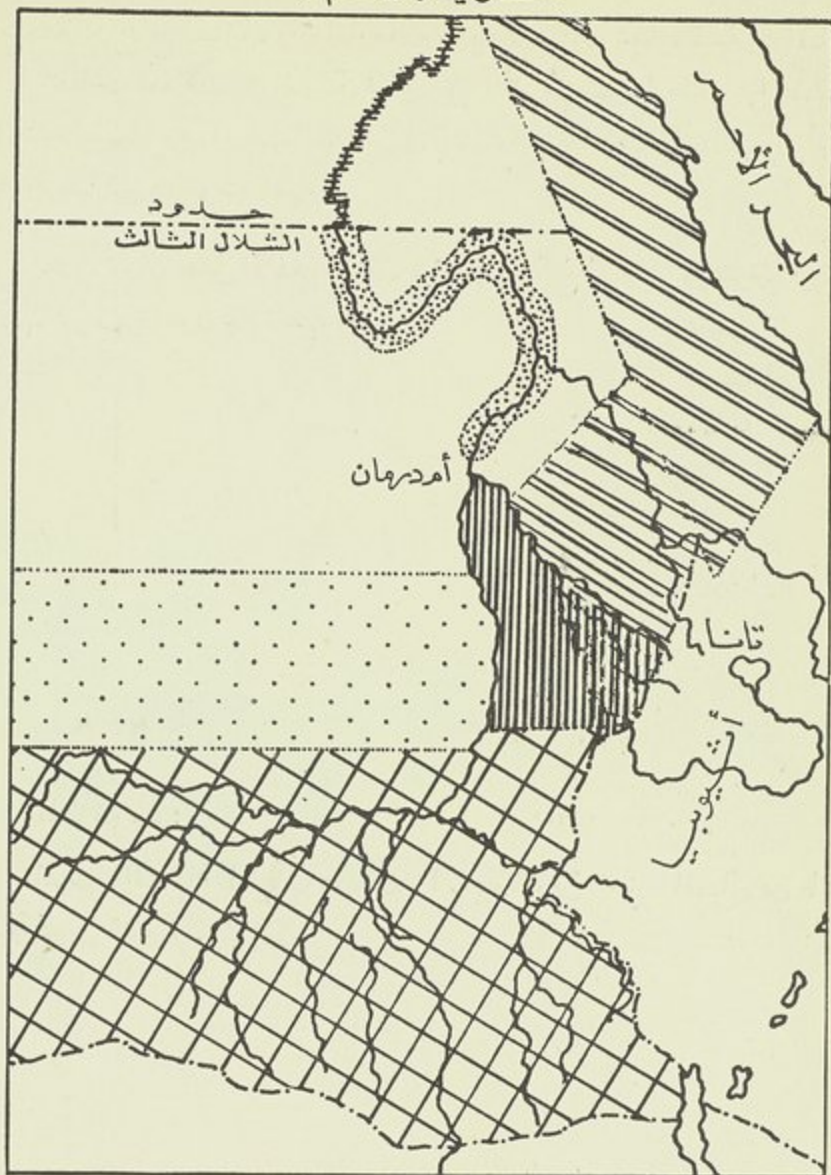
..... وان حماس الألمان سوف يموت إذا خرج الانجليز من شرق أفريقيا لانهم سوف يفقدون جارة غنية وقوية .

المخلص
هنرى م . ستانلى

ملحوظة — :

المرسل إليه هذا الخطاب هو ف . ا . بروكلهوس صحفى ألماني من عائلة بروكلهوس الشهيرة .

خريطة رقم ٢



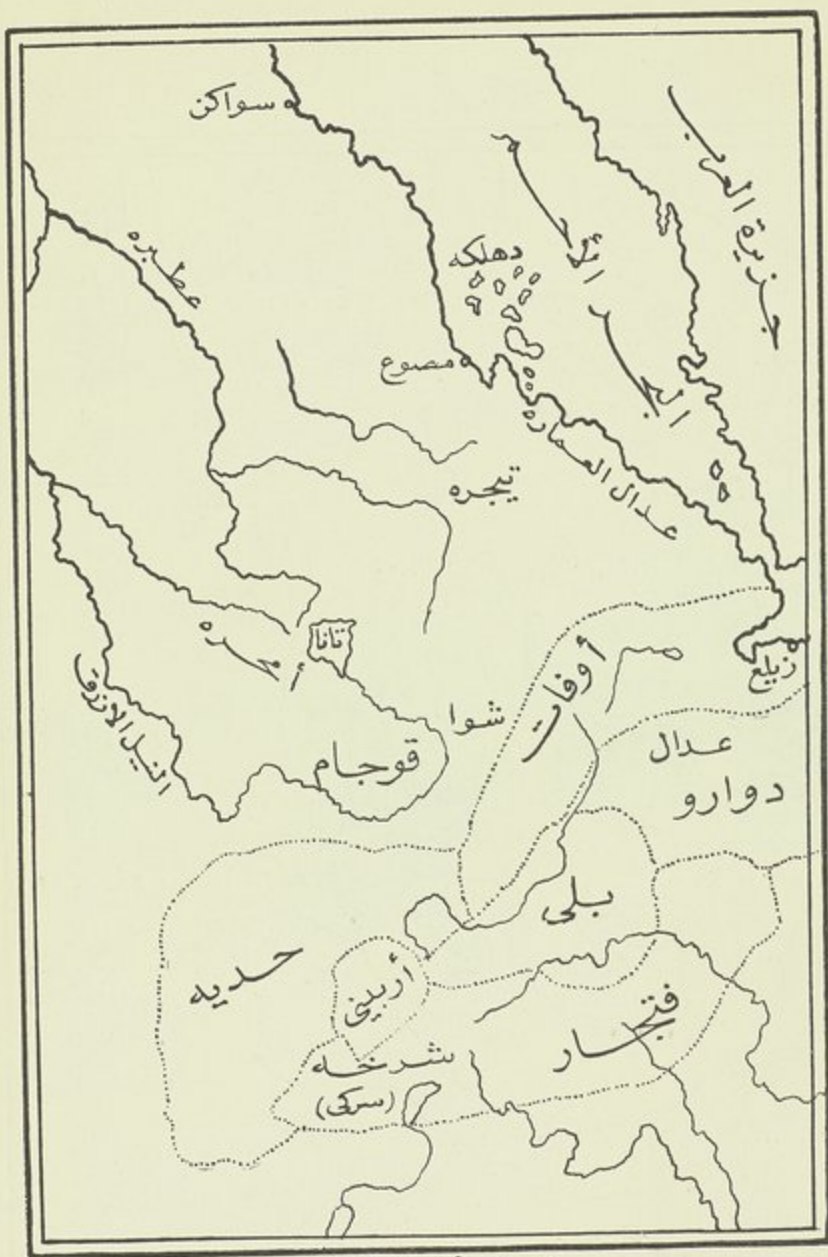
المناطق المختلفة كما يعرفها أهل البلاد

دارصباح
أرض الكتوذ
السافل

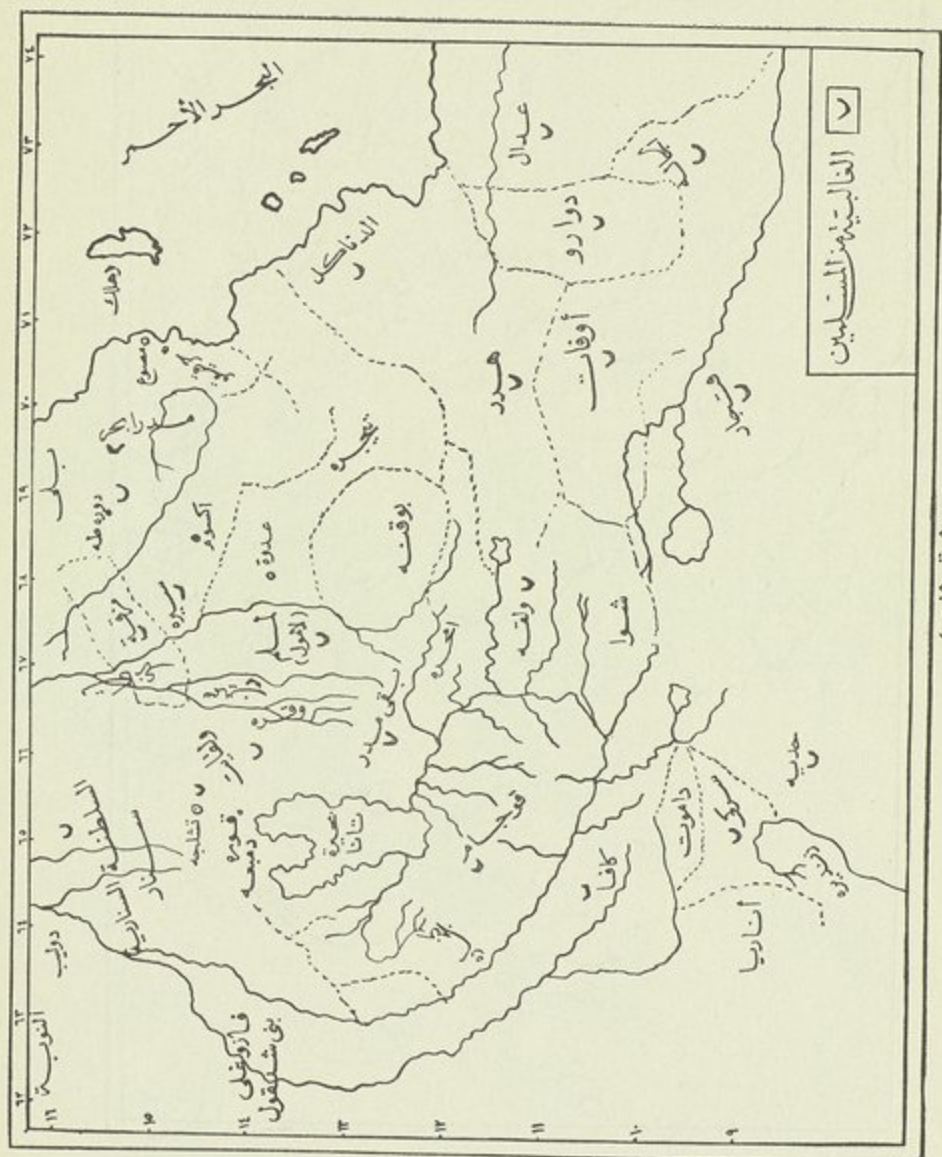


عظمو
الصعيد
الجنوب
دارغرب

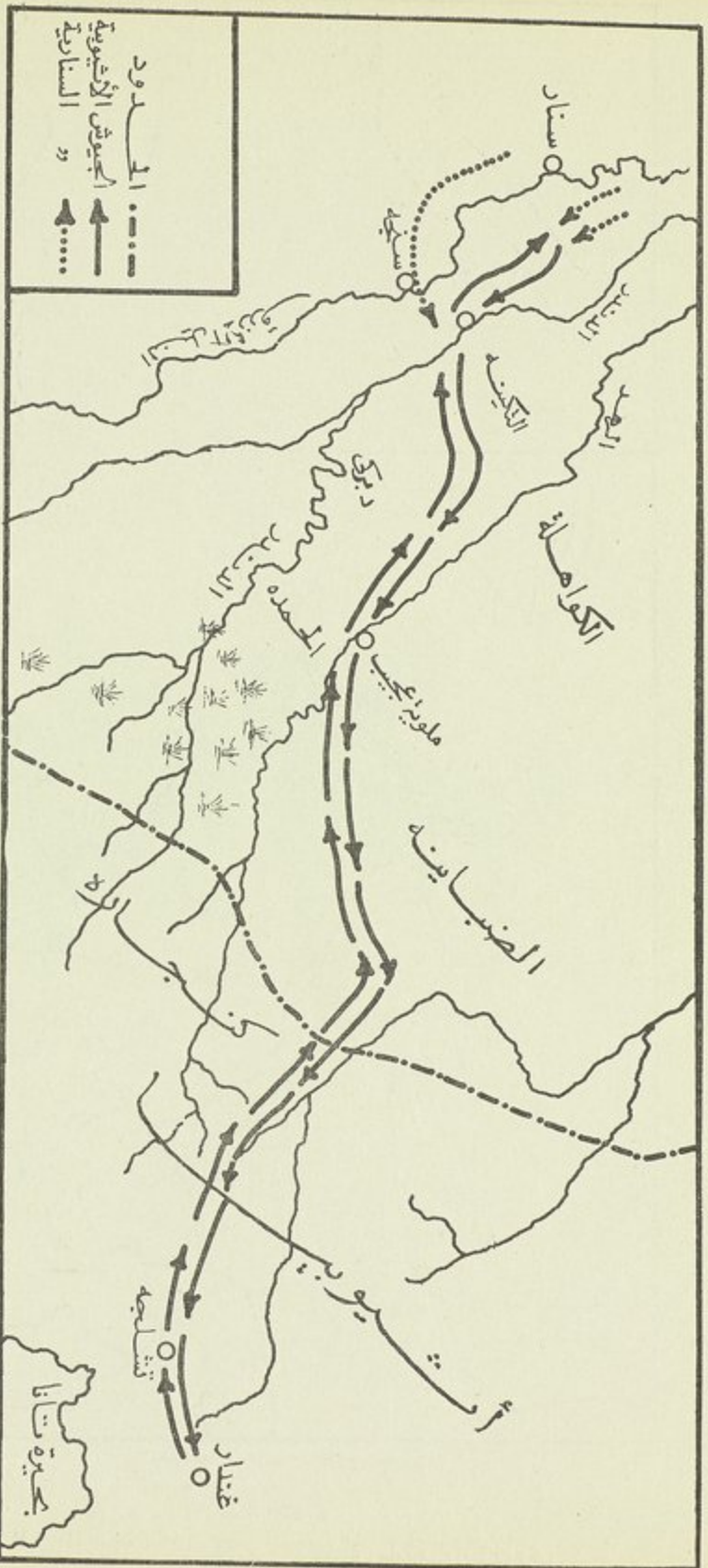




خريطة روفن ٣
السلطنات الإسلامية في أتيوبيا في القرن الثالث عشر الميلادي



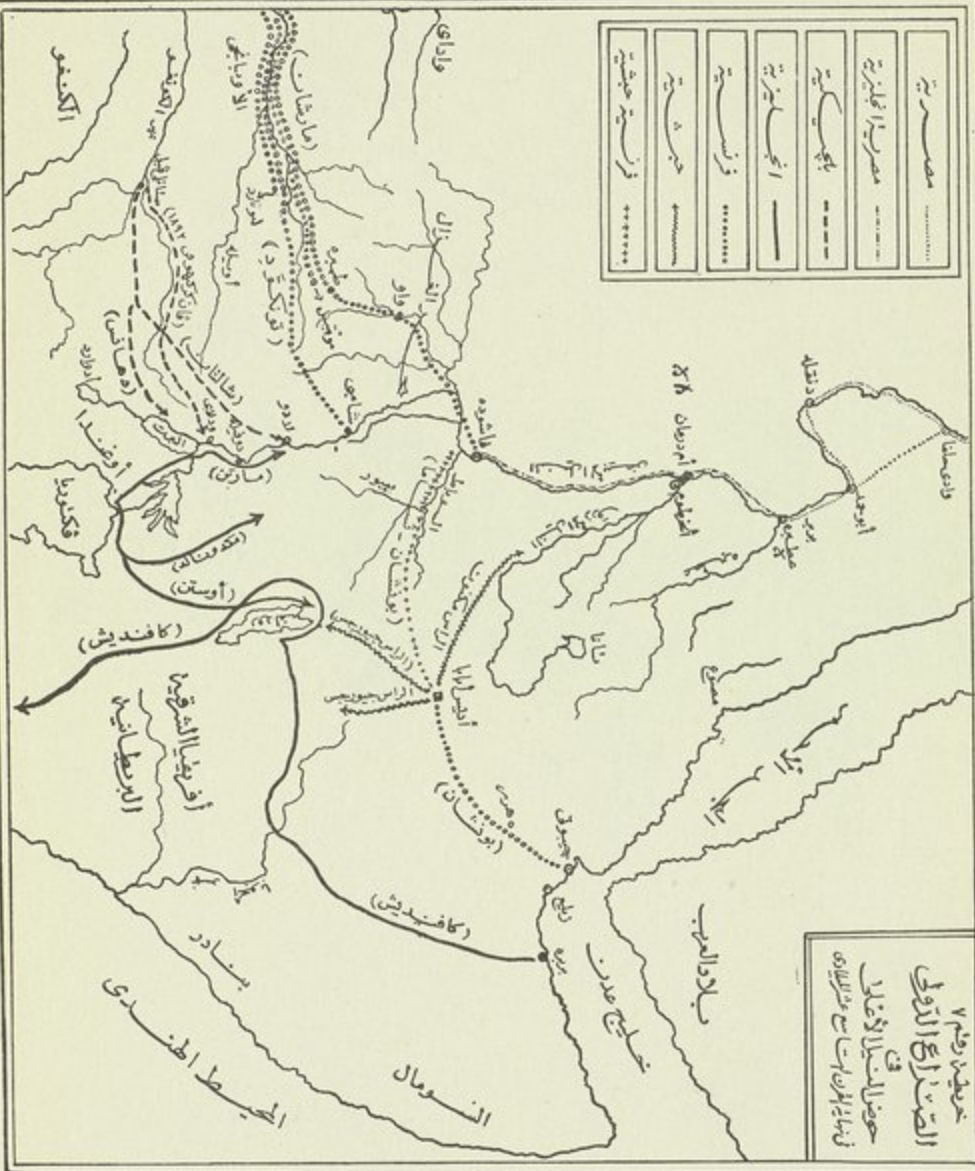
خريطة رقم ٤
أيوبيا في القرن السابع عشر كما رسمها لوفنس



موقعه التكنية - أوالزكيات - ٧ أبريل ١٩٤٤ م
 خسر خطة رقم ٧

خريطة رقم ٧
 التمدد اذع الاولى
 قى حضارة الالاعلا
 نىماة الالاعلا سة شلالى

مصرية
مصرية انجليزية	-----
بانجليزية	-----
انجليزية	-----
فرنسية
جمهورية
فرنسية حيشية



مصادر البحث

مصادر البحث

١ - مخطوطات - لم تنشر بعد

دار الكتب المصرية القاهرة :

أ (تاريخ مدينة سنار لكاتب مجهول . تحت رقم ١٨ م - كاتب المخطوطة كما هو مذكور في المتن هو أحمد ابن الحجاج أبو علي - المشهور بكاتب الشونة - وقد كان موظفاً في الديوان العام في الخرطوم .

ب) تاريخ ملوك الفونج والسودان وأقاليمه . تحت رقم ٢٥٤٧ مصورة عن النسخة المحفوظة في المكتبة الاهلية بباريس .

- مخطوطة تاريخ قلاوون .

المكتبة الاهلية - فينا - النمسا :

ج) تاريخ السلطنة السنارية - وهي القسم الاول من مخطوطة تاريخ مدينة سنار ، وقد نقلها أحد الفقهاء في الخرطوم كطلب المبشر اجنازكنوبلخر الذي أودعت باسمه في المكتبة الاهلية في فينا . وتشمل تاريخ السلطنة السنارية حتى نهايتها - وفيها بعض زيادات سقطت من النسخة الموجودة في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٨ م .

المتحف البريطاني - لندره :

د) تاريخ ملوك الفونج - وتنتهي بالفترة التي سبقت حكم دارية غوردون - وقد أودعها غوردون في هذه المكتبة .

ه) نسخة أخرى من (ج) أرسلها غوردون للدايرة السنوية وهي باسم تاريخ مختص بأراضي النوبة ومن ملكها منذ ملوك الفونج .

وثائق نقلها المؤلف من السودان :

انساب الركابية

انساب أولاد جابر

● مخطوطة الشيخ أبو دلق

كتاب مفيد الايمان في بيان من سكن من قريش في أرض السودان .

- تاريخ أربجي .
- خطابات من سلاطين سنار .
- خطاب الوزير الشيخ محمد ابن الوزير الشيخ عدلان .

• منشورة ضمن ملاحق الكتاب .

٢ — مخطوطات منشورة

تاريخ ملوك السودان - وقد نشره الدكتور مكي شبيكة تحت رقم ١ تاريخ من مطبوعات كلية الخرطوم الجامعية .

٣ — مطبوعات عربية

ابراهيم صديق — الطبقات في خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء القاهرة ١٩٣٠ م .

ابراهيم فوزى — السودان بين يدي غوردون وكتشنر القاهرة سنة ١٣١٩ هـ جزءان .

اسماعيل سرهنك باشا — حقائق الاخبار عن دول البحار بولاق مصر سنة ١٣١٢ هـ ابن تغرى بردى — النجوم الزاهرة . دار الكتب المصرية .

ابن حوقل — كتاب صورة الارض . طبع لندن سنة ١٩٣٩ أنظر كرامر

الشاطر بصيلي عبدالجليل — على اطلال مدينة سنار . القاهرة ١٩٣٥ .

د د د د — تاريخ المواصلات في السودان وادى النيل .

جزء أول القاهرة ١٩٥٠ .

سليمان داود منديل — كتاب الطبقات في خصوص الاولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان - الخرطوم ١٩٣٠

شهاب الدين ابن الشيخ احمد بن عبد القادر .

المعروف بعرب فقيه أنظر باسيه Basset, R.

شمس الدين أبو عبد الله محمد دمشقي نخبة الدهر في عجائب البر والبحر . أنظر ميرن .

ضيف الله — أنظر ابراهيم صديق وسليمان داود .

عبد الرحمن زكي يوميات عباس بك . المجلة التاريخية المصرية اكتوبر ١٩٥١
دكتور عبد العزيز عبد المجيد - التربية في السودان في القرن التاسع عشر .
جزءان - القاهرة .

عرب فقيهه — أنظر شهاب الدين بن احمد بن عبد القادر .
عمر محمد علي أتوبيا - القاهرة ١٩٥٤
العمرى ابن فضل الله — كتاب مسالك الأبصار في ممالك الامصار - ترجمة
فرنسية طبع باريس ١٩٢٧ .

أنظر Gaudefrory Demmlynes
الطبرى — أنظر مقال استانلى لين بول
فيليب جلاد — قاموس الادارة والقضاء . الاسكندرية سنة ١٨٩١ م .
دكتور محمد فؤاد شكرى — الحكم المصرى فى السودان القاهرة
المقرىزى — المواعظ والاعتبار نشره فيدت

المعهد الفرنسى للآثار الشرقية .
— الامام بأخبار من أرض الحبشة عن ملوك الاسلام
مطبعة التأليف القاهرة سنة ١٨٩٥ م
محمود طلعت — غرائب الزمان فى فتح السودان .

مطبعة الاسلام بالقاهرة سنة ١٨٩٦ م .
محمود الفبانى — السودان المصرى والانجليز - طبع جريدة الأهرام
مجموعة مقالات نشرت أصلا فى جريدة الأهرام

فعوم شقير - تاريخ السودان القديم والحديث . القاهرة . مطبعة المعارف ١٩٠٤

اليعقوبى - تاريخ نشره هوتسما طبع ليدن سنة ١٨٨٥ م

BOOKS OF REFERENCE

Abbreviated reference	A U T H O R A N D T I T L E
Etiopia I.	Teodosio Somigli De S. Detole, Fr., O.F.M., Biblioteca Bio-Bibliografia della Terra Santa del- Oriente Franciscana, Tome I, Quarachi presso Firenze, 1928.
Etiopia II.	Giovanni Maria Montano, Dr., O.F.M., Biblioteca- Bio- Bibliografia Della Terre Santa Del'Oriente Franciscana, Tome II, Firenze, 1948.
Hill, I.	A Bibliography of the Anglo-Egyptian Sudan up to 1937 Hill, R. L.,
Hill, II.	Hill, R.L., A Biographical Dictionary of the Anglo- Egyptian Sudan, Oxford 1951
Ministere	Documents Diplomatiques Affaires d'Egypte, 1884- 1893 (Ministere des Affaires Etrangere) Paris 1893.
Parliamentary	Parliamentary papers relating to Egypt in Blue books since 1877 onwards.
Stewart	Stewart, C.E., Col., Report on the Egyptian Pro- vinces of the Sudan, Blue Book, London 1883.

PUBLISHED SOURCES IN OTHER THAN ARABIC

Abbreviated
reference

A U T H O R A N D T I T L E

- ابو صالح Abu Salih, trans. by Evetts, Churches and Monasteries of Egypt, Oxford, 1895.
- ادلر Adler, Elkan, Jewish Travellers, Broadway, London, 1931.
- المكف Almkvists, Nubische Studien, Leipzig, 1911
- الفارز Alvarez, F., Ed. by Lord Stanley of Alderley, Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia, Haklajt Society, London, 1881
- امير علي Ameer Ali, Spirit of Islam, London,
- اركل Arkell, A.J., An Outline History of the Sudan, Khartoum, 1945.
- (٢) اركل Arkell; A.J., A History of the Sudan up to 1821 A.D. London, 1955.
- اوليا See Evliya.
- بيكر Baker, Sir Samuel, The Nile Tributaries of Abyssinia London. 1867.
- (٢) بيكر Baker, Sir Samuel, Ismailia, London, 1874.
- باسيه Basset, R., Histoire de la conquête de l'Abyssinie, Chehab El Din Ahmed Ben Abd El Qader. Paris, 1897.
- بكارى Beccari, Rerum Aethiopicarum, Roma, 1904/17.
- بير Beer, G.L., Ed. Gray, B.H, African Questions at the Paris Peace Conference, New York, 1923.
- بيبر Biberfeld, E., Der Reiseb. des David Reubeni, Berlin, 1892.
- بلنت Blunt, W.S., Gordon at Khartoum, second edition, London, 1912.
- بصيلي Bosasley, C., The Greek Influence in the Valley of the Blue Nile, Khartoum, 1945.
- برون Browne, W.G., Travels in Africa, Egypt and Syria, 1797-9, London, 1806.
- بروس Bruce, J., Travels to discover the sources of the Nile, Edinburgh, 1805.
- برون - روليت Brun-Rollet, N., Le Nil Blanc et le Soudan, Cairo, 1855.
- بكل Buckle, G.E., Letters of Queen Victoria, New York, 1926.

- بدج Budge, E.A.W., The Egyptian Sudan, London 1907
- (۲) بدج Budge, E.A.W., The Book of the Saints of the Ethiopian Church, London, 1928.
- (۳) بدج Budge, E.A.W., A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia, London, 1928.
- بورخارد Burchardt, J.L., Travels in Nubia, London, 1819
- بیرتون Burtun, R.F., First Footsteps in East Africa, London 1856.
- کاپو Cailliaud, Fred., Voyage à Meroé au Fleuve Blanc, ou dela dela de Fazoqqi dans le midi da Royaume de Sennar, Paris, 1825.
- تشرشل Churchill, W., River War, London, 1949.
- کوبان Cobban, A., Ambassadors and Secret Missions, London, 1954.
- کونسلمان Conzelman, W.E., Chroniques de Galawdéus, Paris, 1895.
- کروفورد Crawford, O.G.S., The Fung Kingdom of Sennar, Glous., 1951.
- دیسى Dicey, E., England and Egypt, London, 1881.
- (۲) دیسی Dicey, E., The Story of the Khedivate, London, 1902.
- دوان Douin, G., Histoire du Soudan Egyptien, Cairo, 1944.
- دریو Driault, E., La Formation de l'Empire de Mohd Ali (1814-1823), Cairo, 1927.
- الستین Elton, Lord, General Gordon, London, 1954.
- انجملش English, G.B., Narrative of the Expedition to Dongola and Sennaar under the Command of His Excellency Ismail Pasha, Boston, 1823.
- اولیا Evliya, Chelebi, Seyahatnemesi, Misr, Sudan Habesh, 1674-1680. Vol.X, Istanbul, 1938.
- ابن فضل Ibn Fadl Allah Al Omari, Masalik el Absar Fi Mamalik El Amsar, trans. by Gaudefroy Demombynes, Paris, 1927.
- فیلد Field, Henry, The Anthropology of Iraq, Chicago, 1840.
- جودفری See Ibn Fadl Allah el Omari.
- جسی Gessi, R., Seven Years in the Sudan, London, 1892.

- جیبون Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, London, ...
- جلیخن Gleechen, Count, With the Mission to Menelik, London, 1898.
- جرايتز Graetz, H., Gesch. der Judan. Leipzig,
- جریفث Griffith, F. LL., Studies presented to London, 1932
- جون Gwyn, S., and Tuckwell, G.M., The Life of the Right Honourable Sir Charles Dilke, London 1918.
- جراى See Beer.
- هیک Hake, H.E., The Journal of Major-General C. G. Gordon, C.B., at Khartoum London, 1885.
- هرتسلت Hertslet, Sir Edward, see Map of Africa Bytreat 3rd Edition, 1909.
- هنبری See Waddington.
- ابن حوقل See Kramers.
- هومل Hommel, F., Ethnologie, Geog. des alten Orients, Munchen, 1926.
- هوسکن Hoskins, G.A., Travels in Ethiopia above the second Cataract of the Nile, London, 1835.
- ابن جبیر Ibn Jubayr, Travels ed. Goeje, M.J.de, Gibb Memorial Volum V.
- ارون Erwin, Eyles, A series of Adventures in the course of a voyage up the Red Sea on the coasts of Arabia and of a Route through the Deserts of Thebais in the year M.DCC.LZXVII. London, 1780.
- جکسن Jackson, H.C., Tooth of Fire, London 1912.
- جزای Jackson, JAMES GREY, an account of the Empire of Morocco, donda, 1811.
- کامیریر Kammerer, A., Essai sur l'histoire Antique d'Abyssinie Paris. 1926.
- (۲) کامیریر Kammerer, A., Le Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquite, Cairo, 1929
- کرمب Krump, T., Hoher und Fruchtbner translated in the Fung Kingdom of Sennar, by Grawford.
- لاجراقنس Lagercrantz, Stüre, Contribution to the Ethnography of Africa, Upsala, 1950.
- لانقر Langer, W.L., European Alliances and Alignments, 2nd edition, New York, 1950.

- (٢) لانقر Langer, W.L., Diplomacy of Imperialism, 2nd Ed. New York, 1950.
- لبسيوس Lepsius, R., Discoveries in Egypt, Ethiopia and the Peninsula of Sinai in the years 1842-5, London, 1853
- لو Low, Sydney, Egypt in Transition, New York 1914.
- لوكاس Lucas, Sir Charles, The Story of the Empire Vol.II, London. 1924.
- لودلفس Ludolphus, J., A New History of Ethiopia, London, 1684.
- مكميكل MacMichael, H.A., A History of the Arabs in the Sudan, Cambridge, 1922.
- ماجنوس Magnus, Ph., Gladstone, a biography, London, 1954
- ميك Meek; C.K., Tribal Studies in Northern Nigeria, London. 1931.
- (٢) ميك Meek, C.K. Sudanese Kingdom, London.
- ميرن Mehren, A.F., Manuel de la Cosmographie du Moyan Age, traduit de l'Arabe de Shams Ed Din Abu Abou Abdallah Mohd de Damas, 1874.
- مري Murray, G.W., A An English-Nubian Comparative Dictionary Harvard African Studies Vol. IV. Oxford University Press, 1923.
- (٢) مري Murray; G.W., Sons of Ishmael; London.
- مفضل Moufazzal Ibn Abil Fazail, Histoire des Sultans Mamloukes, Texte Arabe publié et traduit en Français par Blochet, E., Patr. Or. T. XII.
- نكس Nicholls, W., The Shayikiya, Dublin, 1913.
- اوروالدز Ohrwalder, J., Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp, English edition by Wingate.
- العمرى See Ibn Fadl Allah and Gaudefroy-Demmombynes.
- بادمور Padmore, G., Africa Britain's Third Empire, London, 1949.
- بالمر Palmer, Sir Richmond, The Bornu Sahara and the Sudan, London, 1936
- بول Paul, A., The Beja Tribes, London, 1954
- برهام Perham; Margery, Native Administration in Nigeria, London.
- بيريك Petherick, John, Egypt, the Soudan and Central Africa, London, 1861.

- بونسیه Poncet, Jaques, The Red Sea and adjacent countries at the close of the Seventeenth Century, Hakluyt Society London, 1949.
- رنل Rennell Rodd, Social and Diplomatic Memories, 1884-91 London, 1923.
- ری Rey, C.F., In the Country of the Blue Nile, London 1927.
- (۲) ری Rey, C.E., The Romance of the Portuguese in Abyssinia London, 1929.
- روز Rose, J.H., Life of Napoleon, London 1913.
- روسینی Rossini, C.C., Storia d'Etiopia, Milan, 1928.
- روبل Rüppel, E., Reisin in Nubein, Kordofan und dem feträischen Arabien, 1829.
- روسل Russell, Henry, The Ruin of the Soudan, London, 1892.
- سولت Salt, H., H., A Voyage to Abyssinia, London 1814.
- سلیمان Seligman and Brenda, Z., Pagan Tribes of the Nilotic Sudan, 1932
- شیدیکه Shebeika, M., The British Policy in the Sudan, 1882-1902, London, 1952.
- شکری Shukri, M.F., Khedive Ismail and Slavery in the Sudan, Cairo, 1937.
- سلاطین Slatin, R., Fire and Sword in the Sudan, English edition by Wingate, London, 1896.
- ستانلی Stanley, Lord, see Alvarez.
- سترایشی Strachey, Lord Lytton, Eminent Victorians, London 1949 (Penguin Series Book No. 649)
- تریو Tremaux, P., Rapport sur le voyage au Soudan oriental Paris, 1853.
- (۲) تریو Tremaux, P., Voyage en Ethiopia au Soudan Oriental Paris 1862.
- ترمنجهام Trimmingham, J.S., Islam in the Sudan, London, 1949.
- (۲) ترمنجهام Trimmingham; J.S., Islam in Ethiopia, London, 1952.

- فيلارد Villard, Moneret de, Storia della Nubie Cristiana, Roma, 1938.
- وادنجتون Waddington and Hunbury, B., Journal of a visit to some parts of Ethiopia, London 1822.
- وسترمان Westermann, D., The Shilluk People, Philadelphia, 1912.
- (٢) وسترمان Westermann, D., African Today and Tomorrow, London.
- ونجت Wingate, R., Mahdism and the Egyptian Sudan, London 1891.
- (٢) ونجت Wingate, R., Ten Years Captivity in the Mahdi's Camp by Chrwalder, ed in English. London 1892.
- (٣) ونجت Wingate, R., Fire and Sword in the Sudan, 1879-1895, ed in English, London 1896.
- ولف Woolf, L., Empire and Commerce in Africa, London, 1922.
- ورثام Wortham ; H. E., Gordon an intimate Portrait, London, 1933.
- وايش Wyche, Sir Peter, A Short relation of the river Nile, London, 1669.

Encyclopædia of Islam, Vol.I; Fasc.I. Leiden 1954

Periodicals :

- عباس بك Abbas Bey, Diary of, found with a Dervish who was killed in the battle of Omdurman in 1898. S.N. & R. Vol. XXXII. p.179-196. See Zaki
- اركل Arkell, A.J., King Badi wad No1, granting land, S.N. & R. Vol. XV. p; 248-50.
- (٢) اركل Arkell, A.J., Fung Origins, S.N. & R. Vol. XV. p 201-250
- (٣) اركل Arkell, A.J., More about Fung Origins, S.N. & R. Vol. XXVII, p 87-97.
- (٤) اركل Arkell, A.J., Fung, correspondence, S.N. & R. Vol. XXXIII, p 181-182.
- بلوس Bloss, J.F.E., The Story of Suakin, S.N. & R. Vol. XIX; p 272-300(286-287)

Periodicals (contd.)

- Cerulli, Enrico,
شیرولی Document arabi per la storia dell'Etiopia,
R.Accademia Nazionale dei Lencei,
classe de Scienze morali, momorie,
Vol; II. serie,p 39—101.
- Chataway, J.D.P.,
شتاواى Note on the History of the Fung,
S.N. & R. Vol. XIII, 247—250
- Chataway, J.D.P.,
شتاواى Archaeology in the Souther Sudan,
S.N. & R., Vol. XIII,p 288—91.
- Chataway, J.D.P.,
شتاواى Fung Origins,
S.N. & R. Vol.XVII.p III—117.
- Crawford, O.G.S.,
کروفورد Tagia umm Qerein,
S.N. & R., Vol. XVI. pp333—334
- Crawford, O.G.S.,
کروفورد Lul; « « « « 335—6
- Crowfoot, J.W.,
کروفوت Some Red Sea Ports in the Anglo Egypt-
ian Sudan,
Geographical Journal, May 1911.
- Crowfoot, J.W.,
کروفوت Christian Nubia,
Journal of Egyptian Archaeology, Vol.
XIII. p 141—50.
- Cumming, D.C.,
کنج The History of Kassala and the Province
of Taka,
S.N. & R., Vol.XX.,p 1—45 (4.9)
- Disney, A.W.M,
دیزی The Coronation of the Fung King of
Fazoghli,
S.N. & R., Vol. XXVI.,p 37—42.
- Elles, R.J,
الس The Kingdom of Tegali,
S.N. & R. Vol. XVIII, p 1—35
(10—12)
- Evans-Pritchard, E.E.,
ایفانس برتشارد Ethnological Observations in Dar Fung.
S.N. & R. Vol., XV., 1—61 (57)
- Gray, Sir John,
جرای East Africa and America,
Tanganyika Notes & Records, 1946
- Griffith, F.L.L.,
جریفث Christian Documents from Nubia,
Proceedings of the British Academy,
Vol.XIV. pp 117 ff, 1928.
- Guidi,
جویدی Giom. della Societa Asiatica Italiana
Tomes III

Periodicals (contd.)

- Hebbert, H.E.,
هبرت
El Rih, a Red Sea Island,
S.N. & R., Vol. XVIII, 308
- Henderson, K.D.D.,
هندرسن
Fung Origins,
S.N. & R., Vol. XVIII,p 149—154.
- Henderson, K.D.D.,
هندرسن
Fung Origins,
S.N. & R.,Vol. XXXII,p 174—175
- Henderson; K.D.D.,
هندرسن
Fung Origins,
S.N. & R., Vol. XXXIV,p 315—316.
- Hillelson, S.,
هلسون
David Reubini, an early visitor to Sennar,
S.N. & R., Vol.XVI,p 55—66
- Holt, P.M.
هولت
Mahdiya,
S.N. & R. Vol ;XXXIII,p 182—186.
- Jackson, H.C.,
جکسن
The Nuer of the Upper Nile Province.
S.N. & R. Vol. VI.,p 69—70
- Kirwan, L.P.,
کروان
Note on the Topography of the Christian
Kingdom, Journal of Egyptian
Archaeology, Vol; XXI, p 59-62.
- Lane-Poole, Stauley,
لین بول
The First Mohammedan Treaties with
Christians, Royal Inst. Academy Proceed-
ings Vol. XXIV Part 5 — 1904.
- Madigan, C.T.,
مادجان
A description of some towers in the Red
Sea North of Port Sudan,
S.N. & R., Vol , V. p 78—82.
- Mathew, J.G.,
مائیو
Land Customs and tenure in the Singa
District,
S.N. & R., Vol.IV p 1—19.
- Nadler, L.F.,
نادلر
Tales from the Fung Province,
S.N. & R. Vol. XIV,p 61—86.
- Nadler, L.F.,
نادلر
Fung Origins,
S. N. & R., Vol. XIV.p 61—66.
- Neubauer, A.,
نیوباویر
Anecdota Oxoniensia,
Semitic Series, Vol.I parts 4—6
1895

Periodicals (contd.)

- Owen, T.R.H.,
اون
The Hadendowa,
S.N. & R. Vol. XX. pp 183-200 (185)
- Paul, A.,
بول
Ancient Tombs in Kassala Province,
S.N. & R., Vol. XXXIII, p 54-59.
- Penn, A.E.D.,
پن
Traditional Stories of the Abdullah Tribe,
S.N. & R., Vol. XVII, p 59-82.
- Pumphrey, M.E.C.,
پمفری
Shilluk "Royal Language Convention"
S.N. & R. Vol. XX. p 319.
- Pumphrey, M.E.C.,
پمفری
The Shilluk Tribe,
S.N. & R. Vol XXIV, pp 1-45(12)
- Robertson, J. W.,
روبرٹسن
Fung Origins,
S.N. & R., Vol. XVII, p 260-265.
- Robinson, A.E.,
روبنسن
The Mamlukes in the Sudan,
S.N. & R. Vol. V. p 88-94.
- Robinson, A.E.,
روبنسن
Abu El Kaylik, the King-maker of the
Fung of Sennar,
American Anthropologist, Vol. XXXI.
- Robinson, A.E.,
روبنسن
The Conquest of the Sudan by the Wali
of Egypt,
Journal of African Society,
October and January 1926.
- Robinson, A.E.,
روبنسن
The Fung Drum or Nehas,
S.N. & R., Vol. IV. p 211-212.
- Robinson, A.E.,
روبنسن
Nimr the last king of Shendi,
S.N. & R., Vol VIII, p 105-118.
- Rossini, C.C.,
روسینی
Documents per l'Archaeologie iritrei nella
bassa Valle de Barca,
R. R. A. L., Vol. XII serie V.
Rome, 1903 pp 139-150.
- Sanders, G.E.R,
and Owen, T.R.H.
ساندرز
Note on Ancient village note in Khor Nubt
and Khor Omek with note by Shinnie, P.L.,
S.N. & R. Vol. XXXII, p 326-332

Periodicals (contd.)

- ستیوارت ورتلی
Stuart-Worthley, Montague, E.J. } My Reminiscences of Egypt
Major-General, The Hon. } and the Sudan, S.N. & R.
Vol. XXXIV pages 17-46
and 172-188.
- طوسون Tousson, Prince Omar, La Fin des Mamloukes,
Bullet. Inst. d'Egypte, Vol.15, pp 193 ff.
- وطنسن Watson, C.M., Maor, Trad Prospects with the Sudan,
Journal of Manchester Geographical Society, Vol. 3
7/12, 1887.
- وطنسن Watson, C. M., Lt. Col., Suakin Berber Route to
the Sudan, Journal of Manchester Geographical
Society, Vol.I., 1894.
- ونجت Wingate, F. R., Beseige and Fall of Khartoum,
S.N. & E. Vol. XIII.
- ویلد Wylde, A. D., The Red Sea Trade, Journal of
Manchester Geographical Society, Vol. 3,1887.
- زکی Zaki, Dr. Abdel Rahman, Diary of Abbas Bey in
Egyptian Society for Historical Studies (Arabic).
-

مجموع الدراسات التاريخية السودانية

للمؤلف

بالعربية

- البحث الأول : على اطلال مدينة سناء . القاهرة ١٩٣٥
- » الثاني : الدويلات الاسلامية في السودان وادى النيل . الخرطوم ١٩٤٦
- » الثالث : تاريخ المواصلات في السودان وادى النيل . القاهرة ١٩٥٠
- » الرابع : تاريخ المواصلات في السودان وادى النيل جزء ثان (للتطبع)
- » الخامس : السلطان رابع . ترجمة عن الالمانية للكتاب اوبنهايم ترجمه الى الانجليزية (دكتور سلزك) عربيه وعلق عليه . (للتطبع)
- » السادس : رحلة اوليا شلي في السودان والحديثه بالاشترك مع الاستاذ محمود نفص
- » السابع : معالم تاريخ السودان وادى النيل
- » الثامن : جغرافية السودان مترجمة عن التركية بالاشترك مع الاستاذ محمود نفص

Note No.

1. The Greek Influence in the Valley of the Blue Nile
Khartoum, 1945.
2. The Flight of Sudanese Tribes to a Lebensraum in the
Niger Valley. For Press
3. The Origin of the Sennar Sultanate. For Press
4. Geographical Dictionary of the Valley of the Blue Nile.
For Press

The Mahdi's movement was a natural outcome of the local institutions under the prevailing conditions with Europeans holding key posts in the Sudan Administration and consequent British Occupation in Egypt, the latter event had paved the road for further developments, and rapid changes in the nature of the rise.

This Mahdi's move is discussed in relation with foreign influencing elements, which had over-ridden the divine proclamation of the Mahdi. The foreign activities and their surroundings were responsible in one way or the other for the bloodshed and anarchy that prevailed in the country for about twenty years.

The survey presented in the third book, as outlined above, ends with the discussion of the broad lines of events up to the years of the nineteenth century with particular reference to the imperialistic struggle with its theatres in Ethiopia, East Africa, Uganda, Kenya and Congo State and French West Africa.

With the ending of the survey as such, it is not claimed that the very detailed account of events from within were fully treated but treatment is made on the turning key points in relation to agents from without.

It is hoped that the numberless problems, that are still awaiting study, would interest research workers to proceed with for the advancement of knowledge and to throw light on events which will, no doubt, be of great help in building up a sound and long term policy deeply rooted on facts, whatever these may be, for the promotion in gradual and steady stages and to fit in with the Sudan's share of responsibility in World affairs in general and African problems in particular.

C.B.A.

Cairo, December 1954.

in the maritime and colonial interests that decided this attitude, which had taken the human colour, secreting behind it economic aspects, with the power placed behind the interventionary zeal. The suppression of slavery, as a politically effective force, had undergone successive modifications during the late eighteenth and the whole nineteenth and early twentieth centuries. It was begun with human characteristics in the early eighteenth century, changing to a force of political pressure and ending with its final shape in the economic field. The fundamental basis of slave labour has never been changed, and it worked in parallel lines with the progress of industrialization. It is, therefore, rather difficult while approaching this question, to isolate it, as an historical event, from the successive modifications and from the contemporary events of each decade, which influenced the attitude and nature of the slavery question. An epitome is given, on attached Arabic table, illustrates the developments and the role it played in the international politics and imperialistic expansion.

We are mainly concerned in this study, which is confined to the Nile Valley regions, so our interest in discussing slavery comes within this field with due reference to forces from outside. A survey of Britain's use of this influential weapon, which ended with the Slave Convention of 1877, is given in the text. Contrary to the provisions of this Convention, which was intended to regulate the abolishment of this trade, within a specified period, Gordon and his assistants, who were of inconsistent European origins, have taken drastic measures in fighting this trade with the wide powers conferred upon them, which included Summary Trials with capital punishment and confiscation of property. This attitude had resulted the destruction of the substantial economics and social advantages offered by the new Egyptian administration, which was extended to the Sudan, during the period from 1821 to 1871. The European Lieutenants appointed by Gordon, as being of his own calibre and social standing, were his subordinates, and they followed the policy initiated by him for combating this trade, as it were in its disgraceful, inhumane and painful character, as experienced in the West; Gordon in one way or the other, was wrong in his hypothesis to fight domestic slavery to end the hunting of slaves, ignoring the place of domestic slaves in the social structure of the country; its abolishment needed time for assimilation and reorganisation of labour problems. This attitude had resulted dissatisfaction and serious relapse of the developments achieved; this state of affairs, for which the policy adapted by Gordon is responsible, had given way to the accumulated forces of the ages to revive with ultimate outcome of the emergence of a Saviour who was found in the Mahdi. It is necessary to mention that the policy for combating slavery, was originally framed by the British Government.

authority had ceased to function in its own means; this state was an opportune for the remnants of the Memlukes, who were in the country some years before the extension of Egyptian Administration, to take advantage of this dissatisfaction by agitating and stirring up the factions. This had resulted in the catastrophic end of Ismail, son of Mohd. Ali, and his party at Shendi. This catastrophe is treated in the light of local traditions, tribal rituals, prevailing conditions and other factors with the conclusion that the intrigue was coined by the Memlukes and that Mek Nimr was the scape-goat and victim. The case of Ismail's death at Shendi with his party, was interpreted in different ways to serve purposes other than the truth.

The Administrative system was, however, reframed as a result of experience gained in the first thirty years, when Mohammed Said visited the country and promulgated his four decrees which laid the sound foundation of the new administration with the local chiefs and inhabitants having the full opportunity both in sharing and in handling their affairs. Unfortunately, these decrees were too late to function as planned, owing to the appearance in an effective weight of the imperialistic beliefs and desires which brought the Nile Valley within its orbit. The Great Imperialistic Powers have exercised their respective ways and means for supremacy in the Nile Valley. These powers stood aloof and appeared behind the screen pulling the wires for the requisite chance fit for interference. Britain, one of the great powers struggling with its opponent France, used its pressure on Egypt and on the Porte, for the abolishment of slavery, which was brought before the European and American public opinion in the very inhumane state known to those people, whereas, the treatment of slaves in the orient was in a quite different way than that experienced in the west. The humane treatment in the Moslem country is given in the Islamic teachings. Britain had also used other means to achieve its plans for supremacy, such as the financial crisis of Egypt, to interfere in the affairs of the country landing its troops to crush the Nationalist movement under the pretext of safeguarding the Khedivial throne and many other reasons to meet the problems brought out to end the occupation of Egypt. The state of affairs in Egypt has reflected on the Sudan which had already been, more or less, in an administration of terror for the suppression of slavery instantly.

It is place and duty to take a pause to review the question of slavery and its developments in the international field as an imperialistic and economic weapon. Britain, after having been the leading power that profitted from this trade and had maintained slavery in the vast colonies over seas, had adapted a reverse policy towards slavery and its trade. An explanation of this change is found, among other reasons,

Republic» principles which did not allow for advancement and developments in other phases of activities. No wonder, then, that the Sultanate had caused the country to be torn by the ideological and social conflicts with the decaying chieftainships and restless populace. This state of affairs was a direct result of the reliance on trade and trade only, which was restricted mainly to transit transactions, hence the country failed to produce items for exchange on a reasonable scale. This system received a fatal blow with the appearance in the Red Sea of the Portuguese and Turkish struggle for mastery of this trade route, also with the establishment of trade stations of the African coast by the European powers, who used these centres for the expansion into the interior of the Black Continent; there were also further causes emerging from within with the failure in building up a central authority and modifications of the land tenure and the machinery of oriental feudalism.

In the early years of the nineteenth century, new trends and traits have endangered the country, consequent upon the flight of the remnants of the Memlukes from Egypt in face of the new regime which had brought the Memlukes to an end. The coming of the Memlukes into the Sudan was a serious threat to the interests and welfare of both countries. So a combined effort was made to throw them out of the country and the Egyptian Administration was extended to the Sudan to restore normal conditions, on a progressive scale.

In Book Three, a survey is made of the new Egyptian Administration in which an equilibrium was vested to the Local Chiefs; this administration was the first experiment of its kind embarked upon by Modern Egypt. Actually it was in no way an expansion of exploitation as given by a number of writers. It was an organization to promote local conditions by putting an end to the tribal wars and anarchy, and to prevent foreign influence from gaining foot hold therein. It is admitted that there were mistakes which were normally expected in such an experiment. The new administration, when compared with any other European organisation in Africa, demonstrates great differences, the simplest of which is the local inhabitants of the country of the Sudan were not rejected under colour bar institutions of the Europeans, furthermore they were allowed full participation in the affairs of the country. This was because Egypt had no beliefs and desires in the sister land. The Administrative mistakes were due to the fact that they did not take into consideration, in the first stage, of the institutions and the structure of society and its interrelations, which were inherited with the accumulated forces of all ages and the country was at the time torn by feudal wars. This ignorance had caused dissatisfaction to leap out in the regions where the tribal jealousies found that the chief's

customs which allowed sons of the sisters of the ruler to ascend the throne, and that tradition had allowed the sons of local wives and daughters of the new-comers to seize power hence the Arabs were able to effect gradual modifications in the social organisation with the time going on; taking into consideration the fact that the Arabs were full of zeal for the new faith of Islam and their penetration was continuous for some length of time when the country was in a state of deterioration with social strains in morals and aberration. It was, therefore, possible for the new-comers to take over the chieftainships and throw the ancient dynasties off; it must not be forgotten that the modification caused by the Arabs did not go deep into the social structures of the local societies, but coated the old traditions for a while. The provinces of Dongola or Makura had disappeared in the early years of the fourteenth century, and Alwa followed the same fate two centuries later.

Turning to the study, under review, it discusses in the first book the developments of events and their consequences as a result of culture contacts and reflections on the social structure with conflicts with old traditions and inherited rituals, which were able to revive and retain their vitality and influence conditions. This is very interesting point showing the part played by local wives and the calibre of the character of the new-comers. These points, with others, are of great value with the Sudan now emerging into a wider horizon in the international field. This emergence is throwing more responsibilities on the country, because of the serious position, it occupies in the world strategy.

It is attempted in this study, which is not pretended to be a complete one, to present the broad lines of the turning key points in the history before the rise of the Sennar Sultanate, with a survey of affairs in Ethiopia and Egypt, which have contributed to the transplantation and restoration of a central federated power with its seat at Sennar, on the Blue Nile. A discussion of the arguments relating to the vexed question of the origin of Sennar Dynasty, brings the first book to an end with the conclusion that this Dynasty was originally functioning, in one way or the other, in the region of the south-west corner of Eritrea, through which the thorough-fare linking the Red Sea ports and up country was operating.

The Second book deals with the Sennar Sultanate in its new capital, after flight from the region of Lamul; its relations with the confederated sheikhdoms on the Nile Basin are also dealt with together with the causes that contributed to the Sultanate's progress and decline. The seeds of the decline were sown with the rise of Dynasty because of its organisation and functions which were confined within the «Commercial

had set on march northwards and north-westwards; this point is left for systematic archeological work in that part of the country.

The relations between Egypt and the Sudan, as illustrated by Churchill, in his work «The River war», as resembling a palm-tree, at the top the green and fertile area of the Delta region, spreads the greenful leaves and foliage-the stem with the root of the tree begin to stretch deeply in the Sudan, need be implemented by the fact that although the circuit begins with the flowing of the Nile waters which carries life and fertility to both the Sudan and Egypt, as illustrated in the palm-tree, it does not cease its activity with the discharge of its blessings; but it changes to another energy of inspiring influence which runs back in the form of a multi-pronged torch, diffusing culture and civilisation into the upper regions of the Nile Basin. It, therefore, resembles a magnetic field flowing in one direction with its waters and coming up with the torch of culture. It is no wonder that one finds that events in one country-the Sudan or Egypt-reflects on the other, as proved by historical evidences of various decades.

It is out of the province of the study, now presented, to enter into details of the past historical events of remote ages; and it was found necessary to limit the research to begin with the destruction of the Meroitic kingdom in the middle of the fourth century of our era, when the central power had fallen in decay and the inhabitants set on flight, as a result of the invasion, which was engineered by foreign elements not originating from Aksum, of King «Aezana». The Country of Meroe was deserted and left for the adventurers and new-comers. In this central zone of the Sudan which formed the provinces directly ruled by Meroe, rival chieftainships arose and entered into conflicts with other tribes. The other provinces lying on the southern and northern borders of the Meroitic Kingdom proper i.e. Alwa and Dongola respectively, have, more or less, been attending to their daily life and the inhabitants, who were agriculturists, were not affected by the differences which stormed the chiefs.

The State of internal wars continued in the central zone for almost ten centuries during which decade, Egypt was under the mastery of foreign powers. At the end of this epoch, the Arabs, who conquered Egypt in the seventh century, began, on the rise of the Memluke to power in Egypt, to pour into the country in mass immigrations; because the Memlukes were rivals to the Arab elements. The infiltration was carried in a peaceful and steady manner without serious violance; and through intermarriage of the new-comers with the local inhabitants, the power was transfered to the sons of the Arabs by virtue of the local

INTRODUCTION

The Sudan of the Nile Valley, a vast tract of country of about one million square miles, extends from (approximately) latitude 3° to latitude 22° North i.e. between the Equator and the Tropic of Cancer, through which the river Nile stretches for about 1400 miles; the country, therefore, runs from a lacustrine area to semi-arid regions and this setting exhibits a wide variety in climate and vegetation. These geographical features of the different zones have moulded the variant sizes of economic and social institutions of the relative habitats. The story of tribal struggle and immigrations lies secreted behind this physical setting.

One finds the primitive life in the far south and gradual stages of settled conditions, north thereof, in the open country on the banks of the Nile and its tributaries; and nomadic in the regions lying on both sides of the river and in the highlands of the Red Sea littoral and in Darfur. In the highlands, there are massifs ranging from about 4000 feet to 10000 feet (above sea level).

Taking into consideration, the anomalous place of the Sudan on the Nile Basin, which forms the main artery linking the Mediterranean and the Red Sea with the heart of Africa, the country holds a strategical position, which has given access to impulses from the bordering regions of Africa horn, lake plateau, the Sahara and Egypt; and the country, with such a situation, had rendered a transformation theatre of the impetus of varied stages of civilisations and cultures, the remnants of which are traced in the transition and cradle zones of the Blue Nile Basin and on the banks of the river Nile north of Khartoum, and in refuge pockets and isolated areas which are lying at the remote and inaccessible parts amongst which are the salient lines of Dar Fung and in Tegali Hills, Dar Fertit and Mahas regions; these pockets are worthy of an exhaustive field team research.

The history of the country, particularly the northern part, is tied mainly with that of Egypt since very remote decades of history, and the history of each of the two countries forms an indispensable part of the other for various reasons which include the favourable climatic conditions prevailing in both countries, the waterways of the river Nile, their serious position in the strategy of trade between the main sea routes and the fact that the earlier inhabitants who spread over the banks of the river were, more or less, from one origin interrelated with their economical interest. One theory says that the Blue Nile Basin was the kernel/cradle zone from which or in which the inhabitants of the Valley

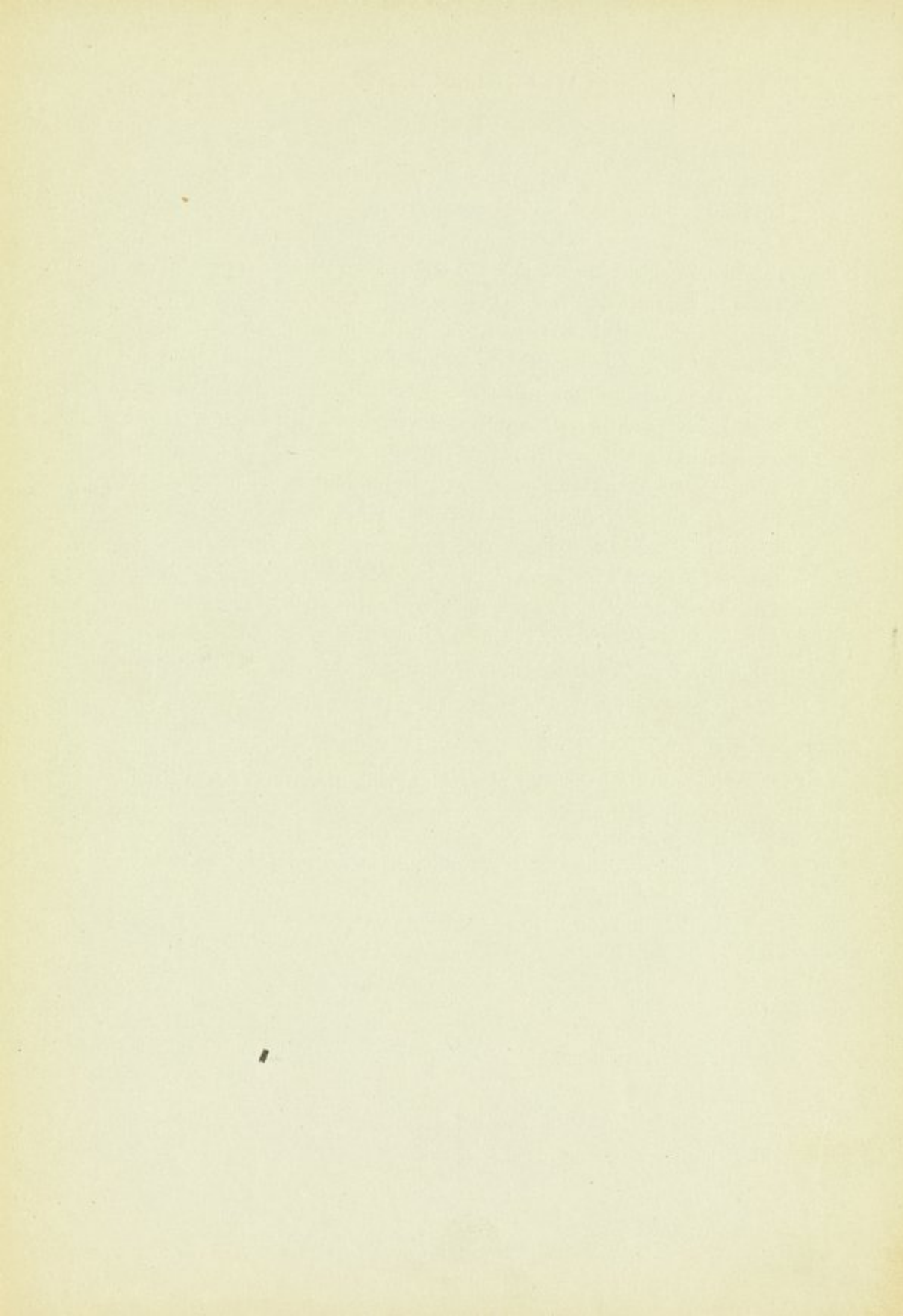
ACKNOWLEDGMENTS

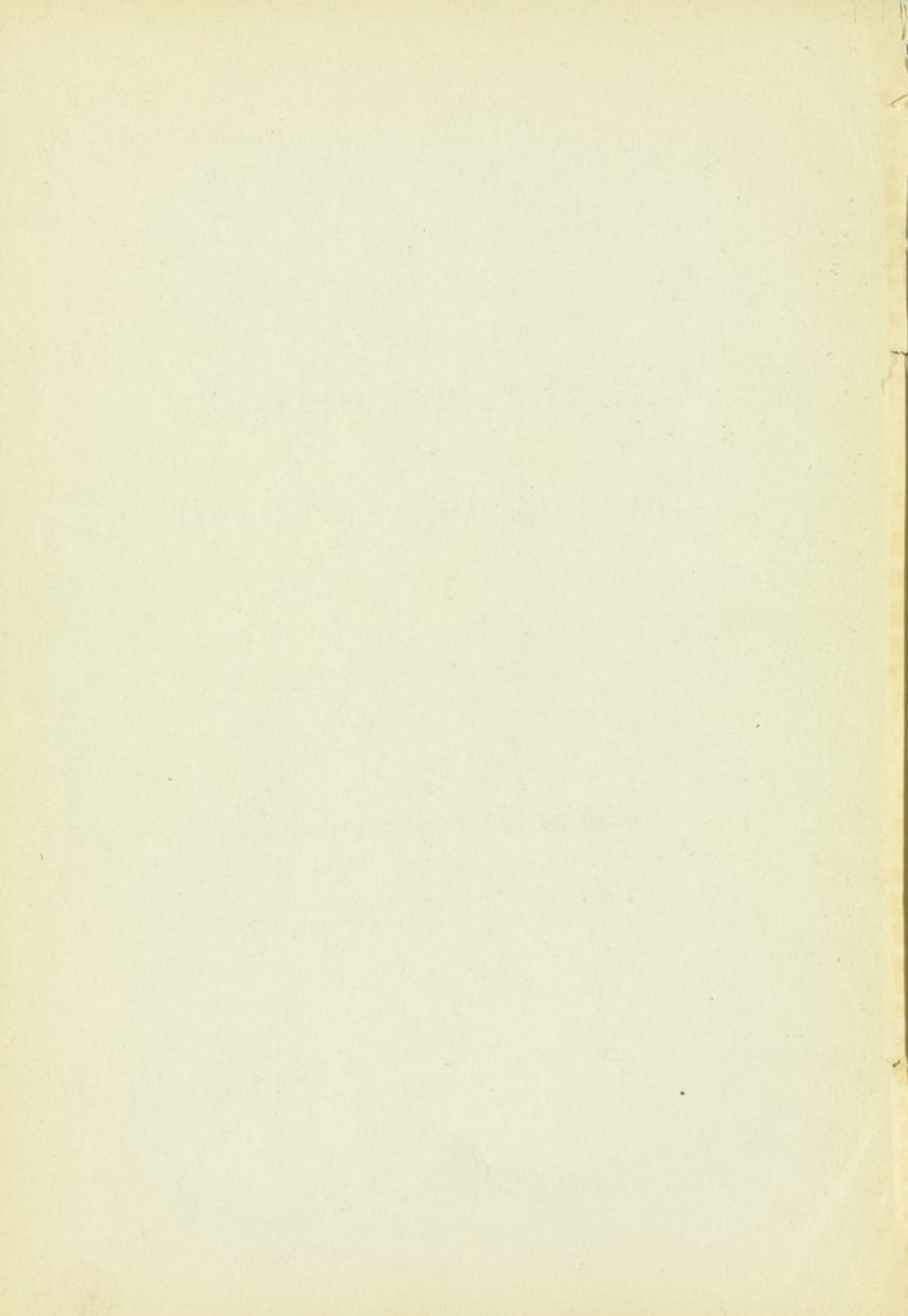
In recognition of the many obligations which were extended to me in various ways and means, I have to place on record my indebtedness to Professor Mohammed Shafik Ghorbal, Dr Mohamed Awad Mohamed, Dr. Selim Hassan, Dr. Sulliman Huzzayin, Dr. Mohammed Mitwali, Fathers Simons and Bombachi, A. J. Arkell Esq., Dr Mohammed Mahmoud Es Sayad, Sayed Salih Khalil, R.L. Hill Esq., Dr. Georgi Sobhy, Sayeds Abdul Fattah Hassan, Abdul Fattah Ibrahim, Ahmed Abdul Salam Kafafi, Dr Mohamed Ahmed Anis, Dr Abdul Magid Abdeen, Abdul Aziz Ismail, Ahmed Eisa and Badr El Deeb for patronage, Dr. Mohammed Foad Shukri for suggestions and criticism which were of great value, Dr. Hassan Osman for encouragement and promoting the work, Sheikh Yousif Ibrahim Baqoy, Sayeds Mohammed Kamil, Dr. Fred. Slezak, Mohammed Abdul Rahim, Sayed Medani Yehya, Hag El Sheikh Omar Daf'allah, Ahmed Mohammed Salih Ez Zahid, Mohammed Ahmed El Gabri, Marion Laburda, Abdul Ghani Sa'oudi, Salah Esh Shamy, Omar Mohd. Ali, Ahmed Mohammed Salama, Abdul Rahman El Faysal Chater, Yousif El Amin Eheimer, late Engineer Taha Salih, late Prof. C. C. Rossini, late Mohammed Salah Ed Din El Baghir and all those who have contributed in one way or the other towards the production of the research.

I also wish to thank Mr. Anis Abu Fadil, proprietor of Abu Fadil Press and his staff for their support in many ways.

It is admitted that there are mistakes in the print, for which my apology is submitted.

C.B.A.





SUDAN HISTORICAL STUDIES

AN OUTLINE HISTORY
OF
THE NILE VALLEY SUDAN

BY

Chater Bosayley A. Galil

LIBRARIAN, INSTITUTE OF SUDANESE STUDIES,
FACULTY OF ARTS, CAIRO UNIVERSITY
(Formerly of Sudan Civil Service, 1919/1951)

ABU FADIL PRESS
CAIRO 1955

DATE DUE

FEB 18 2014

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0057060487

962.4
B96

ON FILM: NAFW 3338985

OCT 8 1958

